دراسات في

تاريخ التفكير واتجاهاته النظرية

في

علم الاجتماع

تأليف
دكتور محمد عاطف غيث
أستاذ علم الاجتماع
جامعة الاسكندرية وجامعة بيروت العربية

١٩٧٥

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

تمهيـــد

تزداد مقدرة الإنسان اليوم ، فى السيطرة على العالم الطبيعى ، ووصل فى هذا الصدد إلى اكتشافات هامة جدا . لا نعرف على وجه التحديد آثارها فى حياة البشر المستقبلة . فالزراعة أول اختراع جوهرى فى تاريخ المجتمع الإنسانى ، وضعت حدا لتنقل الإنسان الدائم وحيرته ونظمت لأول مرة حياته الاجتماعية، وأتاحت له فرصة الإستقرار والفراغ بعض الوقت ، الذى استغـــله فى التفكير ، فأنشأ الحضارات الأولى فى الوديان الخصيبة ، التى انبعث منها التقدم الإنسانى ، فى كل ميادين الحياة . وكان اختراع الكتابة الوسيلة الكبرى التى مكنت الإنسان من حفظ تراثه الثقافى والاجتماعى ، وأتاحت لهذا التراث فرصة التجمع والتراكم على مر الأجيال ، مما مكن الإنسان أن يزيد من سيطرته على العالم الطبيعى وينمى قدرته على الكشف والإختراع .

وباكتشاف القوة المحركة المستقلة عن قوة الإنسان والحيوان ، دخل المجتمع الإنسانى مرحلة جديدة من تطوره ، ظلت تنمو وتغير من طابع الحياة الاجتماعية، حتى اكتشفت الطاقة النووية التى حملت معها نذيرا وبشيرا فى وقت واحد لمجتمع الإنسان . والجهود التى تبذل الآن لمنع تحقق نذرها ، ينظر إليها غالبية البشر فى كل أنحاء العالم اليوم بأمل كبير لتجنب سحق تراث الإنسان .

وقد أحس النـاس فى كل مكان أن فهم البشر أنفسهم لم يحرز تقدما كالتقدم الذى تم فى مجال السيطرة على الطبيعة ، وهذا راجع إلى أن محاولات الإنسان فهم حياته فى المجتمع بدأت متأخرة جدا . ومن أجل هذا يتزايد الاهتمام فى كل

ركن من العالم اليوم بعلوم المجتمع ، وقد أصبح هذا الاهتمام سياسة التعليم وأساس الرعاية الاجتماعية ، عندما تأكد العلماء وقادة المجتمعات أن الاصلاح الاجتماعى لن يحقق فاعليته إلا إذا تم على أساس فهم علمى لبناء المجتمع ووظائفه وعوامل تغيره ، وأن معالجة شئون الحياة الاجتماعية ، يجب أن تستنير بالعلم وتقوم على فهم عميق بنتائج أبحاثه .

وعلم الاجتماع حين يدرس المجتمع ، لا يقف بعيدا عن مشاكله ، لأن كل مشكلة تمثل موضوعا من موضوعاته الأساسية . ولذلك فالذى يتخصص فى علم الاجتماع يتخصص فى فهم المجتمع ومشاكله بالضرورة.وعالم الاجتماع قد لا يشترك بشخصه فى تنفيذ خطة العلاج الاجتماعى ، إلا أن أبحاثه يجب أن تكون القاعدة التى ينبعث منها كل تفكير علاجى ، لأنها تقوم على النظرة المتكاملة لحقائق الحياة الاجتماعية ، والتساند الضرورى بين أجزاء المجتمع فى واقع الأمر .

إن عمر علم الاجتماع لا يتجاوز مائة عام على الرغم من التاريخ الطويل للانسان الذى انقضى قبل أن يظهر . وذكاؤنا - بقدر ما نعلم - لا يزيد على ذكاء أقراننا فى المجتمعات السابقة ، وليست هناك علامات أو دلائل تشير إلى أن زماننا يتميز بظهور عبقريات مفاجئة تختلف عن عبقريات الأزمان الماضية . وكل ما لدينا أكثر مما كان لدى المجتمعات القديمة ، أن ثقافتنا أوسع مدى لأنها الآن فى قمة تراكمها عن طريق العناصر التى أضافها البشر اليها منذ أن ظهر النوع الانسانى على هذه الأرض(١) . وقد يكون من حسن الاجابة أن نغفل تساؤل البعض عن السبب الذى من أجله لم يظهر علم الاجتماع قبل ذلك لأن مثل هذا التساؤل لا يخص

1 - Don Martindale, The Nature and Types of Sociological Theory London; 1961. p. 2.

علم الإجتماع وحده بقدر ما يخص كل العلوم التى توالى انفصالها فى تاريخ الفكر الإنسانى عن الفلسفة كمعارف موضوعية محددة كالعلوم الطبيعية والبيولوجية وغيرها. فالظروف الثقافية المتطورة إتساعا وإتساع نطاق العمران الإنسانى على الأرض فرض على الإنسان منهجيا الإنتقـــال من القياس إلى الإستقراء ومن التعميم إلى التخصيص دون مساس بالعود الضرورى إلى الكليات أو العموميات لضمان فهم أكمل للعالم الذى نعيش فيه . فالمعرفة الإنسانية وحدة متكاملة ، وتجزيؤها ضرورة ثقافية ملحة ، ولكن الإبقاء على التجزئة والإمعان فى التمييز بعثرة للعقل الإنسانى وخلقاً لمشاكل سوء الفهم وقصر النظر إلى جانب التحيز والضلالة ، الأمر الذى يعانى منه المجتمع الإنسانى اليوم إذن فعلم الاجتماع - فى واقع الأمر - ليس حادثا منعزلا فى تاريخ الفكر الإنسانى ، كما أنه ليس إختراع فرد أو أكثر ، لأنه يمثل نشاطا مستمرا . وتراثا ثقافيا أصيلا .

اتجاهات التفكير الاجتماعى قبل قيام علم الاجتماع

(أولا) يجمع مؤرخو التفكير الاجتماعى على أن التفكير الصينى والفلسفية الاجتماعية عندهم تمثل أقدم تفكير منظم عن المجتمع قبل عصر سقراط . ويمكن أن نلخص خصائص التفكير فى الشرق القديم من وجهة النظر السوسيولوجية فيما يلى :

(ا) لم يكن ذا طابع منظم ، وغير نابع عن دراسة مقصودة لذاتها ، وإنما كان صدى للظروف الاجتماعية والحكمة السائدة . ولهذا يعبر عن الفرد أكثر مما يعبر عن الجماعة .

(ب) كان فرديا فى طابعه يعكس التجربة الشخصية ، وإن كان فى بعض الأحيان يعكس مشاعر أو سلوك طبقة بعينها . وخاصة تلك التي ينتمي اليها الكاتب

(ج) أغلب أجزاء النظرية الاجتماعية تدور حول الأهداف النفعية العاجلة، ولذلك زخر مثل هذا النوع من التفكير بالنصائح وبيان طرق النجاح فى الحياة ومعاملة الناس .

(د) كان أسلوب الكتابة مليئا بالجمل الخطابية ، مشحونا بالعاطفة ، يميل إلى التحيز وذلك من حيث الاتجاه والمضمون .

(ه) وقد انتظمت جميع الكتابات تقريبا النزعة المحافظة ، أو بمعنى آخر غابت عن المفكرين معانى التقدم الاجتماعى أو التغير ، كما أن التفسير الاجتماعى كان يدور فى حلقة مفرغة قاعدتها القوى التى لا سبيل إلى السيطرة البشرية عليها ، أى أن العلية الاجتماعية كانت فى جانب سبب واحد هو « القوة الخارقة » .

(و) لم يستطع المفكرون أن يدركوا نتائج صراع القوى الاجتماعية ، ووقوف بعضها موقف المتسلط على بقية أعضاء المجتمع وأثر ذلك على طابع التنظيم الاجتماعى .

(ثانيا) وقد انتقل تفكير الانسان فى المجتمع نقلة أساسية بظهور الفلسفة اليونانية ولذلك يعتبر التفكير اليونانى فى المجتمع أول تفكير منظم ، لأنه كان جزءاً من إطار المذاهب الفلسفية الكبرى التى أرست قواعد المعرفة الإنسانية فى كل نواحيها . وقد كان هذا التفكير غنيا وعميقا إلى الدرجة التى رسم معها الخطوط وحدد المعالم التى لا زال الفكر الاجتماعى - بصورة ما - يترسمها حتى اليوم. وقد انطوت كتابات اليونان عن أصالة وعمق ومنطق لم يسبقوا إليه . ولكننا لانستطيع أن ننسب أصالة الفكر الاجتماعى هذا إلى البيئة الاجتماعية وحدها على الرغم من أن أثرها على اتجاهه وما اتخذه من صور لا يمكن إنكاره . فلم تكن هناك دولة

تجمع فى نظامها السياسى الموحد جميع الشعوب المتنافرة التى كانت تعيش فى اليونان وقتئذ الأمر الذى أدى إلى قيام النزعات القبلية والتى أثرت إلى حد كبير فى تفكير اليونان عن ظواهر الحياة الاجتماعية . ولما كان التنظيم الاجتماعى عند اليونان قائما على أساس وحدة المدينة ، فقد أدى ذلك إلى تشابه أبناء المدينة الواحدة مما أفسح الطريق أمام النظريات اليوتوبية التى ميزت أعمال أفلاطون بوجه خاص .

ولعل أهم ما فى أعمال أفلاطون بالنسبة لتاريخ علم الاجتماع هو القوانين Laws فقد سبق التطوريين فى القرن التاسع عشر عندما تحدث عن طبيعة التطور الاجتماعى وعن الزمن الذى يستغرقه ليبلغ مداه . وعلى العكس من المفكرين الاجتماعيين الذين سبقوه ، حاول أفلاطون أن يفهم المجتمع وأن يحلله كوحدة أى أنه بالمفهوم الحديث لعلم الاجتماع كان ينظر إلى المجتمع ككل تترابط أجزاؤه لتكون كلا متساندا .

أما أرسطو فقد كان أكثر مفكرى اليونان أثرا فى الفلسفة الاجتماعية ويرجع ذلك إلى عمق تفكيره ونظرته النافذة إلى ما يسمى الآن بالعمليات الاجتماعية الاطرادية ، ونظرا لسيطرة تفكير أرسطو على أفكار العصور الوسطى فقد كان له قصب السبق على أفلاطون خصوصا فى بحثه عن أسس العلاقات السياسية والاجتماعية. ففى المحل الأول يعتبر كتابه «السياسة» politics مدخلا إلى حد ما لدراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق المنهج الاستقرائى Inductive method بينما كان أفلاطون معتمدا كلية فى تحليله الاجتماعى على المنهج القياسى Deductive method وأهم من هذا كله ما قرره ارسطو فى كثير من كتاباته من أن الانسان حيوان اجتماعى أو كائن اجتماعى Social Being وقد استمد ارسطو من هذه القضية ضرورة وجود العلاقات الاجتماعية ليمكن للشخصية أن تنمو وأن تتخذ الطابع الانسانى

كما أشار إلى شذوذ الشخصية التى تتجه اتجاها غير اجتماعى . وقد فشل افلاطون فى إدراك أسباب التناقض الاجتماعى والثقافى التى أدت إلى الإنحلال، وكانت اقتراحات الحل غير الواقعية عاملا مميزا له فيما بعد .

وقد كان تفسير أرسطو للتطور الاجتماعى قائما على أساس الغريزة الاجتماعية التى تعتبر امتداداً للطبيعة الإجتماعية للانسان. وفى هذا الصدد يعتبر أرسطو أكثر واقعية من أفلاطون الذى تبنى التفسير الاقتصادى النفعى إلى الحد الذى دعاه إلى رفض ما يسمى بالواقع الانسانى . وعلى الرغم من أن تحليل أرسطو للمجتمع كان محددا وواضحا إلا أنه لا يضاهى أفلاطون فى تحليله المتقن للأساس الاقتصادى الذى يقوم عليه المجتمع .

(ثالثا) كان الرومان مشغلين بالتفكير القانونى والعملى . ولذلك لم يكرسوا جهودهم للتفكير الفلسفى التجريدى . وكل مافعلوه فى هذا الصدد تكييف الفلسفة اليونانية لتناسب ظروفهم أو لتخدمهم فى تطوير القانون والتنظيم السياسى أو بمعنى آخر لم يكن لهم شأن فى خلق نظريات فلسفية جديدة عن الدولة أو المجتمع. ولعل انشغال الرومان بخلق امبراطورية واسعة أتاح لهم الفرصة للاتصال بنظم تشريعية متعددة ومختلفة أو بالمعنى السوسيولوجى كان أمامهم فرصة للاتصال الثقافى بثقافات متعددة الأمر الذى جعلهم يستحدثون نظريات عن أصل القانون وطبيعته .

هذا وقد كانت نظريات الرومان الاجتماعية أساساً هاماً فى الفلسفة الاجتماعية المسيحية التى يمثلها آباء الكنيسة التى يمكن تلخيصها كما يلى[1] .

1 - Barnes. H. E. An Introduction to the history of Sociology, Chicago 1948. p. 14.

(ا) الجنس الإنسانى اجتماعى بالطبيعة . ولهذا كان المجتمع طبيعيا .

(ب) النظم الاجتماعية الحالية ولو أنها تقدم خدمة عظمى للانسان ، إلاأنها لا تقارن بالنظم الموجودة فى المملكة الإلهية .

(حـ) الإصلاح الاجتماعى غير مهم وخير الانسان أن يبحث عن صالحه الحقيقى فى الحياة الآخرة ، لأن إصلاح الحياة الأرضية والظروف المعيشية التى يعيشها الإنسان الآن ليست هدفا ينبغى أن يسعى اليه الفرد فى حياته القصيرة.

(د) الفقير فى العالم الأرضى جزء من العالم الإلهى ، والفقر هنا مرتبط بالصفاء والقرب من الله .

(رابعا) ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) يعتبر ابن خلدون كما يقول هارى بارنس (١) أول كاتب يتعرض لفكرة التقدم ووحدة العمليات الاطرادية الاجتماعية . وأهم ما يميز هذا المفكر هو فصله بين ما سماه بالتاريخ القصصى المملوء بالخرافات والأوهام وبين التاريخ العلمى الذى يقوم على تحرى الحقائق ورفض المسائل التى تتنافى مع طبائع الأشياء وتسلسل الأحداث كما أنه وجد أن الحياة الاجتماعية لا تسير وفق أهواء المؤرخين وإنما تسير على أساس قوانين ثابتة . ونادى لذلك بضرورة قيام علم لدراسة المجتمع سماه « علم العمران » .

والإنسان فى رأى ابن خلدون اجتماعى بطبعه : لأن حاجاته متعددة ومتنوعة ولا يمكن أن تتوفر له إلا بالجهود المشتركة الذى يبذلها الأفراد متعاونين .

---

1 — Ibid, p. 25

. لكن صراع الرغبات يؤدى إلى المنازعات الأمر الذى تصبح معه الحكومة ضرورة ملحة لفرض الاستقرار والنظام. ويعتبر تحليل ابن خلدون للمجتمع البدوى والمجتمع الحضرى من أروع ما كتب فى هذا الموضوع حتى الآن . كما أن تحليله لأثر البيئة الطبيعية على المجتمع لم يساويه فى ذلك إلا بودان ومنتسكيو .

ويعتقد بارنس أن أهم تجديد لابن خلدون هو عرضه المتقن لوحدة واستمرار العمليات التاريخية ، كما أنه توصل الى فكرة المراحل التى تمر فيها المدنية وكشف فى وضوح أن الحضارة فى حالة تغير مستمر مثل حياة الفرد تماما . وأشار بوضوح الى اتحاد العوامل النفسية والبيئية فى عمليات التطور التاريخى ، ويقول بارنس أيضا إن ابن خلدون يعتبر بحق مؤسس فلسفة التاريخ لأنه سبق « فيكو » الذى كان يعد إلى عهد قريب مؤسس هذه الفلسفة بحوالى ثلاثة قرون من الزمان ، ولكن كتاباته فى هذا الموضوع لم تكتشف وتترجم إلى اللغات الأوربية إلا منذ عهد قريب .

ويقول سوروكين [1] (وهو من أكبر علماء الاجتماع المعاصرين) إن ابن خلدون ناقش تقريبا جميع المسائل التى ترد دائما فى موضوعات علم الاجتماع العام وفروعه المختلفة فى ضوء اصطلاحاته عن الحياة البدوية والحياة الحضرية ، وتبدو كثير من آرائه حديثة إذا نظر اليها من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث . ويمكن وضع ابن خلدون جنبا إلى جنب مع افلاطون وأرسطو وفيكو وأوجست كومت على أنه أحد مؤسسى علم الاجتماع . كما أنه فى مجال التاريخ العلمى . يعتبر مؤسس التاريخ العلمى .

---

(1) Sorokin p., Society. Culture and personality. p. 10.

(خامسا) بودان : (١٥٣٠ - ١٥٩٦) كتب ست كتب فى « الجمهورية » بطريقة علمية تختلف عن طريقة ميكافللى العملية وطريقة مور الاخلاقية ويعتبر أول من استخدم نظرية الشروط الطبيعية والجغرافية فى الظواهر الاجتماعية وعالج مشكلة السلطة، وقرر أن العالم فى زمانه يحتاج إلى قوة ملكية ثابتة ، وتعرض فى كتابه الرابع إلى الحكومات فى نشأتها وتطورها وفنائها مع الاشارة إلى الظروف التى تغير من مستقبل الدولة والسياسات الرشيدة والخاطئة التى تنتهجها بعض الحكومات، ويغلب عليه فى بحوثه منهج الاستدلال وان كنا نظن أنه اتبع ما يسمى بالاستدلال الاستقرائى عند معالجة تعميماته التى بناها بناءا تاما . ويوضع بودان فى تاريخ الفكر الاجتماعى فى أول حلقة من سلسلة المفكرين السياسيين التى نستطيع أن نضم اليها هوبز ولوك وفيكو ومنتسكيو .

من كل هذا نتبين كيف سارت محاولات تفسير الحياة الاجتماعية الى النضج ، على الرغم من تأثر كل مفكر من المفكرين السابقين بظروف عصره وبالمذهب الفلسفى الذى يؤمن به ، إلى جانب غلبة نوع معين من التفسير عليه . فبعضهم كان يتجه فى دراسته اتجاها قانونيا والبعض الآخر يتجه اتجاها جغرافيا أو سياسيا أو اقتصاديا . وعلى أى حال فقد أسهمت هذه الكتابات فى تقديم موعد ولادة علم الاجتماع .

ومن أبرز المحاولات التى ظهرت لتفسير الحياة الاجتماعية المحاولة التى عرفت فى تاريخ الفكر الاجتماعى ، بمدرسة العقد الاجتماعى والتى كان من أعلامها فولتير وروسو وهوبز ولوك ، ولسوف اكتفى هنا بالاشارة الى هذه المدرسة

دون عرض آرائها ، لأنها فى الواقع تعتبر محاولة فلسفية يمكن أن نضمها الى محاولات فلسفة التاريخ .

فلسفة التاريخ :

تعد فلسفة التاريخ المحاولة الأخيرة لتفسير الحياة الاجتماعية ، السابقة مباشرة على قيام علم الإجتماع . فقد اتجه كتابها إلى تفسير تطور المجتمع الإنسانى عامة فى مراحل متعاقبة ينتظمها قانون واحد شامل ومع خروج هذه المحاولة على المنهج العلمى كما يظهر من أعمال فيكو وكوندرسيه وغيرهم حتى أوجيست كومت وتوينبى وشبنجلر وسوروكين - بطريقة ما إلا أنها كشفت عن الحاجة الماسة إلى علم لدراسة المجتمع ولنسمه الفيزياء الإجتماعية أو علم الإجتماع كما انتهى إلى هذه التسمية أوجيست كومت .

وفلسفة التاريخ شأنها شأن أى معرفة أو كشف انسانى نتيجة لتطور أو لوقائع معينة أدت اليه نشير اليها فيما يلى :

(أ) المحاولات التى قام بها آباء الكنيسة والكتاب المدرسيون وعلى الأخص القديس أوغسطين . فى تفسير التاريخ على أنه مظهر لفعل العناية الإلهية وتدخلها فى الشئون الإنسانية .

ويقول بعض النقاد - أن « مدينة الله » التى وضعها القديس أوغسطين كان لها أثر كبير فى فلسفة التاريخ وفى الخطوط الرئيسية التى سارت عليها إذ احتذاها الكتاب الذين كتبوا فيها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والمعروف أن فكرة التدبير الإلهى والقضاء والقدر كانت مسيطرة على كتابات المدرسيين جميعا . وكانوا يعتقدون أن الأمور الانسانية تجرى لمستقر لها بتدبير حكيم أعظم .

ومما يسترعى النظر أن نفس الفكرة ولكن فى ثوب آخر غير دينى بالطبع - بقى مميزا لبعض فلسفات التاريخ الحديثة - التى يظن البعض أن ليس هناك ثمة علاقة بينها وبين كتابات المدرسيين وليس معنى عرض الفكرة عرضا جديداً فى ثوب جديد الظن بأنها هى الأخرى جديدة . فلو اعتقدنا ذلك لكنا متجنين على الحقيقة.

(ب) التحول الاجتماعى - تميز العصر الحديث عن العصور السابقة بالتحول السريع الذى لحق جميع النواحى الفكرية والعلمية بل والطبيعية أيضا ، فلم تعد العقائد القديمة ولا التفسيرات البالية كافية لتفسير مثل هذا التحول فكان لابد من قيام علم يبحث هذه المسائل فى ضوء جديد من جهة - ويبحث فى المجتمع الانسانى وتاريخه من جهة أخرى .

وهكذا تهيأت الفرصة المناسبة لفلسفة التاريخ أن تظهر وأن تعمق جذورها. وإذا كان المفكرون الفرنسيون أمثال روسو وكومت قد قاموا بمحاولات من هذا القبيل فان أثرهم ليس كأثر المفكرين الألمان الذين كان لهم النصيب الأول فى هذا الميدان .

والواقع أن أهم دعامة قامت عليها فلسفة التاريخ أو بمعنى آخر أهم الأسباب التى أدت الى قيام هذا الضرب من المعرفة - وهو التحول الذى طرأ على العلاقات الاجتماعية والسياسية والدولية نتيجة للتحول الصناعى وما صحبه من تطورات عميقة تردد صداها فى مختلف أنحاء العالم . فرأى المفكرون نظما تنهار بأكملها أمام أعينهم منفسحة المجال لنظم وتقاليد أخرى جديدة جريئة ما كانوا يتوقعون أن تظهر يوما ما. بل كانت ستظل فى نظرهم أحلاما تداعب الشعراء والفلاسفة . ولمسوا بأنفسهم التأثير

العميق الذى أحدثه هـذا التطور فى عقلية الأفراد والشعوب وأثر ذلك عـلى معتقداتهم وأساليب حياتهم ونظرتهم العامة الى الحياة .

وطبيعى أن كل أزمة تواجه الانسانية أو كل تطور يقلب النظام رأسا على عقب يدعو الى التفكير والتدبير . ولذلك ينهض المفكرون وذوو الفطنة لمحاولة التفسير والتقنين أو بمعنى آخر لمحاولة التبرير وإقامة أساس عقلى منطقى يطمئن اليه . ومن ثم كانت فلسفة التاريخ .

هذا وتحاول فلسفة التاريخ المعاصرة أن تقترب من علم الاجتماع وأن تعتمد فى أكثر دراساتها على أحدث ماوصل اليه العلم فى أبحاثه المختلفة . إلا أنه بالرغم من ذلك فطالما أنها تحاول ان تخضع هذا الخضم الواسع من العلاقات المتشابكة المعقده إلى قانون عام شامل لامدخل للظن ، أو الاحتمال عليه - فإنها ستظل بعيدة عن العلم فاذا ماتخلت عن هذه الصفة فليس من مبرر لوجودها إذ أن علم الاجتماع يقوم بهذه المهمة وقد استقرت مناهجه وأصوله .

الا أنه بالرغم من ذلك فإننى أعتقد أن فلسفة التاريخ لازمة كأحد العناصر المكملة للحركة العقلية بصفة عامة التى تسود فى مجتمع معين والتى تقنع كثيرا من الناس فهى باقية مابقيت الفلسفة . وسأعرض هنا لرأى كل من شبنجلر وسوروكن باعتبارهم يمثلون فلسفة التاريخ المعاصرة . وفى وصفنا سوروكن كفيلسوف تاريخ شىء من التجاوز - ولكنى أدخله هنا لرأى له فى تطور الحضارة أو التاريخ بصفة عامة .

شبنجلر : أحدث كتابه « تدهور الغرب » ضجة كبرى فى ميادين المعرفة جميعا وعلى الأخص فى ميدان فلسفة التاريخ - بل لقد أحيا كتابه هذا فلسفة التاريخ بعد أن كان قد ظن أنها قد ماتت . وتتلخص أهم نظرياته

فى الأمور الآتية :

(ا) ارتضى الفصل بين الحقيقة التاريخية والحقيقـــة الطبيعية كما قال بذلك وندلباند وديكارت ، إلا أنه لم يخف تفضيله للمنهج التاريخى فى معـالجة مسـائل التاريخ. فاذا كان المنهج الطبيعى يصلح خاصة للعلم الطبيعى فانه يقصر عن تفسير التاريخ الإنسانى ، ولذلك فان المنهج التاريخى هو الوحيد الذى يوقفنا على حقائق التاريخ الإنسانى .

(ب) وأهم شيء فى فلسفته نظريته فى الحضارة - فالتاريخ العالمى هو تاريخ بعض المدنيات الكبيرة . والمشـاهد أن كل حضارة كبرى عبارة عن كائن عضوى ينمو ويتدهور ويموت . وكل حضارة كبرى لها خصائصها المميزة إلا أنها جميعا تتفق فى تاريخها العام واتجاهها نحو الفناء .

(ج) والدرجة الأخيرة من تاريخ الحضارة هى المدينة - بأقصى ما يمكن أن يحمله هذا اللفظ من معنى فنى - وهذه تتميز بوجود نوع من سيطرة المراكـــز العليا تعتبر رئيسية فى المدينة .

سوروكن : يرى سوروكن أن الثقافة تتطور فى اتجاه معين لمدة معينـة على نحو مستقيم ثم يحدث أن يتغير الاتجاه وقد يكون التغير على نحو مستقيم أيضا أو ذبذبة أو مطابقا لمنحنى معين ولـكن المهم أن كل تطور يبتدأ لا يلبث إن يصل إلى نهايته ويبدأ تطور جديد وهكذا.

وقد تعود الثقافة فى مجرى هذه التغيرات غير التامة وغير المنتظمة الى بعض الحالات التى كانت عليها سابقا . وبذلك يقترب التطور إلى ما يشبه الدائرة كما هو متوقع فى تاريخ المجتمع الانسانى .

ويمكن تفسير حركة التطور هذه - بالآثار التي يتركها أحد صغار الدجاج في سيره على الرمال - فبالرغم من أنه يستمر في الحركة إلا أنه يغير اتجاهها باستمرار في دوائر غير منتظمة - ولكن الشيء الثابت في حركته أنه بالرغم من استمرار تقدمه إلا أنه لا يتبع طريقة ولا يحافظ على اتجاهه في دقة وتحديد.الخ.

ويرى على أساس الدراسات والأبحاث المستفيضة التي ضمنها كتابة الكبير (١) أن الثقافة وإن كانت لا تسير على نظام أو اتجاه معين أو تتبع خطوطا دائرية فانها تتميز بخاصية دائمة . وهذه الخاصية ترتد في صميمها إلى الروح العامة أو المظهر العام - وتتلخص في أن الثقافة تميل إلى التذبذب في فترات غير منتظمة بين ثلاث نماذج ثقافية كل له أصوله العامة وأسسه الروحية وما يصاحبه من بناء اجتماعي خاص .

١ - الأول هو الثقافة الفكرية . وفيها تدرك الحقيقة على أنها شيء غير محسوس وغير مادي وهذا يؤدي إلى قيام ضرب من الأدب الروحي والموسيقى وإلى قيام حكومة ثيوقراطية ونظام عائلي في التنظيم الاجتماعي واتجاه رمزي تجريدي في الفن .

٢ - الثاني هو الثقافة المادية أو الحسية،وتتميز بأن الحقيقة واقعية تجريبية- ومن ثم فالاتجاه إلى الحكومة الأوليغركية أو إلى الأدب الواقعي والفلسفة الأبيقورية .

ويعتقد سوروكن أن الثقافة الغربية وصلت اليوم إلى أقصى مراحل الثقافة الحسية أو المادية وهي بسبيلها اليوم الى التحول إلى الثقافة الروحية أو المثالية

---

1 — Sorokin, P. A., Social and Cultural Dynamics (4 Vols.) New York, 1937 - 1941.

٣ - الثقافة الروحية أو المثالية - وتتميز بأن الحقيقـــة تتجه نحو المثاليات والايديولجيات سواء كانت ايديولوجيات سياسية أو اقتصادية أو دينيـــة أو اجتماعية أى أن الاتجاه يكون الى الحكومات الديمقراطية والى الفلسفات المثالية الأفلاطونية ويغلب التفكير الروحى على التفكـــير المادى . وتصبح المعرفة عقلية لاتجريبية .

لهـــذا ويختلف سوروكن عن فلاسفة التـاريخ فى موقفه من تفسير التطور الاجتماعى التاريخى بوجه عام فهو :

(أ) لم يقطع برأى محدد جازم فى الاتجاه الذى يتخذه هـــذا التطور ، بل وقف موقفا لا أدريا واكتفى بأن عين الاحتمالات الممكنـة فى هـــذا السبيل.

(ب) وهو بعد ذلك لم يبين تعميماته على أسس افتراضية أوعلى مجرد تجريدات عقلية . بل على أساس الأبحاث العلمية الواقعية التى يقوم بها علم الاجتماع الذى يعد سوروكن من أعلامه فى الوقت الحاضر بصفة عامة .

(ج) حاول جاهـدا أن يعارض التفسير الماركسى للتـاريخ القائم على صراع الطبقات ، ولكنه وقع فى متناقضات عديدة سوف نشير اليها فيما بعد .

فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع :

ومهما يكن من أمر الاتجاهات المختلفـة فى فلسفة التاريـخ فالغـالب أن صفة واحـدة تميزها جميعـاً وهى محاولة ارجاع الحوادث التـاريخيـة جميعها الى عامل واحد أو إلى قانون واحد ، يجمع فى كلماته القصيرة كل تاريـخ الانسانية الحافل - مفسرا كل العـلاقات الإنسانيـة المتشابكة المعقـدة ولا شك أن فى هـذا

غلوا كبيرا . ومع ذلك فقد كانت أبحاث علماء الاجتماع الأول تكاد تقترب من منهج فلاسفة التاريخ هؤلاء . فقد كانت هذه الأبحاث تحاول جاهدة أن تجعل من ظاهرة معينة أو عاملا بعينه الأصل فى كل الظواهر ، وكانت تصدر فى صميمها عن اتجاهين .

١ - رغبة بعض علماء الاجتماع أن يصلوا الى تفسيرات عامة لها شكل التفسيرات الفلسفية ولذلك فأنه يصعب أحيانا أن نفصل دراساتهم عن مجال فلسفة التاريخ. ولكن فلسفة التاريخ طالما أنها لاتدخل فى تفسيرها العوامل المختلفة متمشية فى ذلك مع المنهج العلمى فلن تكون علم اجتماع . وإنما الأصلح أن تظل كما هى نوعا من أنواع المعرفة .

٢ - تأثر بعض علماء الاجتماع بالنزعة الميتافيزيقية فى البحث عن السبب الأول أو جوهر الأشياء ، ولهذا يعد من هذا القبيل كل الأبحاث الاجتماعية التى يفسر التاريخ بالإضافة إلى العامل العنصرى أو الجغرافى أو ما إليها . وإن كانت قد أشارت إلى أثر العوامل الأخرى فبطريقة عرضية ثم تظفر منهم بعناية أو التفات جدير بها . وهم فى هـــذا الاتجاه أيضا كانوا أقرب الى فلسفة التاريخ منهم إلى عـــلم الاجتماع الصحيح اللهم إلا فى بعدهم عن الاصطلاحات الفلسفية . ودقة أبحاثهم وشمولها واحاطتها بموضوع البحث إحاطة علمية نوعا ما .

وأخيرا فان فلسفة التاريخ تعد الآن مرحلة ماقبل علم الاجتماع . أو الأصح أن نعتبرها المحاولة الأولى لإقامة علم الاجتماع . ولكن بعد قيام علم الاجتماع كعلم مستقل له أصوله وطرائقه وموضوعه الخاص به فليس من مبرر اليوم لبعض من لا يزال يفرق بين فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع . شأنهم فى ذلك شأن من لا يزال يناقش انفصال العـــلوم عن الفلسفة محاولا أن يبين أن الفلسفة لاتزال تحتضن العلوم جميعـا .

هذا وقد أصبح علم الاجتماع اليوم من أهم العلوم - وأصبحت العلوم الاجتماعية على الخصوص تتلقى نتائجه وأبحاثه فى عناية وتحاول على ضوئها أن تدعم من دراساتها وتقيمها على أسس أكثر ثباتا ويقينا . فهو فى الحقيقة يسدى خدمة مزدوجة اليها .

١ - ففى الناحية الموضوعية - يزودها بالحقائق والمسلمات التى وصل اليها من استقصائه الشامل ، ويعرض عليها هذه الأمور بما فيها من دقة فى الفهم والبحث .

٢ - وفى الناحية المنهجية ، يزودها بالمناهج العامة التى تصلح للدراسة أو المناهج المناسبة لكل علم من هذه العلوم حتى تكون الدراسة أتم وأوفى .

ملاحظة عامة : إن دراسة المجتمع عند فلاسفة اليونان لم يكن القصد منها الوصول الى معرفة علمية محققة عن ظواهر المجتمع ، وإنما كانت تهدف أساساً إلى المساعدة فى بناء مجتمع مثالى ، فأفلاطون مثلا حاول أن يقدم فى « الجمهورية » نموذجا لمجتمع مثالى يتولى حكمه الفلاسفة ، وشجع تلاميذه أن يقيموا هذا النظام السياسى فى بعض جهات اليونان أو الجزر التابعة لها أما « السياسة » عند أرسطو، فهى فى واقع الامر مرشد أو دليل لرجال الدولة ليدلهم عن أفضل الطرق وأحكمها فى الحكم وفى بناء مجتمع فاضل . ولا يمثل هذان المؤلفان الطابع اليوتوبى للتفكير اليونانى الاجتماعى فحسب ، بل إنهما لم يميزا فى الحقيقة بين دراسة المجتمع ونظمه وبين دراسة الحكومة والنظم السياسية .

ويتميز التفكير الاجتماعى القديم بخصائص ثلاث ضرورية لفهم تطور علم الاجتماع .

١ ـ لقد فشل هذا التفكير فى التمييز بين دراسة الأنساق السياسية وبين دراسة البناءات الاجتماعية .

٢ ـ وأدى الاهتمام الأول والذى كان موجها لخلق مجتمع مثالى ، إلى تعويق الإتجاه الموضوعى لدراسة الظواهر الاجتماعية .

٣ ـ أدى الاهتمام بالبحث عن أصل النظم السياسية والاجتماعية وتحديد مجرى التاريخ إلى تركيز الانتباه الفكرى على الحوادث التاريخية ذات الطابع غير المتكرر ، الأمر الذى أدى إلى الابتعاد عن فحص الأنماط الاجتماعية المتكررة فى الزمان والمكان .

ولا يعنى ذلك أن الفلسفة الاجتماعية القديمة لم يكن لها نظرات نافذة وخلاقة إزاء بعض مسائل الحياة الاجتماعية ولا نستطيع أن ننكر أن التفكير الاجتماعى الذى أتى بعد ذلك ترسم الطريق الذى خططه وسار فيه كبار الفلاسفة القدماء ، ولكن الذى نعلمه أن نمو علم الاجتماع فى الوقت الحاضر يسير فى اتجاه معدل للمسائل الثلاث السابقة : دراسة البناء الاجتماعى ، والنظرة الموضوعية للظواهر الاجتماعية ، والتركيز على الأنماط الاجتماعية ذات الطابع المتكرر (١).

ولعل أهم تجديد جاء بعد الفلسفة الاجتماعية التقليدية هو ما يعرف باسم نظريات العقد الاجتماعى . فلقد سادت فكرة العقد الاجتماعى منذ أن حددها بوضوح خلال القرن السادس عشر توماس هوكر Thomas Hooker ويعتبر كل من توماس هوبز وجون لوك أكبر من يمثل هذا الإتجاه فى التفكير السياسى والاجتماعى . فلقد زعم هوبز أن حالة الطبيعة هى حرب الانسان

---

(1) Bau, P.M, Mooreg, W., Sociclogy, in Hoselit, B. E. A Reader'sguide to the Social Sciences , IL Linois, 1960

ضد أخيه الإنسان ، ولقد دخل الناس فى عقد ليهربوا من هذه الحالة . ولهذا فإن الحكومات مشروعة بسبب هـذا العقد الأصلى ، ومن ثم فوجود الحكومة ليس مرتهنا بموافقة المحكومين . أما لوك فانه يعارض رأى هوبز معارضة جوهرية ، ذلك لأنه يرى أن الإنسان بطبيعته اجتماعى ، وأن حالته الطبيعية هى حالة يسودها السلام . والناس يدخلون العقد الاجتماعى لحماية حقوقهم فى المحل الأول، ولهذا فان موافقة المحكومين شرط أساسى للحكومات الشرعية . وإذا اعتدت الحكومة على العقد الاجتماعى فان الناس يجب أن يخلعوها لأن خلعها يعتبر واجبا وأمرا أخلاقيا معا .

ونحن لانرى فى أقوال هوبز أو لوك أو غيرهما ممن اتجه مثل هـذا الاتجاه غير نوع من الجدل الذى لا يقوم على أساس علمى ، ذلك لأن هدفهم الأصلى إقامة فلسفة سياسية ، ولم يكن تحليل المجتمع فى اعتبارهم ، وعلى هذا يمكن القول ، أن تأثير نظرية العقد الاجتماعى يقع فى المحل الأول فى ميادين الأخلاق والسياسة ومما لاشك فيه أن خلط التفكير السياسى بالتفكير الاجتماعى فى العصر الذى ازدهرت فيه نظرية العقد الاجتماعى وما بعده أدى إلى تعويق نمو التفكير الاجتماعى المستقل فى المجتمع . أو بمعنى آخر لم يتيسر للمجتمع كحقيقة موضوعية أن ينفصل فكريا وموضوعيا عن الدولة ليصبح محل دراسة ويكاد أن يجمع مؤرخوا التفكير الاجتماعى على أن انفصال النظرية السياسية عن النظرية الاجتماعية كان أول علامة على قرب ميلاد علم الاجتماع .

ولا نستطيع فى هـذا المقام أن نزعم أن عبد الرحمن ابن خلدون كان مفكرا فى المجتمع بمعنى أنه درس بناءه أو ظواهره أو أنماطه المتكرره ، لأنه كان مفكر دولة فى المحـل الأول بنفس الطريقة التى فكر بها الفلاسفة الاجتماعيون

فى عصور ما قبل عصر النهضة وما بعدها . ويحسن أن نلاحظ هنـــا أن مقدمته التى نادى فيها بضرورة إنشاء علم العمران إنما كانت اتجاها منهجيا منه فى محاولته الأصيلة ليستعين به فى المحل الأول لفهم التاريخ واعادة كتابته على نحو صحيح . إن اقتران مفاهيم التاريخ والدولة والمجتمع فى مقالة ابن خلدون جملته يحتل مكانا مرموقا من غير شك فى دراسات التاريخ والسياسة وعلم الاجتماع ونحن حين نبرزه من بين مفكرى العرب فانما نفعل ذلك من أجل محاولاته المنهجية وتحليله لنمطى المجتمع القديم الذى عاش فيه وهما النمط الحضرى والنمط البدوى . وإذا كان لنا أن نضعه فى مكان مميز بين المفكرين الكبار فاننا لا نتردد فى وضعه بين الفلاسفة الاجتماعيين . أما أن نحن نحكم عليه فى مناسبات مختلفة بأنه مؤسس التاريخ ومؤسس الاقتصاد ومؤسس السياسة ومؤسس علم الإجتماع ورائد المنهج العلمى فلن يفيد ذلك شيئا فى فهم هذا الرجل أو فى تقدير أعماله .

هذا ويمكننا أن نقول إن القرن التاسع عشر حمل معه بالنسبة لعلم الاجتماع نقطه إلتقاء وافتراق معا بالنسبة للتفكير الاجتماعى العام . فمن حيث الالتقاء شارك العلوم الاجتماعية التى ظهرت قبله فى محاولتها فهم المجتمع ومن حيث الافتراق انفصل عن السياسة لوضوح الفرق بين دراسة الحكومة وبين دراسة المجتمع . ولقد اقترح سان سيمون فى القرن التاسع عشر إقامة علم جديد للدراسة المنظمة للتغيرات فى الظروف الاجتماعية والإقتصادية التى تمخضت عنها الثورة الصناعية والتقدم العلمى ، ولكنه تصور أن مثل هذا العلم الجديد سوف يكتشف القوانين العامة التى ترسم الحركة نحو السعادة الإجتماعية . وهو مثل أفلاطون ولكن بصورة أخرى حين نادى بضرورة وضع مسئولية حكم المجتمع وقيادته فى يد العلماء الاجتماعيين . ولكن

هذه الافكار أخذت اتجاها جديدا وثوبا آخر على يد أوجيست كومت تلميذ سان سيمون .

وفى أبرز ماتمخض عنه القرن التاسع عشر المحاولات الفكرية العديدة التى تصدت لفهم التغير الكبير الذى حدث للمجتمع الأوربى بعد انتشار التصنيع وماترتب عليه من ازدياد حدة التناقضات فى التنظيم الاجتماعى التقليدى والمشاكل الجديدة التى أخذت تبرز ويتسع نطاقها . إن أفكار برودون وسان سيمون وغيرهما تعتبر محاولة جديدة فى هذا القرن لإعادة تصحيح البناء الاجتماعى على أسس اقتصادية للسيطرة على مصير الإنسان.ولكن كتابات كارل ماركس وتفسيره المادى للتاريخ واشاراته القوية والواضحة الى الصراع الطبقى والاستغلال فى المجتمعات التقليدية يمكن اعتبارها نقطة انطلاق جديدة وثورة جارفة لطبيعة التفكير الاجتماعى ، ولإمكان فهم المجتمع وتقدير أبعاد تغيره على أسس مختلفة تماما عما سار فيه علماء الاجتماع الغربيين منذ عهد أوجيست كومت حتى الآن . ولعل تجارب المجتمعات اليوم فى عمليات التغيير الإجتماعى ونتائجها والصعاب التى تواجهها تجعل دراس المجتمع فى حيرة خصوصا إذا لم يكن من المتيسر فهم التوجيه الرأسمالى والاشتراكى للدراسات الاجتماعية :

الفصل الاول

تطور النظرية فى علم الاجتماع

حفل القرن التاسع عشر بالحركات الفكرية المتعددة النواحي والمختلفة المقاصد . وعمقت المذاهب المختلفة فى الفلسفة والأدب والفن جذورها والذى يعنينا هنا أن فلسفة التاريخ التى تعتبر المرحلة الممهدة لظهور علم الاجتماع قد اتجهت فى هذا القرن اتجاهات محددة ، وبدأ الميل الى تفسير حركة المجتمع الإنسانى . والنظر إلى العملية التاريخية نظرة جديدة ، ولذلك يقال أن علم الاجتماع انبثق خلال القرن التاسع عشر كاتجاه عام فى التفكير التفلسفى (١) . وربما كان ذلك صحيحا خصوصا وأن الفلسفة إتجهت فى هذا الوقت إتجاهات تأثرت بظروف العصر وبنتائج العلم الحديث ومناقشاته المتشعبة . إلا أن هناك عوامل كثيرة ساعدت على قيام علم الاجتماع كنوع جديد من المعرفة ضرورى لفهم حياة المجتمع وعلاقاته المتعددة بعد ان تقدمت معرفة الإنسان بعالم الطبيعة . فاذا كان الإنسان يقوم بحركتين إحداهما تجاه العالم الطبيعى والأخرى تجاه ذاته وأقرانه ، فانه يميل دائما الى القيـــام بالحركة الأولى أولا . وقد كان ذلك هو ماحدث فعلا فى تاريخ الفكر الانسانى . فقد شغل الإنسان نفسه طويلا ، ولا زال منشغلا حتى اليوم بكشف أسرار العالم الطبيعية وتفسيرها ، ولكن زيادة السكان وتعقد صلات المجتمعات واتساع نطاق الثقافة خلق موقفا محيرا . وظل هذا الموقف يحير المفكرون ويجتهدون

---

1 - Don Mrrtindale, The Nature and Types of Sociological Theory, London 1961. p. 237

فى تفسيره حتى وصلت قمته تفسيرهم فى شكل المحاولات الفلسفية التى نسميها فلسفة التاريخ .

وقد كان هذا النشاط العقلى دائماً فى الوقت الذى ازدادت ثقة الإنسان بالعلم الطبيعى نظراً للنتائج العلمية الملموسة التى أخذ البشر يشهدونها ويفيدون منها . وعندما ظهرت الحاجة إلى إنشاء علم للمجتمع يكشف أسرار العلاقات الاجتماعية ، كان النموذج العلمى الطبيعى أمام المحاولين يقلدونه ويطبقونه على دراسة المجتمع . فكما أن علماء الطبيعة يصوغون نتائجهم فى قوانين تبين حركة المادة وتفاعلها ، فكذلك الأمر بالنسبة لعلماء المجتمع ، عليهم أن يبحثوا عن القوانين التى تكشف بناء الحياة الاجتماعية ووظائفها . وهذا هو السر الذى نادى من أجله كثير من الباحثين فى المجتمع بتطبيق المنهج العلمى الذى أدى إلى نتائج باهرة فى ميدان الطبيعة والحيوان على علاقات الإنسان . وليس غريبا أن علماء الطليعة ينقسمون أقساما مختلفة فى طريقة تفسير الحياة الاجتماعية . فالظاهرة الإجتماعية إما أنها كائن عضوى يتميز بالحياة فتطبق عليها مناهج العلوم الحيوية واصطلاحاتها ، وإما أنها حادثة تاريخية مستمرة فتطبق عليها مناهج البحث التاريخى والفلسفى ، ولا زال هذا الإنقسام أهم ما يميز الدراسة فى علم الاجتماع حتى الآن وسوف نكتفى هنا بعرض بعض المحاولات الرئيسية لفهم المجتمع وتدعيم عام الاجتماع .

النظرية السوسيولوجية

عندما أخرج سوروكن كتابه عن «النظريات السوسيولوجية المعاصرة» كتب فى مقدمته ، أن الواجب الأول للباحث فى علم الاجتماع أن يعالج

حقائق المجتمع . وهذا فى رأيه أفضل من معالجة « النظريات » وحدهـا . ولـكنه برر إصداره لهذا الـكتاب بأن هناك حاجـــة ماسة إلى كتاب يستعرض النظريات السوسيولوجيـة الرئيسية التى نضجت فى السنين الأخيرة فى أنحاء العـالم المختلفة بطريقـة تعلو فوق مستوى العـرض التـاريخى أو الإقليمى . كما أن الباحث فى علم الإجتماع الآن يتخصص فى موضوع واحد من موضوعاته يوليها عنايته . ويظل منشغلا به فـــترة طويلة قد تستغرق نشاطه العلمى بأكمله ، ومن المناسب لمثل هذا الباحث أن يكون ملما بتطور النظرية واتجاهاتها المتشعبة ، التماسا لمزيد من الدقة والإحاطة والشمول . وهذا بالإضافة إلى أن صناع النظرية فى علم الإجتماع قد تـكاثر عددهم ، وتدفقت النظريات بصورة ينبغى أن نتوقف لتحليلها وتصنيفها وردها إلى أصولهـا التاريخية أو مصادرها الخلاقة ، لنتبين فى نهاية الأمر ما يقوم منها على مغالطة وما يرتد منها إلى أساس سليم نابـع من واقع مدروس .[1]

والواقع أن كلام سوروكن هذا الذى مضى عليه الآن حوالى ٣٥ عاما لا زال يحمل فى ثناياه السبب الذى من أجله صدرت مؤلفات عديدة عن النظرية السوسيولوجية بعد ذلك ، والذى من أجله أتعرض للنظرية فى صدر هذا الـكتاب . وتعرضى لبعض النظريات المعاصرة فى إيجاز كما سيرد فيما بعد ، لا أقصد منه تقديم صورة متـكاملة عن الموقف النظرى فى عـلم الاجتماع – وخاصة فى بلدنا – بقدر ما أقصد منه ، توجيه النظر إلى أهمية معالجـة النظرية وبيان مصادرها واتجاهاتها ، خصوصا فى مؤلفات عـلم الاجتماع

1—Sorokin, P., Contemporary Sociological Theories, N.Y, 1928; PP. XVII XX

وفى الأبحاث المختلفة ذات « الطابع الإجتماعى » التى قد يتضمن تحليلها اتجاهات نظرية متناقضة ومتعارضة كل التعارض . أو تلك الأبحاث التى قد يظن أصحابها أنها انتهت إلى تعديل نظرية أو إضافة جديدة للعلم ، وهى فى الواقع قاصرة وفقيرة فى هذا أو ذاك . وتبدو أهمية جلاء الموقف النظرى فى الدراسات السوسيولوجية إذا تذكرنا الفيض من «البحوث الاجتماعية» التى يضطلع بها الكثيرون « المتخصصون وشبه المتخصصين والهواة » المتعلقون بعلم الاجتماع على علم أو بغير علم ، تلك البحوث التى تصمم وتتم فى سرعة فائقة وتقوم على استمارة أو زيارة » . فاذا تجمعت الاستمارات أو نتائج الزيارات — ولا يهم هنا من يملأ ومن يزور — خضعت « لأحدث الأساليب الإحصائية » فجدولت وفرغت البيانات وحللت بطريقة « الترجمة الفورية » ثم تقدم على أنها بحوث اجتماعية تقع فى نطاق علم الاجتماع . ولهذا سهل « تناول علم الاجتماع « وأصبح موردا لغير المتخصصين ، وهدفا لكل عابر طريق ، ومعبرا لتخطى مطالب الجد والمثابرة فى ميادين أخرى .[١]

معنى النظرية فى علم الاجتماع : إن أهمية النظرية فى دراسات علم الاجتماع أمر ليس موضع جدل ، لأن جميع رواد هذا العلم وأنصار اتجاهاته المختلفة كشفوا عن هذه الحقيقة فى تعميماتهم وفى المنهج الذى انتهجوه فى تفسير حقائق الحياة الاجتماعية . وعندما اتجه علم الاجتماع فى السنوات الأخيرة

---

(١) كتب فى هذه المعانى سوروكن وعرضها مفصلة ومحققة فى كتابه .

Fads and Foibles in modern Sociology; london, 1958

وسوف أعود لاعطاء صورة أكثر تفصيلا لهذا الموضوع عند الحديث عن مناهج البحث فى علم الاجتماع .

إلى جمع الحقائق والاعتماد على الواقـع الاجتماعى فى فحص النظريات المختلفة وفى خلق نظريات جديدة ، أجمع كل الباحثين فى هذا الميدان ، أن البحث دون سند من نظرية أو دون اتجاه إلى نظرية ، ليس إلا نوعامن العبث . وهنا يجب أن نشير إلى حقيقة هامة منذ البداية ، حتى لا يختلط الأمر على طلاب علم الاجتماع ، وهى أن المشككين فى النظرية السوسيولوجيـة أو المقللين من أهميتها أو المتهمين لعلم الاجتماع « بالنظرية » إنما يقيمون دعاواهم على وهم وبطلان ، لأنهم قليلوا المعرفة بالعلم من حيث طبيعتـه ومنهجـه . فالعلم ـ أى علم ـ يقوم على أساس نظرى بالضرورة ويهدف فى نهاية الأمر الى نتائج نظرية .

وهناك اتجاه قوى فى علم الاجتماع الآن يقيم فكرته الأساسية حول عدم امكان الدراسة فى علم الاجتمـاع دون المزج بين النظرية الاجتماعيـة السليمة والدراسة « العملية » للمجتمع . ويذهب أنصار هـذا الاتجـاه الى القول بأن حل مشاكل المجتمع غير ممكن الا فى حالة واحدة ، هى أن يسند الحل دائما اطار دقيق من المفاهيم العلمية ذات الاتجاه النظرى الواضح .(١) ويرجع ذلك الى أن النظرية فى علم الاجتماع مستمدة أصلا من نتائج دراسة « عملية » أجريت فعلا فى الواقع الاجتماعى . وربما كان غموض « النظرية » فى أذهان البعض يرجع الى أنها مرتبطة فى أذهانهم بكل ما هو بعيـد عن الواقع أو الحقيقة ، ولذلك يجب فى دراسات علم الاجتمـاع أن نفرق بين « النظر » الذى يرتبط فلسفيا بأنساق أو مذاهب محددة من الفـكر ، وبين

---

1 — Odum, H. Understading Society. N.Y, 1947. P. 690.

النظرية الواقعية التى تستند فى مقوماتها الأساسية على نتائج أبحـاث منظمة أجريت وطبقت فى مواقف متعددة . ولهـذا كان جدنجز Giddings عالم الإجتماع الأمريكى على حق حين قال إن النظرية التى لا تقبل التطبيق ليست نظرية على الإطلاق .

إن قاعدة البحث فى العلم هى الملاحظة . ويعبر الباحثون عن كل ملاحظة مفردة « بقضية » تنص على أنه فى زمان ومكان معينيين حدثت هذه الظاهرة المعينة ، ولهذا كان الوصول إلى مثل هذه القضية ضروريا بالنسبة لأى علم ، ولـكنه ليس كافيا ، ذلك لأن الملاحظات المفردة يجب أن تتبع نظاما معينا ليمكن مقارنتها لا كـتشاف أوجه الشبه والخلاف بينها ، وليمكن أيضـــا تصنيفها لا كـتشاف النماذج أو الأنماط . وفضلا عن هـذا ليتمكن الباحث من حصر الملاحظات وإخضاعها للمعالجة الإحصائية لا كـتشاف التوزيعـات التـكرارية والتغير النسبى ، وغير ذلك من العمليات التى تسهل الوصول إلى « التعميم » . وإذن فالتعميمات عبارة عن النتائج المتصلة بالأنواع المختلفـة للظواهر وهى لا تشير إلى حقائق فى ذاتها ولـكنها تقوم على حقائق متعددة ، ومن أجل هذا يمكن استخدامها للتنبؤ بحقائق يسهل اكـتشافها عن طريق ملاحظات أخرى . والمعرفة التى تصاغ فى شكل تعميمات أعلى فى مستواها من المعرفة التى تصاغ فى شكل قضايا مفردة . ولا يعنى ذلك أن التعميم أعلى درجات المعرفة ، ذلك لأن تجميع جهود العلماء الذين يعملون ويتخصصون فى ميادين محددة يؤدى إلى تجميع عدد كبير من التعميمات المختلفة . وعند ذلك يشعر العلماء أن الحاجة أصبحت ملحة فى توحيد النتـائج المبعثرة التى وصلوا اليها . ويتم التوحيد عند التمكن من « إقامة نظرية » ومن أجل ذلك كـانت « النظرية أعلى درجات المعرفة »[1] .

1- Timasheff N.S. Sociological Theory;, N.Y. 1955 p. 9.

والنظرية اذن عبارة عن مجموعة من القضايا ينبغى أن تتوفر فيها شروط متعددة من أهمها : أن تكون القضايا مستندة إلى أفكار محددة تماما ، وأن تكون القضايا منسقة الواحدة مع الأخري ، وأن تكون على صورة يمكن أن تستمد منها التعميمات استقرائيا ، وأخيرا ينبغى أن تكون القضايا المكونة للنظرية منتجة وذات فائدة بحيث يمكن أن تقود الباحثين إلى مزيد من الملاحظات والتعميمات لتوسيع نطاق المعرفة [١] .

وهنا نلاحظ أن غالبية علماء الاجتماع اليوم يوافقون على عدد من القضايا متضمنة فى نظرية سوسيولوجية شاملة على الرغم من أنهم قد يصوغون هذه القضايا عينها فى اصطلاحات متباينة . ويقول تيماشيف Timasheff إن اختبار النظريات السوسيولوجية الماضية والحاضرة يثبت أنها دارت حول عدد قليل من المسائل أهمها يمكن التعبير عنه بالأسئلة الآتية : ما المجتمع وما الثقافة ؟ ما الوحدات الأساسية التى يمكن أن تحلل على أساسها الثقافة والمجتمع ؟ ما العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية ؟ ما العوامل التى تحدد حالة المجتمع وحالة الثقافة ، أو التغير فى المجتمع أو الثقافة؟ ما علم الاجتماع وما مناهجه المناسبة ؟ ويقول أيضا إن دراسة نمو النظرية السوسيولوجيه يجب أن يتركز حول الإجابات المختلفة على هذه الأسئلة (٢)

النظرية والبحث : يجب أن نفرق بين الاستخدام العلمى اليوم لكلمة

---

1 — Ibid. p. 10

2 — Ibid., p. 11

« النظرية » وبين المعانى المختلفة التى علقت بها حتى يمكن فهمها على حقيقتها فى ميدان علم الاجتماع ، لأنها ارتبطت فى الاستعمال العادى بالتفكير المجرد ، بما هو (نظرى) يقابل ما هو غير واقعى أو ما هو تصورى بحت . وقد يكون إقتران النظرية بهذه الصفات صحيحاً فى الأيام الأولى لنمو العلوم حين كانت النظريات تصاغ صياغة مكتبية دون العناية بالحقائق الواقعية . ولكن النظرية والملاحظة أصبحتا أكثر ارتباطا كلما زاد تقدم العلم . وينطبق هذا الارتباط على العلوم الطبيعية والبيولوجية أكثر من انطباقه على العلوم الاجتماعية لأن بعض النظريات فى علوم المجتمع لا تزال تنطوى على قدر من التجريد غير المرتبط بالواقع . ولكن الاتجاه الآن فى العلوم الاجتماعية يزداد وضوحا نحو جعل هدف النظرية تلخيص المعرفة القائمة لإمكان تفسير الحقائق والعلاقات والارتباطات وللتنبؤ بمسار الاحداث .

وكلما تقدم علم الإجتماع كلما زاد إرتباط (النظرية) بالملاحظة والبحث . ويزيد إقتناع الباحثين بضرورة هذا الارتباط كلما واجهتهم صعوبات التفسير وربط الاحداث المختلفة فى الواقع الاجتماعى . وأصبح هناك شبه اقتناع بأن النظرية والبحث يجب أن يتقدما على طريق واحد لزيادة نمو المعرفة المختلفة . فالباحث الاجتماعى قد يختار النظرية أو البحث كنقطة إعداد ، ولكنه مضطرا فى لحظة معينة أن يفحص مدى إرتباط النظرية والبحث لتحديد موقفه ودرجة تقدمه فى دراساته ومدى ما فيها من أصالة وصدق . وإذا فضل الباحث ان يركز على البحث الواقعى ، فلابد أن يختبر مدى مناسبة بحثه للنظرية الاجتماعية إذا أراد أن تكون نتائجه ذات دلالة أما إذا كان اهتمامه الأول منصباً على النظرية فحسب ، فلابد أن يكون فى تقديره دائما أن يفحص سلامة نظرياته عن طريق البحث الواقعى ، ليتجنب

الوقوع فى مزالق النظر المجرد أو التصورات غير الواقعية . ويمكن أن نلخص الفكرة السابقة فيما يلى :

١ ـ تزيد النظرية من ثمرة البحث وخصوبته، وذلك عن طريق إمداده بالمسالك الهامة للاستقصاء وربط النتائج الجزئية بالعمليات الاضطرارية التى تكون ذات طبيعة مشابهة ، وتوفير الشرح والتفسير المقنع للعلاقات الملاحظة . وكلما كان البحث موجها عن طريق نظرية متسقة كلما أسهمت نتائجه فى نمو المعرفة وتنظيمها[1] . وتبدو أهمية هذه النقطة إذا نظرنا إلى القصاصات المليئة بالأرقام والجداول والتحليل الساذج لها ، والتى توصف بأنها أبحاث اجتماعية . فهى فضلا عن افتقارها إلى النظرية بالمعنى السابق ، تضرب فى اتجاهات متناقضة ، ولا تكون محصلتها اطاراً مفهوما لأى ظاهرة من ظواهر المجتمع . ولهذا إذا دققنا فى الإطار النظرى للبحوث الإجتماعية، وفتشنا عن الأفكار والمفاهيم المحددة التى تقوم عليها وفحصنا اهدافها الحقيقية فان ذلك لا يعتبر أو تعجيزا، وإنما هو فى واقع الأمر محاوله لإنقاذ الفهم الصحيح للعلاقات الاجتماعية من أن يتردى فى متاهة تؤدى الى تدمير المحاولات المخلصة لمواجهة مشاكل المجتمع .

٢ ـ يؤدى البحث الاجتماعى إلى إعادة فحص النظرية واختبار مدى دقتها ،كما أن أستمرار البحث قد يترتب عليه ظهور نظريات جديدة[2] . وهذا على الرغم من أن عدداً قليلا من النظريات فى ميدان علم الاجتماع هى

1. Selltiz C. anh Others (eds.) Research Methods in Social Relations. N. Y., 1962. pp. 491-492

2 Ibid., p. 492

التى ضوعت للبحث وتعدلت أو تغيرت على هذا الأساس . ومن أجل هذا قد يتم تعديل النظرية عن طريق البحث بطريقة مخططة وقد يحدث ذلك عرضاً . لكن البحث لمجرد (التظاهر العلمى) أو الدعاية فلن يؤدى الى شىء سواء بالنسبة للنظرية أو للبحث ذاته . وتظل نتائج مثل هذه (الدعاوى البحثية) محل شك من العلماء ومن الجمهور على السواء . كما أنها تؤدى الى بلبلة طلاب العلم وانصراف المخططين والمسؤولين عن السياسية الاجتماعية من أخذ مثل هذه الأبحاث مأخذ الجد .

٣ ـ تقوم النظرية الإجتماعية بوظيفتين هامتين : الأولى ، تمكين الباحث من فهم المجتمع فى صورته الكلية . والثانية ، اعطاؤه اطارا للبحث فى مناطق محددة متسقة مع الصورة الكلية التى استمدها من النظرية ولهذا فان الأبحاث التى تجرى تكون ذات صلة نسبية مفهومة بالكل وعلى الرغم من أن عالم الاجتماع يعلم تماما تسلسل الأحداث فى المجتمع وعواملها العلمية؛ فانه يعلم أيضا أن نظريته قد لا تعطيه الاجابة المحددة لما ينبغى عمله لمواجهة موقف معين . ولكن نظريته من جهة اخرى ضرورية لكل من يعمل فى الحقل الاجتماعى متخصصا فى إعادة تنظيم موقف أو مواجهة مشكلة اجتماعية[1] . وإننى أوكد هذا المعنى وأبرزه حتى يستقيم فهم رسالة علم الاجتماع ودوره فى حل مشاكل المجتمع ، لأنه من غير المناسب أن يستقل (المنظمون) أو المتخصصون فى اصلاح المواقف الجزئية فى الحياة الاجتماعية بالبحث لانفسهم ، لأنهم بذلك لن يتقنوا البحث ولن ينصرفوا لرسالتهم الاصلية ، وسيفتقدون دائما النظرة الشاملة للمجتمع ، الضرورية لتوجيه

---

[1] Hum, H., Op. Cit pp. 703-704

الإصلاح أو للوصول بالرعاية الإجتماعية إلى المستوى الذى يحقق الشخصية المتكاملة للسليم والسقيم معاً ويعيد التوازن للبناء الاجتماعى .

شروط النظرية الصالحة لتقدم البحث ونمو المعرفة : وضح حتى الآن أن تقدم علم الاجتماع فى فهم المجتمع يقوم على أساسين : نظرية سليمة صالحة لبناء إطار من المفاهيم تلخص وتربط بين ملاحظات عديدة وتضيف معرفة جديدة تسهم فى الفهم المتكامل للحياة الاجتماعية ، وبحث مستنير وموجه يقوم على الإدراك الواعى بالموقف النظرى . كذلك وضح أن النظرية والبحث لا يمكن فصلهما إلا فصلا موضعياً لأن كليهما يخدم الآخر فى سبيل الغاية العظمى التى يهدف إليها العلم وهى الوصول الى الحقيقة . إن أساليب البحث ووسائله ليست موضع دراسة فى هذا المقام خصوصا وأن علم الاجتماع قد تقدم كثيرا فى اختراع كثير من الأدوات العلميـة التى تعينه على الوصول إلى أقصى قدر من الدقة فى الكشف عن الحقيقة الاجتماعية ، ويرجع ذلك إلى الاهتمام المتزايد بالدراسات التى تحدد طرق البحث الاجتماعى ومدى مناسبتها لمواقف علمية محددة ولكن الجدير بالتحديد هنا هو الشروط التى ينبغى أن تتوافر فى النظرية لتقوم بوظيفتها فى تقدم البحث ونمو المعرفة . ولذلك حاول جون جيلين John Gilin أن يحدد المعالم الأولية المرغوبة فى النظرية العلمية فى مجال العلوم الاجتماعية . بغض النظر عن صورة البناء الذى يمكن أن تظهر عليه هذه النظرية (٢) ويحسن أن نشير الى هذه المعالم أو الشروط فيما يلى :—

---

1 — Odum.H, Op. Cit .PP. 703—704

2 — Gilin.J(ed.—). For a Science of Social Man. New York. 1955 PP. 259

١ ـ ينبغي أن تكون المصطلحات أو الرموز المعبرة عن النظرية واضحة ومحددة تحديدا دقيقا ، ومن أجل هذا ينبغي استبعاد كل المصطلحات التى قد تبدو ساذجه أو غير واضحة . وليست بنا حاجة الى أن نذكر طلاب العلوم الاجتماعية ، أن غموض المصلحات وعدم دقتها وتناقضها قد عوق الطريق فى سبيل الوصول الى التكامل النظرى .

٢ ـ يمكن إثبات العبارات التى تشير الى « الاحتمالات والممكنات النظرية » بطرق متعددة . فمن الناحية المنطقية القياسية الصورية قد تظهر فى صورة ظنون أو دعاوى ويمكن أيضا أن تظهر فى صورة قضايا أو فروض وهكذا . ومهما كانت الصورة التى تظهر بها ، ينبغي أن تكون الممكنات النظرية مرتبطة منطقيا الواحدة بالأخرى ، ومثل هذا الارتباط لا بد أن يكون واضحا بقدر الإمكان ، لأنه يعتبر احتراسا لا غنى عنه من الغموض الذى قد يترتب على العبارات غير المترابطة أو حذف مسائل قد تكون ذات أهمية جوهرية ولعل عدم الاهتمام بالترابط المنطقى للنظرية هو الذى يؤدى الى الاختلاط عند الباحث أو من يسيرون وراءه فى اتجاهه النظري .

٣ ـ ومن فوائد النظرية المتكاملة منطقيا أنها توفر الجهد والوقت . ولهذا ينبغي أن يكون النسق النظرى « بسيطا » كلما أمكن ذلك ، وأن يكون أيضا متسقا مع تحليل المسألة التى يعبر عنها .

٤ ـ إذا رتبت الممكنات النظرية على أى صورة منطقية ، فمن الواجب أن نبحث عن نتائجها أو مشتقاتها المنطقية بطريقة واضحة . ومثل هذه الخطوة تعين الباحث على عدم إغفال أى شيء قد يحمل طابع الأهمية ،

ولكن هذا الشرط قد يكون من الصعب الوصول اليه ولذلك فان كثيراً من الباحثين يكتفون فى هذه الحالة بالاعتماد على « الفرض المناسب » لتوجيه البحث والحصول على النتائج العلمية المطلوبة .

مما تقدم نتبين أن النظرية العلمية يجب أن تكون قابلة للاختبار فى الواقع عن طريق الوقائع التى يمكن الحصول عليها باستخدام الحواس الإنسانية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . ولذلك فان عبارة مثل « أعتقد أن روح الربيع تجعل الحب يتفتح فى القلب الإنسانى » لا يمكن أن تختبر فى الواقع لأول وهلة ، لأن أى فقرة منها ليس لها مقابل فى الواقع يمكن أن يخضع للاستقصاء .

المعالم الرئيسية للنظريات السوسيولوجية المبكرة

فى كتاب عن علم الاجتماع ، ليس من المناسب التفصيل فى معالم النظريات السوسيولوجية لأن أهمية هذا الموضوع كما سبق أن وضح ، يحتاج الى دراسة قائمة بذاتها . وعلى الرغم من فائدتها الكبرى بالنسبة لتقدم علم الاجتماع فى بلدنا ، إلا أننا سنكتفى بعرض أهم الاتجاهات المعاصرة لها فى إيجاز ، وللمستزيد أن يرجع الى الدراسات المتخصصة فى هذا الميدان . كما أننا لن نعرض لنظريات الرواد الأول لعلم الاجتماع فى تفصيل ، وإنما سنعرض لها فى إيجاز شديد كمقدمة لفهم النظرية السوسيولوجية المعاصرة ، لأننا نعتقد أن جذور النظريات المعاصرة تمتد فى نظريات هؤلاء الرواد ، ومن المناسب القاء الضوء عليها ، لتكامل المعرفة .

اولا ـ أوجيست كومت والتفسير الوضعى : تقوم « الفلسفة الوضعية » لكومت على تصور الطبيعة العضوية للمجتمع ونموه المستمر . فالكائن

الاجتماعى ، مثله مثل الفرد ، يتكون من عناصر متمايزة ومتساندة ، وتعمل هذه العناصر معا لهدف مشترك . ولكنها ليست مثل الكائن البيولوجى ثابتة لا تتغير ، بل إنها تتعرض لعدد كبير من التغيرات . وعلى العكس ، من كوندورسيه Condorcet ، وسان سيمون Saint-Simon ، تصور كومت أن التقدم التاريخى يسير خلال مراحل ثلاث . المرحلة الدينية ، والمرحلة الميتافيزيقية أو الفلسفية ، ثم المرحلة العلمية أو الوضعية ، . ويمر الشعور الإنسانى والفعل والعقل فى مراحل تقابل المراحل الثلاث السابقة ، ومعنى ذلك أن لكل مرحلة خصائص معينة تنعكس على الشعور والأفعال التى يقوم بها الناس والطريقة التى يفكرون على أساسها . ويرى كومت أن المشاعر تهيىء القوة الدافعة للتقدم الاجتماعى ، بينما يهىء العقل المبدأ ، الموجه والمرشد .

ومن الناحية المنهجية العامة وضع كومت نظاما متسلسلا للعلوم ، جعل قاعدته الرياضة ثم تسلسلت العلوم بعد ذلك بالترتيب ، الفلك والطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء ، وأخيرا جاء العلم الجديد « علم الاجتماع » فى نهاية السلسلة المتطورة . ويرى كومت ، أنه إذا كان كل علم ضرورى من حيث التسلسل لكل علم يأتى بعده ، فان العلوم التى تأتى بعد علوم أخرى تكون أكثر تعقيدا مما سبقها ولذلك كان علم الاجتماع أكثر العلوم تعقيدا.

هذا وقد ميز كومت علم الاجتماع عن الفلسفة السياسية باصراره على أن الاستقصاءات السوسيولوجية لا بد أن تعتمد على المناهج الوضعية أو الموضوعية فى الملاحظة ، وعلى التجريب والمقارنة المميزة للعلوم الطبيعية . كما أن تطبيق

المعرفة العلمية عن المجتمع جديرة أن تؤدى الى أكبر تقدم فى الميدان الإنسانى ولقد جاهد كومت وكتب كثيرا دفاعا عن الموقف الوضعى بالنسبة لدراسة المجتمع ولذلك أصبحت الوضعية مقترنة بكومت تاريخيا ، إلا أننا نعتقد أن أهم أثر له كان فى حقيقة الأمر « منهجياً » . فعلى الرغم من أنه لم يمارس عملياً ما كان ينادي به لأنه لم يقم بدراسات يستخدم فيها طرق البحث الاجتماعى ، فلا نزاع أنه كان أول من عرف علم الاجتماع « أنه الدراسة الواقعية المنظمة للظواهر الاجتماعية » . كما أنه أول من قسم موضوعاته الى التوازن او الاستقرار الاجتماعى ، والتطور أو الديناميكا الاجتماعية . ويعرف هذان القسمان الآن باسم البناء الاجتماعى والتغير الاجتماعى .

وعلى الرغم من أن كومت حاول أن يحدد كثيرا من الأفكار التى يقوم عليها علم الاجتماع إلا أن العادة قد جرت بين كثير من الباحثين على تقليل وتصغير دوره فى نمو النظرية السوسيولوجية فهو من وجهة نظرهم وضع « قائمة » لموضوعات علم الاجتماع ولم يسن نظرية متكاملة . حقيقة إن كثيرا من الافكار التى اعتنقها كومت كانت قديمة ، إلا أنه له فضل تجميعها وتركيبها ، الأمر الذى أدى الى نمو المعرفة المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية والجماعة والثقافة والبناء الاجتماعى والتغير . كما أن كومت قد تعرض فى كتاباته لكثير من المسائل التى أصبحت أساس الاتجاهات الحديثة فى علم الاجتماع [1] ، وهذا بجانب أنه مهد الطريق لتعريف محدد لعلم الاجتماع وتقسيم سليم لموضوعاته الأساسية .

---

1 - Timasheff, N. : Sociological Theory, N. Y 1955 pp. 27—28

ثانيا - هربرت سبنسر والتطور الحتمى : لقـــد عـارض « الدراونة الاجتماعيون » [1] فكرة كومت التى تذهب إلى أن تطبيق المعرفة العلمية يمكن أن يؤدى الى الإسراع بالتقدم الاجتماعى فقد شاركره فى إدعائه بأن التغير الاجتماعى عبارة عن عملية تطورية . ولكنهم أضافوا الى ذلك ، أن التغير محتوم بقوى لا تنثنى ولا يمكن أن تتعدل بالفعل الإنسانى وكل المحاولات التى تبذل للتأثير فى مجرى « النمو التطورى » لن تؤدى إلا إلى قلقلة التوازن الاجتماعى الموروث الأمر الذى يحدث أسوأ الآثار وكان هـدف العلم الاجتماعى عندهم ، اكتشاف المراحل الحتمية فى التطور الاجتماعى، تمثلين تشارلس داروين فى تتبعه لتطور الأنواع الحيوانية .

ولـكن أكبر من يمثل النظرية التطورية كان - من غير شـك - هربرت سبنسر . فقد كان هو وليس تشارلس داروين الذى اخترع عبـارة « البقاء للأصلح » ليشرح بها القوة الرئيسية التى تـكمن وراء التقدم التطورى . والصراع فى سبيل البقاء داخل المجتمعات أو بينها يؤدى إلى خلق حالة من التوازن الاجتماعى ، لأنه يحل اللاتجانس محل التجانس . فالمجتمعات فى رأيه تتطور من حالة يعمل فيها جميع الناس نفس الأعمال ، إلى حالة يســودها التخصص والتعاون المتبادل . وفى مراحل الصراع الأولى فى سبيل البقـاء تظهر الروح الحربية . والحرب المنظمة تدفع الجماعات الصغيرة المنعـزلة الى الاتحاد مع المجتمعات الـكبيرة التى يسودها السلام وفى وقت ما يؤدى التوازن بين المجتمعات إلى إتاحة الفرصة لاستمرار السلام فترات أطول ، ومن ثم

---

١ — نسبة الى معتنقى نظرية شارلس داروين عن تطور الأنواع الحيوانية وتطبيقها فى الميدان الاجتماعى .

تتهيأ الفرصة لقيام المرحلة الصناعية . وتظل العمليات التطورية مستمرة فى أداء وظائفها فى المجتمعات الصناعية ، ولكن تظهر هناك مستويات أخرى غير القوة البدائية ، تحكم وتهيمن على البقاء للأصلح . لهذا وكان سبنسر يعتقد أن التطور بالمعنى السابق يمكن أن ينتهى إذا أمكن إقامة النظام الأكمل والوصول الى السعادة الكاملة ، وهذا بشرط ألا تتدخل فى قيام هذه الحالة الخيالية « عمليات الانتخاب الطبيعى » .

يقول تيماشيف ، أن أساس النظرية السوسيولوجية عند سبنسر كانت نظريته التطورية ، ولكنه مع ذلك قدم نظرية أخرى لعبت دوراً هاما فى نسق أفكاره ، وهى المقابلة بين المجتمع والكائن الحى [1] ولذلك يضيف بعض الباحثين فى النظرية فى علم الاجتماع هربرت سبنسر ضمن المناصرين للاتجاه العضوى مع أنه « تطورى » فى المحل الأول .

ثالثا ـ كارل ماركس والتفسير المادى : يعـرف كارل ماركس بفلسفته المادية ، ولكن كثيرا من نظرياته لها أهمية سوسيولوجية كبيرة ، وقد أثرت نظرياته هذه ولا زالت تؤثر فى التفكير الاجتماعى والاقتصادى والسياسى حتى اليوم . لقد قبل ماركس فى مبدأ الأمر « جدل » هيجل واقتربت كثيرا فى ماديته التاريخية من تفسير هيجل « المثالى » للتاريخ . وقد آمن ماركس بأن الظروف المادية هى التى تفسر التطور التاريخى ، ومن ثم يمكن دراستها علمياً . وكلما زاد النمو التكنولوجى ينشأ الصراع بين « حالة المعرفة التكنولوجية » وبين التنظيم الاجتماعى التقليدى للاقتصاد . والسبب

---

1 - Timasheff, Op. Cit. p. 35

فى هذا الصراع والصورة التى تعبر عنه : هو الصراع الأساسى على المصالح بين الطبقات الاجتماعية . ولذلك فان الطبقات الحاكمة ، التى تملك وسائل الإنتاج ، تكون قادرة على استغلال الطبقات الأخرى لصالحها ، ومن « واجبها » أن تبقى الأمر على ما هو عليه . ومن ناحية أخرى تكون الطبقات التى تقع على كاهلها نتائج الإستغلال مهتمة بأحداث تغيرات أساسية فى النظام الإجتماعى تضع حداً لاستغلالهم . وإذا وعت تلك الطبقات مصالحها الحقيقية ، فان الثورة تصبح أمرا لا مفر منه ، ومن نتيجة مثل هذه الثورة مزيد من التقدم التكنولوجى الذى لم يكن ممكنا من قبل فى ظل التنظيم الاجتماعى والإقتصادى السابق . ويؤيد ماركس تحلله السابق بقوله . إن كل تقدم تكنولوجى يجعل النظام الرأسمالى عقيما ، وعندما تدرك الطبقة العاملة ، أن مصالحها تتعارض مع مصالح الطبقة الرأسمالية الحاكمة ، فان نتيجة هذا الوعى « الثورة البروليتارية » التى لا مفر منها . ويهمنا هنا أن نبرز العناصر الأساسية فى نظرية ماركس ذات الأهمية البالغة لعلم الاجتماع :

أ ـ قام تحليل ماركس على التركيز على الظروف المادية بدلا من التركيز على القوى الروحية أو المثالية ، ومن أجل ذلك أصبح من اليسير تعريف الظواهر الاجتماعية بطريقة يصبح إخضاعها للدراسة العلمية ممكنا .

(ب) كان تأكيد ماركس ، أن العمليات التاريخية لابد أن تفسر عن طريق العلاقات القائمة بين الجماعات ، أكثر أهمية من الناحية السوسيولوجية ، من الأفكار البيولوجية المتعلقة بالتطور البيولوجى أو البقاء للأصلح .

جـ ـ كان ماركس أول من تعرض ـ فيما نعتقد لما يسميه الآن تولكت بارسونز T. Parsons « النظرية الطوعية أو الاختيارية للفعل

الاجتماعى » ، حين يقرر ، أن الثورة ـ مع أنها لا مفر منها ـ إلا أنها تحدث فقط حين يدفع الناس إلى القيام بها (أى حين يصبحون واعيا طبقيا). ومعنى ذلك أن القوى الاجتماعية الحتمية موجودة ، ولكنها تظهر عند القيام بعمل معين أو التأثير حين تؤثر فى الفعل الارادى أو الاختيارى . وقد صادفت نظريات كارل ماركس معارضة وقبولا من كثيرين ، ولكن اتباع ماركس اجتهدوا فى شرح كل ما غمض من كتاباته ، وخاصة فكرته عن الاتجاه العلمى فى الدراسة الاجتماعية عن طريق التحليل المادى للظواهر الاجتماعية التاريخية . ويقول بعض النقاد الغربيين . إن نظريات كارل ماركس . والماركسية العلمية ليست إلا إيديولوجية اشتراكية تقوم على تصور خاص للصراع [1] ولذلك فهى ـ من وجهة نظرهم لا تمت إلى العلم بصلة. كذلك يتهمه آخرون بأنه كان متحيزا فى تفسيره ، فوقع فى حتمية لا تقرها العلاقات العلية بين الظواهر ، وهذا إلى جانب الغموض الذى ظهر فى عدم تحديد المصطلحات الأساسية تحديدا واضحا [2] .

وأخيرا نحن لا نستطيع أن ننكر أهمية كارل ماركس فى تطور علم الاجتماع فالماركسية محاولة هامة للوصول الى نظرية متكاملة عن بناء المجتمع وتغيره على الرغم من أنها أبرزت عاملا واحدا وجعلته مسؤولا عن كل عمليات التغير الاجتماعى ونتائجه على الحياة الاجتماعية. [3]

---

1 — Don Martindale: The Nature and Types of Sociological Theory. 1960. pp. 158—161

2 — Sorokin, P, Contemporary Sociological Theories, N.Y., 1928: pp. 527—544

3 — Timasheff. Op Cit., p. 48

رابعا – لبلاى ومنهج دراسة الحالة : لقد تأثر لبلاى مثلما تأثر أوجيست كومت من قبله بالآثار التى ترتبت على الثورة الفرنسية . ولذلك حاول أن يفكر فى التفكك الاجتماعى المعاصر واجتهد فى خلق طريقة يمكن بها إعادة التوازن إلى المجتمع ، ولهذا بنى كل دراساته على حقائق مستمدة من الواقع . وقد اهتم لبلاى فى أغلب دراساته « بالطبقة العاملة » وبنى منهجه الرئيسى على الملاحظة الدقيقة للظواهر الاجتماعية فى ضوء اصطلاحات وضعهـا فى إطار موحد . ويقوم هذا الإطار فى أساسه على ما يعرف اليوم « بمنهج دراسة الحالة » ويعتبر اكتشافه لهذا المنهج أحد المبدعات الهامة التى أضافها لبلاى الى المنهجية العامة فى العلم الاجتماعى .

وقد أعترف لبلاى – كما فعل كومت – بأهمية الأسرة وأعتبرها الوحدة الاجتماعية الأساسية . واستخدم « ميزانية الأسرة » كمقياس موضعى لحياة الأسرة، وجعلها قاعدة التحليل الكمى للحقائق الاجتماعية . ويعتقد لبلاى أن أحد الوظائف الرئيسية للأسر توفير مواد المعيشة لأفرادها من خلال العمل الذى تتحدد طبيعته بالمكان أو بالظروف الجغرافية . وقد استطاع لبلاى أن يستخدم طريقة جديدة فى بحثه عن الأسرة ، وهى التى تعرف اليوم باسم « الملاحظة المشاركة » لأنه كان يعتقد أن الملاحظة المنظمة هى الخطوة الأولى نحو الاستقصاء العلمى . هذا وكان لبلاى لا يؤمن بالتطور أو بالتقدم ، أما التغير الاجتماعى فانه يأخذ فى نظره الطابع الدورى .

ويرى سوروكين[1] أن لبلاى « ومدرسته » قد خلدا فى تاريخ علم الاجتماع ،لأنه اكتشف منهجا محدداً لتحليل الحقائق الاجتماعية ، واستطاع

1 - Sorokin. Op. cit., p. 66

أن يصل إلى، نسق سوسيولوجي واضح الى جانب التعميمات الكبيرة التي وصل اليها من دراساته ، كما أنه توصل الى عدة فروض واقتراحات عملية تتعلق بتحسين الأحوال الاجتماعية ، فكان بذلك أحد الرواد الأوائل لعلم الاجتماع التطبيقي .

خامسا ـ ماكس فيبر وموجهات الفعل الاجتماعي : يعتبر ماكس فيبر من أكبر علماء الألمان الذين أسهموا في إنشاء علم الاجتماع وقد اشتهر بدراسته عن الرأسمالية وعلاقتها بالدين . ولذلك فان أغلب دراساته كانت ذات طابع اقتصادي وإن قامت على أسس نفسية اجتماعية . وقد اهتم بدراسة « الفعل الإنساني » وتحديد مجراه وآثاره ومن هذه الزاوية يعتبر ماكس فيبر من الملهمين الأول لنظرية « الفعل الاجتماعي والتحليل البنائي الوظيفي » التي أخذت الآن تجد طريقها كمدرسة واضحة المعالم في علم الاجتماع على يد تولكوت بارسونز ومدرسته .

وقد كان اهتمام فيبر بالاقتصاد بتأثير رد الفعل الذي أحدثته فلسفة هيجل والتحليل المادي للظواهر الاجتماعية الذي ابتدعه كارل ماركس . وفي تفسيره لظهور الرأسمالية قال إن الظروف الاقتصادية والاجتماعية مناسبة لنمو الرأسمالية في بلاد مثل الصين . ولكن الرأسمالية لم تظهر إلا في أوربا . لأن التوجيه الروحي في الصين مثلا لم يكن مناسبا لظهور خصائص الرأسمالية الحديثة . ويعزو ظهور الرأسمالية في أوربا عقب حركات الإصلاح وفي عصر النهضة إلى الطابع الذي تميزت به الأخلاق البروتستنتية .

وواضح أن ماكس فيبر من الناحية المنهجية كان يعارض كارل ماركس بقوله إن الظروف الاقتصادية ليست هي القوة الدافعة في الحياة الإجتماعية ولكن « روح المجتمع » هي التي تسير تلك الحياة . ولم يحاول أن يتصور

هذه الروح كما يتصورها الفلاسفة المثاليون فليست الروح عنده قوة غير طبيعية ، ولكنها تشبه « القيم المشتركة التى توجه وتسود أفراد المجتمع » والتى يمكن تمييزها ودراستها . ومن أجل هذا كانت الخصائص المميزة للشروح السوسيولوجية ، تكمن فى جعل الفهم الحقيقى ، لهذه التوجيهات القيمية المشتركة ممكنا ويصر ماكس فيبر على أن هذه الموجهات القيمية هى أساس سلوك الناس لأنها التى تدفعه الى الظهور . ويقول أيضاً « إنه لا يكفى أن نبرهن على أن ثمة ظروف اجتماعية معينة تؤدى الى تنظيم اقتصادى معين ، بل يجب أن نبرهن أيضاً ، أن هذه الظروف تنبثق عنها موجهات قيمية تدفع الناس إلى سلوك معين بطرق مختلفة يعبر عنها التنظيم الاقتصادى .

ويختلف علم الاجتماع عن العلوم الطبيعية ولكنه يشترك معها فى بعض الخصائص ، إلا أنه يختلف تماما عن التاريخ . فعلم الإجتماع عند ماكس فيبر علم تعميم . ذلك أن كل حادثة تاريخية « فريدة » من حيث هى كذلك ، ولكن علم الاجتماع لا يهتم بالنواحى الفريدة فى الاحداث ، ويفضل أن يعالج هذه الأحداث كأنماط اجتماعية ليتمكن من التعميم . وإذا كان فيبر قد اهتم بدراسة النظم الاقتصادية كنماذج أو كأنماط ، فانه أوضح أن علم الاجتماع لا يدرس أنماطا أو صوراً فحسب ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى دراسة الفعل الاجتماعى ذاته . ولذلك يعرف علم الاجتماع « بأنه علم يحاول أن يصل إلى الفهم البين « المفسر » للفعل الاجتماعى ، من أجل أن يصل الى تفسير « على » لمجراه وآثاره » . وقد حاول فيبر أن يفسر ما يعنيه « بالفعل » محل دراسة علم الاجتماع ، فقال إن الباحث لا يهتم بالفعل إلا إذا كان له معنى ، والمعانى المرتبطة بالفعل يمكن أن تكون من نمطين ، الأول ، المعنى القائم فعلا

المتضمن فى الحالة محل الدراسة ، والثانى المعنى المدرك من الناحية النظرية والذى يمكن أن ننسبه إلى « فاعل فرضى » [1]

إن علم الاجتماع عند ماكس فيبر يختلف عن علم الاجتماع عند كثير غيره من العلماء . فعلى الرغم من أنه لم يعرف المجتمع ، فان هذا التعريف يمكن استخلاصه من كتاباته المختلفة على النحو الآتى « المجتمع مركب من العلاقات الإنسانية المتبادلة ، يتميز بالسلوك ذى المعنى لجمهرة من الأعضاء « أو الذين يقومون بأدوار فى المجتمع » ويعتبر « الفعل الاجتماعى النموذجى » أحد عناصر الاستقصاء السوسيولوجية الرئيسية عند فيبر . ونظرا للطابع الذاتى لعلم الاجتماع عنده فقد أكد دائما أهمية الأفكار فى الحياة الاجتماعية . ويقول تيماشيف [2] أن ماكس فيبر يعتبر واحدا من بين أكبر علماء الاجتماع فى النصف الأول من القرن العشرين للأسباب الآتية :

ا ـ تكشف كتاباته عن أمثلة رائعة فى الدراسة الجادة للمواقف الاجتماعية المحددة والعمليات التى يجب أن تقيم أساس أى نظرية سوسيولوجية سليمة.

ب ـ لقد عاونت كتاباته على توضيح الدور الهام الذى تلعبه القيم فى الحياة الاجتماعية .

جـ ـ أسهم فيبر بشكل واضح فى فهم العملية الاجتماعية وأكد عدم إمكان فصلها عن موضوع « المعنى » فى الشئون الإنسانية .

---

1 - Don Martindale, Op. Cit., p. 385
2 - Timasheff. Op. Cit., p 182

سادسا – اميل دور كايم والحقيقة الاجتماعية : يعتبر دور كايم من أعلام علم الاجتماع الذين كان لهم أثر واضح فى تطور النظرية السوسيولوجية فى فرنسا وفى بلاد العالم المختلفة . ويرجع ذلك إلى أنه أكد فكرة «عمومية علم الاجتماع» كعلم اجتماعى ، وترجم ذلك الى دراسات واقعية منظمة عن الظواهر الاجتماعية فى ضوء المبادىء النظرية التى بدأها فى كتابه الأول «تقسيم العمل الاجتماعى» والواقع أن هذا الكتاب خصص لدراسة «التضامن الاجتماعى» وإن كانت الحقائق التى حاول أن يبرهن بها على نظريته فى ذلك قامت كلها تقريبا حول فحصه الدقيق لتطور تقسيم العمل فى المجتمع ، والنتائج التى ترتبت عليه فى الحياة الاجتماعية عندما ينتقل من صورة لأخرى وقد طور دور كايم نظريته فى علم الاجتماع فى كتابه «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» الذى يعتبر دراسة عن «الظواهر الاجتماعية» حاول فيه أن يحدد موضوع علم الاجتماع وحدود الظاهرة الاجتماعية وطريقة دراستها وبين الوسائل التى تجعل التفسير السوسيولوجى ممكنا . ويمكن تلخيص موقف دور كايم من علم الاجتماع فى النقاط الآتية :

١ – إن من أهم أقوال دور كايم إننا «يجب أن نتناول الحقائق الاجتماعية كأشياء» وقد أثار وصفه هذا للحقيقة الاجتماعية انتقادات كثيرة وخاصة أنه بذلك عبر عن تأثره بالاتجاه الوضعى الذى كان سائدا فى عصره والذي كان ينادى بأن العلوم الاجتماعية يجب أن تستعير مناهج العلوم الطبيعية، كما أن استعمال دور كايم نفسه لكلمة «شىء» لم يكن واضحا(١) . وربما كان ذلك هو الذى أدى إلى القول بأن نظريات دور كايم السوسيولوجية تقوم على مجموعة قليلة من نتائج «الحدس السوسيولوجى» ومع قلة هذه المبادىء

---

1 — Benoit—Smultyan, E., The Sociologism of E. Durkheim in : Barnes (ed) An Intro. to the History of sociology, Chicago, 1954, P. 501

فقد لعبت دورا كبيرا فى إعطاء علم الاجتماع عنده الطابع الخاص الذى يميزه عن غيره .

ب — شرح دوركايم معنى الحقيقة الاجتماعية وحدودها فى كتابة « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » [1] ، بقوله إن الحقائق الاجتماعية ظواهر عامة تميز مجتمعا بأسره ويجب أن نعالجها عند الدراسة كأشياء : مثل القوانين التى تمارس « قهرا » خارجياً على الأفراد والحقائق الاجتماعية ليست أقل موضوعية من الحقائق التى تتناولها العلوم الطبيعية . ولما كان دوركايم قد عرف « بالواقعية الاجتماعية » فقد اعتبر الحقائق الاجتماعية أكثر أولية وأهمية فى نفس الوقت — من حيث هى ظواهر موضوعية — من الحالات النفسية المتغيرة للأفراد . ولقد عدل دوركايم موقفه بعد ذلك عندما أشار إلى أن الحقائق الاجتماعية ليست خارجية بالضرورة للفرد ، بل إنها يمكن أن تتمكن داخله فى صورة « الشعور أو الضمير الجمعى » الذى يعتبر الموجه القيمى العام فى المجتمع .

والحقائق الاجتماعية بهذا المعنى هى التى تكون الميدان الصحيح للدراسة السوسيولوجية ، أو بمعنى آخر هى الظواهر الاجتماعية التى تتميز بممارستها لقوة القهر على الأفراد ، وبعموميتها فى الجماعة . وفى مواضع مختلفة من دراساته عرف الحقيقة الاجتماعية (الظاهرة الاجتماعية) عن طريق تحديد خصائصها المميزة لها عن غيرها من الحقائق ، فهى :

تلقائية : ومعناها أن الظواهر الاجتماعية لم يخلقها فرد ، بل هى موجودة قبل أن يوجد الأفراد . فنحن نولد ونجد أمامنا مجتمعاً كاملا معداً من قبل

---

١ — نقل هذا الكتاب الى العربية الاستاذ الدكتور محمود قاسم بتكليف من وزارة التربية والتعليم

لانستطع أن نغيره إذا أردنا وعلينا أن نخضع لنظمه العامة والخاصة . وقد خاض دور كايم معركة علمية كبرى مع « تارد » خصوصا فى هذه الناحية من نظريته .

وجبرية : ومعناها أن الظواهر الاجتماعية ملزمة للأفراد والجماعات على السواء ، فليس الفرد حراً فى اتباع النظام الاجتماعى أو الخروج عليه . وقد وضع المجتمع الجزاء لكل من ينحرف بسلوكه عما اقتضته طبيعة الحياة الاجتماعية ونظم المجتمع الذى يعيش فيه .

ولها صفة العمومية : ومعناها أن الظواهر الاجتماعية عامة ، لا توجد فى مكان دون آخر ولذلك يمكن أن نطبق مقياس العمومية فى اكتشاف الحقائق الاجتماعية التى يمكن أن ترقى إلى مرتبة الظواهر وبالتالى فان علم الاجتماع لا يهتم إلا بالظواهر ذات الصفة العمومية .

وخارجية : ومعناها أن الظواهر الاجتماعية بما لها من الخواص السابقة مستقلة عن الأفراد . بحيث يمكن ملاحظتها منفصلة عن الحياة الفردية ، أى يمكن دراستها دراسة موضوعية على أنها أشياء . ومن الأدلة على خارجية الظواهر الاجتماعية إمكان تطبيق المنهج الإحصائى فى عدها وقياسها وبيان ذبذباتها .. الخ .

جـ - عالج دور كايم موضوع « التضامن الاجتماعى » فى ضوء دراسته لتقسيم العمل . ولذلك اعتبر تقسيم العمل « متغيرا » وحاول أن يربط أشكاله وصوره المختلفة وأنواعه بالظواهر الاجتماعية الأخرى التى اعتبرها آثارا أو نتائج (وظائف) لهذا النوع من التقسيم أو ذاك [1] . ولقد وافق دور كايم سبنسر والنفعيين فى أن وجها هاما من وجوه التمييز من البدائية إلى

1- Sorokin, Op. Cit., p. 467

التحضر ، يمكن أن نكتشفه من الزيادة فى «مقدار» تقسيم العمل أو التخصص ، ولكنه يرى أن النفعيين أهتموا فى المحل الأول بالجانب الاقتصادى وأبرزوا أهميته فى التطور الاجتماعى ، فى حين يرى هو أن الاختلاف الأساسى بين المجتمعات البدائية والمتحضرة . إنما يكمن فى طابع الأخلاق أو ما سماه « التضامن الإجتماعى » .[1]

ويقول دور كايم ، إن الأفراد فى المجتمع البدائى متجانسون لأن تقسيم العمل هناك فى حالته البسيطة الأولى ، ولذلك يرتبط الأفراد بما سماه « التضامن الآلى » الذى يتميز بخضوع الأفراد لما يمليه الرأى العام والتقاليد . وتكون المسئولية فى مثل هذا المجتمع جمعية ، ويكون المركز الإجتماعى موروثا . أما فى المجتمعات المتحضرة التى ينمو فيها تقسيم العمل ويتطور ، فتكون شخصيات الأفراد متعددة ومتنوعة فى ذات الوقت ، ويرجع ذلك لاختلاف الخبرات والوظائف التى يمرون أو يقومون بها . ومن ثم يرتبط الأفراد فى مثل هذه المجتمعات بتضامن آخر هو « التضامن العضوى » الذى ينجم عن حاجتهم إلى خدمات بعضهم البعض ، ولهذا تكون « الفردية » هى السمة الغالبة .

ويفسر دور كايم السبب الذى من أجله ظهر تقسيم العمل فى المجتمعات الإنسانية بقوله ، إن تقسيم العمل يرجع الى التغيرات التى تحدث فى البناء الإجتماعى نتيجة للزيادة فى الكثافة المادية (والخلقية) . فالزيادة المستمرة فى السكان تزيد من التنافس ، ومن ثم يضطر الأفراد إلى « التخصص » من أجل أن يعيشوا . وهكذا نرى أن دور كايم يضع كل ثقله فى التفسير على

---

1 — Benoit—Smullyan, Op.Cit., P. 506

وقد أخذ عليه النقاد هذا التفسير واعتبروا ذلك خروجا على تأكيداته المستمرة في أن الحقيقة الاجتماعية لا تفسر إلا عن طريق حقيقة اجتماعية أخرى .

د ـ ولقد ترتب على مناقشة دور كايم لتقسيم العمل ولطابع التضامن الآلى والعضوى وخصائص المجتمع فى الحالتين ، أن استنتج أنه فى المجتمعات التى تقوم على التضامن الآلى يكون « الشعور الجمعى » واضحا . ويعرف هذا الشعور بأنه « مجموعة المعتقدات والمشاعر العامة التى يعتنقها جمهرة أعضاء المجتمع ، وتكون نسقاً قائما بذاته » ولهذا فان الشعور العام له واقعية « محددة » لأنه يبقى خلال الزمان ويقوم بوظيفة هامة هى الربط بين الأجيال ، ولكن الشعور الجمعى من ناحية أخرى ، يعيش داخل الأفراد ، ويكون له فاعلية وقوة عندما يكون التشابه لا الاختلاف هو الخاصية الرئيسية التى تميز أعضاء المجتمع الذى يقوم على التضامن الآلى . ويرى دور كايم أن للفرد شعورين : أحدهما يتقاسمه مع الجماعة (أى أن المجتمع يعيش داخل الفرد) والآخر خاص بالفرد وحده . ولكن الشعور الأول فى المجتمع (المتضامن آليا) هو صاحب النفوذ الأكبر .

أما فى المجتمع الذى يقوم على التضامن العضوى ، فان تقسيم العمل يظل ينمو حاملا معه عناصر عدم التشابه بين الأفراد ومؤديا إلى زيادة « التساند » فى المجتمع . ولهذا كلما زاد التساند كلما قل تأثير الشعور الجمعى . ومن ثم يظهر القانون الجنائى بما يحويه من جزاءات رادعة . ويظهر هناك أيضا نوع من التقدم الخلقى ممثلا فى قيام مجموعة من القيم كالمساواة والحرية والإخاء والعدالة . ويميل الناس إلى ربط مصالحهم وعلاقاتهم بالغير عن طريق « العقود » . ويرى دوركايم أن تحول المجتمع بهذه الصورة لا يضعف

من فكرته عن «القهر الاجتماعي» لان القهر يتخذ صورة أخرى تناسب التطور الاجتماعي [١]

هـ — وتعتبر دراسة دور كايم عن «الانتحار» من خير دراساته التي تمثل البحث السوسيولوجي الذي يقوم على أسس نظرية واضحة. وقد يبدو الانتحار لأول وهلة على أنه ظاهرة فردية، يمكن تفسيرها في ضوء اصطلاحات علم النفس — ولكن دور كايم لاحظ أن نسب الانتحار تختلف من جماعة لأخرى، ولذلك أخذ على عاتقه أن يفسر هذه الاختلافات الاجتماعية التي تكمن وراء اختلاف نسب الانتحار. ولم يهتم في هذا المقام بالبحث عن الدوافع النفسية التي تجعل الفرد ينهي حياته بيديه.

وتقوم الدعاوى الأساسية عند دور كايم في تفسير الإنتحار، على أن «التكامل الاجتماعي» (قوة الروابط الاجتماعية التي توجد بين أعضاء المجتمع) يؤثر في احتمالات حدوث الإنتحار. وقد بين أن تعميمه النظري هذا — مع شيء من التحسين — يمكن أن يفسر الحقائق الكثيرة المعروفة عن نسب الانتحار. ويرى دور كايم أن الكاثوليكية تؤدي الى تكامل إجتماعي أكثر مما تؤدي اليه البروستنتية التي تتميز بالطابع الفردي، كما أن شعور اليهود بالاضطهاد المزعوم يجعلهم يرتبطون إرتباطا قوياً بعضهم مع البعض الآخر. ويرى أيضا أن المتزوجين يرتبطون بروابط توحدهم وتؤلف بينهم، وهي التي تنقص «العزاب»، كما أن وحدة المجتمع تكون أعظم في أوقات الشدة والحروب بعكس الحال في أيام السلام، ويلاحظ دور كايم أن التكامل الاجتماعي يكون أقوى في القرى (المناطق الريفية) إذا قورن بالتكامل في المدينة (المناطق الحضرية). كل ذلك وغيره من الاختلافات التي يمكن إدراكها

1 — Timasheff, Op, Cit. PP. 109—110

عن طريق البحث فى التكامل الاجتماعى تنعكس فى الاختلافات التى تظهر على نسب الانتحار .

وللانتحار أنماط أخرى متعددة أهمها :

١ ـ الانتحار « الأنانى » وهو الذى يرجع إلى مشاركة الفرد غير المرضية أو الكافية فى حياة الجماعة . فالفرد نفسه قليل القيمة ، ولكن الذى يعطى وجوده أهمية وهدفاً ، هو ما يستمده من مشاركته فى حياة الجماعة . ولذلك فان الفرد الذى يظل عزوفاً أو نائيا عن الجماعات الاجتماعية ذات التكامل القوى ، والذى يتابع أهدافه الشخصية وحسب ، هو الذى يكون معرضا أكثر من غيره ، لأن يقهره السأم والضجر ، ومن ثم لا يجد سببا لاستمراره فيلجأ للانتحار .

٢ ـ الانتحار «اللامعيارى » وهو انتحار الذين لا يسيرون على القواعد التى رسمها المجتمع ، فيصبحون بلا معيار يحدد نمط سلوكهم أو طريقة إنتمائهم للجماعة . وقد لاحظ دور كايم أن « العزاب» يقدمون على الانتحار بنسب أكبر من المتزوجين . كما أن الانتحار يقل إبان الاستقرار الاقتصادى ، ولكنه يزداد فى حالات الأزمات الطاحنة والرواج الاقتصادى الزائد عن الحد . ذلك أنه ـ على سبيل المثال ـ فى حالات الرواج غير المنتظر ، تضطرب مستويات المعيشة العادية ، ولا تكون هناك معايير تحدد المستويات المناسبة. ولذلك فان أى تغير فى هذه الحالة يصيب أولئك الذين لا يقفون على أرض صلبة من البناء الخلقى المتين ، بهزة عنيفة . ولهذا فان درجة التكامل فى المجتمع تكون ذات أهمية عظمى ، لأن عليها تقوم قدرة المجتمع على تنظيم سلوك الأفراد . ومثال ذلك أنه فى الحالات التى يتهدد المجتمع خطر داهم كقيام

الحرب ، فان الأفراد يتحدون ويصبحون أكثر امتثالا للنظام ، الأمر الذي يعصمهم من الوقوع فريسة الانتحار :

٣ ــ الانتحار (الغيرى) وهو الانتحار الذى يرجع إلى شدة إندماج الفرد فى الجماعة حتى أنه يفقد فرديته ، ويفسر هذا الإندماج نفسيا بشدة شعور الفرد بالواجب إزاء جماعته ، حتى أنه يصبح مستعداً أن يضحى بحياته من أجل الجماعة إذا كانت هذه التضحية ضرورية . ويقول دوركايم ، إن هذا النوع من الانتحار يوجد غالبا فى المجتمعات التى تتميز « بالتضامن الآلى » [1]

إن العوامل التى تؤدى الى الانتحار عند دوركايم لها (واقعية) و (خارجية) عن الفرد مثلها فى ذلك ، مثل القوى البيولوجية والطبيعية التى تسبب الوفاة عند طريق المرض وتيار الانتحار مثل (الوباء) نصيب عددا محددا من الضحايا ، (يختارون) من بين أولئك الذين يظهرون مقاومة أقل ، أى أن هناك عاملا فرديا فى الانتحار كما هو الحال فى المرض ، ولكن هذا العامل الفردى يحدد من الذى سينتحر أو يمرض ، ولا يحدد عدد الحالات . والفرد قد يبدو أمام نفسه وأمام الآخرين أنه يقدم على الانتحار متأثراً بدوافع شخصية ، ولكنه فى الواقع يفعل ذلك مدفوعا بعوامل غير شخصية تماما .

وخلاصة القول ، إن دراسة دوركايم للانتحار . تعتبر أكثر من مجرد تحليل إحصائى يحمل طابع الأهمية لموضوع واقعى خطير ذلك لأن دوركايم كان معنيا خلال الدراسة ببيان كيف تساند الحقائق الواقعيه . النظرية السوسيولوجية . وفى هذه الحالة كان يريد أن يكشف عن خاصتى الخارجية والجبرية للحقائق الاجتماعية .

1 — Sorokin, Op ; p. 472

و ـ ظهرت فى أعمال دور كايم الأخيرة ، الفروق بينه وبين التطوريين ، ذلك أن أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر كانت متأثرة بالاتجاهات التطورية ، فالمادة الإثنوجرافية عن المجتمعات البدائية ، أستخدمت لإثبات نظريات عن (أصل النظم الاجتماعية الحديثة) ولتصوير المراحل التطورية التى مرت عليها . وقد ترتب على ذلك أن قنع الانثروبولوجيون عن طريق هذا التوجيه التاريخى التصنيفى ، بترتيب المجتمعات فى سلم تطورى ، ولم يكن هناك اهتمام واضح بالاستقصاء المنظم للحياة الاجتماعية عند البدائيين . لكن دور كايم فى كتابه (الصور الأولية للحياة الدينية) الذى أخرجه عام ١٩٢٥ ، أستخدم المادة الإثنوجرافية التى جمعت عن (السكان الأصليين لأستراليا) بطريقة مختلفة تماما . فلم يهتم بالبحث عن الأصول الإجتماعية ، وإنما جعل اهتمامه الأول مركزا حول تحليل الحياة الدينية للقبائل المكونة للسكان الأصليين فى هذه القارة ليستمد منه التعميمات التى تترجم عن الوظائف التى تؤديها المعتقدات والطقوس فى المجتمع . وقد اعتبر هذه التعميمات صالحة للتطبيق عند تفسير النظم الدينية فى أى مجتمع وفى أى زمان . وعلى الرغم من أن مناهج بحثه ليست أصيلة ، ومصادر مادته محل شك ، فان المدخل الذي درس على أساسه البناء الاجتماعى ساعد على نمو مناهج البحث المحققة فى الأنثروبولوجيا وعلم الإجتماع أيضا ، ونخص بالذكر هنا ، فكرته فى تحليل البناء الإجتماعى عن طريق (التساند الوظيفى) التى لعبت دورا كبيرا فى الإنثروبولوجيا فى القرن الحالى وفى العلوم الإجتماعية الاخرى .

ز ـ ليس هذا كل ما قدمه دور كايم للنظرية السوسيولوجية . فلقد كتب بمفرده أو بالتعاون مع تلاميذه وخاصة (مارسيل موس) عدة مقالات عن التربية والنظرية السياسية والأخلاق وحاول أن يصنف المجتمعات ،

وحدد الصلة بين الفلسفة والاجتماع ، وكتب فى نظرية المعرفة . ولعل علم اجتماع المعرفة يعتبر الآن من أحدث فروع علم الاجتماع نشأة ، إلا أن دوركايم كتب فى هذا الموضوع وحاول أن يؤكد أن المعرفة ذاتها ما هى إلا نتاج للظروف الاجتماعية ، ذلك أن الفكر يعتمد على اللغة ، واللغة بدورها تعتمد على المجتمع . ومن ثم كان الفكر نتيجة للمجتمع أيضا . ولذلك تكون كل قضايا المنطق موجودات اجتماعية بالضرورة .

إن أهم ما يوجه إلى دوركايم من نقد أنه تحمس أكثر من اللازم «لسوسيولوجيته» وتغالى فى ضرورة تفسير الحقيقة الاجتماعية بحقيقة اجتماعية من نفس النوع ، واشتط فى استبعاد أى مؤثرات أخرى فى الحياة الاجتماعية ، ولكن نظرياته ستظل تحتل مكانا مرموقا فى تاريخ النظرية السوسيولوجية.

٧ — فلفريدو باريتو ورواسب السلوك ومشتقاته

لعل أهمية فلفريدو باريتو بين علماء الاجتماع ترجع فى صميمها الى محاولته أن يقيم منهجا للبحث فى علم الاجتماع يجري على أسس رياضية ، كما هو الشأن فى العلم الحديث وإلى عكوفه على الحقائق التاريخية الواسعة المتشعبة وإلى استخراجه للأصول والقواعد التى يمكن أن تفسر على أساسها هذه الحقائق . وقد كتب باريتو فى هذا الصدد كتابه الذى ترجم إلى الفرنسية بعنوان : Traié de Sociologie Generale وإلى الانجليزية بعنوان The mind and Society . ولقد حاول باريتو فى شىء من الجهد أن يوضح الصلات التى تربط علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية الأخرى ليخط له ميدانا مستقلا لا يتداخل مع ميادين العلوم الأخرى . ولعل تفهمه لهذه الصلات إلى جانب تحليله الدقيق للسلوك الإنسانى ما رفعه الى مصاف الخالدين من علماء الاجتماع . وفيما يلى عرض موجز لأهم نظرياته .

١ ـ **علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية** :إهتم باريتو أول الأمر بدراسة الاقتصاد على طريقة ولراس الرياضية . وكانت له فيه نظريات ومنهج لا زال قائما حتى اليوم ولكنه فى دراسته لمسائل الاقتصاد ـ وهى مسائل اجتماعية ـ لمس أن التفسير يتم فى حدود ضيقة وبالرجوع إلى عوامل محدودة وفطن الى أن الظواهر الاقتصادية لا يؤثر فيها الإنسان من حيث هو إنسان مادي فحسب كما يرى علم الإقتصاد . ولكن تؤثر فيها ظواهر وعوامل أخرى اجتماعية وغير اجتماعية . وعلى هذا النحو تأدى التفسير الاجتماعى للاقتصاد إلى التحول من الميدان الإقتصادى الى الميدان الاجتماعى . وقد تم هذا التحول عندما بدأ يدخل فى التفسير الاقتصادى عوامل أخرى لا تمت إلى المجال الإقتصادى بصلة وثيقة .

ويتميز علم الإجتماع بأنه علم تعميم بمعنى أنه يدرس الخصائص العامة فى مجموعة معينة من الظواهر الاجتماعية ، وهو بهذه المثابة يختلف عن التاريخ الذى يدرس الظواهر الاجتماعية على أنها وحدات منفصلة غير متكررة فى الزمان والمكان . كأن يدرس الدين المسيحى على أنه ظاهرة أو وحدة منفصلة ، وكذلك الإسلام والبوذية دون أن يربط بينهم من حيث الخصائص وهناك فارقان أساسيان بين علم الإجتماع والعلوم الإجتماعية .

١ ـ فرق من حيث الموضوع : كل علم اجتماعى يحدد له ناحية من العالم الاجتماعى يدرسها فالاقتصاد يدرس الظواهر الإقتصادية والسياسة تدرس الظواهر السياسية وهكذا . ولهذا كان الإقتصاد يهتم بدراسة تنظيم العمل ودورته وذبذبته والسياسة يدرس الدولة الخ . أما علم الإجتماع ذاته ينظر الى المجتمع ككل مترابط أو متكامل ، ويعنى بالصلات الموجودة بين أجزائه وظواهره المختلفة ديناً أو دولة أو عملا . كما أن كل علم إجتماعى

ينظر إلى الإنسان من زاويته ، فالإقتصاد ينظر اليه على أنه إنسان اقتصادي والسياسة تنظر اليه على أنه « إنسان سياسى » والدين ينظر الى الإنسان — فوق كل هذا — على أنه فى النهاية إنسان دينى . ولكن علم الإجتماع ينظر الى الإنسان ككائن يعيش فى مجتمع له ظواهره المختلفة التى تجتمع فى إطار الحياة الاجتماعية ألوان الحياة الثقافية والأقتصادية والسياسية والدينية الخ .

٢ — فرق من حيث المنهج :

يتضح الخلاف بين علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية ، إذا أخذنا ظاهرة محددة كالانتحار ، ذلك أنها تدرس بطرق مختلفة فى العلوم الاجتماعية وتؤدى بدورها الى نتائج جد مختلفة أيضا ، فالاقتصاد يرجع أسبابها الى الفقر والإفلاس ، وعلم النفس يرجعهما الى خيبة فى حب أو مفاجأة عصبية أو تهوس ، والسياسة ترجع أسباب الانتحار الى الاخفاق فى الميدان السياسى والفشل فى صعود سلم المجد عن هذا الطريق ، والدين بدوره يرجع هذه الأسباب الى فساد الخلق وبعد عن طريق الخير أو الإلحاد . والجغرافيا ترجع الانتحار الى أثر المناخ ، والبيولوجيا تساهم فى الميدان فترجع أسباب الانتحار الى سوء الهضم والإختلال فى الجهاز الحيوى وما الى ذلك . وعلى الرغم من أن كل هذه التفسيرات قد مست جانبا من حقيقة أسباب الإنتحار إلا أن كلا منها على حدة لا يصلح أن ينهض سبباً كافيا يمكن الركون عليه .

فواحد من هذه العلوم لم يبين الخصائص الرئيسية للانتحار ولا نوع الأشخاص الذين يقدمون عليه . ولا توزيع نسب الانتحار فى المجتمعات المختلفة ولم يعن واحد منها أيضا ببيان فترات الزيادة والنقص فيه ... الخ المسائل المتصلة اتصالا وثيقا بتمام دراسة المسألة . كل هذه الأمور يعنى بها علم الاجتماع ، لأن كل دراسة يقوم بها لا بد أن تتم فى ضوء العلاقات التى تربط

موضوع هذه الدراسة بالأجزاء الأخرى فى المجتمع والظواهر المتصلة به . وعلم الاجتماع لا يسلم مطلقا بأن هناك ظاهرة ـ مهما كان شأنها ـ مستقلة يمكن أن تدرس دراسة كلية على هذا الأساس .

ولا يعنى ذلك أن هناك قطيعة بين علم الاجتماع والعلوم الإجتماعية الأخرى ، فمن طبيعة علم الاجتماع المتفقة مع منهجه أن يعتمد على نتائج هذه العلوم . ومع هذا فالاعتماد ليس من جانب علم الاجتماع فحسب ، بل إن العلوم الإجتماعية تعتمد فى طرائق التفسير وفى المناهج العامة والخاصة على ما يستحدثه علم الاجتماع فى هذا السبيل . ويظهر ذلك بوضوح فى دراسات علوم النفس والتاريخ والاقتصاد والسياسة وغيرها . ومن عهد أفلاطون وأرسطو حتى ماركس ودوركايم لازال كل منهج اجتماعى جديد يتردد صداه فى أبحاث العلوم الاجتماعية .

وما من شك أن نظريات كارل ماركس الاجتماعية كان لها أكبر الأثر على الدراسات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والنفسية على السواء . وليست العلوم الاجتماعية وحدها هى التى يعتمد بعضها على البعض الآخر . فالعلوم الطبيعية والحيوية يعتمد كل منها على الآخر ، فالكيمياء تعتمد على الرياضة والطبيعة على الجيولوجيا والأحياء على الكيمياء والعكس .

إذن فعلم الاجتماع ـ دون العلوم الإجتماعية الأخرى ـ يدرس الظواهر الاجتماعية فى تفاعلها بعضها مع بعض وفى أثر كل منها على الأخرى والوظائف التى تؤديها والإرتباط بينها . فهو إذن يستفيد من دراسات العلوم الاجتماعية محاولا تضمينها سفرا واحدا يفسر ظواهر الاجتماع التفسير الشامل الصحيح مبينا العوامل المختلفة التى تؤثر فى النظام الاجتماعى ومبلغ أهمية كل منها

ولهذا فعلم الاجتماع علم تركيبي شامل وهو بمثابة الإطار الذى يحوى بين دائرته مختلف العلوم الاجتماعية .

ب ـ المنهج العلمى فى علم الاجتماع : يمكننا أن نقول أن هدف العلوم جميعا التوصل الى معرفة عالم الحس أو التجربة عن طريق عمليات التعميم والتجريد التى تجرى على الحقائق المستمدة من الحس أو التجربة ، والغرض الأعلى من هذا هو السيطرة على تجربة المستقبل كلما أمكن ذلك ، وأبعد من هذا إمكان التنبؤ فى حالات معينة ، الأمر الذى يهيىء للفرد والجماعة أن تدبر من أمورها بحيث تستطيع مجابهة الواقع . وتهدف العلوم إلى جعل هذه المعرفة التى تحاول الوصول اليها غاية فى ذاتها . والعلماء يوقنون أن هذا هو الطريق الذى يمكن معه تلافى جميع ضروب التحيز والتحامل الناجمة عن الأغراض العملية .

والحقيقة أن أهم ما فى عمل باريتو Pareto هو نظريته عن علم الاجتماع « كعلم منطقى تجريبى » ، فقد أفرد جانبا من الجزء الأول من كتابه لبحث هذه المسألة ، وظل يتعرض لها حين يشرح موضوعات الكتاب الأخرى حتى النهاية . ومن الملاحظ أنه سار على طريقة تشبه طريقة أوجيست كومت A. Comte فى فلسفة التاريخ ، فكما أن تاريخ التقدم من المرحلة الدينية إلى المرحلة الميتافيزيقية ثم الى المرحلة الوضعية فى التطور العقلى الإنسانى كان الاتجاه الرئيسى للتطور الاجتماعى ، فكذلك الأمر عند باريتو ، لأن التمييز بين العلم المنطقى التجريبى والعلم غير المنطقى وغير التجريبى يكون جزءا غاية فى الأهمية فى تحليله لتاريخ المجتمع وحياته . ومهما يكن من اختلاف حول نظريات باريتو فان محاولته الصادقة أن يقيم علم اجتماع منطقى تجريبى هى التى خلدته وأعطته هذه الأهمية .

وليس غريبا على باريتو ـ وهو صاحب القدم الراسخة فى علم الاقتصاد أن يحاول إقامة دعائم منهج سليم لبحث الظـواهر الاجتماعية ، فالعلم فى رأيه لابدأن يكون منطقياً تجريبياً ، بمعنى أن يعتمد على الملاحظة والتجريب فحسب . بكل تقويم أو تقـدير أو إطلاق لا يدخل فى دائرة العلم ، وكل فـكرة لا تخضع لهذا المنهج غير علمية مثل الديمقراطية والحـرية والمساواة ونظرية التضامن . . . الخ ، هذه النظريات التى يزخر بها الفكـر الاجتماعى المعاصر ، وكثير من آراء هربرت سبنسر وأوجيست كومت عن التقـدم والتطور غير علمية ، بل هى من نفس المنبع التى صدرت عنه كل النظريات الخرافية التى انتقدها بمرارة .

ويفرق باريتو بصورة واضحة بين القيمة العلمية لنظرية ما وبين قيمتهـا الاجتماعية أو الواقعية. إلى أن يقرر أن من النظريات العلمية مايهدد العلاقات الإجتماعية بأشد الخطر ، ولهذا يفرق بين الحقيقة والمنفعة فهو إذن لم يحكم على جميع النظريات العلمية بالفساد ، بل أشار الى أهميتها فى المجتمع ، وكل الذى فعله أن فصل بين ما هو علم فيخضع للملاحظة والتجريب ، وبين ماهو غير علم فلا يخضع لهما برغم دوره البالغ فى المجتمع .

ويرفض باريتو بعـد ذلك كل النظريات والمناهج التى تدرس الظواهر الإجتماعية من جانب واحد والتى تحاول أن تجعل من ظاهرة معينة الأصل فى كل الظواهر الأخرى . وقرر أن الظواهر الاجتماعية متساندة تساندا «وظيفيا» فـكل ظاهرة تؤدى دوراً معيناً يؤثر فى الدورالذى تقوم به الأخرى . ومن مجموع هذه الوظائف والأدوار تخرج الصورة المتـكاملة التى يـكـون عليها النظام الاجتماعى . ويرى باريتو أن تعقد الظواهر الإجتماعية إنما يرجع فى صميمه الى تداخل وظائفها ، وأن كل ظاهرة تعتمد على الأخرى بحيث أن

كل تبسيط لهذه الظواهر أو كل عرض سريع لها دون بيان لوجوه الصلات والروابط التي تربطها يخل بها ويسيء إلى فهمها كل الإساءة .

ويتلخص منهج باريتو في خمس خطوات :

١ — لا يدخل تحت البحث العلمي إلا كل ما يخضع للملاحظة والتجريب .

٢ — الظواهر الإجتماعية متساندة تساندا وظيفيا يؤثر بعضها في البعض الآخر . والتفسير العلمي لا يتم إلا بالإضافة لجميع العوامل .

٣ — لا يدخل تحت البحث العلمي الأمور العرضيه أو الوقتية لأن العلم لا يعنى إلا بما هو دائم وحقيقي .

٤ — في الأمور التي نلاحظها لابد أن ندرس المسائل المشتركة بين مختلف الناس وفي مختلف الأزمنة والأمكنة ، وهو في هذا المقام يشير إلى علم الاجتماع المقارن الذي يمهد السبيل الى إقامة علم الاجتماع العام.

٥ — فاذا تيسر لنا كل ماسبق وجب أن نطبق المنهج الوضعي الكمي في الدراسة فهو خير المناهج جميعا ، وهو الذي يمكننا من إقامة معرفة يقينية قائمة على الحقيقة الواقعية لا على الوهم والخيال ، وبه أيضا نصل الى حقيقة النظم الاجتماعية المعقدة .

وهكذا نرى أن منهج باريتو يشابه من وجـــوه كثيرة نظريات علماء المناهج مثل كارل بيرسون ودوهيم وبوانكاريه ، فالقانون عندهم إحتمالي يتغير كلما اكتشفت حقائق جديدة وبانت وجوه شبه وصفات عامة مشتركة لم تكن معروفة من قبل . وباريتو في عرضه لمنهجه لا يختلف كثيرا عن المنهج العلمي الحديث فلا يلتزم في دراساته إلا الحقيقية الموضوعية . ويري

جنزبرج Cinsberg [1] أن منهج باريتو إستقرائى ومقـارن ، بمعنى أنه أنه يبدأ من الحقائق الواقعية التجريبية كالمعتقـــدات السائدة فى مختلف المجتمعات أو السلوك المتواضع عليه ليصل من ذلك كله إلى بيـان العنـاصر الدائمة والمتغيرة فى هذه الضروب المختلفة ليضع القوانين التى تحدد علاقاتها المتبادلة ، ولـكن باريتو فى رأي جنزبرج لم يلتزم منهجه هذا أو لم تتـح له الفرصة لتطبيقه . ويرى أن تعريفاته غامضة لا تتـكشف حتى مع المقارنات المتتابعة أو مع طول الشرح والإبانة .

ج ـ **العوامل المؤثرة فى الظواهر الاجتماعية** : رأينـــا مما سبق أن باريتو يهاجم النظريات التى تفسر الظواهر الإجتماعية ، من جانب واحـــد ورأينا كيف وصفهـا بالبساطة وأستطعنـا أن نتبين رأيه فى الظواهر الإجتماعية متساندة تساندا وظيفيا وتفسيرها لا يتم إلا بالإضافة لعوامل متعددة. وفوق هذا يعتقد باريتو أن التفسير الصحيح للظواهر الاجتماعية والتثبت من طبيعة الحياة الإجتماعية لن يتم إلا إذا استطعنا أن ندرس هذه العـوامل دراسة كمية ويأسف فى ثنايا أبحاثه أن مثل هذه الدراسات غير موجـودة بجانب أنه لن يتمكن من التعرض لها جميعا ، فمثل هذا الأمر فوق طاقة عالم واحد

ويرى باريتو أن العوامل التى تؤثر فى الظواهر الاجتماعية تتلخص فيما يلى:

١ ـ **عوامل خارجية** ـ وتنقسم قسمين :ـ ١ ـ البيئة الجغرافية بعناصرها المختلفة من مناخ وتربة وحيوان ونبات .

٢ ـ المجتمعات المحيطة بالمجتمع محل الدراسة والأنظمة الاجتماعية السائدة فيه ، ثم تاريخ المجتمع نفسه .

---

(١) أنظر كتابه Reason and Unreason in Society

وقد ألمح بهذا إلى دور الإحتكاك الثقافى فى خلق التغيرات الإجتماعية وأثرة البالغ فى تعديل كثير من النظم . فالعالم اليوم لا يعيش كل جزء منه منفصلا عن الآخر ، فقد تعددت وسائل الإتصال المادى والثقافى عن طريق المواصلات البرية والبحرية والجوية ، وكثر تنقل الناس من بلد لآخر ، بل هجرتهم من هذا البلد إلى ذلك البلد — وهكذا . وأخذت الصحافة والإذاعة والتليفزيون أخيرا يقوم كل منها بدور بالغ الأهمية فى نقل الأفكار عبر المحيطات وأصبحت تتخطى حدود الدول وتنفذ إلى أعماق الأفراد والجماعات. كل هذه العوامل من شأنها أن تترك آثارا واضحة على الظواهر الإجتماعية. والمحقق فى البحث الإجتماعى لا يمكن أن يغفل شأنها إذا أراد أن يصل إلى حقيقة الحياة الإجتماعية . أما تاريخ المجتمع محل الدراسة فمن الأهمية بمكان لأن إتجاه الظواهر الإجتماعية سواء إلى التغير أو التعديل عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات ، والإحاطة بتاريخها يبين اتجاهها الحالى وينبىء بما ستؤول اليه فى المستقبل . ولهذا فالنظرية القائلة باغفال التاريخ والإهتمام بالموجود الآن نظرية لا تنهض على أساس متين .

٢ — **عوامل داخلية** : تتصل بأفراد المجتمع نفسه كالجنس الذى ينتمون اليه ومعتقداتهم وأحوالهم النفسية وآمالهم ورغباتهم وما إلى ذلك. وهذه العوامل ضرورية فى التفسير لأنها بمثابة الوقود الذى يحرك الآلة . وهى العوامل التى تستقبل التغيرات الخارجية فى أنسيابها للداخل ، فطورا تشتبك معها فى صراع قد تنتصر فيه . وطورا آخر تسلم نتيجة لتكثف موجات المد الثقافى القادم من الخارج ، وبالتالى تتجه إلى المعتقدات والتقاليد وتحرها ، أما الى تغيير كامل أو إلى تعديل قد يلحق بناءها كله .

ويرى باريتو أن تاريخ المجتمع هو بالنسبة لهذا المجتمع فى مجال

التطور الإجتماعى عنصرا أو عاملا خارجيا يؤثر فى النظام الحالى شأنه فى ذلك شأن المجتمعات الأخرى . ومما لا شك فيه أن تقسيم باريتو للعوامل المؤثرة فى الظواهر الإجتماعية الى عوامل داخلية وعوامل خارجية أمرله وجاهته، بل ان الابحاث الإجتماعية ومقتضيات الحضارة الحديثة أثبتت أن التغير الإجتماعى الذى يتم فى منطقة معينة لا يتم ذاتياً بل يتم بالإضافة الى الداخل والخارج معاً . كما قد يذهب بعض العلماء ، أنه طالما كانت الأوضاع الداخلية مستقرة وطاقة الأرض الإنتاجية تكفى السكان فليس من المتنبأ به أن تحدث تطورات فى النظام الإجتماعى ذات بال اللهم إلا التطورات التى تشبه تنفس الأحياء . ولهذا يرون أن التطور أو التأثير فى الظواهر الإجتماعية الآن يأتى من الخارج فى المقام الاول .

د ـ المجتمع والتوازن الاجتماعى : وبعد أن أقام باريتو الدعائم ورسم الخطط توجه من فوره الى دراسة المجتمع ، فلم يشأ ان يعرفه بأنه كائن عضوى أو مجرد مجموع من الأفراد أو ميكانيزم . ولكن عرفه كما يفعل أصحاب الإتجاه الطبيعى فى الدراسات الإجتماعية ـ وهم الذين يرون أن الظواهر الإجتماعية مثل الظواهر الطبيعية ينطبق عليها نفس القوانين لأنها مادية فى صميمها . وهذا الإتجاه موجود منذ عهد فلاسفة اليونان ، ولكنه فى الفكر الإجتماعى المعاصر يتمثل على الأخص فى دراسات كارى Carey وفنيارسكى Winiarski الذى عرف المجتمع « بأنه مجموع منظم من الجزئيات الإنسانية » تربطهم علاقات متبادلة معقدة . والجماعة نظام اجتماعى تعمل فيه قوتان متكافئتان إحداهما تحاول هدمه ، والأخرى تحاول إعادة التوازن ، ومن فعل هاتين القوتين ينتج ما أسماه باريتو بـ « التوازن الإجتماعى (١)

---

1 — Sorokin , Op. Cit- , P. 46

والحق أن علم الإجتماع عند باريتو يعتبر محاولة لتطبيق فكرة التوازن التى أدخلها ولراس Walras فى دراسة الاقتصاد والتى تناولها باريتو بالدراسة ووقف عليها قسطاً كبيراً من جهوده . فمن المعروف أن هناك صراعا دائما بين رغباتنا التى تريد أن تشبع وبين العقبات التى تعترض سبيل إشباعها ، ولكن الصراع لا يلبث أن يتحول إلى توافق أو توازن بين رغباتنا وبين الظروف الخارجيـــة المحيطة بنا .

والمجتمع يجرى على نفس النظام، تحدث فيه عملية توافق تؤدى إلى التوازن الاجتماعى ، أما القوة التى تعمل فى المجتمع مناظرة لرغبات الفرد فهى ميل الناس إلى الإلتجاء إلى الأفعال غير المنطقية ، فى حين أن القوى التى تعمل مناظرة للعقبات التى تنشأ فى وجه الأفراد لإشباع رغباتهم فهى ميل الناس إلى إخفاء الطابع غير المنطقى فى أفعالهم ومحاولاتهم إظهارها بصورة منطقية معقولة.

والأفعال غير المنطقية ـ بعد هذا كله ـ تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان ، إلا أنه بالرغم من ذلك ، فثمة عنصر أساسى فيها لا يتغير بتغير الأزمنة واختلاف الأمكنة . وهذا العنصر الثابت هو الجدير بالدراسة : وهو أهم موضوع لعلم الاجتماع عند باريتو . وهو فوق هذا وذاك العامل الأساسى الذى يؤثر فى طبيعة النظام الإجتماعى .

هـ ـ العوامل المؤثرة فى النظام الاجتماعى : رأينا أن فلفريدو باريتو يرى أن النظام الإجتماعى يتأثر بفعل عوامل خارجية وعوامل داخلية . وأضاف إلى ذلك أيضا تاريخ المجتمع محل الدراسة باعتبار أن التاريخ يعتبر عاملا موضوعيا خارجيا يمكن دراسته فى طبقة العوامل الخارجية وقد رأينا فى حينه فكرته فى هذا الصدد .
ولقد أعترف باريتو أن دراسة العوامل المؤثرة فى نظام إجتماعى للوصول منها

إلى وصف دقيق للمجتمع أمر لا يستطيعه عالم واحد . ولهذا إقتصر فى دراسته للمؤثرات العامة فى النظام الاجتماعى على عدة عوامل أهمها وأبعدها أثرا تحليله الدقيق للأفعال المنطقية وغير المنطقية فى السلوك الإنسانى، واكتشافه لفكرة الرواسب Residues والمشتقات Derivations ،وسنحاول أن نعرض لرأيه فى هذين الموضوعين :

و- الافعال المنطقية وغير المنطقية : يتم علم الاجتماع فى رأى باريتو فى قسمين :

١ - تحليل وتصنيف المكونات الأولية للطبيعة الإنسانية كما تظهر فى الحياة الإجتماعية .

٢ - بيان لتفاعل هذه المكونات ومبلغ ما يطرأ عليها من تغير فى توزيعها على طبقات المجتمع المختلفة .

وقد حلل القوى الأساسية فى الحياة الاجتماعية بتقسيم الأفعال الإنسانية إلى قسمين :

١ - الأفعال المنطقية Logical : هى التعبير الحقيقى المباشر للطبيعة الإنسانية

٢ - الأفعال غير المنطقية Non—Logical والتى ظل يسردها فى شىء من التفصيل مبينا سيطرتها على الشئون الإنسانية :

ولم يلق باريتو إهتماما لأعمال علماء النفس بل حاول أن يكتشف الفروض لنفسه من خبرته الشخصية؛ الأمر الذى نجم عنه سوء استعمال لبعض المصطلحات الفنية مثل العواطف والغرائز . وقد أدى هذا إلى عدم فهم هذا المفكر على الوجه الصحيح ، ولقد كانت النتائج التى وصل إليها غاية فى الجرأة ، ويتضح هذا من النص الآتى :

« قام الناس ولا يزالون يقومون بأعمال دون أن يفطنوا لأى سبب يقومون بها . فالدوافع الحقيقية للفعل غالبا ما تكون مختلفة عن الأغراض التى يحصلون عليها وهم شاعرون . والناس فى سعيهم للوصول لأهداف شعورية معينة كثيرا ما يحصلون على أمور لم تكن حسبانهم، إما لأنهم لم ينتهجوا السبيل القويم أو لأنهم لم يتبصروا عواقب أعمالهم ، ولهفة الناس على المنطق والتعقل تبدو فى محاولتهم تبرير أعمالهم وإعطائها صورة منطقية على الرغم من أنها صادرة عن دوافع غير شعورية غامضة » .(١)

ومن الملاحظ أن أغلب كتاب باريتو قد أفرد لبيان العناصر غير اليقينية فى السلوك الإنسانى، والخرافات والأباطيل المخترعة لتصوير السلوك بصورة المنطق والعقل على الرغم من أن التحليل العلمى يثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أن مثل هذا السلوك نتيجة للاحساس والدوافع غير الشعورية .

ويقوم تصنيف باريتو للأفعال الإنسانية إلى منطقية (يقينية) أو غيرمنطقية (غير يقينية) على أساس التمييز بين الوسائل والغايات التى وجد بالبحث أنها تنطبق على جميع ضرورات السلوك الانسانى . فالأفعال غير المنطقية هى الأفعال:

١ - التى لا تؤدى إلى غرض ما سواء كان غرضاً ذاتياً أو موضوعيا .

٢ - التى يظن الفاعل أنها تحقق غرضا معينا ، ولكنها فى ضوء معرفة أوسع لا توصل إلى شىء .

٣ - التى لا يهدف اليها الفاعل شعوريا (إراديا) على الرغم من وجودهدف موضوعى محدد .

---

١ - من كتاب باريتو « العقل والمجتمع »

٤ ـ التى توصل إلى غاية لم يكن يهدف لها الفاعل ، بغض النظر عما إذا كانت هذه الغاية الموضوعية محل رضائه أو نفوره لو كان قد تبصرها .

هكذا نرى أن الأفعال تعتبر غير منطقية اذا لم تكن لدى الفاعل معرفة واضحة صريحة عن الأغراض التى يتوخاها من الفعل . أو اذا كانت لديه هذه المعرفة فانه لا يميز الوسائل الناجزة للوصول الى تلك الأغراض والتى ينجم عنها ، اما أن يخفق فى الوصول الى الغرض أو يحصل على نتائج لم تكن فى حسبانه .

وفى كلمات تعتبر الأفعال غير منطقية اذا لم تكن موجهة الى غرض محدود أو اذا لم تسر فى الطريق الصحيح الموصل الى هذا الغرض.

وبالعكس تعتبر الأفعال منطقية اذا كانت النتائج التى يتنبأ بها الفاعل مطابقة للنتائج التى يمكن التنبؤ بها فى ضوء معرفة أوسع .

وقد أغفل باريتو أو أهمل تصنيف غايات السلوك الإنسانى وارتباطها بالدوافع الانسانية ، تلك التى قال عنها إنها تشمل العواطف والأذواق والاتجاهات والميول والغرائز والرواسب والمصالح. أما الرواسب Residues فقد قال إنها لا تشمل الشهوات أو الغرائز البسيطة أو المصالح ولكنها تتصل بها بسبب . فيبدو أن هناك محل لوجود راسب فى السلوك الانسانى كلما عبر عن الشهوات أو الغرائز تعبيرا غير مباشر أو بصورة خفية .فاجتماع الجنسين، غريزة وليس راسباً ، ولكن الوعظ فى الأمور الجنسية والدعوة إلى الفضيلة راسب .

فاذا كان هذا التفسير صحيحا فان الراسب ليس غريزة ولكنه وسيلة تختفى وراءها هذه الغريزة أو الدافع الاصلى ومن ثم كان الراسب غير

منطقى لأنه يعمل على إخفاء عمل الدافع الأصلى ويظهره بصورة غير صورته الحقيقية .

وعلى ذلك فالإشباع المباشر لغريزة ما أو التعويض لإرضاء دافع معين يعتبر عملا منطقيا . ولكن باريتو يقرر فى مواضع أخرى أن العمل بمقتضى المصلحة أكثر منطقية من العمل بمقتضى الغرائز والدوافع ، لأنه يرى أن العمل بمقتضى الغرائز عمل غير اجتماعى ، أى أنه يصطدم بالأوضاع الاجتماعية ، أما المصالح فهى دوافع من طبقة أخرى أكثر صلاحية وملاءمة المجتمع . ومن ثم كان العمل بمقتضاها أكثر منطقية .

والمصالح (Interests) هى الدوافع التى تجعل الفرد ينهض لاكتساب أو تحصيل المنافع المادية سواء كانت نافعة حقا أو بسيطة ، ويناظرها العمل أيضا على كسب الاعتبار والمركز الاجتماعى ، ومع ذلك ليس مفهوما لماذا كان الجرى وراء المصالح التى تعتبر أعمالا منطقية غير مشروط بغايات خاصة ؟ هل لأن تحصيلها يكشف عن أن الناس يتصرفون بحرص وفطنة عظيمتين أزاءها ـ بالنسبة لأوجه النشاط الأخرى ـ فى إختيار الوسائل الملائمة ؟ .

وفى الأجزاء الأخيرة من كتابه يرى باريتو أن الفرد يسلك سلوكا منطقيا إذا كان يحاول أن يضمن لنفسه الحد الأعلى من المنفعة ، ويعنى بذلك أن العمل النافع بالنسبة للفرد يكون متضمنا فى مقارنة بين مختلف المنافع المقاسة على نموذج أو مثال ، وما دامت هناك مقارنات فيجب أن يكون هناك منطق ، وهذا ما لم يحاول باريتو عمله ، ففى الإقتصاديات يزعم أن الفرد هو خير حكم لما يفيده، وله أن يفعل منطقيا ما يدنيه من هذه المنافع،ولكن إذا خرجنا من دائرة الإقتصاديات نجد أن هناك نماذج كثيرة

المنفعة القصوى بالنسبة للفرد ، ولهذا كان اختيار النموذج الذى يسعى الفرد الى تحقيقه أمرا يقوم على غير أساس ، ولذلك يكون السلوك دائما غير منطقى ومن ثم نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نجزم عما إذا كان من صالح الفرد أن يجهد نفسه ويعذب بدنه للوصول إلى الرضى أو الاشباع الخلقى ، أم كان من الأفضل أن يلتمس الثروة ويبحث عن أمور نافعة فى ميادين أخرى .

ويرى باريتو أن الأحكام الأخلاقية لو كانت محل بحث يقينى أو اختبار علمى لتقدمت الأخلاق تقدما كبيرا منذ ظهرت فى صورتها الفلسفية لأول مرة على يد أرسطو . ومن العجيب فى هذا المجال أن يرى باريتو أن المسائل الأخلاقية وما دار حولها من نقاش وما يزال يدور وإن كان تافهها من الوجهة المنطقية ، إلا أن له فى الحياة الإجتماعية أثرا كبيرا ، فالمسائل الأخلاقية كانت وما تزال تهز النظام الاجتماعى منذ الأبد .

٢ ـ **الرواسب** «Residues» وبعد أن أفاض باريتو فى تحليل الأفعال المنطقية وغير المنطقية ، حاول بعد ذلك أن يبين فى شىء من التفصيل العناصر الأساسية التى تكمن وراء هذه الأفعال فأرجع جميع مظاهر السلوك الانسانى والنشاط الاجتماعى بصفة عامة الى مجموعة من الدوافع سماها رواسب Residues وهى النزعات الانسانية المعبر عنها بطريق غير مباشر ولها خاصيتان :

١ ـ الدوام ، بمعنى أن كل ما هو عرضى أو استثنائى فى دوافع الانسان لا يدخل بين هذه الرواسب فى تفسير السلوك الانسانى .

٢ ـ الاشتراك بين بنى الانسان فى مختلف الازمنة والأمكنة . بمعنى أنها عناصر ثابتة تمتد فى تاريخ الانسانية بأسرها، وتزحف دائما الى الأجيال القادمة

والرواسب من جهة أخرى ليست غرائز أو عواطف ولكنها مترتبة عليها وترجع دائما اليها ، فكل تعبير مباشر للغريزة لا يؤدى إلى جعلها راسبا، ولكن إذا ترتب على الغريزة استجابة غير مباشرة سواء كانت استبدالية أو حقيقية ، يمكننا القول إننا دخلنا حينئذ فى دائرة الراسب، لأن الاستجابات غير المباشرة تعتبر من أهم مظاهره . فالرواسب إذن عبارة عن مجموعة من الدوافع والنزعات الانسانية تستتبع أنواعا من الاستجابات وضروبا من السلوك غير المباشر، بمعنى أن هذا النوع من السلوك لا يعتبر التعبير المباشر لارضاء الدوافع، فالدافع الجنسى ارضاؤه المباشر هو الجماع ، ولكن مظاهره الأخرى غير المباشرة هى الزهد وتحقير الشهوة واتهام الحياة الجنسية ... رهذه المظاهر هى التى تكشف عن وجود الرواسب و ويسمى فى هذه الحالة الراسب الجنيني .

وهذه الدوافع (الرواسب) فى نظر باريتو عبارة عن مجموعة من الاصول التى تفسر بناء عليها جميع مظاهر السلوك الانسانى فى المجتمع ، وان كان باريتو يعلم أن هذه الرواسب ليست الا احد العوامل التى تؤثر فى طبيعة العلاقات الاجتماعية ، ولكنه لسهولة البحث ولتعقد المسألة آثران أن يوليها كثيرا من عنايته .

٣ ــ المشتقات Derivations : رأينا أن الرواسب هى الجذور الممتدة عميقة فى الحياة الانسانية ، وهى وحدها المسؤولة عن كل سلوك يتم داخل المجتمع ، وهى فوق هذا نادرا ما تتغير لأن أهم صفاتها الثبات . أما المشتقات فهى المعرضة دائما للتغير عن طريق اعطائها أسماء أو صورا متغيرة ، ويظهر تغير المشتقات بصورة واضحة عند ما يتغير نظام الحكم فنجد ألوانا مختلفة من الشعارات والنظم والتوجيه السياسى يرجع اغلبها الى رواسب ثابتة ،

فالرواسب هى المصدر الأول لكل حدث سياسى أو اجتماعى ، أما المشتقات واختلافها البين من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان فأمر لا ينبغى أن يوجه الباحث إليه اهتماما كبيراً ، لأنها تعتبر بمثابة تفسيرات تتخذ طابعا ذاتيا، ومن العجيب أن نرى خلال التاريخ الإنسانى شعوبا تتفق فى غاياتها بل وفى دينها،ومع ذلك يصارع بعضها البعض الآخر ويصبح التنافس بينها أمراً شائعاً ، ويرجع ذلك إلى اختلاف المشتقات التى تظهر فى صورة آمال وأحلام تختلف من شعب إلى شعب على الرغم من إتحادها فى الغرض والدين .

من هذا نرى أن باريتو كماركس لم يعط أهمية كبرى للمشتقات فهى فى نظرهما خاضعة للراسب الذى هو الأصل فيها ، ولا أدل على ذلك من المثل الذى ضربه باريتو من أن المتدين الذى لا يتسامح فى عقيدته الدينية لا يختلف فى كثير عن الشيوعى الذى يهاجم التعصب الدينى ، فكل هذه المظاهر الخارجية لسلوكها ترجع إلى راسب واحد ، هو رغبة كل منهما فرض طريقة معينة للفكر ونوع معين من السلوك على الناس ، وكذلك الفاسق الذى يبرر سلوكه الجنسى تبريرا منحرفا لا يختلف فى كثير عن الزاهد الذى يحقر الجنس ، فكل منهما يصدر فى سلوكه عن راسب واحد وهو الراسب الجنسى .

فأفعال الإنسان إذن لا تتفق مع المنطق إلا فى بعض الأفعال الخاصة كالأبحاث العلمية وبعض مظاهر السلوك الطبيعية حيث يتفق ما فى الذهن مع ما هو فى الواقع . أما نقد باريتو للكثير من المعتقدات أو الأفكار فلأنه يرى أن كل فعل أو فكرة لا تخضع لمنطق التجريب غير علمية على الإطلاق ، وليست مثل هذه المعتقدات إلا وسائل لتحويل إتجاهات الناس ، وهو لهذا السبب يعترف بأهمية الصحافة والدعاية وغيرها من وسائل النشر السريعة

وقد تعرض باريتو للنقد الشديد من جراء فكرته عن الأفعال المنطقية وغير المنطقية وخاصة فكرته عن الرواسب والمشتقات . والحق أن أى باحث يسير على المنهج المنطقى التجريبي كما زعم باريتو يستطيع أن يستخرج من المخزن الهائل لتاريخ اليونان والرومان وأوربا الغربية ما يريد ، وأن يجد فيه من الحقائق ما يجعله يقيم نظريات تخالف نظريات باريتو . ومن أهم المغالطات التى حاول باريتو أن يسوقها ،محاولة إيهام القارىء خلال بحثه الطويل أنه لا يفضل نظاما سياسياً على آخر إلا ماكان نتيجة للبحث العلمى ، ولكننا فى ثنايا كتابه نجد أنه يحاول دائما الدفاع عن الارستقراطية وهدم النظم الديمقراطية والأساليب البرلمانية فى الحكم ، ولهذا السبب كان أفضل كتاب يقرأه الفاشستيون فى عهد موسولينى هو كتاب فلفريدو باريتو هذا ، بل أن البعض يزعمون أنه كان فيلسوف الفاشستية الأول .

ويبدو أن باريتو حين كان ينقد ماركس كان متأثراً بالهيكل العام الذى وضعه لما ينبغى أن يكون عليه البحث فى العلم وعلم الاجتماع خاصة ، وكان تأثره أكبر بعد تجربته فى الدراسات الاقتصادية التى مثل لنقصها وعجزها فى الوصول إلى الحقيقة بما ضربه من أمثلة لهذا النقص مثل قانون العرض والطلب الذى قال عنه ، إنه يكون صحيحا فى ظروف مثالية ولكنه قانون غير واقعى،لأن العرض والطلب فى الواقع يتأثران بعوامل أخرى لم تكن فى حسبان واضع هذا القانون . ومع ذلك فقد وقع باريتو فى الغلطة التى زعم أن ماركس وقع فيها وظل يتعقب دراسة الرواسب وحلل الأفعال الإنسانية ويردها الى مجموعات معينة من الرواسب حتى وصل الى القول بأن الرواسب هى الأصل أو العامل المؤثر الأهم فى تكييف الظواهر الاجتماعية . واذا كان قد تعرض لعوامل أخرى . فأنه لم يعطها الأهمية التى أعطاها للرواسب .

ز ـ اللاتجانس الاجتماعي :

وثاني العوامل التي درسها باريتو بعد الرواسب ، ووجد أنها تؤثر بدورها في النظام الاجتماعي هي « فكرة اللاتجانس الاجتماعي » وهو في هذا الصدد لا يزال يهاجم نظريات كارل ماركس . فيقول إنه مهما ادعى البعض ونادى بالمساواة والحرية والديمقراطية فان ذلك لن يخفي حقيقة قائمة وثابتة ، وهي أن الأفراد يختلفون ، من حيث الجسم ويختلفون من حيث قدراتهم العقلية والخلقية ، وهذه الحقيقة عنصر دائم في المجتمع وعامل يعمل دائما على تقسيم المجتمع الى طبقات وعلى تدعيم اللامساواة الاجتماعية .

ويهاجم باريتو بمرارة فكرة الديمقراطية بمختلف معانيها ومختلف تطبيقاتها ، ويهاجم نظريات المساواة قائلا « لن يوجد هناك نظام تكون فيه مساواة لأن الناس بطبيعتهم غير متساويين ، ولكن الناس يخدعهم قول معسول أو كلام مشهور . فاللامساواة الاجتماعية واللاتجانس الاجتماعي والتقسيم الطبقي للمجتمع أمور دائمة وحقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها » .

ويبدو أن باريتو في دفاعه الحار عن فكرته هذه اشتط كثيراً وخرج على المنهج المنطقي التجريبي الذي نادى به وأدخل إلى حد كبير في رأيه هذا أموراً شخصية . فالباحث في علم الاجتماع لا يتعرض مطلقا لصدق النظريات الفلسفية أو كذبها ولا يبحث في طبائع الناس النفسية من حيث هم أفراد بل يهتم بالنظر في النظم والظواهر العامة . فسواء كان الناس متساوين أو غير متساويين ، متجانسين أو غير متجانسين ، فهذا أمر لا يهم البحث الاجتماعي ، وإنما يهتم بالافراد لانتمائهم إلى مجتمع معين تسوده نظم معينة يتعين على الباحث تسجيلها واكتشاف العوامل المؤثرة في تركيبها وتغيرها .

ومن ناحية أخرى نجد أن باريتو كما هاجم ماركس فى تفسيره المادى للتاريخ هاجمه فى نظريته المترتبة على مبادئه الاخرى فى قيام مجتمع لا طبقى، فهاجم الفكرة المجـــردة دون أن ينظر الى الواقع ، فماركس لم يزعم أن المجتمع اللاطبقى مجتمع يتساوى فيه الأفراد من حيث الجسم أو القدرة العقلية أو الخلقية ، ولكنه أراد مجتمعاً لا طبقياً من الوجهة الاقتصادية تتهيأ للجميع فيه فرص الحياة المستقرة ولا ينزلون مع ذلك فى حياتهم الاقتصادية عن مستوى معين .

هذا الى أن باريتو فى مهاجمته للديمقراطية كان متأثراً بكفاحه الطويل فى الحصول على كرسى الأستاذية فى أحد الجامعات دون جدوى ، فقد كان يعتقد أنه أحق من الكثيرين فى هذا الوقت بهذا المنصب لامتيازه وسعة معلوماته ورغبته الملحة فى خدمة العلم ، وكان يمكن أن يظل خارج التعليم الجامعى لولا الفرصة التى أتاحها له أستاذه ولراس .

ح- دورة الخاصة :

واذا كان المجتمع الطبقى أمرا مقرراً واذا كان اللاتجانس الاجتماعى والخلقى أمراً طبيعياً لا ينبغى مناقشته ، فان المجتمع على هذا النحو لا بد أن يكون فى رأى باريتو مجتمعاً مفتوحاً،أى يسمح بانتقال الأفراد من طبقة الى أخرى بناء على امتيازهم . ولهذا كانت دورة الخاصة التى وصف بها هذا الانتقال عاملا من عوامل التطور الإجتماعى ومؤثراً قوياً يترك آثاره على النظم والظواهر الاجتماعية بانتظام . ويشرح باريتو هذا الرأى على النحو الآتى :

اذا كانت اللامســاواة واللاتجانس الاجتماعى وانقســام المجتمع الى طبقتــين كبيرتــين هما : الطبقــة العليـــا والطبقـــة الســـفلى أو الدنيـا

أمراً لامفر منه، فان هناك انتقالا وحركة دائمة من الأولى إلى الثانية ومن الثانية إلى الأولى وهكذا . وتتوقف شدة هذه الحركة على ظروف المجتمع والأفراد وبالأخص على الرواسب التى تخص كل طائفة فى المجتمع .

والحكومة فى رأى باريتو مهما كان شكلها طبقة من الخاصة أو جماعة أرستقراطية . وهى بسبيل الزوال آجلا أو عاجلا ، وعندما تزول تفسح المجال لطائفة أخرى من الطبقة الدنيا لتحل محلها ، وهكذا تسير دورة الخاصة، وكل حكومة ارستقراطية تحاول البقاء على دست الحكم أطول مدة ممكنة ، ولذلك تصطنع أساليب كثيرة منها القمع والارهاب والاعتقال والسجن والرشوة والخداع. ويقرر باريتو أن الحكومة التى تصطنع أساليب كثيرة منها القمع والارهاب أدوم وأبقى من الحكومة التى تصطنع المسالمة . وكل حكومة تسير فى طريق المسالمة وحسن المعاملة ، لاشك أنها تعجل بانهيارها وتحل محلها حكومة تستعمل الأساليب العسكرية والطرق الخشنة فى ادارة الحكم .

من هذا نتبين أن فكرة الطبقات عند باريتو فكرة بدائيـة ، فقد تبين من البحث الاجتماعى أن إنقسام المجتمع الى طبقات أمر ليس بالسهولة التى تصورها وإنما تنقسم المجتمعات الى طبقات عده وعلى أسس كثيرة منها الطبقات الاقتصادية والمهنية والثقافية وهكذا ، ولم يعد للتقسيم الثنائى أو الثلاثى المجتمع أي أهمية علمية .

وقد وضح من تحليل باريتو لدورة الخاصة وبيانه لتعاقب الحكومات ووسائل إدارتها الحكم تفضيله النظام الارستقراطى (أو الديكتاتورى بمعنى أصح) وهذا يتفق مع رأيه القائل بأن الديمقراطية هراء وفكرتها عواء أذاعه الضعفاء .

وهكذا فليس غريبا أن يعد باريتو ماركس البورجوازية ونبي الفاشستية كما وصفه كتاب الغرب .

ط ـ التغير الاجتماعي :

كان لابد على باريتو أن ينهي كتابه بالبحث في أسباب التغير الاجتماعي، والتغير في رأيه ليس من البساطة بحيث يمكن وصفه أو تعيين عوامله في سهولة ، ومع ذلك قرر أن الرواسب والمصالح الاقتصادية من بين العوامل التي درسها وأتينا على شرحها فيما سبق ، هي الأساس الأول للتغير الاجتماعي، ويعتقد جنزبرج Ginsberg أن من أهم ما عمله باريتو هو بحثه في التغير الاجتماعي . والعوامل التي تؤدي اليه . فالنظام الاجتماعي يتكون من العناصر التي سبقت الإشارة إليها والتي تختلف في طريقة توزيعها سواء في المجال الفردي أو الجمعي، ومهما كانت درجة التوزيع فثمة مجموعة معينة من هذه العوامل يكون لها الغلبة في وقت ما على مجموعة أخرى ، الأمر الذي يدفع الى الحركة والتغير في إتجاه معين معروف . ولا تلبث هذه الحركة التغيرية أن تقابلها حركة أخرى مضادة ، فتكون النتيجة أن التغير يتم في شكل دائري في طبيعته ولا يجري في خطوط مستقيمة على الاطلاق .

أما الخلاف في مقدار توزيع هذه العناصر فينحصر في طبقتين ،الطبقة الحاكمة والجماهير ، فبينما تحوز الطبقة الأولى العناصر التي من شأنها أن تقيم المشاريع الجديدة ، وتهدف الى التجديد والابتكار، تجنح الطبقة الأخيرة نتيجة لحظها من هذه العناصر الى الخمول والمحافظة والنفور من كل جديد ، إذن ليس عندنا من الرواسب الفعالة غير مجموعتين ، الرواسب التي تدفع صاحبها الى التجديد والإختراع . والرواسب التي تدفع صاحبها الى الخمول والخمود . وعلى درجة امتزاج هاتين المجموعتين يتوقف شكل النظام الاجتماعي .

ففى المجال السياسى إذا كانت المجموعة الأولى أكبر من الثانية فى الطبقة الحاكمة كان لدينا حكومات تعتمد على القوة البدنية والعواطف الدينية . واذا كان الأمر على العكس تكون لدينا حكومات تعتمد على الذكاء والدهاء ومخاطبة عواطف الجماهير ، ولا تظل الحالة على وتيرة واحدة ، ولكن تحدث باستمرار حركات مضادة من الطرف الآخر ينتج عنها ذبذبات متفرقة ومختلفة فى الطول والقصر ، ومع ذلك ليس الذبذب فى طبيعة الطبقة الحاكمة هو وحده سبب التغير الاجتماعى ، فمما لا شك فيه أن للعوامل الاقتصادية والفكرية والاجتماعية آثارا لا تنكر فى هذا السبيل .

وبعد ... فعلى الرغم من اعتراف باريتو بأهمية العوامل الاقتصادية وغيرها فى التغير الاجتماعى إلا أنه لم يوفها حقها من الدراسة ، بل اقتصر على دراسة أسباب هذا التغير فى ضوء دراسته للرواسب ، وكان النظام السياسى هو المركز الذى وجه إليه النظر لتبين عوامل التغير وطريقة عملها . ويبدو أن باريتو كان ينغمس فى تأييد فكرته عن أهمية الرواسب ودورها الخطير فى المجتمع ، ولا يلبث أن يفيق الى أصول المنهج المنطقى التجريبى الذى نادى به ، فيحشر العوامل الأخرى حشرا ويأتى عليها فى سرعة . ولكنه فى الحقيقة كان يؤمن إيمانا تاما بأن الرواسب هى المسؤولة عن طبيعة المجتمع وشكل النظام الاجتماعى وطريقة التغير الذى يلحقه .

أما فكرته عن التغير الاجتماعى الدورى . فهذه فكرة قديمة وإن كان قد لحقها بعض التعديل على يديه ، فالتاريخ لا يعيد نفسه بالصورة التى كان عليها ، ولكنه يقترب من حيث الظروف والمظاهر فقط . فالتقدم العلمى واتساع رقعة العالم وتكاثر السكان وما سببه من تطور اجتماعى عميق فى جميع بلاد العالم لا يؤيد فكرة القائلين بالتغير الدورى . وإنما يدعو الى مزيد من البحث فى تحرى العوامل

الحقيقية التي لها من القوة ما تحدث بها آثارا واضحة على البناء الاجتماعي للمجتمعات . وقد تقدمت الدراسات التي أجريت حول التغير الاجتماعي وأسبابه، ولعل خير مثل على ذلك الأبحاث التي تجرى على المجتمعات البدائية التي تعتبر خير معمل لتحرى صدق النظريات التي تسن في هذا الميدان .

والذى لا شك فيه أن نظريات باريتو في علم الاجتماع فيها من الاصالة ومن الجدة ما لفت اليه النظر، واستحق كتابه مزيدا من الاهتمام والدراسة في أوروبا وأمريكا . ومن نظرياته التي صادفت إتفاقا بين علماء الاجتماع اليوم :

١ ـ نظريته في علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية .

٢ ـ نظريته في تآزر الظواهر الاجتماعية وضرورة دراستها كميا ووظيفيا .

٣ ـ إصراره على دراسة العناصر الدائمة في كل نظام اجتماعي وإهماله المسائل العارضة أو الوقتية .

وعلى الرغم من أن كتاب باريتو طويل في غير ضرورة ومنظم بطريقة غير واضحة مما قد يتعذر معه بحثه ودراسته، وغموضه في كثير من مواضعه ، الا أنه من شك أنه عمل خالد وخالد للمنهج العلمي الذى اقترحه ، وخالد أيضا للمادة الغزيزة التي أوردها فيه والتي اختلفت آراءها وجهات النظر .

ومما يؤخذ على باريتو ما يلي :

١ ـ على الرغم من أن باريتو أدعى أنه يسير على المنهج العلمي والمنطق التجريبي، فمن الواضح أن القواعد التي وصل اليها صنعت ولم تكن نتيجة للبحث والدرس .

٢ ـ ودراسات باريتو للرواسب والمشتقات لم تضف إلا قليلا لما هو معروف بطريقة منظمة في علم النفس الحديث .

٣ - لم يكن موضوعيا فى أغلب أبحاثه عن الديمقراطية وتنظيم المجتمع، فقد تحامل على الديمقراطية وأصلاها من نقده نارا وأعلى من شأن الارستقراطية واعتبرها نظاما طبيعيا دون أن يحاول اثبات ذلك بطريقة علمية .

ويرى بانزيو Panunzio (١) أنه على الرغم من أن باريتو يعد مؤسس علم الاجتماع الرياضى الا أن عمله الكبير ليس علم اجتماع فى حقيقة الأمر، فكما حاول سبنسر أن يشبه المجتمع الانسانى بالتركيب البيولوجى، كذلك حاول باريتو أن يخضع الظواهر الاجتماعية الى نوع من الطبيعة الاجتماعية ويستخرج من ذلك قانون التوازن الاجتماعى . فعمله الضخم لا يتناول الظواهر الاجتماعية بل يتناول التوازن بين الأمم والمراحل التاريخية والطبقات، ولو أنصفنا الحكم على باريتو لكان لنا أن نسمى كتابه « فلسفة المجتمع » أو الأخلاق الاجتماعية أو فلسفة التاريخ وليس علم الاجتماع .

---

(١) أنظر مقاله « علم الاجتماع فى ايطاليا » . فى كتاب جيرفيتش ومور عن (علم الاجتماع القرن العشرين)

الفصل الثاني

النظرية السوسيولوجية المعاصرة

لقد رسم الرواد الأول فى علم الاجتماع الخطوط الأساسية فى النظريات السوسيولوجية ، وحاولوا بقدر ما سمحت به الوقائع التاريخيه أو نتائج البحوث الاجتماعية فى زمانهم أو التحليل الاحصائى ، أن يقيموا هذه النظريات بحيث تتصل بالوقائع من ناحية ، وتلتزم المنهجية العامة فى العلم من ناحية أخرى ويبدو أن اختلاف هذه النظريات كان راجعا إلى عوامل متعددة من أهمها : أن هؤلاء الرواد كانوا متأثرين بمنطق العلوم الطبيعية ، فحاولوا أن تكون نظرياتهم لها سمة الاكتمال التى تتميز بها النظريات فى تلك العلوم، ومن أجل هذا تلونت النظريات السوسيولوجية المبكرة بلون يمكن أن نجد فيه آثار التحيز لعلم طبيعى أو حيوى أو ميكانيكى ، كذلك تأثر الرواد بظروف العصر والجو الفكرى السائد وخاصة المذاهب الفلسفية التى انعكست فيها النتائج الباهرة التى وصلت إليها العلوم الطبيعية والحيوية ، ومن أجل هذا حملت النظريات السوسيولوجية طابع الجدل الذى كان يميز هذه المذاهب ومع ذلك فقد نجحت هذه النظريات على اختلافها وتناقضها فى وضع الأساس وتحديد معالم الطريق الذى سارت عليه التطورات التى تميز علم الاجتماع الحديث . ومن ثم أصبحت جزءا لا يتجزأ من تراث علم الاجتماع لابد من هضمه لمعرفة حقيقة موقف علم الاجتماع الآن فى الوسائل المتعلقة بالبحث والنظريات معا .

إن علم الاجتماع المعاصر يختلف من وجهات نظر متعددة عن علم الاجتماع الذى بلورته النظريات السوسيولوجية المبكرة ، ذلك لأن تقدم البحث وما

صحبه من نمو فى النظرية منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن جعل الاهتمام من حيث المنهج والموضوع فى هذا العلم يتجه اتجاهات أكثر واقعية ، وأكثر اتصالا بالحاضر وأكثر تطلعاً للمستقبل . وتتلخص أهم نتائج هذا التحول فيما يلى :

١ - أصبح علم الاجتماع يعنى أكثر من أى وقت ، « بالتحليل » الأمر الذى ترتب عليه عدة تغيرات تتصل بطابع الاستقصاءات السوسيولوجية من حيث الموضوع والمنهج . فقد قل الاهتمام بتتبع النمو التاريخى للأنساق الاجتماعية ذات الطبيعة الكلية ، وهذا لأنه صار واضحا أن العثور على « حالات » مؤيدة لهذا النمو ذات وثوق ودقة كافية ، أصبح أمرا معوقا فى اختبار التعميمات النظرية .

٢ - انصرف أكثر علماء الاجتماع إلى دراسة « الانماط الاجتماعية » ذات الطابع التكرارى والتى يمكن ملاحظتها فى الوقت الحاضر ، وذلك مثل تأثير المصادر ذات القوة والفاعلية على النظم المختلفة ، وصلة تغير علاقات الجوار بتغير طابع الحياة من القروية الى الحضرية ، وكيف تؤثر العلاقات غير الشخصية فى الجماعات العاملة وفى انتاجيتها . وهكذا .

٣ - تزايد الاهتمام بدراسة علم النفس الإجتماعى . ولذلك يعنى كثير من الباحثين الآن بدراسة الميكانيزمات النفسية المتضمنة فى العمليات الاجتماعية ، عند بحث الظروف الاجتماعية التى تؤثر فى أنماط السلوك .

٤ - ظهر اتجاه واضح الآن فى علم الاجتماع يتمثل فى الاهتمام بالمناهج والطرق « الكمية » فى جمع الحقائق وتحليلها . ويعتبر هذا الاتجاه نتيجة الانصراف عن معالجة المادة التاريخية . الى استقصاء أنماط السلوك فى المجتمع المعاصر . ولذلك كانت الحاجة الى مناهج جديدة فى البحث أمرا جوهريا

وواضحا . وربما فسرت هذه الحاجة الاهتمام المتزايد بالمسائل المنهجية فى علم الاجتماع ،التى تعالج موضوع العينات والطرق الاحصائية فى التحليل ،والإجراءات المناسبة فى الإستبار وبناء الإستخبار ، والمناهج التى يجب اتباعها فى الملاحظة وغير ذلك من وسائل القياس المختلفة .

٥ - إن رد الفعل المناهض للفلسفة الاجتماعية فى علم الاجتماع ، جعل بعض علمائه يتطرفون فى الركون الى « الواقعية » أو الى رفض « النظرية » كمطلب علمى معترف به تقوم عليها الدراسة أو توجهها (وربما كان هذا هو الذى أدى الى ظهور السلوكية فى علم النفس والمذهب التاريخى فى التاريخ والاعتماد على الحقائق الإثنوجرافية دون غيرها فى الانثروبولوجيا)، ولهذا ظهرت «الإجرائية» فى علم الاجتماع . وقد قام الاتجاه الإجرائى على أساس الأفكار التى دعمها عالم الطبيعة « يرسى بردجمان » وتتلخص فى أن الأفكار العلمية يجب أن تستمد من الاجراءات الواقعية المستخدمة فى القياس ، ولا تستمد مطلقا من اطار نظرى ، ومعنى ذلك أن الآراء المختلفة عن طبيعة المجتمع أو الثقافة أو الشخصية والمسلم بها قبلا والتى تشكل نقط إبتداء فى علم الاجتماع ، آراء مضللة ، ولا تقوم إلا على منطق صورى مرفوض . فالحقائق عن طبيعة المجتمع يجب أن تستمد موضوعيا « وقياسيا » من المجتمع نفسه بملاحظة الأفعال والظواهر فى الواقع .

٦ - ولم يقتصر رد الفعل المناهض للفلسفة الاجتماعية أو فلسفة التاريخ على ذلك ، بل ظهر « الاتجاه الوظيفى » الذى استمد أساسا من « دوركايم » ونماه أنثروبولوجيون مثل « مالينوفسكى وراد كليف براون » . ودعوى « الوظيفية » فى علم الاجتماع تتلخص فى أن النظم الاجتماعـــية يجب أن تفسر على أساس الوظائف الحاليـة التى تؤديها فى البنـاء الاجتماعى ، دون الاهتمام بتطورها

التاريخى . وقد كانت المجتمعات البدائية خير « معمل » لتطبيق هذا الاتجاه ، لأن كل أفكار عن التطور الاجتماعى ستظل ذات طابع مجرد فى ظل عدم وجود وثائق تاريخية لتلك المجتمعات - ولكن إذا تيسرت المادة العلمية عن زمنين مختلفين فليس هناك من مبرر لتجاهلها . كما أن القول بأن علماء الاجتماع لا يهتمون بالأحداث التاريخية المفردة ، لا يعنى أنهم لا يعنون بأنماط التغير الاجتماعى . فكل تغير يمكن أن يدرس عن طريق فحص العلاقات التى تكون بين الظروف الاجتماعية فى زمنين مختلفين أو أكثر .

٧ - وعلى الرغم من التناقض بين « الواقعيين » و « النظريين » و « الوظيفيين » والمفضلين للمدخل التاريخى ، فان علم الاجتماع فى السنين الأخيرة يتجه إلى تأكيد التكامل بين البحث والنظرية . كما أن هناك اتجاها ينمو بسرعة الآن ، ودعواه الأساسية : أنه ليتم التكامل الفعلى بين البحث الواقعى والنظرية ، يجب ان نركز على النظريات التى تصلح لمعالجة مسائل محددة أكثر من التركيز على النظريات ذات الطابع التعميمى الواسع النطاق فى الحياة الاجتماعية بأسرها .

٨ - وإلى جانب ذلك ينمو اتجاه آخر لإعادة بناء الاتجاه الوظيفى ليمكن تطبيقه فى دراسة مسائل التغير الاجتماعى ، والنتائج التى تترتب عليه من انحراف أو توازن فى البناء الاجتماعى .

المعالم الرئيسية للنظريات السوسيولوجية المعاصرة

تتميز النظرية السوسيولوجية فى القرن العشرين بتشعبها أكثر من أى وقت مضى ، وخاصة عند مقارنتها بما كانت عليه فى القرن التاسع عشر ، كما أن اتجاهاتها لم يعد بينها وجوه شبه ، ذلك أن المعرفة الواقعية عن المجتمع تراكمت ولا تزال من حيث الكم والكيف . ويلاحظ أن ثمة استنتاجات

وتعميمات معينة أصبحت مقبولة ومستخدمة فى البحث لدى عدد كبير من علماء الاجتماع ، على الرغم من أن هذا القبول يرتد فى الغالب الى الشكل دون الجوهر وتتميز النظرية السوسيولوجية أيضا باختلافها الكبير حول اختيار المناهج المناسبة التى يمكن استخدامها فى الحصول على المعرفة الواقعية وتنظيمها ، وكذلك حول إطار المفاهيم الذى يمكن استخدامه كأداة فى التحليل . ونظراً لتعدد اتجاهات النظرية فى الوقت الحاضر من ناحية ، وتعدد فروع كل اتجاه من ناحية أخرى ، فسوف نقتصر هنا - اتفاقاً مع أغراض هذا الكتاب - على عرض أهم الإتجاهات ذات الأثر الواضح فى دراسات علم الاجتماع .

أولا - الاتجاه الوضعى

الوضعية اتجاه فكرى يبنى تفسير العالم على معطيات التجربة وحدها . وتستلهم الوضعية نقطة انطلاقها من العلوم الطبيعية التى أثبتت فى عالم اليوم أنها أنجح طريقة لمعالجة مادة التجربة ، كما أنها تحاول أن تبحث عن نظرة موحدة لعالم الظواهر - الطبيعية والانسانية - من خلال تطبيق المناهج والنتائج التى تصل اليها العلوم الطبيعية . وقد ظهرت الوضعية كرد فعل للفلسفة التقليدية ، وكمحاولة للنفاذ فى تعقيداتها واختلافاتها وذلك لإقامة التفكير على أساس محدد (١).

١ - وتمتد جذور الوضعية حتى « الدريين » و « السفوسطائيين » . فديمقريطس مثلا أدرك أن كل التغيرات التى تحدث فى الطبيعة ترجع إلى الالتحام والانفصال المستمر للذرات . كما أن « الصفات » تعتمد على الحجم والصورة وترتيب الذرات . ويفسر الحب والكراهية بالحركات التى تحدث

1— Don Marindale : The Nature and Types of Sociological Theories, Boston 1963 p. 56

فى المادة الأولية ، والمعرفة فى نهاية الأمر تستمد من الملاحظة ، ولذلك كان العيب فى الإدراك الحسى هو المصدر الأول للخطأ .

أما السفوسطائيون فقد رفضوا البحث الميتافيزيقى ، وأقاموا كل دراساتهم على التجربة ، وحاولوا أن يجمعوا عن طريقها أكبر قدر ممكن من المعرفة عن كل شئون الحياة ، وكانت لهم أفكار عن إمكان وجود المعرفة فى بداية تقدم المدنية ، وعن أصل اللغة وبنائها ، وعن علاقة الفرد بالمجتمع . وكان منهجهم فى هذا كله واقعياً استقرائيا . وحاولت السفوسطائية أن تجعل تحليلها يلتزم التجربة ذاتها ، وأظهرت ميلا لمد منهجها ليستخدم فى حل مشاكل الحياة اليومية والاجتماعية . والمعرفة فى رأيها ذات قيمة فقط إذا هيأت الوسائل للسيطرة على الحياة وضبطها ، ولذلك فإن السفوسطائى يهدف إلى الوصول إلى ما يفيد الناس فى حياتهم ، أو بمعنى آخر يريد أن يصل الى فن الحياة والسيطرة عليها .

٢ — إن النتائج الباهرة التى وصلت اليها العلوم الطبيعية فى القرون الثلاثة الأخيرة جعلت من الممكن ، إعادة بناء الفكر ، وصياغته على أساس من العلم ، وجعلت من الممكن أيضا إمتداد طريقة العلم إلى المجتمع والمدنية . ومن المألوف تتبع الوضعية الجديدة ابتداء من كتابات فرنسيس بيكون ، التى حاول فيها أن يدرس نقائص العلوم والمعوقات التى تقف فى وجه المعرفة وترجع فى أساسها الى تركيب العقل ذاته ، وقد درس أيضا فروع المعرفة المختلفة فى محاولة لتوضيح مشاكل العلوم ومبلغ ما وصلت اليه فى بحوثها ، كما درس ارستقراطية العلم الحديث التى أحلت سيادة الإنسان على الطبيعة محل سيادة الإنسان على الإنسان .

٣ — إن الوضعية التى ترى أن المناهج التى أثبتت نجاحها فى العلوم الطبيعية

هى المناهج التى تناسب دراسة الظواهر الإجتماعية ظهرت لأول مرة وبطريقة منتظمة فى علم الاجتماع عند أجيست كومت . وعلم الاجتماع كان فى حقيقة الأمر عند كومت العلم الذى استبدل به البحث فى الفلسفة الميتافيزيقية . فالمعرفة السوسيولوجية ليست من حيث المبدأ مختلفة عن صور المعرفة العلمية الأخرى ، ولكنها مجرد دراسة أكثر تعقيداً وأقل عمومية . وقد حاول كومت أن يبين أن المعرفة العامة بالعلوم الطبيعية ضرورية كأساس للعلوم البيولوجية وبالتالى المعرفة السوسيولوجية ، وتصنيف أوجيست كومت للعلوم يصور هذه الضرورة عنده خير تصوير . وطبقا لما قاله يعتمد علم الاجتماع على مناهج ثلاث مباشرة هى الملاحظة والتجربة والمقارنة ، ولكن الملاحظة يجب أن تكون موجهة عن طريق النظرية لتصبح ذات فاعلية ، أما التجريب فانه لا يطبق بطريقة واسعة على مادة العلم الاجتماعى وجدير بالذكر أن المقارنة تكون الأساس الذى يجب أن يعتمد عليه علم الإجتماع ليضمن نجاحه وقد أشار كومت إلى أنه من المناسب ومن الممكن فى نفس الوقت أن نقارن بالمجتمع المعاصر البدائى لنتمكن من ملاحظة الإدوار المختلفة للتطور . وقد شارك كل من هربرت سبنسر وليستر وورد هذا الاتجاه الوضعى .

٤ — هكذا نتبين أن الإتجاه الوضعى قديم فى التفكير الإنسانى ، ولكنه أصبح فى علم الاجتماع إتجاها محدداً منذ إنشائه ، وقد زاد الاقتناع به عند كثير من علماء الاجتماع وخاصة عند رواده الاول نتيجة لما تأثروا به من ملاحظة التقدم الذى تم فى ميدان العلوم الطبيعية والنتائج الباهرة التى وصلت اليها باستخدامها المناهج التجريبية واعتمادها على المادة وحدها فى معالجة الحقائق وتحليلها ، ويجب أن نلاحظ هنا أن نشأة علم الاجتماع المتأخرة بعد الطريق الطويل الذى قطعته العلوم الطبيعية كان لها أثر واضح فى هذا الاعتناق المبكر لمناهج هذه العلوم وتطبيقها فى دراسة الشئون الإنسانية .

وقد اعتنق كثير من علماء الاجتماع الذين جاءوا بعد كومت وسبنسر هذا الاتجاه ، وكونوا مدرسة محددة قائمة بذاتها فى النظرية السوسيولوجية ، وقد اقترنت أفكار هذه المدرسة فى تاريخها المبكر بالأفكار « العضوية » التى فضلت مقارنة المجتمع بالكائن الحى مقارنة تساعد على فهم المجتمع من حيث البناء والوظيفة والتغير . ولكن نمو النظرية السوسيولوجية فيما بعد فصل هذه المدرسة الى اتجاهين واضحين : الاتجاه الوضعى والاتجاه العضوى (١)

٥ — وقد ظهرت الوضعية فى ثوبها الجديد إثر تناقص الإهتمام بالأفكار المتعلقة بالتطور ، ويسمى تيماشيف (٢) هذا الاتجاه فى علم الاجتماع المعاصر باسم « الوضعية المحدثة » . وتقوم هذه الوضعية على عناصر ثلاث هى :

أ — الكمية ، التى تقوم على اعتبار العد والقياس منهجا فى الدراسة ضرورى فى الإستقصاء العلمى فى أى ميدان بما فى ذلك علم الاجتماع ، ويعتبر « كتيليه » البلجيكى من الأوائل الذين دعموا هذا الاتجاه . كما أن كتاب « قواعد العلم » الذى كتبه كارل بيرسون سنة ١٨٩١ يعتبر رمز « الكمية » .

ب — السلوكية ، التى ظهرت أيضا فى كتاب بيرسون السابق ، ولكنها تجددت فى كتابات عالم النفس الأمريكى جون واطسون ، الذى دعم آراء عالم الفسيولوجيا الروسى ايفان بافلوف . وتتلخص دعوى واطسون الى

---

١ — عرضت هذه الاتجاهات وما تشعبت اليه من فروع فى أكثر كتب تاريخ التفكير الاجتماعى والنظريات السوسيولوجية . ومن أمثلة هذه الكتب :

a — House F; Development of Sociology, N. Y., 1936
b — Sorokin, Contémporary Sociological Theoriés; N. Y. 1928
2 — Timasheff, Sociological Théory, N. Y., 1955, pp. 137—138

السلوكية فى أن الشعور لا يمكن معرفته موضوعيا ، وأن الاستبطان لا يمكن أن يكون مصدرا للمعرفة ، ولذلك فان علم النفس — وبالتالى علم الاجتماع — يجب أن يدرس السلوك الممكن ملاحظته دون غيره .

ح — المعرفة الوضعية ، التى نجد جذورها فى كتابات وليام جيمس البراجماتيكية وكذلك فى كتابات جون ديوى وبرتراند رسل . ولكن كارل بيرسون هو الذى وضعها بالطريقة التى أثرت فى علم الاجتماع . ذلك أنه يرى أن المعرفة يجب أن تكون نتيجة للانطباعات الحسية وما يترتب عليها ويقول أن حقيقة الشىء تتوقف على إمكان حدوثه كليا أو جزئيا على هيئة مجموعة من الانطباعات الحسية . واذا استطعنا أن نقيم « نظاما » على أساس هذه الانطباعات أمكننا أن نسن قانونا . ولذلك فالقانون لا يشكل أو يوجد « ضرورة » فى الواقع ، لأن الضرورة تصور انسانى دخل بطريقة غير منطقية فى عالم المدركات (١)

جورج لندبرج : G. Lundberg

يعتبر لندبرج أحد أقطاب الاتجاه الوضعى الحديث فى علم الاجتماع . وتظهر « وضعيته » من خلال كتابيه « أسس علم الاجتماع (٢) » و « هل يستطيع العلم انقاذنا ؟ (٣) » ، وتتلخص أهم آرائه فيما يلى :

أ — العلم سواء كان علما طبيعيا أو اجتماعيا — يعتبر وسيلة فنية « للتوافق » بالضرورة . ذلك أن كل استقصاء يبدأ بتوتر أو اختلال من نوع معين فى الكائن المستقصى . وتعتبر هذه الفكرة لب « السلوكية » لأنها تغفل الإشارة

---

1 — Ibid. P. 138

2 — Lundberg. Foundations of Sociology, N. Y., 1939.

3 — Lundberg. Can Science Save Us, N. Y., 1947 .

الحقائق العقلية هذا الى أن كل التوافق فى حياة الانسان يقترب من « موقف متوازن » يعبر عن الوضع الطبيعى للاشياء .

ب ـ التوافق المعين الذى يكون العلوم الاجتماعية ، وعلى الأخص علم الاجتماع يصوره لندبرج على النحو الآتى : كل الظواهر التى يهتم بها العلم تتكون من انتقالات الطاقة (أى الحركة) فى عالم طبيعى ، وكل حركة تتم (تاخذ مكانا) فى الزمن ، فى « حقل القوة » الذى يشكل جزءا من العالم ، والذى يعرفه لندبرج على أنه « الموقف » . وحركات الناس (سلوكهم) التى تحدد مواضعهم فى المواقف الاجتماعية تكون موضوع العلوم الاجتماعية .

جـ ـ السلوك المتبادل أو المتساند بين أى عدد من المكونات (بين الناس) فى موقف ما يسمى « التفاعل » وكل التفاعل الانسانى يتضمن تنمية واستخدام الرموز التى يشار إليها غالبا باسم « وسائل الاتصال » . ويعتبر الترابط والتفكك النمطين الرئيسين لها ، ويشيران الى الحركة التى تتم فى اتجاه موقف معين أو بعيدا عنه ، ويذكرنا هذا التفسير بحركتى الجذب والطرد لأجزاء الذرة .

د ـ لا تنفصل « الكمية » عن « السلوكية » عند لندبرج . ولذلك فإنه يرى أن اصطلاحات مثل « الشعور » والأهداف ، والدوافع ، والقيم » ليست إلا المتاهات التى لا تزال تعرقل نمو العلوم الاجتماعية . وعلى الرغم من رفضه « السلوكى » لهذه الاصطلاحات ، إلا أنه لم ينكر أهميتها كأحد الموضوعات الهامة التى على علم الاجتماع أن يدرسها (١).

هـ ـ لا ينبغى على العلم أن يتورط فى إصدار أحكام قيمية » ، ذلك أن

---

1 — Timasheff; Op. cit, p. 195

الأقوال ذات الطابع العلمى وذات الطابع الخلقى لا يمكن ردها أحدهما للآخر. ولذلك فإن علم الاجتماع - بما أنه علم - لا يتعرض مطلقاً لاصدار أحكام قيمية. وهو يرفض التحليل الوظيفى للقيم الذى يقوم على تصوير أهميتها فى بقاء الأفراد أو الجماعات ، ولكنه يستنتج القيم من التاريخ الاجتماعى التطورى ، حين يجد أن ثمة « صور من السلوك » قد أثبتت فاعلية وفائدة بمقارنتها بغيرها . ومن أجل هذا يمكن اعتبار تلك الصور السلوكية بالنسبة للمجتمع محل الدراسة بمثابة القيم .

ز - يلجأ لندبرج إلى « التعريفات الاجرائية » . فالظواهر فى نظره « موضوعية » إذا انطبقت عليها مقاييس ، الاتفاق والتأييد والتنبؤ ، ولذلك فالتعريفات القبلية عن « الطبيعة الضرورية » للمجتمع أو الثقافة أو النظم الاجتماعية وما شابهها ، إنما تنبع من منطق صورى « أرسطى » مضى زمانه ولا قيمة له من الناحية العلمية : ومن أمثلة تعريفات لندبرج ، أن المكان هو ذلك الشيء الذى يمكن قياسه بأداة من أدوات القياس (كالمتر) كما أن الزمن هو الذى يمكن تسجيله عن طريق الساعة . والذكاء هو الذى يمكن قياسه عن طريق أحد مقاييس الذكاء الموضوعية .

ويشير أغلب نقاد النظرية السوسيولوجية إلى أن لندبرج يعتبر أكبر ممثلى الاتجاه الوضعى تطرفاً ، حتى أنه بنظريته التى عرضنا أهم خصائصها ، ترك الإنسان بلا أمل (١) ، وحول قيمه وغايته ، وحبه وكراهيته إلى نوع من التوترات التى تحتاج إلى تخفيف ، وإلى نوع من الاختلال الذى يسير نحو التوازن . إن الانسان فى المجتمع لا يمكن أن نماثله بجزء أو ذرة ، ولا يمكن تمثيل سلوكه بحركة هذه الاجزاء وإلا فإننا نجرد « الحياة

---

1 — Don Martindale ; Op. cit. , p. 121

الاجتماعية » من حيويتها وقيمتها . ولكن لندبرج يرد على ذلك بقوله إننى أحاول أن أفهم المجتمع . وأحاول أن أطبق العلم ومناهجه على هذه المحاولة ، ولست أبغى من دراسة علم الاجتماع أن أقدمها للرجل العادى . بل إن عالم الاجتماع إذا استطاع أن يفهم عن طريق العلم حركة المجتمع والأفراد ، يمكنه وهو معتمد على فهمه العميق أن يسهم بدور فعال فى انقاذ الإنسان وفى إصلاح المجتمع .

إننا لانستطيع أن نشير إلى لندبرج دون أن نشير إلى زميله ستوارث دود Stuart Dodd الذى اشتهر بمؤلفه « الأبعاد القياسية للمجتمع » (١) ويقول لندبرج إن هذا الكتاب ينمى ويحدد الناحية المنهجية لموقفه النظرى الذى عرضه فى كتابه « أسس علم الاجتماع » . وهدف الأبعاد القياسية » إقامة نظرية كمية منتظمة عن المجتمع ، تعرف باسم « نظرية المواقف S—theory » ويمثل الرمز « S » الموقف . والمواقف عند دود يمكن تحليلها إلى أربع أصناف من المكونات : « الزمن والمكان » المشتركان بين جميع العلوم ، « السكان » التى توجد فى كل أصناف الظواهر الاجتماعية ، وأخيرا « خصائص » الناس أو بيئتهم . وينظر دود إلى « الخصائص » باعتبارها « مرتبة » تجمع كل شىء آخر . وقد عرض دود معادلته على النحو الآتى S=P.I L.T وتشير « P » إلى السكان ، "I" إلى الخصائص ، و « L » إلى المكان ، و « T » إلى الزمن . ويرى دود أن نظريته هذه يمكن أن تصلح فى التحليل والتنبؤ معا ، على الرغم من أنها تبدو كأنها « نسق تصنيفى »(٢).

---

1 — Dodd, S . Dimensions of Society, N. Y. , 1942
2 — Timasheff. Op. Cit. , p. 197

ويليام أجبرن : William Ogburn :

يعتبر أجبرن من أشهر علماء الاجتماع المعاصرين . وقد أثارت نظرياته عن التغير الاجتماعي والتخلف الثقافي مجادلات كثيرة بين العلماء والباحثين في العلوم الاجتماعية . ونصنفه هنا ضمن « الاتجاه الوضعي الحديث » وإن كان موقفه النظري أقل تطرفا من جورج لندبرج . وقد أخرج بعض مؤلفاته بالاشتراك مع زميله « نيمكوف Nimkoff الذي يشاركه موقفه من مسائل علم الاجتماع ولعل كتابهما « الموجز في علم الاجتماع » (١) يعد من أشهر الكتب العامة في هذا العلم ويرجع اليه في أغلب بلاد العالم باعتباره مثل أحسن الكتب التي تعالج مبادئ دراسة المجتمع . هذا وتتلخص أهم اتجاهاته فيما يلي :

ا - يرى «دون مارتنديل » ، أن أجبرن التزم الجانب السلوكي من الاتجاه الوضعي ، ولهذا فإنه مال الى تأكيد « التأثير الاجتماعي أكثر من البيولوجي في تفسير الأحداث الاجتماعية (٢) فأهم شيء في نظره لتفسير أعمال الإنسان هو ، « التراث الاجتماعي » الذي لا يعتبره نتيجة لأعمال الانسان خلال فترة محددة ، بل إنه النتاج الإنساني المنبقي من زمن بعيد واستطاع أن يدوم لينتقل من جيل الى جيل . ولكن « تيماشيف » يعتقد أن دراسة أجبرن « الآثار الاجتماعية للطيران - ١٩٤٦ » جعلته يقترب من الشعبة الرياضية للمدرسة الوضعية (١) . فهو يرى في ثنايا هذه الدراسة أن الحاجة ماسة الى إيجاد مناهج يمكن بها أن نتنبأ بدقة وخاصة فيما يتعلق بالتطورات الاجتماعية المستقبلة . ومع ذلك ينتمي أجبرن في الأساس إلى الاتجاه الوضعي سواء ظهرت السلوكية أو الرياضية في بعض أعماله، لأنه التزم خطوطها الرئيسية في كل دراساته .

1- Ogburn, Nimkoff: A Handbook of Sociology, London, 1958
2- Don Martindale, Op Cit , p. 324
3- Timasheff; Op. Cit., p. 204

ب ـ يجمع كتاب النظرية السوسيولوجية أن أهم نظريات أجبرن جاءت في كتابه المبكر : (التغير الاجتماعي ـ ١٩٢٢) . ففي هذا الكتاب استبدل باصلاح « التطور Evolution » الذي كان سائدا قبله ، اصلاح « التغير » ليضع الأساس الذي يفرق بين التطوريين النفسيين والتطوريين الاجتماعيين ، كما أنه من أوائل الباحثين الذين لفتوا النظر إلى « الثقافة Culture ـ النتاج المتراكم للمجتمع الانساني » .

جـ ـ تشتمل « الثقافة » عند أجبرن على الأشياء المادية ، والنظم الاجتماعية والطريقة الاجتماعية التي يسير عليها الناس في حياتهم . ولذلك كان التغير الثقافي هو التغير في هذه المنتجات . والعامل الأساسي في التغير هو « تراكم » الصور الثقافية التي تترتب على الاختراع والاكتشاف . ولهذا كانت العناصر الأساسية للعملية الاجتماعية الاضطـــرادية ، هي الاختراع والانتشار ، وتوافق العناصر الثقافية ، ويرى « مارتنديل » أن الجديد عند أجبرن في هذا المقـــام أنه أكد الاختلاف بين الثقافة المادية والثقافة المتوافقة التي تشير الى كل ما هو غير عادي في حياة الانسان ، كالنظم الاجتماعية التي يجب أن تتوافق مع الجانب المادي عند حدوث أي نمو فيه .

د ـ إن توافق الجزء اللامادي من الثقافة لا يسير بسهولة ، بل تعترضه عقبات كثيرة منها « الصراع الذي يبديه أصحاب المصالح التي سوف تضار من التغـير ، والخوف الذي يسيطر على بعض الناس خشية تجربة ما هو جديد ، والبطء الذي قد يعود الى تحكم العادات أو النزعات المحافظة ، وقد تكون مبادىء التربية (غير المتغيرة ، أو صعوبة المراجعة العقلية عند بعض الناس، من الأسباب الهامة لتعويق التغيرات الجديدة » ، ولكن التغير نتيجة لاستمرار عملياته يقلل من هذه المعوقات بالتدريج .

هـ - لما كان التغير فى الثقافـــة المادية يسبق التغير فى الثقافة المتوافقة ، ونظرا لبطء وصول الأخيرة الى نقطة التقاء مع الاولى ، فان هذا يترتب عليه ما سماه أجبرن « التخلف Leg » الذى قد يكون ضارا بالمجتمع ، ومن أجل هذا يجب قياس هذا التخلف لمعرفة مداه وتأثيراته المختلفة . ويستخدم أجبرن هذه الفكرة فى تفسير كثير من الصراعات والتوترات والمشاكل التى تحدث فى المجتمع فيقول مثلا إن التشريعات التى تحمى العمال لاتنمو بالدرجة التى تنمو بها الآلات. أو لا تتغير أساليب الرعاية الاجتماعية بتحول المجتمع من الرأسمالية الى الاشتراكية(١)

و - يرى كثير من النقاد أن نظرية « التخلف الثقافى » تثير عدة أسئلة ، أهمها: « ماذا يتخلف وراء ماذا ؟ وهل من الضرورى بصفة مطلقة أن يسبق التغير المادى التغير اللامادى وهل يحدث دائما نتيجة لهذا التخلف مشاكل اجتماعية ؟ وقد عدل أجبرن موقفه عند إعادة طبع كتابه عن « التغير الاجتماعى » عام ١٩٥٠. فقال إن عددا من المشاكل تنشأ من الافتقار الى التكامل بين الطبيعة الإنسانية وبين الثقافة المعاصرة . فالثقافة تقدمت تقدما كبيرا خلال القرون الماضية بينما لم تتغير الطبيعة الانسانية مثلا إلا قليلا منذ العصر الجليدى . والتخلف الذى ينشأ عن ذلك يتسبب فى خلق كثير من مسائل سوء التكيف وانعدام التوافق . ويظهر هذا جليا لو تصورنا رجلا جاء من العصر الجليدى ليعيش فى ثقافة الانسان اليوم .

---

(١) نقصد بذلك العمل بمبادىء الخدمة الاجتماعية الرأسمالية المولد والنشـــأة ، فى مجتمعنا الاشتراكى ، فى الوقت الذى يجب أن تتغير من حيث « الشكل والمضمون » أى من حيث مناهجها ووسائلها الفنية وموضوعات الاهتمام فيها لتتلاقى مع الأهداف الاجتماعية التى تـكون جوهر التغير الاجتماعى فى مجتمعنا . وفهم البعض خطأ أننى أنادى بالغاء الخدمة الاجتماعية . ولـكن فى الحقيقة أدعو الى تنقيتها من ايديولوجيتها الرأسمالية ، ووهم ومعالجة عوامل مقاومة هذه الدعوة والتى أشار اليها أجبرن فى الفقرة « د »

ز ـ كما أن أجبرن عاد يحدد عوامل التفسير على النحو الآتى : تتغير الثقافة لأربع عوامل هى : الاختراع ، والتراكم . والانتشار والتوافق . والاختراع إما أن يكون آلياً أو اجتماعياً ، ويظهر نتيجة لعوامل ثلاث هى ، النشاط العقلى والحاجة ووجود عناصر ثقافية أخرى . ويحدث التراكم عندما تكون نسبة العناصر الجديدة التى تضاف إلى القاعدة الثقافية أكثر من نسبة العناصر التى تفقد. والانتشار انتقال المخترعات فى اتجاهات مختلفة . ويكون التوافق أمرا يجب فرضه عندما يتفاعل اختراع مع عناصر الثقافة الأخرى.

إن نظريات أجبرن ـ كما سبق أن ذكرنا ـ لقيت أكبر الاهتمام من علماء الاجتماع ، فقد كان له الفضل فى مطلع القرن العشرين فى بيان أهمية العوامل التكنولوجية فى تغيير المجتمع ـ حتى أن كثيراً من النقاد إتهموه بأنه يتناسى عوامل التأثير فى الحياة ، إلا عاملا واحدا قد يصل فى تفسيره للتغير الى مرتبة الحتمية . وأهم من هذا كله أن أجبرن عمق فكرته عن التخلف التى عارضها كثيرون من علماء الاجتماع وعلى رأسهم « سوروكن Sorokin » ، وقبلها آخرون ، وإن عدلوا فيها بعض الشيء . إلا أن علم الاجتماع عندما اتجه فى السنوات الأخيرة الى الاهتمام بدراسة المشاكل الاجتماعية ، واستخدم «التفكك الاجتماعى» الذى يعتبر نتيجة مباشرة للتخلف كأحد المداخل الأساسية لفهم مشاكل المجتمع والانحراف الذى يظهر فى السلوك الاجتماعى وهذا على الرغم من أن كلمة التفكك لاتزال غامضة فى أذهان من يستخدمها ، ولم يحدث هناك اتفاق حتى الآن حول المعانى المحددة التى تتضمنها .

ثانيا ـ الاتجاه الوظيفى :

تحتل « الوظيفية » مكانا مرموقا فى النظرية السوسيولوجية المعاصرة

ولا نكاد نجد باحثاً فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا، إلا وظهرت فى أعماله وتفسيراته ومنهجه خصائص هذا الاتجاه ، حتى أن بعض علماء الاجتماع يقولون إن دراسة مسائل علم الاجتماع تتجه اتجاها بنائيا ووظيفيا بالضرورة . والاتجاه الوظيفى لا يمثل مدرسة محددة تحديدا واضحا فى العلوم الاجتماعية ، بل إنه يتشعب شعباً كثيرة تجمعها خصائص عامة ، كما سوف نرى فيما بعد . ونلاحظ هنا أن أول من أستعمل كلمة « الوظيفية » كان الفيلسوف ليبنتز ، واستخدمت فى الرياضة لتشير إلى المتغير فى علاقته بمتغير أو متغيرات أخرى (١) . ويقول « هوريس كالن Horace Kallen » فى مقالته عن « الوظيفية فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية » إن « الوظيفية » ترجع إلى الحركة التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر ، فى الفلسفة تحت تأثير « الداروينية » على العلوم البيولوجية والاجتماعية ، أما خصائصها المميزة فتظهر فى اهتمامها الأول بالعلاقات ونواحى النشاط أكثر من اهتمامها بالمادة ذاتها ، ويرى كالن أن الأفكار المتميزة التى تعبر عن الوظيفية هى « الانتقال ، والأنماط الدينامية ، والعملية ، والنمو والامتداد والانبثاق » ويستمر كالن فى شرحه للوظيفية فيقول ، كانت الوظيفية تعالج فيما مضى ، على أنها « متغير معتمد ، أو خاصية لبناء ثابت ، ولكن الوظيفية اليوم ينظر اليها باعتبارها « المتغير المستقل » وارتد البناء أو الصورة الى المحل الثانى . ولتصوير ذلك نقول ، إن الانسان فى الماضى كان يقال إن له رجلين (وهذا بناء) ، وهو لذلك يسير (وظيفة) أما الان فيقال إن الانسان يسير (وظيفة) وقد أدى هذا النوع من النشاط إلى أن تكون له رجلان (بناء) .

---

1 — Merton, R., Social Theory and Social Structure N.Y., 1962. p. 21

ولقد أثرت الوظيفية على كل نظم الفكر من علم نفس ومنطق وفلسفة وخاصة عندما تحدد اتجاهها وفكرتها الأساسية،أو بمعنى آخر عندما نظر اليها باعتبارها عملية اطرادية وكوسيلة لغاية .

لهذا يمكن أن نتبع الاتجاه الوظيفى فى دراسة الظواهر الاجتماعية فى أعمال رواد علم الاجتماع الأوائل من أمثال دوركايم وباريتو . ولكن ظهور هذا الاتجاه بالوضوح الذى يزداد باستمرار تأخر حتى الربع الثانى من القرن العشرين تحت تأثير الانثروبولوجيا ، ويرى تيماشيف أن ازدياد تأثير هذا المدخل فى مسائل علم الاجتماع ينبىء بأن الوظيفية سوف تأخذ مكان الوضعية المحدثة (١)

١ ـ نمو الاتجاه الوظيفى :

إن التعريفات المتعددة والمناقضة أحيانا لاصطلاح الوظيفة أوالوظيفية،أسدل ستارا من الغموض حول هذا الاتجاه . ولكن الغالب أن « الوظيفة » تشير الى القدر الذى يسهم به الجزء فى الكل (المجتمع أو الثقافة) ولعل هذا المعنى هوالذى يأخـــذ به كبار الأنثروبولوجيين من أمثال رادكليف براون ، ورالف لنتن ومالينوفسكى. ويظهرأيضا بصورة ما ،فى أعمال دوركايم ،كما أن الاتجاهالوظيفى يشير إلى ضرورة التأكيد على تكامل الأجزاء فى كليات أو التساند الضرورى بين الأجزاء ويستخدم « التحليل الوظيفى » للاشارة الىدراسة الظواهرالاجتماعية كنتيجة لبناءات اجتماعية معينة مثل القرابة أو الأنساق الطبقية (٢).

---

1 — Timasheff., OP. 219

2 — Ibid.; p. 220

والاتجاه الوظيفى أقدم فى البيولوجيا وعلم النفس والانثروبولوجيا ، منه فى علم الاجتماع ، فالبيولوجيا كعلم تدور حول فكرة أساسية ، وهى أن كل عضو أو كل جزء من النسق (الكائن) يقوم بوظيفة أو بعدة وظائف ضرورية لبقاء الكائن الحى . ولهذا تصور البيولوجيا الكائن الحى على أنه نسق يتكون من مكونات مرتبطة وظيفيا . وقد حاولت بعض المدارس التحليلية فى علم النفس فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن تفسر وتشرح الأجزاء المكونة للعملية العقلية . كالمعرفة والعاطفة والارادة ، ولكنها فشلت فى الوصول إلى وحدتها . وأما مدرسة الجشطلت (الصيغ العامة) فقد أكدت فى حوالى عام ١٩٣٠ أن أى عنصر فى العملية العقلية يجب أن يدرس فى مضمون الكل ، ذلك لأن معنى كل عنصر يختلف أو يتغير إتفاقا مع الصيغة الكلية الذى يكون جزءا منها .

وقد كان فرانز بواس Franz Boas أوله عالم أنثروبولوجى يسبق الى استخدام المدخل الوظيفى ، فقد كتب فى عام ١٨٨٧ يقول ، « إن فن أى شعب أو طريقته المميزة لا يمكن أن تفهم إلا بدراسة ما يصدر عنه ككل » ، ولكن الوظيفية نمت بعد ذلك فى الانثروبولوجيا لتصبح اتجاها ثابتا ومحدداً يعارض التطورية والانتشارية .(١)

ويفضل علماء الاجتماع أن يتتبعوا نشأة الانجاه الوظيفى فى أعمال رواد العلم الأول من أمثال أوجست كومت وهربرت سبنسر ودوركايم وغيرهم ، لأن

---

١ — الانتشارية هى الفكرة التى اعتمها بعض الانثولوجيين وملخصها أن الاختراعات انتشرت من مراكز ثقافية صغيرة وقليلة . ويصرون على تأكيد هذه الفكرة وأهميتها فى تفسير النمو الثقافى .

كلا منهم حاول أن يتصور المجتمع من حيث بنائه المكون من أجزاء ، ومن حيث الوظائف التي يؤديها هذا البناء بأجزائه ، كما أنهم أهتموا بدراسة « أحوال هذا البناء » ومن أجل هذا ظهرت النظريات التطورية والدينامية . وخلاصة القول إن الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع ظهر بصورة ما بظهور هذا العلم نفسه . أما تأثر علماء الاجتماع بدراسات البيولوجيا فى هذا الصدد فأمر غير منكور .

معنى الوظيفة :

ليس من الغريب أن اصطلاح « الوظيفة » من الاصطلاحات التى يكثر الجدل حولها فى العلوم الاجتماعية ، ويرجع ذلك إلى الاختلافات التى تنجم عن استخدامها فى الرياضة وفى البيولوجيا وفى العلوم الاجتماعية وفى اللغة الدارجة بمعان مختلفة . وغالباً ما نقرأ فى كتب كثيرة وفى الصحف أقوالا تستخدم فيها كلمة « الوظيفة » بمعنى النشاط الاجتماعى . وفى كتابات أخرى كما حدث عند ماكس فيبر ، تستخدم الوظيفة كأنها كلمة مرادفة للمهنة أو العمل الذى يقوم به الفرد . وثمة استخدام آخر لهذه الكلمة متصل اتصالا وثيقا بموقف علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، يدور حول عدة معان مستمدة من العلوم البيولوجية فعلى الرغم من بعض الاختلافات بين رادكليف براون ومالينوفسكى ، إلا أنهما متفقان على أن لب التحليل الوظيفى يكمن فى دراسة الجانب الذى تلعبه « الفقرات الثقافية والاجتماعية » فى المجتمع . ويبدو هناك فى كتابات علم الاجتماع الأخيرة قبول لربط الوظيفة بنمط النشاط الذى يقوم به الجزء أو الكل بحيث لا يكون غيره قادراً على أن يقوم بمثله . ولهذا يرتبط الاتجاه الوظيفى بالتنظيم الاجتماعى الذى يتسم بنشاط معين واستخدام خاص ، وما ينطوى عليه عمل

هذا التنظيم من عمليات تقوم بدور التكامل (١) .

٣ ـ التحليل الوظيفى للوحدات الكبرى والصغرى :

وضح فى السنين الأخيرة أن الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع ماض الى الانشعاب شعبتين متميزتين ، وعلى الرغم من هذا فاننا نفضل أن نظل نردهما إلى الاتجاه الوظيفى عامة ، نظرا لأن خصائص هذا الاتجاه الأساسية تنطبق عليهما . ويسمى « دن مارتنديل » أحدهما بوظيفية الوحدات الكبرى « Macro-Functionalism » والآخر « بوظيفية الوحدات الصغرى Micro -Functionalism ويقوم هذا التمييز بين شعبتى هذا الاتجاه الوظيفى العام على أساس « حجم الوحدة » المختارة فى أى منهما كنمط للنسق محل الدراسة . ولذلك يزعم أنصار الشعبة الاولى أن التحليل يتم على أساس الوحدات الكبيرة نسبيا والموجودة فعلا ، بينما يزعم أنصار الشعبة الثانية عكس هذا .

ويلاحظ أن الوظيفيين الأول يستمدون أصولهم من الاتجاه العضوى فى علم الاجتماع ، على الرغم من أنهم يقولون إن مصادرهم الأولى مستمدة من الأنثروبولوجيا . أما الوظيفيون الآخرون فيستمدون أصولهم من علم النفس الجشطلتى . ومن أجل هذا يهاجم كثير من نقاد النظرية السوسيولوجية الاتجاه الأول ، لأن الوظيفية عامة إذا كانت تعنى دراسة « العلاقات المتبادلة » فانها لا تكون صاحبة نظرية خاصة بها ، لأن كل مدارس علم الاجتماع عنيت بدراسة هذا النوع من العلاقات ، واذا كانت تعنى أنها تهدف الى

١ ـ عرض ميرتون Merton للتحليل الوظيفى بافاضة يمكن الرجوع اليها فى كتابه المشار اليه آنفا لزيادة الايضاح .

2 — Don Martindale, Op. Cit.; p. 461.

«التحليل الغائى» فانها حينئذ تنقلب الى نوع سطحى من الميتافيزيقا . كذلك يربط هؤلاء النقاد «الوظيفية» بالعضوية التى أخذت أفكارها وحلت محلها. ومثال ذلك أن فكرة الكائن الحى انقلبت إلى النسق سواء قام التحليل على أساس وحدات كبيرة أو صغيرة منه .

ويقول مارتنديل ، إن المجتمع يمثل - تقريبا فى كل الحالات ، الوحدة الأولى فى التحليل عند أصحاب اتجاه الوحدات الكبرى ، وهم لذلك يحاولون فى كل كتاباتهم تعريف المجتمع تعريفاً مضبوطا على النحو الآتى «المجتمع نسق كلى مستقل مكتف بذاته ، يعيش لفترات أطول من حياة الفرد» . ويبدأ هؤلاء عادة - كما يفعل تولكوت بارسونز وروبرت ميرتون ، بالمجتمعات كأنساق تمثل وحدات الدراسة . ثم يهبطون بالتحليل بعد ذلك ليتضمن وحدات أقل حجما وأكثر تحديداً (١) . أما أصحاب الاتجاه الثانى - الوحدات الصغرى - ويعرفون عادة باسم أنصار «ديناميات الجماعة» فانهم يستخدمون فى تحليل هذه الوحدات إطار المفاهيم فى علم النفس الجشطلتى مثل الموقف الادراكى والمضمون الواقعى وغير ذلك .

٤ - الوظيفية السوسيولوجية والانثروبولوجية :

هناك عدد من علماء الاجتماع الذين تأثروا بالاتجاه الوظيفى ، لا ينكرون تأثرهم بهذا الاتجاه فى الانثروبولوجيا ، وهذا على الرغم من أن تقدم الوظيفية الانثروبولوجية ونموها تم فى أكثر من مسألة تحت تأثير علم الاجتماع . ويعترف كثير من الانثروبولوجيين ، أن علم الاجتماع كان ولا يزال مصدراً خصيبا

---

1 — Ibid., p 501

لتعميق نظرياتهم وتوضيح إطار مفاهيمهم، وملهما لهم فى ميدان التفكير والتحليل ويبدو - مع ذلك - للمتتبع لنمو الاتجاه الوظيفى، أن الوظيفية أكثر التصاقا بالأنثروبولوجيا من علم الاجتماع ، كما أنها بالنسبة لها تمثل موقفا طبيعيا إلى حد ما . ويرجع ذلك إلى أن الأنثروبولوجيا ، منذ أوائل القرن العشرين ، تنمو فى الاتجاه الوظيفى على أساس الأخذ بأهم خصائص هذا الاتجاه ، وهى تحليل السلوك الانسانى المتبادل من وجهة نظر الأسبقية الضرورية للانساق السلوكية ذات الطابع المشترك أو المتبادل ، ودراسة العناصر المختلفة أو الوقائع على أساس النظر إليها فى مجموعها كنسق محدد متكامل .

وقد اعترف علماء الاجتماع الأول (١) ، بأهمية النظر الى المجتمع أوظواهره كنسق أو كأنساق على طريقة الأنثروبولوجيا . ولكن تعقد المجتمع الحديث إذا قورن بالمجتمع البدائى لا يجعل علماء الاجتماع ينظرون إلى أى نسق أنه « حقيقة قصوى » لأن الحياة الاجتماعية الحديثة تحدث تغيرات كبيرة فى الجماعات المكونة للمجتمع - إذا اعتبرنا كلا منها نسقا - كقيام أنواع جديدة منها واختفاء البعض الآخر فى مواجهة عمليات ونتائج ومتطلبات التغير الاجتماعى . ولكن موقف الانثروبولوجيا يختلف من هذه الزاوية لانها تعالج « أنساقا » معزولة نسبياً وثابتة لا تتغير إلا ببطء شديد ، ولهذا إذا عالجت الأنثروبولوجيا - مجتمعا بدائيا - فانها سوف تعالجه باعتباره مجتمعا مغلقا من الناحية الاجتماعية والثقافية، ومن ثم تكون الأسبقية الضرورية للنسق عند الدراسة أمراً طبيعيا .

---

١ - مثل ألبيون سمول Albion Small أحد رواد علم الاجتماع فى أمريكا الذى اهتم فى كتاباته ببيان التأثيرات التاريخية والسياسية والاقتصادية على الظواهر الاجتماعية وحاول أن يكشف عن أهمية « الصراع » فى حياة المجتمع وتطوره .

أ ـ ويعزو كثير من الكتاب فى النظرية السوسيولوجية، ظهور الاتجاه الوظيفى الحديث فى الانثروبولوجيا إلى تأثير إميل دوركايم ، الذى مزج بين «افتراضاته العضوية » وبين المادة الإنتوجرافية التى جمعها غيره عن بعض القبائل فى استراليا، وأخضع هذا المزيج إلى التحليل الوظيفى . ولهذا يندهش علماء الانثروبولوجيا اليوم للنتائج التى وصل إليها دوركايم من هذا التحليل ، على الرغم من أن دوركايم لم يكن يوما ما قريباً من مناطق البحث الواقعى . ويجب أن نلاحظ هنا أن الاثنولوجيا ـ قبل دوركايم ـ كانت تهتم بإبراز الخصائص المشتركة للانسان، ومثال ذلك التركيز على «الوحدة النفسية للجنس الانسانى» أو البحث التطورى عن أصول الوقائع أو الظواهر دون الاهتمام بتحليل وحدات عضوية متكاملة ، أى دون الاهتمام بالمجتمع أو أقسامه باعتبارها وحدة أو وحدات يمكن النظر اليها كأجزاء فى كل متكامل ، أو ككل ينطوى على أجزاء مترابطة وذات صلة ضرورية بالكل . وعندما وضح أن هذا المدخل التطورى للدراسة أخذ فى الاضمحلال والانهيار مالت الإثنولوجيا إلى الأخذ بفكرة « الانتشار » التى تقوم على دراسة هجرة السمات ومركبات السمات من مكان الأصل إلى أمكنة أخرى ، وهذا دون الالتفات أيضاً إلى التكامل الوظيفى للعناصر المختلفة فى مجتمع قبلى أو بدائى .

ب ـ ويمكننا أن نترسم الاتجاه الوظيفى فى كتابات كل من باخوفين J.J. Bachofen وفوستيل دى كولانج Fustel de Coulange ، ولهذا لا نستغرب أن بواس Boas وهو أحد الانثروبولوجيين الأوائل قد تأثر ببعض نواحى الاتجاه الوظيفى . ولعل رادكليف براون Radcliffe-Brown وهو أحد الانثروبولوجيين الكبار ـ أظهر من تأثر بدوركايم وحدد علاقته

بالاتجاه الوظيفى والاتجاه العضوى فى قوله « إن فكرة الوظيفة كما تطبق على المجتمعات الانسانية تقوم على المقابلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية ... وقد ظهرت المقابلة فى القرن التاسع عشر ، وكذلك فكرة الوظيفة ، بل والكلمة نفسها فى الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع وأول صياغة منظمة للفكرة - على قدر ما أعلم - كما تطبق بدقة على الدراسة العلمية للمجتمع ، كانت صياغـــة إميل دوركايم فى عام ١٨٩٥ » (١) ويرى رادكليف براون أن دوركايم عـرف « وظيفة النظم الاجتماعية » بأنها تقوم باشباع حاجات الكائن الاجتماعى ، ولكن رادكليف براون يعتقد أنه من الضرورى تجنب التفسيرات الغائيـــة ، واقترح استبدال اصطلاح « الحاجات » بعبارة « الظروف الضرورية للوجود أوالمعيشة » ذلك لأن تطبيق فكرة الوظيفة فى العلوم الاجتماعية يتضمن الاعتقاد بأن هناك ظروفا ضرورية للوجود فى المجتمعات الانسانية يمكن اكتشافها عن طريق الدراسة العلمية . وقد عمق رادكليف براون ، من خلال استكمال المقابلة العضوية ، معنى الوظيفة ، فاصبحت تشير إلى « حياة أى كائن ... على أن تدرك بمعنى تأدية البناء أو قيامه بوظائفه . ومن خلال استمرار القيام بالوظائف يحتفظ البناء باستمراره أو دوامه » . ولذلك تكون وظيفة العملية الفسيولوجية المتكـررة هى إقامة صلة مستمرة بين الكائن وبين حاجاته . ومن دراسة الانساق العضوية نستطيع ان نخلص إلى مسائل ثلاث هى : دراسة بناء النسق أو مورفولوجيته ، ودراسة وظيفة النسق أو فسيولوجيته ودراسة نمو النسق أو تطوره ، ونستطيع أيضاً أن نستفيد منها بتطبيقها على دراســـة الحياة الاجتماعـــة ، فنحن نستطيع أن

---

1 — Radcliffe-Brawn, A. R. Structure and Function in Primitive Society, 1952, p. 178

نلاحظ وجود بناء اجتماعى يكون الأفراد فيه الوحدات الأساسية ويرتبطون بعضهم ببعض عن طريق مجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية تترابط فى كل متكامل، أما استمرار البناء الاجتماعى فانه يرجع الى عملية الحياة الاجتماعية وإذن فالحياة الاجتماعية فى أى مجتمع هى مجموع الوظائف التى يقوم بها البناء الاجتماعى .

ح ـ وتنشأ عدة صعوبات عند محاولة تطبيق هذه النظرية الوظيفية على المجتمع، لأنه من السهل أن ننظر إلى الكائن الحيوانى على أنه وحدة بنائية ، بينما لانستطيع ذلك بالنسبة للمجتمع ، لأن البناء فى هذه الحالة مرتبط ارتباطاً ضرورياً بالوظيفة، ولهذا لايمكن أن ننشىء فسيولوجيا اجتماعية مستقلة عن المورفولوجيا الاجتماعية، كذلك لا يتغير بناء الكائن الحيوانى خلال سنى حياته ، ولكن المجتمع قد يغير من نمطه البنائى دون مساس باستمراره أو دوامه . وقد كانت الأفكار الخاصة بالتغير هى التى واجهت الاتجاه الوظيفى عامة سواء فى الانثروبولوجيا أو علم الاجتماع بأهم الثغرات التى كانت ولا تزال محل نقد . وقد حاول المؤيدون لهذا الاتجاه محاولتين لسد هذه الثغرات ، وأول هذه المحاولات الابتعاد عن المقابلة العضوية وفصل الاتجاه الوظيفى عن ارتباطه التاريخى بالاتجاه العضوى ، وثانى هذه المحاولات ما يحاوله روبرت ميرتون من وضع نظام أو إطار يجرى خلاله التحليل الوظيفى وبذلك يمكن تطبيقه فى الدراسات المتعلقة بالتغير الثقافى والاجتماعى .

1—Merton, R : Social Theory and Social Structure., N. Y, pp. 50-55

د - ويعتبر مالينوفسكى من أعلام الاتجاه الوظيفى الحديث ، وقد حاول أن يبين من خلال كتاباته الإرتباط بين الوظيفية ودراسة العلاقات المتبادلة ، ويقول فى بعض كتاباته الأخيرة أنهما شيء واحد ، ويرى أيضا أن دراسة «التفاصيل» وانتزاعها من إطارها الذى تفهم من خلاله على خير وجه ، أمر يؤدى إلى تناقض النظرية والعمل الميدانى ومعالجة المسائل ذات الطابع العملى أيضا . وقد اشتهر مالينوفسكى فوق دراساته المستفيضة لبعض المجتمعات البدائية باتجاهه الوظيفى وبدراسته للثقافة . فهو يرى مثلا أن الثقافة حقيقة قائمة بذاتها ويجب أن تدرس على هذا الأساس ، ويعرفها بأنها « وحدة عالية التنظيم مقسمة الى ناحيتين رئيسيتين : مجموعة من الفنون العملية ونسق من العادات » . ومن الواضح أن مالينوفسكى لا يقر التفسيرات التطورية أو الانتشارية للثقافة ، وتتلخص الأسس التى تقوم عليها النظرية الوظيفية للثقافة فيما يلى :

- يجب أن نقبل كقضية مسلمة أن بنى الانسان يحتاجون الى الطعام والإنسال والحماية ... الخ .

- الدوافع الانسانية فسيولوجية فى الأساس ولكنها تأخذ بناء جديدا عن طريق العادات المكتسبة .

- الثقافة ينظر اليها كجهاز شرطى يعمل من خلال التمرين فى المهارات والمعايير على إدماج الطبيعة والتربية .

- لا يعالج الانسان مصاعبه وحيداً ، بل إنه ينتظم فى أسر ومجتمعات وقبائل تكون السلطة والزعامة فيها منظمة ثقافيا .

- رمزية اللغة تعتبر « مكونا » فى كل التنظيمات الاجتماعية والتكنولوجيا .

ـ الاشباع الثقافى للحاجات البيولوجية الأولية يفرض ملزمات ثانوية على الانسان (١)

ـ نسق الانتاج والتوزيع والاستهلاك يجب أن يباشر حتى فى أكثر المجتمعات بدائية .

ويقول مالينو فسكى ، إن الوحدات الحقيقية فى الثقافة هى « النظم » التى هى عبارة عن مجموعات من وجوه النشاط التى تنتظم حول حاجة معينة أو بمعنى آخر هى جماعات من الناس موحدين لمتابعة نشاط معين ، ومن خلال توحدهم المستمر ينشأ التنظيم الاجتماعى والعادات والتقاليد والسلطة وغير ذلك من العناصر الثقافية .

٥ ـ تولكوت بارسونز Talcott Parsons :

يعتبر تولكوت بارسونز من أكبر علماء الاجتماع المعاصرين ، الذى أحدثت نظرياته فى علم الاجتماع دوياً شديداً فى أمريكا وأوربا على السواء وتعرض للتقريظ والنقد الشديد على السواء . ومن الصعب أن نضعه فى مدرسة بعينها من مدارس علم الاجتماع ، نظراً لتعدد كتاباته وإمكان ادراجها تحت أتجاهات مختلفة ، وقد يرجع ذلك إلى أن نمو اتجاهه النظرى تعرض ولا يزال يتعرض لتعديلات متعددة . ولهذا فان « دن مارتنديل » يضعه مرة تحت الاتجاه السلوكى لنظريته فى الفعل الاجتماعى ، ويضعه مرة أخرى تحت الاتجاه الوظيفى لنظريته فى النسق الاجتماعى . ويجمع كثير من نقاد النظرية السوسيولوجية

---

1 — Malinowski, B. The Dynamics of Culture Change, New Haven, 1945, pp. 42—44.

أن بارسونز متأثر فى كتاباته بكل من : ماكس فيبر ودوركايم وباريتو .
وتتلخص أهم نظرياته فيما يلى :

أ - تحتل النظرية السوسيولوجية مكان الصدارة فى أعمال بارسونز ، إن لم تكن النظرية هى كل أعماله فى واقع الأمر ، لأنه يعتقد أن النظرية المجردة فى السلوك الانسانى تعتبر المرجع الأول والعلامة المميزة لنضوج العلم ، كما أن النظرية تيسر الوصف والتحليل والبحث الواقعى . ومن أجل تحقيق هذه المطالب ، فالأمر يحتاج الى إطار عام من المفاهيم ، ويتطلب فهما ببناء النسق النظرى . ولذلك فالنظرية السوسيولوجية يجب أن تكون « بنائية وظيفية » .(١)

ب - فى كتابه « النسق الاجتماعى The Social System-1951 » تحول بارسونز من النظر الى فكرة « الفعل الاجتماعى Social Action » كنوع من الوحدة الذرية التى تتكون منها المجتمعات ، الى معالجة الفعل ذاته على أنه نسق . ولذلك يعتبر كتابه هذا نقطة تحول هامة فى الاتجاه الوظيفى المعاصر وإسهاما كبيراً فى توضيح معالمه . والنسق الاجتماعى واحد من ثلاث طرق يبنى على أساسها الفعل الاجتماعى . أما الطريقان الآخران فهما الأنساق التى تتعلق بالشخصية ، والأنساق الثقافية (٢) . ومعنى هذا بصفة نهائية أن بارسونز تحول من النظر الى أن الموضوع الصحيح لعلم الاجتماع ليس هو دراسة الفعل الاجتماعى ، كما وضح فى كتابه « بناء الفعل الاجتماعى The Structure of Social Action »واستقرت نظريته إلى أن دراسة علم الاجتماع تنصب على الأنساق الاجتماعية .

---

1 — Timasheff., Op. Cit., p. 239.
2 — Don Martindale. Op. Cit., p. 485.

حـ - يتضمن إطار « الفعل » فاعل وموقف وتوجيه الفاعل نحـــو الموقف ، ويعتقد تيماشيف أن جوهر الفعل عند بارسونز يرتكز على « توجيه الفاعل » . وفى هذا الصدد يمكن تمييز نوعين من المكونات التوجيهية . التوجيه الذى يقوم على الدافع (التوجيهات الدافعة) والتوجيه الذى يقوم على القيمة (التوجيهات القيمية) (١) . أما التوجيهات الدافعة التى توفر الطاقة والتى تصرف فى الفعل، فانها ثلاثه شعب الأولى « ادراكية Cognitive » وهى متصلة بما يدركه الفاعل فى الموقف بالاضافة إلى نسق استعداداته وحاجاته ، والثانية «ارضائية Cathectie» وهى التى تتضمن عملية من خلالها يعلق الفاعل على موضوع معين أهمية عاطفية أو انفعالية ، والثالثة « تقييمية Evaluative » والتى بواسطتها يوزع الفاعل طاقته على اهتمامات مختلفة عليه أن يختار من بينها . أما التوجيه القيمى فانه يشير إلى ملاحظة ثمة معايير أو مقاييس اجتماعية على النقيض من الحاجات التى تعبر أساس التوجيه الدافع . وللتوجيه القيمى أيضاً ثلاث شعب هى ، الاداركيـــة والخلقية والإستحسانية . ويرى بارسونز أن هذه الخطة تصلح فى إقامة ثلاثة أنساق تحليلية هى ، النسق الاجتماعى ونسق الشخصيـة والنسق الثقافى . وإذن فالفعل يمكن تحليله إلى : الرغبات والأفكار ، والقيم أو المعايير ، ونسق الفعل الذى يحتوى على هـــذه العناصر هو نمط من الأنماط الثلاثة السابقة للأنساق .

د - المجتمع عند بارسونز هو النمط السوسيولوجى القاطع للنسق الاجتماعى . ويعرف النسق الاجتماعى « المجتمع » بأنه « كثرة من الأفراد » ، يدفعهم ميل الى « الارضاء الأعلى » وتكون علاقتهم بهذا الموقف محددة على أساس نسق

1— Timasheff, Op. Cit., p. 241.

يقوم على أنماط مشتركة ذات بناء ثقافى » ولكن هذا التعريف أثار اعتراضات كثيرة ، أهمها أن كثرة من الناس المتفاعلين قد لا يكونون نسقاً اجتماعيا بالمعنى المشار إليه ، ولكنهم قد يكونون نسقا اجتماعيا ثابتا . ولهذا يجب أن نسمى النسق الاجتماعى عند بارسونز « النسق الاجتماعى الثابت »

هـ - يرى بارسونز أن « الثقافة نتيجة أو محددة فى نفس الوقت لأنساق التفاعل الاجتماعى الإنسانى ، ويشارك الانثروبولوجيين فى إمكان نقل الثقافة وتعلمها والمشاركة فيها . ويميز بين أنماط ثلاثة من الثقافة ، الأول يتكون من أنساق الأفكار والمعتقدات ويتميز باسبقية الاهتمامات الادراكية . والثانى يتكون من أنساق الرموز التعبيرية - مثل صور الفن - وتتميز بأسبقية الاهتمامات الارضائية ، والثالث يتكون من أنساق التوجيهات القيمية أو الأنماط التكاملية . ولكن بارسونز لم يتابع تحليله للأنساق الثقافية لأنه يرى أن هذا يقع فى اختصاص الانثروبولوجيا الثقافية . وهو يهتم بها الى المدى الذى تؤثر فيه على الأنساق الاجتماعية والشخصية .

و - ولعل أهم ما أسهم به باسونز فى نمو « الوظيفية السوسيولوجية » يقع فى فى فكرته عن « البدائل النمطية للتوجيهات القيمية » فهو يعتقد أن الفاعل يهدف إلى الوصول الى أكبر ارضاء . والفرد من الناحية الواقعية لا يمكن أن يرغب فى الحصول على كل شيء ، ولذلك لابد من أن يقف محايدا إزاء بعض الاشياء ، ومن تحليله لهذه البدائل النمطية استطاع أن يصل الى فكرته عن التغيرات النمطية الخمسة .

ز - ومن أهم ما أسهم به بارسونز أيضا فى النظرية السوسيولوجية العامة ، نظريته فى « وظيفية البناءات » ذلك أن التحليل البنائى الوظيفى يتطلب معالجة منظمة لأدوار ومراكز الفاعلين فى موقف اجتماعى معين ، بالاضافة الى معالجة

النظم الاجتماعية المتضمنة، يشير المركز الى مكان الفاعل فى نسق علاقات اجتماعية ينظر اليه باعتباره بناء . والدور – على الرغم من عدم انفصاله عن المركز من حيث كونه الوجه الدينامى له – يشير الى سلوك الفاعل فى علاقته بالآخـــرين ، إذا نظرنا اليه من وجهة أهميته الوظيفية للنسق الاجتماعى . أما الانماط النظامية فهى التوقعات النمطية أو البنائية التى تحدد السلوك الثقافى المناسب للأشخاص الذين يقومون بأدوار اجتماعية متعددة أو مختلفة . ويتكون « النظام » من كثرة من أنماط الأدوار المتساندة .

من هـذا نتبين أن بارسونز يؤكد فى نظريته الجانب المعيارى فى الحيـــاة الاجتماعية ، ومن تحليله للنسق الاجتماعى نتبين أن المجتمع « نظام خلقى » فى نهاية الامر . وقد تعرض بارسونز كما سبق أن ذكرنا الى نقد شديد ، واستخدمت مداخله فى الدراسة ، وأسس نظريته من ناحية أخرى فى توجيه دراسات عديدة فى علم الاجتماع المعاصر . ومن بين الذين تعرضوا لنقد تيماشيف (١) فيقول ، إن نظرية بارسونز قامت على زعم غير صحيح ، أن النظرية السوسيولوجية جانب من النظرية العامة للسلوك الانسانى ، وكان من الأفضل له أن يزعم أن نظريته عن الفعل الاجتماعى هى التى تصلح كمدخل لتحليل الجماعة أو النسق الاجتماعى الذى يكون موضوع علم الاجتماع ، كما أن نظرية بارسونز السوسيولوجية لا يمكن فصلها عن النظرية السيكولوجية . وهذا بالاضافة إلى أن بارسونز عرض نظريته بأسلوب بالغ التعقيد أعطى فيه الأفكار القديمة رداء من ألفاظ جديدة واستخدم هذه الألفاظ استخدامات غير مألوفة ، فظهرت المسائل الواضحة غامضة .

ولعـــل أقسى ما وجـه إلى بارســونز من نقـــد ذلك الذى وجهـه اليـه

1— Ibid. pp. 243-244

« سوروكن Sorokin » فى كتابة « البدع والنقائص فى علم الاجتماع الحديث[1] Fads & Foibles in Modern Sociology » حين يتهمه بأن نظرياته ليست إلا ترديداً لنظرياته هو وخاصة فى معالجته للتفاعل ذى المعنى كأساس العملية الاجتماعية ، وفى موضوعات التفاعل والشعب الثلاث للحقيقة الثقافيه الاجتماعية: الشخصية والمجتمع والثقافة ، وفكرة النسق الاجتماعى وخصائصه وغير ذلك من مكونات نظرية بارسونز . ويرجع سوروكن ذلك إلى الوباء الذى اجتاح الباحثين وجعلهم يحاولون ادعاء اكتشاف نظريات جديدة ، وما هى بجديدة ، وكل ما فى الأمر أنهم تجرأوا على قدامى المفكرين ونزفوا أعمالهم دون رقابة، هذا وقد عقد سوروكن فى هذا الكتاب فصلا كاملا (الفصل الثانى) حاول أن يبين فيه ضآلة الأفكار التى حاول بارسونز أن يضمنها نظريته السوسيولوجية ، ويقول إن كل نظرية بارسونز عبارة عن مجموعة فارغة من الألفاظ ذات الرطانة الكاذبة، وأغرب من هذا ما يجده الباحث من استخدام غريب للمصطلحات المستمدة أصلا من العلوم الطبيعية أو الحيوية ، تلك التى يخرجها من معناها الأصلى ـ وهذا الى جانب عدم التزام استخدام واحد للفظ . وخلاصة القول أن سوروكن حاول فى هذا الكتاب أن يسفه نظرية باسونز ويزعم أنها خليط غير متناسق من نظرياته هو بالإضافة إلى نظريات ماكس فيبر ودوركايم وباريتو . أو بمعنى آخر ليس هناك جديد عند بارسونز.

ثالثا ـ الاتجاه التحليلى :

كل النظريات السوسيولوجية على اختلاف أصولها واتجاهاتها يمكن اعتبارها نظريات ذات طابع تحليلى ، لأنها جميعا حاولت أن تبنى « نظرية

---

1 - Soroktn, P.A., Fads & Foibles in Modern Sociology and Relatsd Sciences, London, 1958

سوسيولوجية موحدة ، يمكن استخدامها كأداة فى التحليل . ومن أجل هذا لا نستطيع أن نجعل من هذا الاتجاه مدرسة فى علم الاجتماع مثل الاتجاهين الوضعى والوظيفى . ويتضح هذا المعنى أكثر إذا عرفنا أن من يمكن نسبتهم إلى هذا الإتجاه لا يتفقون إلا فى النزعـــة التحليلية ، على الرغم من انتمائهم إلى اتجاهات أخرى ، فسوروكن مثلا يضعه تيماشيف تحت هذا الإتجاه التحليلى (١) ، بينما يعتبره مارتنديل من أكثر ممثلى « العضوية » فى علم الاجتماع المعاصر (٢) ، ويعتبره هارى بارنس مؤسس الاجتماع التكاملى (٣) . وكذلك الأمر بالنسبة لروبرت ماكيفر R. Maciver حين يضعه تيماشيف تحت الاتجاه التحليلى ، بينما يعتبره مارتنديل من بين مؤيدى « نظرية الفعل الإجتماعى » والمؤيدين لأهمية العامل النفسى فى تفسير الحقيقة الإجتماعية . ومن هذه الزاوية أيضا يفضل بعض كتاب النظرية السوسيولوجية وضع كل من تولكوت بارسونز وروبرت ميرتون تحت هذا الإتجاه أيضا . وسوف نتبين فيما بعد ، أبعاد هذا الاتجاه عندما نتعرض لنظريات عالمين من أكبر علماء الاجتماع وهما سوروكن وماكيفر.

١ — بيتيرم سوروكن Pitirim A. Sorokin

لا يستطيع عالم أو باحث أو طالب لعلم الاجتماع اليوم أن يغفل أو يتغافل سوروكن . فقد احتل من علم الاجتماع المعاصر مكانا مرموقا لإمكانياته المتعددة الجوانب فى النظرية والواقـــع وفى المنهج . ويعترف له الكثيرون من علماء

---

1 — Timasheff, Op. Cit., pp. 231—238

2 — Don Marindale, Op. Cit., pp. 125—228

3 — Barnes, h. E. (ed). An Introduction to the history of Sociology, Chicago, 1954, pp. 884—902

الاجتماع بمقدرته الفائقة فى ربط الحقائق وتحليلها ، ثم نظمها فى إطار منطقى عالى الدقة . كما يعترفون أن كتاباته الغزيرة والمتعددة الإهتمامات ، أثرت ميدان علم الاجتماع . ودفعته إلى الأمام دفعات قوية . ويعتقد بعض المتحمسين له أن تاريخ النظرية السوسيولوجية يجب أن يتوقف وقفات فاحصة طويلة عند ثلاثة كبار وهم : أوجيست كومت ودوركايم وسوروكن . ولن نستطيع فى هـذا الكتاب إلا أن نقدم لمحة سريعة عن أهم أعماله .

ا - جوهر نظرية سوروكن فى التفسير السوسيولوجى تكشف عن اتجاه « عضوى مثالى » ويرى مارتنديل أن هذا الاتجاه يبدو بوضوح فى كتابه الضخم « الديناميات الاجتماعية والثقافية (١٩٣٧-١٩٤١) Social and Cultural Dynamics وكذلك فى كتابه « المجتمع والثقافة والشخصية (١٩٤٧) Society, Culture, and Personality » . ففى هذين الكتابين يرى سوروكن أن الحقائق الأساسية فى علم الاجتماع ذات طبيعة عقلية ولا تفهم إلا فى ضوء النظر الى عالم الإنسان الثقافى الاجتماعى ككل . ولا ينطبق ذلك على ظاهرة صغرى « كالانتحار » فقط . بل إن هذا يصدق على العوامل المسببة للجريمة كالحرب والثورة ، ومن الناحية العملية على كل الظواهر الثقافية والاجتماعية . ويبدو أن ادراج سوروكن ضمن مؤيدى الاتجاه العضوى يرجع إلى أنه يعتقد أن الانساق العلوية الكبرى نتيجة نوع من « الحدس » الذى كان نقطة البدء فى كل الأفكار الأصيلة فى الدين والأخلاق والفلسفة والجمال ، بل وفى المنطق الرياضى والتفكير العلمى . ولا يمكن لأى جماعة مهما كبرت أن تخلق بلاحدود وفى أى اتجاه . فاليونان مثلا برزوا فى الفنون الجميلة والفلسفة . والرومان برزوا فى خلق امبراطورية سياسية ونظام حربى ، وبرعوا فى القانون ، وبرز العبرانيون

فى الدين والأخلاق والأدب ، ويتميز العالم الغربى اليوم بتقـــدمه فى العلم والتكنولوجيا . وما أن تصل هذه الأنساق العلوية أو الجماعات الى أوج نموها، فإنها يمكن أن تتدهور وأن تنهار.وقد يحدث هـذا التدهور فى الكم لا الكيف أو العكس ، وقد يحدث التدهور فى الكم والكيف معـا . وعلى كل حال تمـر الثقافات والمجتمعات (الأنساق العـلوية الكبرى) بمرحلة تسودهـا « الأفـكار والمفاهيم العامة » ولا يكون طابع المجتمع إلا انعكاسا لها ،وتأتى بعد ذلك مرحلة متوسطه (مثالية) ثم تأتى المرحلة الثالثة « الحسية » التى تقوم على الإيمان بالمادة والمعرفة القائمة على مصادر الحس المختلفة .

ب ـ يعرف سوروكن علم الاجتماع بأنه « دراسة الخصائص العامـة المشتركة بين كل أنواع الظواهر الاجتماعية » . ويقتضى الأمر دراسة هذه الخصائص العامة :

أولا ـ دراسة العلاقات والإرتباطات بين الأنواع المختلـفة من الظـواهر الاجتماعية (أى الارتباطات بين الظواهـر الدينيـة والاقتصـادية ، والـعائلية الخلقيـة ، والقضائيـة والإقتصـادية . والتنقـل الاجتماعى والظـواهر السياسيـة وهكذا) ؛

ثانيا ـ دراسة العلاقات والارتباطات بين الظواهر الاجتماعية والظواهر غير الإجتماعية (الجغرافية والبيولوجية وهكذا) .

ثالثا ـ دراسة الخصائص العامة المشتركة بين كل أنواع الظواهر الاجتماعية(١).

---

1 — Sorokin. P.; Contemporary Sociological Theories, N. Y. 1928, p. 760

التي تعتبر محصلة للدراسات السابقة .

وقد يبدو من هذا التعريف أن سوروكن ينظر إلى علم الاجتماع على أنه علم تعميمي فقط أو دائرة معارف عن المجتمع . ولكن سوروكن عاد يوضح هذه النقطة بقوله «إن علم الاجتماع وأن كان علم تعميم يعالج العالم الاجتماعي الثقافي ككل ، فإن هذا لا يعني أنه دائرة معارف تستعرض كل العلوم الإجتماعية ، أو أنه (١) فلسفة تركيبية غامضة ... » وعلى الرغم من طبيعة علم الاجتماع التعميمية فسيظل علما خاصا ، ذلك أن دراسة الخصائص المشتركة وعلاقات الظواهر الاجتماعية تتضمن نفس التخصص الذي يكون مطلوبا عند دراسة سمات خاصة لبعض أنواع العلاقات . وربما كانت طبيعة علم الاجتماع التعميمية هي التي جعلته يبدو تجريدياً ونظرياً ، وهي أيضا التي جعلت بعض « الناس » ينظرون إليه على أنه منفصل عن الواقع الجاري للحياة الإجتماعية ، أو أنه أدار ظهره للقيم العاجلة والنافعة للمجتمع . ولا يحتاج دحضنا لهذه المغالطات أكثر من أن نشير ، إلى أن كل التطورات والثورات الكبرى التي غيرت وجه المجتمعات كانت تعتمد ـ بطريقة ما ـ على نوع من علم الاجتماع يوجه العمل ويعمق الإيديولوجية .(٢)

حـ ـ قسم سوروكن علم الاجتماع كما هو الحال في البيولوجيا والاقتصاد ، إلى الاجتماع العام وعلوم الاجتماع الخاصة . ويدرس علم الاجتماع العام الخصائص المشتركة بين الظواهر الاجتماعية الثقافية ، في نواحيها البنائية

1 — Sorokin, P.; Society. Culture. and Personality N. Y., 1947. P. 14.

2 — Ibid, p. 16

والدينامية ، والعلاقات المتكررة والمتبادلة بين الظواهر الاجتماعيـــة الثقافية والظواهر الكونية ... وهكذا .

وينقسم علم الاجتماع العام إذن إلى :

(١) علم الاجتماع البنائى العام الذى يدرس بناء وتكوين الظواهر الإجتماعية الثقافية (وذلك مثلما تفعل البيولوجيا فى دراسة الخلية والطبيعة فى دراسة الذرة)، والأنماط البنائية الهامة للجماعات والنظم التى ترتب السكان طبقيا وتنظم علاقاتهم والأنماط البنائية الهامة للأنساق الثقافية ، وأنماط وبناء الشخصية التى تكمن فى الأنساق الثقافية والجماعات .

(٢) علم الاجتماع الدينامى العام الذى يدرس العمليات الاجتماعية المتكررة ، مثل الاتصال والتفاعل والتنشئة الاجتماعية والصراع والسيادة والتوافق والإندماج والهجرة والتنقل الاجتماعى ، وكيف تولد الأنساق الاجتماعية وتكتسب أعضاء أو تفقدهم ثم كيف يؤثر هذا وغيره على الشخصية ، ويدرس أيضا العمليات الثقافية المتكررة مثل الاختراع والإنتشار والتكامل والتفكك وتراكم السمات الثقافية ، وكيف يؤثر هذا كله على الشخصية . وأخيرا يدرس علم الاجتماع الدينامى العام الذبذبات التى تحدث فى العمليات الاجتماعية والثقافية إلى جانب دراسة مسألة التغير الاجتماعى الثقافى .

أما علوم الاجتماع الخاصة ، فانها تقوم بنفس ما يقوم به علم الاجتماع العام ، ولكن بالإضافة الى مجموعة خاصة من الظواهر الاجتماعية الثقافية. اختيرت

لإجراء دراسة مركزة عليها ، وذلك مثل دراسات السكان ،والمجتمع الحضرى والأسرة والقانون والدين والمعرفة والحرب والثورة والتفكك الاجتماعى والجريمة والعقاب . وهذا الى جانب علوم الاجتماع الخاصة التى بدأت تظهر مؤخرا مثل دراسات الفنون الجميلة والاجتماع الاقتصادى وغير ذلك (١) .

(٣) ـ اعتبر سوروكن « التفاعل » الوحدة التى يجب أن تحلل الظواهر الاجتماعية على أساسها . والعالم فوق العضوى Superorganic (العالم الاجتماعى الثقافى) لا نجده فى صوره النامية ، إلا فى نطاق بنى الإنسان المتفاعلين ، وفى نتاج تفاعلهم . والتفاعل هنا يقصد به « سوروكن » أى واقعة عن طريقها تؤثر جماعة (أو شخص) فى الأفعال الظاهرة وبطريقة ملموسة ، لجماعة أخرى ، ولا يقتصر التأثير على الأفعال ، بل إنه يمتد فى بعض الحالات ، الى الاتجاه العقلى . ولا يهتم سوروكن بالتفاعل على المستوى الفردى ، بل إن كل اهتمامه ينصب على التفاعل الاجتماعى الثقافى الذى يتضمن فى الواقع ثلاث مكونات مترابطة :

(١) الشخصية وهى موضوع للتفاعل .

(٢) المجتمع وهو مجموع الشخصيات المتفاعلة .

(٣) الثقافة وهى مجموعة من المعانى والقيم والمعايير التى تكون لدى الشخصيات المتفاعلة ، وهذا الى جانب الوسائل التى تحدد بطريقة موضوعية ، وتوصل هذه المعانى وتجعلها مقبولة اجتماعيا .

هـ ـ المكونات الأساسية للعالم الاجتماعى الثقافى عند سوركن هى « المجتمع

---

1 — Ibid., pp. 16-17

والثقافة الشخصية » . فالمجتمع يتكون فى واقع الأمر من الجماعات الاجتماعية أو الأنساق ، وبناء على طابع التفاعل يمكن أن تكون الجماعات منظمة أو غير منظمة أو سيئة التنظيم . وقد اهتم سوروكن بتحليل الجماعات المنظمة على النحو الآتى :

(١) كل جماعة منظمة تتميز بوجود مجموعة مركزية بها من المعانى والقيم .

(٢) تقوم الجماعة حول فكرة موجهة تعبر عن قيمة معينة تسعى الجماعة للوصول إليها .

(٣) مجموعة الأفكار والقيم المركزية فى الجماعة يجب أن تكون غير متناقضة .

(٤) تأخذ القيم والأفكار صورة المعيار الذى يترسمه أعضاء الجماعة .

(٥) يجب أن تكون المعايير ذات فاعلية ، أو بمعنى آخر يجب أن تكون لها قوة الفرض أو الإلتزام . ويعرف سوروكن الثقافة بأنها مجموع أى شىء تم خلقه أو تعديله عن طريق النشاط الواعى أو غير الواعى لاثنين أو أكثر من الافراد ، يتفاعلون أحدهم مع الآخر ، أو يؤثر أحدهم على سلوك الآخر . ويرى أن هناك أنساقا ثقافية متعددة تميل الى أن تتكامل على مستويات أعلى باستمرار .

و ـ ولعل كتاب سوروكن « التنقل الاجتماعى Social Mobility » (١٩٢٧) هو أول كتاب هام له يصدره باللغة الانجليزية . وقد ظهرت الطبعة الأخيرة منه مع إضافات عديدة باسم « التنقل الاجتماعى

والثقافى » (١) . والكتاب يعتبر أول دراسة هامة منتظمة ظهرت فى ميدان علم الاجتماع عن « الترتيب الطبقى الاجتماعى Social Stratification » تتميز بطابعها العام وبالدراسات المقارنة التى قامت عليها أهم النتائج التى وصل اليها . فقد حلل ظواهر التنقل الافقى والرأسى من حيث طبيعتها وأسبابها ونتائجها ولا يناقش سوروكن التنقل الاجتماعى فحسب ، بل إنه يتعرض للخصائص المتمايزة للطبقات . ولا يخفى سوركن فى هذه الدراسة تأثره بفلفريدو باريتو أو بأعتقاداته السياسية . وقد ظهر هذا واضحا فى ختام كتابه ، عندما أبدى تفضيله للمجتمع المفتوح الطبقات الذى يتميز ترتيبه الطبقى بالدينامية .

ز - وفى المنهج ، كتب سوروكن « العلية الاجتماعية الثقافية : الزمان والمكان » (٢) وفيه كما أشار إلى ذلك فى كل كتبه تقريبا - يرى أن يتجنب عالم الاجتماع التفسيرات الوحدانية للسلوك الإنسانى ، على الرغم من أنه يؤكد دائما تأثير البيئة الثقافية الاجتماعية فى تشكيل الشخصية . ويرى سوروكن أيضا أن الفرد والشخصية من ناحية ، والمجتمع والثقافة من ناحية ، عبارة عن عناصر متفاعلة ومتساندة كل على الآخر . وقد أوضح سوروكن فى هذا الكتاب أنه « ينتمى الى مدرسة تكاملية فى علم الاجتماع » تحاول أن تستقصى الظواهر الاجتماعية عن طريق ثلاث مداخل :

(١) الظواهر الاجتماعية - من الناحية الواقعية - تدرس عن طريق استخدام الإدراك الحسى والملاحظه الحسية أيضاً .

---

1 — Sorokin, P.; Social and Cultural Mobility, N. Y., 1959

2 — Sorokin, P.; Sociocultural Causality, Time and Space, Durham, 1943.

(٢) يجب أن نتفهم الجانب المنطقى فى الظواهر الثقافية الاجتماعية والمنطق غير المطرد للعقل الإنسانى .

(٣) الحقيقة الاجتماعية يجب أن ندرك أن لها عدة جوانب تعلو على الحس، مثل الدين أو الأخلاق المطلقة أو الفنون الجميلة ، ولا يمكن فهم هذا الجانب إلا من خلال صدق الاعتقاد أو الإيمان . وقد أطلق سوروكن على منهجه فى الدراسة إسم « المنهج المنطقى الدال » .

ح - عندما يتعرض كثير من كتاب النظرية السوسيولوجية لسوروكن فانهم يركزون على كتابه الضخم « الديناميات الاجتماعية والثقافية » الذى أصدره فى أربع أجزاء ، باعتباره يحوى منهج سوروكن ونظريته وفلسفته أيضا . وليس هناك شك أن الكتاب يعكس نظرياته السوسيولوجية الأساسية فى تفسير التغير الاجتماعى والثقافى ، فالتغير عنده يبدأ مستقيما حتى يصل نقطة معينة ، يبدأ بعدها فى اتخاذ طريق مضاد ويستمر التغير سائرا فى الاتجاه الجديد حتى يصل الى نقطة معينة ثم يتخذ طريقا مختلفا ، أو بمعنى آخر يرى سوروكن أن نمط التغير عبارة عن ذبذبة بين ما سماه الثقافة الفكرية والثقافة الحسية وما يتوسطهما من ثقافة مثالية أو ثقافة مختلطة . وقد حاول خلال كتابه الضخم المشار إليه أن يجمع المادة التاريخية التى تثبت صحة نظريته .

إن العامل الذى يغير نمط الثقافة ينبعث فى رأى سوروكن من داخل الثقافة نفسها، لأن من طابع الثقافة أن تتغير ، والتغير قانون كل حياة . ولذلك كان التغير من الداخل قدرا مكتوبا على كل نسق ثقافى . ومعنى هذا أن سوروكن يعارض النظريات المتعددة عن عوامل التغير الاجتماعى ، وخصوصا النظريات التى تجعل

التغير يقوم على عاملين : خارجي وداخلي . أو النظريات التي تحلل التغير فتفترض أسبقية أجزاء من الثقافة عند التغير على أجزاء أخرى ، فالثقافة عنده إذ تغيرت تتغير ككل (١) :

ط - لو قلنا إن سوروكن مدرسة قائمة بذاتها فى علم الاجتماع لما جاوزنا الحقيقة كثيرا فلم يقتصر على ما عرضنا له ، بل إنه كتب فى ميادين عديدة فى علم الاجتماع العام والمنهج العلمى وفى علوم الاجتماع الخاصة . وقد تعرض سوروكن فى السنين الأخيرة لنقد كثير ، حتى أن بعض الكتاب يتهمونه بأنه خرج على ميدان علم الاجتماع وانتقل إلى ميدان فلسفة التاريخ . ولكنه يدافع عن نفسه بقوله « إننى اتفاقا مع موقفى من علم الإجتماع ومن تعريفى الواضح له ، أحاول أن أربط بين الحقائق التى زاد تجمعها الى درجة يخشى معها أن تدمر علم الاجتماع نفسه ، لأن وقوف العلماء برهة ليفكروا ولينظروا من صميم الإتجاه العلمى . أما إذا كان هناك خلاف على تفسيراتى فهذا أمر آخر » ولعل كتابه « البدع والنقائص فى علم الاجتماع الحديث » الذى أشرنا اليه من قبل ، قصد به أن يصحح كثيرا من الآراء الخاطئة فى نظره والاتجاهات التى ضيقت آفاق علم الإجتماع .

٢ – روبرت ماكيفر : Robert M. Maciver

تقوم شهرة ماكيفر فى ميدان علم على مقدرته فى التركيب وتفسير وربط عدد كبير من الحقائق ونظمها فى إطار نظرى متكامل يمكن أن يرقى إلى مرتبة النظرية السوسيولوجية . ولم تقتصر كتابات ماكيفر على علم الاجتماع ، بل أن له مؤلفات

1 — Sorokin, Social and Cultural Dynamics; N. Y. 1949, (Vol 4)

فى السياسة مثل مؤلفه عن « الدولة الحديثة » تعتبر من المراجع الهامة فى هذا الميدان . وماكيفر كغيره تأثر بمن سبقه من كتاب النظرية السوسيولوجية . ولكنه تأثر بوجه خاص بنظريات « سيمل » و « تونيس » الألمانيين ، كما تأثر أيضا بنظريات كل من إميل دوركايم وهربرت سبنسر وجدنجز وسمول، وأسعفته قدرته التركيبية على التوفيق بين نظريات هؤلاء ووضعها فى إطار متناسق . ومحافظته عليه فى كل أعماله . وتقوم شهرة ماكيفر فى علم الاجتماع بوجه خاص على كتبه الثلاث « المجتمع المحلى » (١) و « المجتمع » (٢) و « العلية الاجتماعية (٣) ومن أهم ما يستلفت النظر أن ماكيفر يصر دائما ، أن علم الاجتماع يتطلب فهما دقيقاً بالأفكار الأساسية والمصطلحات التى توجه الدراسة فيه ، ومن ثم وجه قدراً من نشاطه العلمى لتعريف المجتمع ، والمجتمع المحلى والمنظمة والنظام والاتجاهات والمصالح والطبقة الاجتماعية والجمهرة والثقافة والمدنية ، وقد استخدم تعريفاته هذه فى كتاباته دون خلط ، وطالب باتباعها ليصل العلماء الى الاتفاق الاصطلاحى وحذر من نقلها عنه مبتسرة أو مشوهة أو مقلوبة المعنى ، لأنها تكون جزءا هاماً من موقفه التحليلى فى علم الاجتماع . ويمكن أن نلخص أهم نظريات ماكيفر فيما يلى :

أ - يرى مارتنديل أن ماكيفر لا ينكر صلته الفكرية بالإتجاه السلوكى فى علم الاجتماع وإن اختلف معه فى تفسير « الحقائق الاجتماعية » فهو يرى أن هذه الحقائق تنجمع فى نوعين كبيرين (١) العلاقات الاجتماعية التى تعبر عن التفاعل بين الارادات ، (٢) والنظم الاجتماعية التى يرى أنها الصور العامة

1- MacIver, R. Community: A Sociological Study, London 1917
2- MacIver: Society, A Textbook of Sociology N. Y., 1937
3- MacIver: Social Causation, Boston, 1942

لمثل هذه العلاقات ، وعلى ذلك تكون مهمة علم الاجتماع إكتشاف القوانين التى تربط الحقائق الإجتماعية (الإرادات والعلاقات المتبادلة) (١) ويبدى ماكيفر عدم تقديره لقيمة الإحصاء فى البحث الاجتماعى ، لأنه يعتقد أن المجموعات الكلية والمتوسطات والنسب ليست حقائق اجتماعية فى واقع الأمر ويقول إنه ، فى غمرة حماس بعض علماء الاجتماع للقياس (هوس العدد) ينسون أن القياس لا يمس إلا بعض الجوانب الكمية للأشياء . ولذلك يمكن القول إن ماكيفر يؤمن بفائدة المنهج المقارن.

ب ـ ويعتقد تيماشيف وغيره من الكتاب أن التمييز الذى أقامه ماكيفر بين المجتمع المحلى والمنظمة شبيه بتمييز « تونيس » بينهما . كما أن تعريفه للمجتمع بأنه نسيج من العلاقات الاجتماعية شبيه بفكرة « سيمل » وغيره (٢) ويرى ماكيفر أن المجتمع المحلى نسق كامل للحياة الاجتماعية يقوم على الاعتراف بأهمية المكان . بينما تتميز « المنظمة » بقيامها على مجموعة من المصالح الخاصة . وفى كتابه « المجتمع » حاول ماكيفر أن يدرس ويطور أفكاره عن البناء الاجتماعى فى شئ من التفصيل مع اهتمام خاص بموضوع « المعايير Norms » الذى يكون جزءاً بأكمله من الكتاب . وعرض أيضا للنظم الاجتماعية مثل الأسرة والمجتمع المحلى والطبقات الاجتماعية والطوائف ... والمنظمات السياسية ، ودرس فى نهاية الكتاب موضوع التغير الاجتماعى بنفس الأسلوب الذى درس به الموضوعات السابقة ، وحاول أن يوضح ويميز بين عدة مصطلحات كالتغير والتقدم والتطور ، وقبل نظرية التخلف الثقافى لأجبرن بعد تعديلها . كما أنه أشار إلى أن هناك ظروفا دائماً يجب أن ندركها عند دراسة كل تغير ، كالتكنولوجيا والبيولوجيا والنمو

---

1 - Don Martindale; Op. Cit., p. 604

2- Timasheff; pp. 247-257.

الثقافى وغير ذلك . ويلاحظ أن ماكيفر أعطى عناية زائدة لبيان الدور الأساسى الذى تلعبه المشاعر والعواطف الذاتية والإتجاهات فى الحياة . وقد سيطرت على ماكيفر فكرة جوهرية انتظمت كل كتاباته ، وهى أن الإنسان (الشخص) من خلق ذاته ، ومن خلق الثقافة والمجتمع أيضا . أو بمعنى آخر حاول أن يتخذ موقفا يختلف عن إتجاه « الحتمية السوسيولوجية » أو اتجاه الوضعية الحديثة التى تطابق بين العلية الاجتماعية والعلية الطبيعية .

حـ - يعتبر كتاب ماكيفر « العلية الاجتماعية » أهم كتبه . عرض فيه لموقفه من عدة مسائل هامة فى علم الاجتماع . وكشف فيه ، كما يقول مارتنديل عن نظريته فى الفعل الاجتماعى (١) . وقد حدد ماكيفر موقفه بدقة من التفسير الوضعى الذى يطابق بين العلية الاجتماعية والعلية الطبيعية ، ومن النظرة الشكية التى تنكر إمكان تطبيق فكرة « السبب على الظواهر الاجتماعية . فهو لا يرى أنه فى الإمكان معرفة كل الأسباب التى تكمن وراء سلوك الإنسان . ولكننا نستطيع أن نصل الى فكرة علية عامة تفسر العلاقات القائمة بين الظواهر النفسية والاجتماعية وغير الاجتماعية . ومن الجدير بالذكر هنا قوله ، إننا يجب أن نفهم العلية فى ميدان العلوم الطبيعية أو الحيوية بطريقة مختلفة عن فهمنا للعلية فى العلوم الاجتماعية .

وقد حاول ألا يقع فى الخطأ الذى وقع فيه « لندبرج » وغيره من أنصار الاتجاه الوضعى ، ذلك لأن العلاقة العلية بين الريح والموج . وبين الأرض أو التربة والنمو تصور رابطة لا تتغير ذات طبيعة خارجية . كما أنها تعكس فى نفس الوقت قوانين طبيعية وليست اجتماعية . ولهذا فمن الخطأ أن نطبق نفس

1- Martindale; Op. Cit.; p. 406

المناهج والقضايا على الظواهر الاجتماعية التى تتضمن بالضرورة ناحية نفسية ومثال ذلك أن هناك فرقا جوهريا بين نمط العلية الذى نستخدمه عندما نحاول إدراك العلاقة بين الورقة والريح عندما تطير الورقة ، وبين نمط العلية الذى يطبق على إنسان يهرب من جمهور يطارده ، فالورقة لا تعرف الخوف ، والريح لا يعرف الكراهيه ، وبدون الخوف والكراهية ، لن يهرب الرجل ولن يطارد الجمهور أحداً . وهكذا نرى أن ادخال العامل النفسى فى التفسير السوسيولوجى حدد موقف ماكيفر من العلية الاجتماعية ، فطالما أن علم الاجتماع يعنى بالنطاقين النفسى والاجتماعى ، اللذين ينبثقان من النطاقين البيولوجى والطبيعى ، فان هذين النطاقين الأخيرين لهما تأثيرات عامة على الوقائع السوسيولوجية . ويترتب على ذلك أن السلوك الواعى يتضمن عمليتين من التنظيم الاختيارى ، الأولى وتشمل نسق القيم عند الفرد وموقفه الثقافى وشخصيته ، ويتمركز هذا كله فى اتجاه معين فى سبيل الوصول إلى هدف معين . والثانية وتشمل نواح معينة من الحقيقة الخارجية ، التى ترتبط اختياريا بالنسق القيمى وقد تنقل القيم الإنسانية من الحقيقة الخارجية عناصر معينة تحولها الى أدوات أو وسائل

وتقوم الدراسة العلمية على التعرف على مستوى العلية للظاهرة المراد دراستها . وتنظيم الدراسة المقارنة . والخطوة الأولى فى هذه الدراسة العلمية تتم فى علم الاجتماع عندما نتعرف على النواحى الغائية فى الظواهر الاجتماعية . وفى هذا المقام ينقد ماكيفر الباحثين فى العلوم الاجتماعية الذين لا يريدون الاعتراف بأن هذه العلوم لها موضوع متميز عن موضوع العلوم الأخرى غير الاجتماعية ، كما ينقد أولئك الذين يعترفون بالاختلاف الموضوعى بين علم الاجتماع وعلم الطبيعة مثلا ولكنهم لا يعترفون بأن هذا الاختلاف يترتب عليه اختلافات

منهجية أيضا ، لأنهم يتوهمون أن افتقار العلوم الاجتماعية إلى قياس كمى مضبوط هو السر فى تأخرها . أما الخطوة الثانية وهى الدراسة المقارنة ، ونحن نضطر الى الاعتماد عليها لأن قدرة العلوم الاجتماعية على التجريب محدودة جداً ومن أجل هذا نلجأ إلى مقارنة الحالات المتعددة ونصعد من هذه المقارنة إلى نتائج عامة حتى لو استخدمنا « الخيال التصورى » فى ربط هذه الحالات .

د - يتأثر السلوك الانسانى بمجموعة مختلفة من الظروف الاجتماعية وغير الاجتماعية ، ولذلك يميز ماكيفر بين ثلاث ميادين كبرى ذات طابع دينامى هى : الميدان أو النطاق الفيزيائى ، والميدان المتصل بالكائن العضوى ، والميدان المتصل بالكائن الواعى . وعلى الرغم من أن كل نطاق له صفاته المميزة التى تقتضى مناهج متميزة ، فانها مرتبطة أشد الارتباط . وفى علم الاجتماع لا نهتم إلا بنطاق الكائن الواعى الذى يتكون من الأنظمة الثقافية والتكنولوجيا الاجتماعية ، وفى إطار هذا النطاق علينا أن نكشف العلية الاجتماعية التى تتركز عند دراستها على التقديرات أو المفاضلات المتقاربة أو المتشابهة التى تهيمن على نشاط الجماعات والتنظيمات المختلفة . وبصفة عامة على الظواهر العامة للسلوك الإنسانى ، ولما كان التقدير المتقارب أو المتشابه يعنى عند ماكيفر ، الفعل الواعى الذى عن طريقه يربط الانسان بين الوسائل والغايات ويزن البدائل ، فانه يعتقد أن التقديرات المتقاربة أو المتشابهة تكمن فى ثلاثة أنماط متمايزة من الظواهر الاجتماعية الدينامية .

الأولى : وهى الظواهر التوزيعية التى تعبر عن التغيرات المختلفة مثل اختلاف الأزياء فى الزمان والمكان والذبذبات التى تحدث فى نسب المواليد والجريمة والزواج ، وتمثل فى نفس الوقت تجمعا لعدد كبير من الافعال الفردية ولا تكون الاشارة فى مثل هذه الظواهر الى جماعة بعينها .

والثانية : الظواهر الجمعية مثل الحركات الاجتماعية المنظمة والسياسات الادارية والثورات السياسية أو الاجتماعية .

والثالثة : الظواهر التى تعبر عن ارتباط عدة قوى أو ظروف مؤدية الى تغيرات فى البناء الاجتماعى ، مثل تغير المجتمع من الزراعة الى الصناعة أو الذبذبات التى تحدث فى دورات العمل والتجارة ولم تكن نتيجة تخطيط .

هذا ويعتقد مارتنديل أن ماكيفر سار فى نفس اتجاه ماكس فيبر فى كتابه « العلية الاجتماعية » ، وخاصة عندما عرف علم الإجتماع وعندما أشار الى المنهج المقارن كخطوة ثانية فى الدراسة العلمية للحقائق الإجتماعية (١) كما أن ماكيفر كان مدركا لتعقد الحياة الإجتماعية ، وظهر هذا واضحا عند دراسته للضبط الاجتماعى والبناء الاجتماعى والجماعات ، وعند دراسته للعلية الاجتماعية والتغير الإجتماعى . ومع أن نظرياته فى علم الاجتماع تلونت بمعتقداته السياسية والإجتماعية إلا أن كتاباته الدقيقة وتحليله المفصل للحقائق الإجتماعية تجعله يقف جنبا الى جنب مع كبار علماء الاجتماع فى وقتنا الحاضر . وربما كان ذلك هو السبب الذى من أجله فضلنا أن نضمه الى الاتجاه التحليلى فى علم الإجتماع كما فعل تيماشيف .

1 — Ibid, p. 411

خاتمـة :

إن الإتجاهات المختلفة التى عرضنا لأهم خصائصها وأعمال من يمثلونها ، ليست هى كل الإتجاهات المعروفة فى النظرية السوسيولوجية . فقد اخترناها لأنها تمثل فى مجموعها الإتجاهات الكبرى فى علم الاجتماع المعاصر .ولذلك لم نعرض للانجاهات ذات الطابع التاريخى او الفلسفى أو الايكولوجى ، وكذلك لم نتعرض للقياس الاجتماعى (السوسيومترى) ، على الرغم من أنه ينمو بسرعة فى السنين الأخيرة . وليس فى عدم عرض هـذه الإتجاهات أى معنى من معانى التقليل من أهميتها فى فهم الموقف النظرى فى علم الاجتماع بل إن الأساس ، هو أننا لا نريد أن نتعرض لمزيد من النظرية فى كتاب يعالج موضوعات علم الاجتماع بالتفصيل ، ففحص كل نظريات العلم وتقدير أهميتها عمل غير هين ، ويحتاج الى معالجة خاصة وإلى كتاب قائم بذاته .

ويهمنا فى ختام هذا الجزء أن نبين أن النظرية السوسيولوجيـة تسعى إلى الاكتمال ، وتقل الفروق الجوهرية بين اتجاهاتها المختلفة ، وهذا علامة على أن علم الاجتماع ماض إلى الاكتمال بسرعة . ويتوقف قدر كبير من هـذا الاكتمال على البحوث الواقعية التى تجرى فى كل مكان من العالم . وقد سبق أن ذكرنا أن تقدم علم الاجتماع يقوم على مزيد من البحث الذى يهتدى بنظرية ويسعى دائما إلى اكتشاف نظرية . ومن علامات النضج التى ظهرت على علم الاجتماع علامتان :

١ ـ قلت الاختلافات الكثيرة بين علماء الاجتماع حول المصطلحات ، وأصبح هناك شبه اتفاق على عدد كبير منها . وفى هذا المقام قـد يذهب بعض الباحثين، رغبة فى استبعاد المعانى الشائعة أو المألوفة عن الاصطلاح إلى إستخدامه استخداما غامضـا وتضمينه معان تخرج عن الحـد المطلوب ، أو

إستخدام إصطلاحات بعض العلوم الأخرى فى مواقع من التحليل لا تصلح لها . ولكن هذه النزعات لا تلبث أن تعود إلى الطريق الذى ينمو فيه علم اجتماع اليوم وهو « الاتفاق الاصطلاحى » .

٢ ـ أصبح هناك شبه اتفاق حول أهم الموضوعات التى يجب أن يعالجها علم الاجتماع . ويظهر ذلك من أن الظواهر الاجتماعية ينظر إليها كما وصفها دوركايم بأنها قائمة بذاتها ، وأن علامة وجودها « التفاعل الهادف » بين الأفراد . وكلما دامت الظواهر الاجتماعية لفترات طويلة كونت ما يسمى بالجماعات الاجتماعية . وقد اصبحت دراسة الجماعات مدخلا هاما لدراسة علم الاجتماع وتقدمت دراستها فى السنين الأخيرة تقدما ملحوظا . ومع الاهتمام بدراسة الجماعات تزايد الإهتمام أيضا بدراسة العمليات الاجتماعية الأساسية : التفرق والتجمع وما يتفرع عنهما . ويلاحظ أيضا تزايد الاهتمام بدراسة الثقافة ودورها الواضح فى التغير الاجتماعى والثقافى .

الفصل الثالث

النظرية السوسيولوجية : مواقف واتجاهات

مدخل :

هناك طريقان لإستعراض تاريخ الفكر السوسيولوجى : الأول : عرض أفكار العلماء الذين يشكل فكرهم ككل مادة تاريخ الفكر ، ويكون هذا الأسلوب فى المعالجة لامناص منه إذا كان المقصـــود فهم القوى الدافعة للتاريخ الفكرى ، وخاصّة من خلال تصورات واكتشافات مجموعة من الأفراد. ومع ذلك ،فإن هذا الأسلوب ينطوى على كثير من الصعوبات ،ويتسم بغير قليل من الغموض ، لأن تاريخ الفكر سيكون حينذاك مجرد سرد لايرقى إلى مرتبة التمييز والتعمق فى بناءات المعانى والمنظورات ، فالأفكار مثل النظم ذات علاقات مستقلة وإمتدادات مختلفة ، ومن السهل أن تحجب الرؤيا إذا كان التركيز منصبا على البيوجرافيا فحسب .

أما الطريق الثانى فيتمثل فى الاهتمام بالنسق بدلا من المفكر ، أو بمعنى آخر التركيز على المدرسة أو المذهب أساساً ، مثال ذلك عرض النفعية دون إستعراض لميل أو بنثام ، ودراسة المثالية وليس استعراض هيجل وبرادلى ، وكذلك مناقشة الاشتراكية وليس مناقشة ماركس وبرودون. ويصدق هذا على علم الاجتماع كما يصدق مثلا على الميتافيزيقا . ومع مافى هذا الاتجاه من إقتراب من حقيقة التأثير الذى يظهر فى امتدادات الأفكار ، حيث يكون التطور الفكرى أو الاضافة إلى

نمط أو نسق يتكون من أفكار مترابطة ، إلا أن سقطات هذا المدخل معروفة جيداً ، إذ أحيانا ماينظر إلى الانساق الفكرية نظرة مجردة عن عناصرها الحيوية ، والعوامل الدينامية التي شكلت هذا النسق أو ذاك لأول مرة .

ولعل مافي هذين الطريقين من نقائص يقودنا إلى طريق ثالث لايبدأ من الفرد أو النسق ، ولكنه يركز على الأفكار المحورية التي تشكل عناصر الانساق كما ذهب الى ذلك لفجوى Lovejoy [١] ، وربما يصلح هذا الطريق لإستعراض الأفكار الأساسية في علم الاجتماع خلال فترة التشكيل الأولى من خلال أعمال رواد مثل توكوفيل ، وماركس، وماكس فيبر ، واميل دوركايم .ومع أن هذا الأسلوب سوف يهمل الانساق الظاهرة التي يمكن التوصل اليها من خلال كتابات علماء اجتماع القرن التاسع عشر مثل المادية التاريخية ، والوظيفية والنفعية ، فإن الاهتمام سوف ينحصر في الأفكار المحورية التي تعتبر أساسية، وبناءة ، ومكونة لمادة علم الاجتماع. وبرغم الاختلافات الواضحة بين المؤلفين ، إلا أن الأفكار بقيت خلال الفترة الكلاسيكية لعلم الاجتماع الحديث ، وإمتدت من غير شك حتى وقتنا هذا .

ما هي إذن المقاييس التي يمكن أن تحكم اختيار الأفكار المحورية لأى مذهب

---

(١) كتب أرثر لفجوى يشرح هذا الموقف ما يلي : « انني أعني بتاريخ الأفكار شيئا أكثر دقة وتحديدا من التاريخ أو الفلسفة ، ان الاهتمام هنا ينصب على الوحدة المميزة لكل اتجاه فكري . وبهذا فاننا قد نتناول نفس المادة التي يعالجها المؤرخون والفلاسفة ، لكننا نصنفها ، ونقسمها ، ونفحص العلاقات بينها ، وهذا هو ما يجعلنا ننفذ الى أعماق الشخصيات الفلسفية والمذاهب أيضا » .

See, Lovejoy, the Great Chain of Being, N. Y. 1942.

وراجع أيضا مقدمة كتاب نيسبت .

Nisbet, the Sociological Tradition, London, 1967, pp. 4 – 5.

أو نسق فكرى ؟ هناك فى تصورنا أربعة مقاييس تحكمنا فى هذا الصدد : ١ ـ لابد أن تكون لهذه الأفكار عمومية ، بمعنى أنها واضحة ومتخللة لأفكار عدد كبير من العقول الخلاقة فى عصر معين ، وليست قاصرة على مفكر بعينه ، ٢ ـ لابد أن تكون لها «استمرارية» بمعنى أن تكون ظاهرة فى المراحل المبكرة والمتأخرة للفترة المشار اليها ، وتكون متصلة بالماضى كما هى متصلة بالحاضر ، ٣ ـ لابد أن تكون الأفكار « متميزة » ، أى أنها تسهم فى الأساس الذى يجعل خطا فكريا معينا يختلف عن خط فكرى آخر ،ولهذا فإننا نعتبر أفكارا مثل الفرد ، والمجتمع ،والنظام ، عديمة الجدوى هنا ، لأنها جميعا تعتبر عناصر لكل خطوط التفكير الاجتماعى ، ٤ ـ لابد أن تكون هى ذاتها « أفكارا » بكل ماتحمل هذه الكلمة من معانى ، لأن الفكرة ماهى الا منظور أو اطار حيث تلتحم الرؤية بالحقيقة ، أو البصيرة بالملاحظة .

ولنا بعد ذلك أن نبحث عن الأفكار المحورية التى تعطى صيغة متميزة لعلم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية الأخرى . وربما يكون من المفيد هنا أن نستعين بمحاولة روبرت نيسبت R. Nisbet لتحديد هذه الأفكار ، وتكشف هذه المحاولة عن تمييز لخمسة مفاهيم أساسية هى: المجتمع المحلى ،والسلطة ، والمرتبة أو المراكز، والمقدس ، والاغتراب (١) .

أما المجتمع المحلى ، فيشتمل، ولكن بطريقة تتعدى نطاق المجتمع المحلى الضيق ، على الدين والعمل والأسرة والثقافة ،ولذا يشير إلى الروابط الإجتماعية التى تتميز بالإلتحام والعمق والاستمرار والتكامل . بينما السلطة تعنى البناء ، أو النظام

---

(١) Ibid. pp. 6 – 7.

الداخلى لأى رابطة ؛ سواء كانت سياسية ، أو دينية ، أو اقتصادية ،والمركز هو وضع الفرد فى سلم النفوذ أو التأثير الذى يميز أى مجتمع محلى أو رابطة . أما المقدس فإنه يشير الى الأنحراف والأساليب اللا عقلانية ، والدينية ،والطبقية للسلوك التى تكون ذات قيمة بغض النظر عن نفعيتها .

وأخير يمثل الأغتراب ، منظور تاريخى ، ينظر من خلاله للانسان على أنه غريب بلا معيار ، وبلا أرض يقف عليها ، أو لاجذور له ، وذلك عندما تقطع الصلات التى تربطه بالمجتمع المحلى أو بالغاية الأخلاقية . والواقع أن كل فكرة من هذه الافكار ، ترتبط بمقابل تصورى عكسى لها أو بمعنى آخر ترتبط بنوع من النقيض الذى تستمد منه كثيرا من معناها الممتد فى التراث السوسيولوجى. وهكذا ، تتعارض فكرة المجتمع المحلى مع فكرة المجتمع ، حيث يعالج المجتمع من خلال الافكار التى تؤكد الحجم الكبير والروابط التعاقدية غير الشخصية التى تميز العصر الحديث وان بدا هذا كله على حساب المجتمع المحلى (١) . والمقابل التصورى للسلطة فى التفكير السوسيولوجى هو القوة التى تتطابق عادة مع القوة السياسية ، أو العسكرية ، أو التنظيم البيروقراطى، كما أنها تختلف عن السلطة التى تنبثق مباشرة من الرابطة والوظيفة الاجتماعية من حيث أنها تثير مشكلة الشرعية، أما المرتبة فإن مقابلها التصورى فى علم الاجتماع ليس فكرة المساواه المتواترة ، ولكنها فكرة الطبقة التى تتميز بالتخصص والجماعية ، كذلك فإن مقابل فكرة المقدس هو النفعية أو العلمانية (الدنيوى) ، وأخيرا فإن الاغتراب يمكن أن يكون مقابلا لفكرة التقدم . ومن الجدير بالذكر أنه من خلال نفس القضايا التى تعالج

---

(١) Sce, Ferdinand Tonnies (Gemeinschaft and Gesellschaft, 1887), Community and Society, Loomls, trans and ed. 1963.

طبيعة النمو التاريخى لأوروبا مثل التصنيع والاتجاهات العلمانية والمساواة والديمقراطية الشعبية وهكذا ،فإن مفكرين من أمثال « توكفيل » «وماكس فيبر» لم يستنطبوا النتائج المترتبة على ذلك فى صورة التقدم الاخلاقى والاجتماعى ، ولكنهم استنتجوا اغتراب الإنسان عن الإنسان ،الاغتراب عن القيم وعن الذات وهو اغتراب فى واقع الأمر سببته نفس القوى التى رآها البعض الآخر من عاصروهما على أنها باعثة على التقدم .

على أن هذه الافكار لم تنبثق لأول مرة فى القرن التاسع عشر لأنها قديمة بصورة أو بأخرى . ذلك أننا اذا تتبعنا تطور الفكر الإنسانى عبر القرون ، فإننا نجد أن الاثينيين من خلال أفلاطون ، أولئك الذين حطمتهم ويلات الحرب والثورات ، انشغلوا بأفكار تتعلق بالمجتمع المحلى ، والاغتراب ، والتدرج ، والمقدسات ، الى جانب الاهتمام بالنمو الاجتماعى والتدهور الذى يمكن أن يصيب النظام ، كما ان هذه الافكار بصورة معدلة يمكن تتبعها عند فلاسفة الرومان فى الوقت الذى إختل فيه النظام الاجتماعى التقليدى بسبب الحرب الطويلة والفساد الاخلاقى والثورة الاجتماعية ، وانهيار الجمهورية ، وظهور ملامح السيطرة العسكرية فى عهد اوغسطس ، فضلا عن ان هذه الافكار قد بدات تظهر ايضا فى أعمال فلاسفة المسيحية .

ومع أن هذه الأفكار يمكن النظر اليها باعتبارها متعدية لحدود الزمان والمكان إلا أنها مثل كل الافكار الكبرى عن الانسان والمجتمع تمر بفترات ، تتناوب الظهور والانتشار ، فهناك عصور كان لها أهمية صغرى وعصور أخرى توارت فى ظلال أفكار واتجاهات عالجت مصير الانسان وآماله . الا أن الجدير بالملاحظة هنا أن الموضوعات التى شغلت عصرا بأكمله من كتاب « بيكون » عن Novom Organom الى كتاب « كوندرسية » “ Sketch of a Historical Picture of the

" Humam mind " ، كانت تدار حول تخليص الفرد من الروابط الاجتماعية القديمة ، وتحرير العقل من ضغط التقاليد ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل فكرة الانسان الطبيعى تنتشر اعتقادا فى قدرته العقلية ، وطابعه الداخلى ، وثباته الذاتى. ويمكن أن يوصف هذا العصر بحق بأنه عصر العقل . الا أن رد الفعل فى القرن التاسع عشر كان شديدا ، فقد أخذ الفكر يتجه من العقلى التحليلى إلى التقليدية ومن الفردية الى الجماعية ، ومن العقلانية إلى اللا عقلانية . كما أنه يمكن أن نتتبع رد الفعل هذا فى الأدب ، والفلسفة ، والتشريع ، والتاريخ بطريقة منظمة فى علم الاجتماع. ومن الأفكار الجديرة بالتأمل التى ظهرت كرد فعل لعصر العقل الذى أعلى من شأن النظام الطبيعى تلك التى تؤكد الطابع النظامى والمجتمع المحلى والقرابة والطبقة الاجتماعية .

ان الأفكار الكبرى التى عبر عنها كبار علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر اعتبارا من « كونت » و « توكوفيل » و « ماكس فيبر » و « دور كايم » عبرت عن الايديولوجيات الثلاثة الكبرى التى ظهرت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وهى الليبرالية والراديكالية ثم الاتجاه المحافظ ، تلك التى تأثرت إلى حد كبير بما يسمى بالثورة الصناعية والثورة الديمقراطية (١) . وليس من المبالغة هنا أن تقول ان هذه الايديولوجيات الثلاثة والعوامل التى بلورتها تشكل الافكار

---

(١) أنظر معالجة مستفيضة لتطور النظرية الاجتماعية فى علاقتها بالايديولوجية ، وبخاصة تحليل الأسس الفلسفية لأفكار عصر التنوير ، والاتجاهات المحافظة ، والراديكالية منذ ظهور أفكار بونالد وميستر Bonald & Maistre ، وسان سيمون ، وأوجيست كومت ، وماكس فيبر ، وباريتو ، وموسكا ، وروبرت ميشيلز ، واميل دور كايم ، وكارل مانهيم . فى :
Irving M. Zeitlin, Ideology and the Development of Sociological Theory, New Delhi· 1969.

الأساسية فى علم الاجتماع . ومن الملائم هنا أن نعرض باختصار لأهم ملامح هذه الايديولوجيات الثلاثة .

إن العلاقة المميزة لليبراليه انحيازها الملحوظ للفرد ،وبخاصة لحقوقه السياسية والمدنية، وكذلك وبصورة تتزايد لحقوقه الإجتماعية .وعلى الرغم من الاختلافات التى تظهر بين الليبراليين إلى الدرجة التى يمكن معها أن نتحدث عن اتجاهات ليبراليه وليس عن اتجاه واحد، فإن هناك مسائل مشتركة بين الليبراليين جميعا يمكن الاشارة اليها على النحو التالى : ا ـ التسليم بالبناء الأساسى للدولة والاقتصاد (ومثال ذلك أنهم يخالفون الراديكاليين الذين يرون أن الثورة هى الأســـاس الذى لا يمكن الاستغناء عنـه للحرية ، ومع ذلك فإنهم فى بعض الأحوال لا يملكون إلا أن يشاركوا فى تدعيم الثورة) ب ـ اعتقاد فى أن التقدم لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تحرر عقل الإنسان وروحه من الروابط الدينية والتقليدية للنظام القديم .

وهناك مفكرون من أمثال « توكثيل » و« وجون ستوارت مل » و « لورد آكتون» نعدهم كما وصفوا أنفسهم من الليبراليين ،حيث أعطوا أهمية كبيرة للنظم والتقاليد بنفس الدرجة التى أهتم بها المحافظون . ولـكن مـع تأكيد وجهة نظر أخرى تتمثل فى الدور الذى يمكن أن تسهم به النظم والتقاليد فى تدعيم الفردية ، لأن حجر الزاوية عندهم كان الحرية الفردية وليس السلطة الاجتماعية (١).

أما الراديكالية فعلى الرغم من أنها تستمد كثيرا من مبادئها من الليبراليه إلا أنها غالبا مالا تقترب منهـا ، لأنها فى واقع الأمر تعبر عن اتجـاه عقلى مختلف يقوم

---

(١) See Lewis Coser, Masters of Sociological Thought, N. Y, 1974.

على الاعتقاد فى الامكانيات الكامنه للخلاص فى القوة السياسية ، والتى تتمثل فى قدرتها على مواجهة وتصفية الرواسب القديمة التى باعدت بين الإنسان ونظمه والتى يمكن أن تمارس نوعا من التأثير غير المحدود والمروع أحيانا ، فى إعادة تأهيل الإنسان ليعيش متفاعلا مع النظم الاجتماعية . أن « الراديكالية» عندما تمتزج بالقوة تصبح لديها ايمان لا نهاية له فى قدرة العقل على صياغة نظام اجتماعى جديد، وأهم ما يميز راديكالية القرن العشرين اتجاهها العلمانى ، وذلك لأنها حملت مشعل الثورة لأولئك الذين يرون أن الأمل فى اعادة بناء أوربا والانسانية لا يقوم على الدين وإنما يقوم على استخدام السند السياسى للمجتمع .

ويعتبر الاتجاه المحافظ الحديث وليد الثورتين الصناعية والفرنسية ، ذلك أن ما دافعت عنه هاتين الثورتين هاجمها الاتجاه المحافظ ممثلا فى مفكرين من أمثال « برك » و « كولريدج » ، وما تسببت فيه هاتان الثورتان من قيام الديمقراطية الشعبية والتكنولوجيا والعلمانية هاجمته الاتجاهات المحافظة . وقد ترتب على دفاع المحافظين عن التقاليد الاجتماعية التأكيد المستمر على قيم المجتمع المحلى ، والقرابة، والتدرج ، والسلطة والدين .

ان العلاقة بين نمط مجتمع العصور الوسطى وبين علم الاجتماع لا تحتاج إلى إثبات ، ذلك أن الذى لا شك فيه أن « أوجيست كومت » كان يبدى إعجابه بالاتجاه المحافظ الذى تستطيع أن نترسمه فى تقديره المبالغ للعصور الوسطى ، حتى أن بعض المؤرخين للنظرية فى علم الاجتماع يذكرون أن تقدير نمط العصور الوسطى سواء فى الفكر أو فى النظام الاجتماعى كان وراء النموذج الذى اقترحه « كومت » فى السياسة الوضعية . ومع أن « كومت » قد أحل الوضعية محل الكاثوليكية إلا أنه لا يترك مجالا للشك فى أعجابه ببناء مجتمع العصور الوسطى أو فى رغبته الدائمة فى

الاحتفاظ بجوهره (١) . كما أن « توكو فيـل » كان يعتبر مجتمع العصور الوسطى بمحلياته وتدرجه ، ودستوره الذى يقوم على الدين ، إطاره الذى كان يرجع اليه دائما فى دراسة الديمقراطية الأمريكية والنظم الحديثة فى أوربا (٢) . أما « لبلاى » فقد أقام دراساته للأسرة ، على صورة عائلة القرون الوسطى ، وأعلن أن العصور الوسطى (وليس المجتمعات القديمة أو البدائية) هى ما يجب أن يسترعى الاهتمام فى الدراسة المقارنة للحقائق الاجتماعية (٣). وأستخلص « تونيز » أيضا كل المادة التى بنى عليها نمط المجتمع المحلى من قرية العصور الوسطى ومن العائلة ومن العشيرة فيها . وأخيرا فإن « دوركايم » قد أقام مشروعه المشهور للروابط المهنية المتوسطة على نمط ما كان سائدا فى العصور الوسطى ، وأن كان قد آخذ فى الاعتبار الاختلافات ،

(١) Comte, the Positive Philosophy of Auguste Comte (trans. by Martineau, London 1896.

(٢) تغفل معظم مؤلفات تاريخ الفكر الاجتماعى اعطاء توكفيل المكانة التى يستحقها ، وربما كان ريموند آرون من بين القلائل الذين التفتوا الى هذه الحقيقة ، حيث يذكر فى مؤلفه « التيارات الرئيسية فى الفكر الاجتماعى » ، « انه لا يعلم سببا حقيقيا لإهمال كتابات توكفيل فى مؤلفات تاريخ الفكر الاجتماعى » ، ولهذا خصص فصلا كاملا لتحليل الجوانب التاريخية ، والسياسية والاجتماعية فى كتابات توكفيل ، ومقارنة آرائه بكتابات ماركس وكومت .

Raymond Aron, Main Currents in Sociological Thought 1, N. Y, 1968. p. 237. Also pp. 237 – 302.

(٣) See, Sorokin, Contemporary Sociological Theories; N.Y, 1928

حيث عرض سوروكين لمدرسة لوبلاى بالتفصيل ، وهو يقول ان الاسهام الأساسى له يتمثل فى تطوير منهج محدد لتحليل الظواهر الاجتماعية ، وصياغة مجموعة تعميمات سوسيولوجية ثم وضع كثير من المقترحات العملية للنهوض بالأحوال الاجتماعية (علم الاجتماع التطبيقى) ص ٦٦ .

لأنه كان واعيا بما قاله النقاد عنه من أنه يؤسس علم المجتمع على قيم مستمدة من النزعة العضوية ومن الواقعية الميتافيزيقية . إلا أن كل هذا لا يوحى بأن علماء الاجتماع كان لهم مزاج العصور الوسطى . أنه من الضرورى أن نبحث عن عقل أكثر عصرية فى انتماءاته السياسية والاجتماعية من « دوركايم » . ذلك أنه من خلال نظريته الاجتماعية كان « دوركايم » يكشف عن انحياز يمثل روح العقلانية التى تستمد أسسها من تعاليم « ديكارت » ويمكن أن يكون هذا صحيحا إلى حد كبير بالنسبة لكل من « تونيز » و « وفيبر » و « وسيمل » وينقلنا ما سبق كله إلى تناول الايديولوجيات التى تعبر عن وجهة النظر الأساسية لعدد من علماء الاجتماع الذين يمثلون محاور علم الاجتماع المعاصر . أننا حين نتكلم عن الايديولوجية ، فإننا نشير اليها بصورة مجردة ، فالأيديولوجيات عند الكثيرين تعتبر المنطلقات الأساسية لكثير من التصورات والمذاهب والأفكار التى سادت هذا القرن ولكن صورة المعالجة الأيديولوجية تختلف إذا كنا بصدد الحديث عن أفراد بعينهم .

أنه من السهل أن نقول ان « لبلاى » كان محافظا من الدرجة الأولى وأن « ماركس » كان ليبراليا . إلا أن الأمر بالنسبة « لأوجيست كومت » قد يكون صعبا لاننا يمكن أن نعده راديكاليا إذا نظرنا إلى « يوتوبيته » فى السياسة الوضعية ، مع أن نظره كومت للعلم والصناعة والوضعية يمكن أن تضعه بين الليبراليين . أما « توكوفيل » فقد جمع بين الليبرالية والاتجاه المحافظ مع أن ارتباطاته الأساسية كانت مع الليبراليين ، فقد قام بدور هام جدا فى الثورة التى انفجرت عام ١٨٤٨ (١) .

---

(١) Nisbet, Op: Cit, p. 16:

ان كثيرا من الأفكار الكبرى فى العلوم الاجتماعيه تمتد أصولها فى الطموح الأخلاقى ، وبغض النظر عن الطابع المجرد الذى يمكن أن تظهر عليه الأفكار وكذلك بغض النظر عن الطابع المحايد الذى يمكن أن تلوح به للعلماء والمنظرين ، فإنها لا يمكن أن تقتلع نفسها حقيقة من أصولها الأخلاقية ، ليس انتقاصا للعظمة العلمية إذا أكدنا أن مفكرين مثل « فيبر » و « دور كايم » كانوا يعالجون أفكارا تتناول القيم ، والتصورات ، والنظريات ، معالجة لا تنعزل عن الصراعات الأخلاقية التى كانت قائمة فى القرن التاسع عشر . فكل فكره من الأفكار التى عولجت بعد ذلك معالجة علمية أنبعثت أولا فى التراث الفكرى الأخلاقى [١] . فالمجتمع المحلى بدأ كقيمة أخلاقية وبالتدريج أصبح لهذا التصور وجـــودا علمانيا فى التفكير السوسيولوجى فى هذا القرن . ويصدق ذلك أيضا على المفاهيم الأخرى مثل : الاغتراب والسلطة ، المرتبة ، وغيرها من الأفكار المحورية فى علم الاجتماع . [٢]

---

(١) من الجدير بالذكر أن الاهتمام بالجوانب الأخلاقية هذه ، يظهر بوضوح فى دراسات المدرسة الألمانية بصفة عامة التى تبنت المنظور التاريخى ، وانشغلت الى حد كبير بفحص تصورات هيجل وماركس ، مثال ذلك أن ماكس فيبر جعل من الأخلاق البروتستانتية محورا لإهتمامه حينما ناقش نظريات ماركس . أنظر فى ذلك :

Zeitlin, Ideology and the Development of Sociological Theory, New Delhi, 1968, p. III.

وللوقوف على أراء المدرسة الألمانية التاريخية راجع :

Albert Salomon, German Sociology, in G. Garvitch and Wilbert Moore,' Twentieth – Century Sociology, N. Y, 1945, p. 596.

(٢) كتب روبرت نيسبت مؤلفا هاما عن « التراث السوسيولوجى عام ١٩٦٧ عالج فيه تطور الأفكار فى علم الاجتماع معالجة جديدة ، حيث ركز تحليله لهذا التراث حول أربعة مفاهيم أساسية هى : المجتمع المحلى ، والسلطة ، والمكانة ، والمقدس ، والاغتراب ، باعتبار أنها كانت هى المفاهيم المحورية عند توكفيل ، وماركس ، ودوركايم ، وفيبر . وأوضح =

لكن هذه الأفكار لم تفقد مذاقها الأخلاقى ، ذلك لأنه بعد مرور قرن على الكتابات العلمية لكل من « ماكس فيبر » و « دور كايم » فإن العنصر الأخلاقى لهذه الأفكار ما زال حيا ، ويمكن أن يقال تعقيبا على ذلك أن كبار علماء الاجتماع لبسوا دائما ثوب الفلاسفة الأخلاقيين ، كذلك كانوا فى نفس الوقت مصلحين ، وهذا لأن كثيرا من الأفكار التى ظلت لها حيوية وبقيت حتى يومنا هذا ذات أهمية مركزية فى الفكر السوسيولوجى المعاصر ، كتب لها البقاء لأنها كانت نتيجة لما يشار اليه الآن على أنه فكر يحل المشاكل . وبدون استثناء فإن كلا من هذه الافكار هى نتيجة لعمليات فكرية ، وخيال ورؤية ، وحدس ، وهى العناصر التى يشترك فيها العالم والفنان . أننا نؤكد هذا المعنى لأننا نعيش عصرا ينظر فيه الذين يقومون بتدريس علم الاجتماع أو العلوم الاجتماعية الأخرى إلى ما هو علمى أو مهم فى نسقهم الفكرى أو النظرى على أنه نتيجة لطريقة محددة فى التفكير ، تواجه تعريف المشكلة ، وتواجه حلها فى نفس الوقت .

هل هناك من يصدق أن المجتمع المحلى والمجتمع عند تونيز تصنيفه لهما ، ورؤية « فيبر » للعقلانية ، وصورة « زيمل » « للمتروبوليس » ، ومنظور « دور كايم » للامعيارى ، قد كانت كلها نتيجة لتحليل منطقى امبيريقى كما نفهمه فى هذه الأيام ؟ إذا سألنا مثل هذا السؤال فإننا نعرف الاجابة فى الحال ، هؤلاء المفكرون كانوا

= يثبت كيف أن معالجة هذه المفاهيم عند مفكرى القرن التاسع عشر قد انتقلت الى علم الاجتماع الأمبيريقى والنظرى الحديث . وقد وصف كثير من علماء الاجتماع مؤلف نيسبت هذا بأنه « اسهام رئيسى فى تاريخ علم الاجتماع ، يقدم استبصارات ثاقبة حول افتراضات القرن العشرين عن المجتمع الانسانى » . وجدير بالذكر أن نيسبت كتب مؤلفا آخر اتبع فيه نفس المنهج ، ولكنه ركز بالذات على فكر دوركايم ، وجعل عنوانه : المجتمع المحلى والقوة عند اميل دوركايم . أنظر :

Nisbet the Sociological Tradition, N. Y, 1967.

ببساطة لا يعالجون مسائل منظمة أو محددة تقع أمامهم أو تواجههم ، كما كانوا لا يفكرون فى نطاق حل المشاكل ، بل ان كلا منهم مدعما بحدس عميق ، وبقدرة تخيلية متعمقة يستجيب للعالم حوله كما يفعل الفنان ، ويحول المشاعر الداخلية والاتجاهات العقلية بطريقة موضوعية . مثال ذلك أننا لا نستطيع أن نعزل صورة العالم عن الفنان ، عندما نتحدث عن دراسة « دوركيم » للانتحار ، وخاصة عندما كان يبدى وجهة نظره فى الإنسان والمجتمع ، لأن كثيرا من الأفكار التى جمع حولها المادة العلميه والاحصائية كانت تدور فى وجدانه ، وفى عقله ، قبل أن يبدأ الدراسة . وربما استمدها من السابقين عليه من المفكرين ، أو ربما كانت نتيجة خبرته الشخصية أو حدس تولد فيه . نتيجة مشاعر وحدة أو هامشية ، كما أنه ليس من الممكن أن نغفل ذلك أيضا عندما نعالج أفكار ومنظورات « زيمل » وخاصة ما تعلق منها بالخوف ، والحب ، والقوة ، والصداقة ، ولعل هذا صحيح بالنسبة لكل من داروين وسيجموند فرويد .

وهكذا ، تكون دراستنا للأفكار الأساسية التى ظهرت خلال تاريخ علم الاجتماع جديرة بأن تجعلنا نتتبع نمو العلم وتطور نظرياته ، وارتباط ذلك كله بالعوامل الحقيقية التى أدت إلى ظهور هذه النظريات ، وعملت على ازدهار افكار معينة ، واندثار وجهات نظر أخرى ، كما أن هذه الدراسة التحليلية جديرة أيضا بأن تفتح أمامنا مجالات الالهام والتجديد ، حينما نتعرف على المنابع الخلاقة ، والمصادر الحقيقية للعلم .

أولا : المصادر الأولى للنظريات السوسيولوجية

يذهب كثير من مؤرخي الفكر الإجتماعي ، ودارسي النظرية السوسيولوجية إلى أن البناء الحالي لعلم الإجتماع إنما يرجع بصورة أو بأخرى للأنساق الفكرية التي صاغها رواد مبكرون مثل باريتو (الايطالي) ودور كايم (الفرنسي) وماكس فيبر (الألماني) ، ولسنا هنا في موقف يسمح باستعراض آراء هؤلاء بصورة تفصيلية ، وإنما نرى أنه من المناسب في مؤلف يعرض للموقف النظري المعاصر ويحاول تقييمه ، أن نستكشف تلك الخطوط الفكرية التي تشابكت وتفاعلت خلال تاريخ العلم فأنتجت هذا الاتجاه أو ذاك .

ينتمي كل من باريتو ودور كايم ، وماكس فيبر إلى نفس الجيل في أوربا . ذلك أن كلا منهم ينتمي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كما أنهم نظروا نظرة متفائلة الى اللحظة التاريخية التي كانوا يعيشونها ، وأعتقدوا أيضا أن المجتمع الاوربي يمر بأزمة ، مع ملاحظة أن هذة الفكرة لم تكن أصيلة في حد ذاتها . لأن أجيالا عديدة لم يكن عندها هذا الانطباع بأنها تعيش أزمة أو أنها تقف في مفترق الطرق ، ومع ذلك فأن الثلاثة الكبار كانوا يؤمنون بأن المجتمع الأوربي يمر بمرحلة يتعرض فيها لتغيرات أساسية .

لقد كانت لدى كل منهم الرغبة في أن يكون عالما وكانت العلوم تمثل بالنسبة لهم فكرة النموذج الذي يهيء التفكير المحدد ، أو التفكير الصحيح ، وهم كعلماء إجتماع كانوا يرون كما رأى « كومت » من قبل ، أن المجتمعات يمكن أن تحافظ على تماسكها من خلال معتقدات مشتركة ، إلا أنهم وجدوا أن هذه المعتقدات قد أهتزت نتيجة نمو التفكير العلمي ، خاصة في الوقت الذي ظهر فيه أن تناقضا أخذ

يتزايد بشكل لا يمكن الوصول إلى حسمه بين الاعتقاد الدينى وبين العلم ، أو بمعنى آخر لقد أعترف الثلاثة بوجود هذا التناقض ، وتستطيع أن تحدد ذلك بصورة أكثر دقة فتقول ، انهم كعلماء اجتماع أكدوا ضرورة الاستقرار الاجتماعى . (١)

هذه المشكلة التى يعتقد « ريموند آرون » أنها جوهرية ، عبر عنها كل منهم بطريقة مختلفة ، « فدوركايم » باعتباره أستاذا للفلسفة ينتمى إلى التقليد العلمانى وجد أن الدين التقليدى لم يعد قادرا على مواجهة ما أطلق عليه الروح العلمية ، كما أن أزمة المجتمع الحديث ، هى فى أنه لم يستطع أن يستبدل الاخلاقيات التقليدية القائمة على الدين بأخلاقيات قائمة على العلم ، وكان يرى أن علم الاجتماع يستطيع أن يعاون فى إقامة هذه الأخلاقيات .

أما « باريتو » فقد كان طوال حياته يصر أن يكون عالما ، وقاده هذا الميل إلى تكرار قوله بأن القضايا التى يمكن التوصل اليها عن طريق المنهج المنطقى التجريبى هى وحدها العلمية ، وكل القضايا الأخرى وخاصة الأخلاقية والميتافيزيقية والدينية ليس لها أى قيمة علمية ، وعلى الرغم من أن « باريتو » كان يتهكم إلى أقصى درجة على مايسمى بالدين العلمى ، أو الأخلاقيات العلمية ، إلا أنه كان مدركا للحقيقة التى مؤداها : أن العلم ليس هو الذى يجعل الناس يتصرفون ، لأنه قال ان ، المرء لايستطيع أن يفسر عن طريق المنهج المنطقى التجريبى الوضع القائم للنظام الاجتماعى دون أن يدمر أساسه ، فالمجتمع يقوم عن طريق المشاعر التى لا حقيقة فيها إلا أنها

---

(١) Rymond Aron, Main Curents in Sociological Thought, N. Y, London, 1967. pp. 1 – 8.

ذات تأثير عظيم ، إن عالم الاجتماع إذا كشف للناس ما يجرى خلف أنظارهم فإنه بذلك يخاطر بتدمير أوهام لا يمكن الاستغناء عنها .

أما «ماكس فيبر» فيصف المجتمع الحديث بأنه يتجه نحو تنظيم بيروقراطى وعقلانى ، وهذا الوصف يشبه ما ذهب اليه « توكوفيل » من أن العصرية تزدهر وتمد نطاقها ، وكلما أصبح هذا واضحا تعاظم التنظيم البيروقراطى والعقلانى ، الذى ينظر إليه على أنه قدر المجتمعات الحديثة ، إلا أن « ماكس فيبر » الذى ينتمى إلى عائلة متدينة جدا ، ومع أنه هو نفسه كان غير مؤمن، فقد أبدى احتراما دائما وعميقا للعقيدة الدينية التى ظهرت فى العصور الماضية ، وحاول أن يبين التغيرات العقلانية التى تحدث فى المجتمعات الحديثة التى تقوم على عواطف مختلفة ، وعلى الرغم من أنه كان مستعدا لقبول ما هو ضرورى للمجتمع الذى يعيش فيه، إلا أنه فى نفس الوقت لم يظهر تحمسا لنمط المجتمع الذى كان ينمو أمام عينيه . فالمجتمع الحديث كان وسيظل مجتمعا بيروقراطيا وعقلانيا لكنه أبدى خشيته من أن مثل هذا المجتمع يمكن أن يؤدى إلى تدمير ما يجعل للحياة قيمة مثل حرية الإختيار ، والمسئولية ، وبناء على ذلك يمكن القول بأن فيبر لم يتصور أخلاقيات علمية كما فعل « دوركايم » ، كما لم يسخر من العواطف التقليدية أو الأديان العلمية، مثلما فعل «باريتو» ،لأنه كما يقول عضو فى مجتمع عقلانى ويريد أن يدرك طبيعته علميا ، ويرى أبعد من ذلك أن ما هو حيوى وما هو حقيقى وصادق فى الوجود الانسانى يقع أبعد من قدرة الانسان ، وأبعد من طاقة نشاطه المهنى الحالية ، ولهذا إذا حاولنا أن نصف ماكس فيبر بمنطق عصرنا لقلنا إنه كان فيلسوفا وجوديا(١)

---

(١) أنظر معالجات لدراسات فيبر عن المجتمع الحديث فى المصادر التالية :

Gerth & Mills "Introduction" to Essays in Sociology, N. Y. 1958 =

لقد تجاوز كل من دوركايم وباريتو وفيبر فى تصورهم التفسير السوسيولوجى وفى تفسيرهم للسلوك الانسانى، السلوكية أو ، التفسير الاقتصادى المحدد للدوافع الانسانية ، لأنهم كانوا يعتقدون جميعا ان المجتمعات إنما تقوم على مجموعة من العقائد المشتركة، وهذا يحجب فى ـ رأيهم ـ أى تفسير للسلوك قد يتجاوز أو يهمل ما يحدث فعلا فى الشعور ، وفى نفس الوقت فإن أى تفسير لا فعال النـــاس من خلال الاهتمام بالمصالح الذاتية يتناقض فى الحال مع إدراك أن العقـائد الدينية يمكن أن تعتبر عوامل كبرى فى توجيه السلوك أوفى تحديد نظام كل المجموعات الانسانية .

ان الثـلاثة كانوا متفقين فى رفض التفسيرات الخارجية والمادية . وكـذلك التفسيرات الإقتصادية للسلوك الإنسانى، وهذا هو الذى يفسر لماذا كتب «تولكوت بارسونز» كتابه عن هؤلاء الثلاثة تحت إسم «بناء الفعل الاجتماعى» هذا الكتاب الذى كان غرضه الوحيد إثبات الصلة بين الأنساق الثلاثة للتفســيرات التصورية للسلوك الانسانى ، إن « بارسونز » قد حاول من خلال إختلاف لغة كل منهم أن يثبت أنهم جميعا حاولوا أن يتبينوا بطرق متعددة ما يمكن أن نطلق عليه البنـاء الرسمى للتفسير السوسيولوجى للسلوك أو البناء له ، لأن أصل هذا التشابه الصورى ينبع من مشكلة التعارض بين العلم والدين ، التى فرضت نفسهـا عليهم جميعا ، وربما كان هذا على الأقل أحد أسباب هذا التشابه الصورى ، وهنـاك فى

= وأيضا مجموعة مقالات تتناول الجوانب المختلفة لفكر ماكس فيبر :
Salomon, A. Max Weber's Methedology, Social Research I, (1935), pp. 368 – 384. Also his Max Weber's Sociology, Social Research, II (1935) pp. 60 – 73 and his; Max Weber's Political Ideas, Social Research, II, 1935, pp. 368 – 384.

الحقيقة إحتمال آخر ، أن هؤلاء الثلاثة أكتشفوا جزءا مشتركا من النسق الحقيقى لتفسير السلوك. وعندما يلتقى المفكرون على مائدة الحقيقة فإن هذا اللقاء لايحتاج إلى بيان أو كما قال ، أسبينوزا ، أن واقعة الخطأ تحتاج إلى بيا ن ، أما اكتشاف الحقيقة فغنى عن البيان .(١)

لكن إذا كان الموضوع الرئيسى المشترك لهؤلاء الثلاثة هو العلاقة بين الدين والعلم، أو العلاقة بين العقل والشعور ، فإن لنا أن نتوقع أن دخول كل منهم فى حوار مع الآخر ، سوف يكشف الإختلافات القائمة بينهم بصورة شديدة الوضوح.

إن دوركايم فيلسوف الجامعة الفرنسية ،والتابع الروحى لاوجست كومت، كان تفكيره يتركز على ضرورة الإنفاق الاجتماعى ، وأكثر من ذلك فإنه كفرنسى تأثر أسلوبه الذى صاغ به مشكلة العلاقة بين الدين والعلم بالمناخ الفكرى الذى ساد فرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر. لقد كتب دوركايم ثلاثة مؤلفات عظيمة تشير إلى قدرته العقلية والفكرية (٢). الاول عن تقسيم العمل الاجتماعى، الذى عالج فيه موضوعا أساسيا هو أن المجتمع الحديث يتضمن تفاوتا فى الوظائف والمهنة، فكيف إذن يمكن أن نتأكد أن مجتمعاً انقسم على هذا النحو بين مجموعة هائلة من المتخصصين

---

(١) Parsons, The Structure of Social Action, N. Y, 1964, pp. 500 – 686.

(٢) أنظر عرضا ببليوجرافيا شاملا لأعمال دوركايم فى مؤلف هارى آلبرت : علم الاجتماع عند اميل دوركايم ١٩٣٩ .

Alpert. Emile Durkheim and his Sociology. N. Y, 1939.

وقارن كذلك Emile Durkheim 1858 – 1917. A Collection of Essays, ed. by Kurt Wolff, Ohio, 1960.

سوف يحتفظ بتماسكه الفكرى والأخلاقى الضرورى ؟ والمؤلف الثانى عن الإنتحار وهو عبارة عن تحليل لظاهرة اعتبرها ظاهرة مرضية ، وقصد به أن يلقى ضوءا على الأخطار التى تهدد المجتمعات الصناعية والحديثة ، وخاصة فى مجال اللامعيارية أو فقدان المعايير ، أما المؤلف الثالث وهو « الصور الأولية للحياة الدينية » فقد كان هدفه أن يكشف الخصائص الأساسية للنظام الدينى منذ فجر المجتمع الإنسانى ، ولم يكن هذا نابعا من مجرد حب الإستطلاع ، أو الرغبة فى معرفة ما يمكن أن يكون قد حدث منذ آلاف السنين الماضية ، بل من أجل استكشاف الطبيعة الخاصة للتنظيم الاجتماعى فى هذه المجتمعات البسيطة ، وذلك لكى نفهم ما يمكن أن يكون مطلوبا لإصلاح المجتمعات الحديثة فى ضوء التجربة البدائيـــة .

أما « باريتو » فقد مر على خبرة فكرية مختلفة ، ودرس أساساً الرياضة والفيزياء . وحضر دراسات فى الهندسة ، وأخرج نظرية رياضية فى الاقتصاد ، وعند محاولته أن يتعرف على الواقع الاجتماعى المحـــدد والملموس اكتشف النقص الواضح فى التصورات الرياضية والاقتصادية ، وأدرك الدور الهام الذى تمارسه العواطف فى السلوك الانسانى ، أننا لانستطيع أن نقول ان « باريتو » بالتربية وبالمزاج كان فيلسوفا ، لأن ما حكم فكر « باريتو » هو الصراع بين عقلانيـة النظريات الإقتصادية ولا عقلانيـة السلوك الإنسانى والى جانب ذلك اكتشافه أنه بغض النظر عما فى هذا السلوك من لاعقلانية بالمقارنة بالعلم ، إلا أنه اجتماعيا فعال ومفيد . ويجب أن نتذكر أن « باريتو » ابن ايطالى وطنى ليبرالى من جيل الوحدة الأيطالية ، نشأ فى بيئة مليئة بالأفكار الإنسانية والليبرالية ، لكنه انتهى إلى الإقتناع بأن هذه الأفكار خطيرة على الأقليات الممتازة ،

« الصفوة » التى دافع عنها بكل اخلاص ، كما أنه إكتشف ،أو هكذا تصور ، أن الإيمان بالديمقراطية أو الإشتراكية والإنسانية ، إذا قورن بالتفكير المنطقى التجريبى ، لايساوى أكثر من الإيمان بالغيبيات أوالشيطان أوالسحرة ، إن بعض الذين عقبوا على باريتو رأوا فيه ثورة ضد الأفكار الإنسانية بحيث يمكن القول بأن هذه الثورة ترجع إلى خيبة أمله المريرة التى نجمت عن ملاحظته للواقع (١).

لم يكن ماكس فيبر ثالث الثلاثة فيلسوفا ولا مهندسا ، وإنما كان فقيها قانونياً ومؤرخاً ، إن ثقافته القانونية والادارية والتاريخية غـير العادية جعلته يهتم بالسياسة ، ومع اهتمامه بالسياسة إلا أنه لم يكن سياسياً محترفاً ، ولقد فاته أن يدخل الانتخابات بعد هزيمة ألمانيا فى عام ١٩١٨ . ومما أسف له طوال حياته أنه لم يكن من رجال السياسة، حتى أنه يمكن القول إنه ينتمى إلى فئة علماء الاجتماع من ذوى التوجيه السياسى .

يمكن أن نشرح منهجية فيبر العامة فى ضوء الاصطلاحات التى تتناول العلاقة بين العلم والفعل ، أو بين علم الاجتماع والسياسة ، لقد كان يريد علماً محايدا لأنه لم يكن يرغب فى أن يستخدم الأستاذ مركزه أو نفوذه لفرض آرائه ، ولـكن العلم المحايد يجب أيضا أن يكون نافعاً لرجل السياسة ، ونتيجة لذلك لم تكن رؤية «فيبر» التاريخية كرؤية «دوركايم» التقدمية أو رؤية «باريتو» الدورية، وإنما كانت رؤيته قريبة من رؤية « توكوفيل » ، إن هناك فى رأيه عنصراً لامفر منه فى المجتمعات الحديثة يشكل الخصائص الجوهرية لها ، هو البيروقراطية أو العقلانية

---

(١) See, "A Symposium on Pareto's Significance for Social Theory, Journal of Social Philosophy, J, 1935, pp. 36 – 89.

ولكن هذا العنصر لايحكم النظام الاجتماعى ككل لأنه لابد أن نأخذ فى الاعتبار إحتمالين أساسيين هما إحترام الفرد ، وإحترام حريته .

إن أوربية هؤلاء الثلاثة جعلت رؤيتهم محكومة بوضعهم فى العالم الاوربى ، ومع ذلك حاولوا أن يربطوا العالم الأوربى الحديث بالمدنيات الأخرى، فدوركايم مثلا جعل من المجتمعات القديمة إطاراً مرجعياً أو متقابلا فى نفس الوقت فى الوقت الذى كان عند باريتو أساس تاريخى جمع بين القديم والحديث ، فإمتدت مقارناته من أثينا وأسبرطة وروما وقرطاجنة ، إلى فرنسا والمانيا وانجلترا . أما « فيبر » فقد كان يؤكد بقوة ما اعتبره أصالة المدنية الغربية .

وأخيراً فإن المقارنة التى أجريناها بإختصار بين هؤلاء الثلاثة ليست أمراً تعسفياً ، فهناك أساس المقارنة التاريخية ، لأنها وسيلة تؤدى إلى الكشف عما هو متشابه وفى نفس الوقت عما هو مختلف ، إن ما هو متشابه هو العناصر المشتركة الموقف الأوربى الذى من خلاله يلاحظ ويكتب هؤلاء الثلاثة ، أما ماهو مختلف فهو المضمون الفكرى والقومى الذى يعكس التأثيرات التى شكلت نموذج التعبير التصورى الذى إختاره كل منهم. ويظهر الإختلاف كذلك فى مكونات شخصياتهم، فالاول يهودى ، والثانى كاثوليكى ، والثالث بروتستنتى ، كذلك فالأول متفائل، والثانى متشائم ، والثالث ملاحظ (١) .

والواقع أننا لانستطيع أن نستكمل دراستنا التحليلية النقدية المصادر الاولى ، التى شكلت إتجاهات النظرية السوسيولوجية المعاصرة ، بدون الإشارة إلى الأسس التى ناقشها أوجيست كومت ، خاصة وأنه حاول أن يقيم علما طبيعيا للمجتمع يمكن

---

(١) Aron, Op. cit, pp. 1 – 8.

أن يفسر النمو الماضى للانسانية ، وأن يتنبأ بمجريات المستقبل . بالإضافة إلى بناء علم قادر على تفسير قوانين الحركة التى تحكم الانسانية عبر الزمن، وقد حاول كومت أن يوضح الظروف التى تكمن وراء الاستقرار فى أى لحظة تاريخية معينة ، ولهذا كانت دراسة الإستقرار الاجتماعى والتطور الاجتماعى ، النظام والتقدم، التغير والإستقرار ،هما المحورين التوأمين لنسقه الفكرى .

لقد نجحت العلوم الطبيعية فى اثبات سير الظواهر الطبيعية وفقاً لقوانين ، واستطاعت أن تقتن حركة النمو ،ولا بد من بذل مجهود مماثل فى دراسة المجتمع. إن علم الاجتماع يسير وفقا لنمط العلوم الطبيعيه لافى مناهجه الامبيريقية فحسب، بل أيضا فى الوظائف التى يمكن أن يؤديها لخدمة الإنسانية .

لـكن ماهى المصادر التى يعتمد عليها علم الاجتماع عندما ينهض بمهمة تفسير قوانين التقدم والنظام الاجتماعى ، انها من غير شك تلك التى استخدمت بنجاح فى العلوم الطبيعية : الملاحظة والتجريب والمقارنة ، والملاحظة لاتعنى البحث غير الموجه للحقائق المتفرقة ، فالحقيقة الإجتماعية لا تحمل أى معنى علمى ، إلا إذا إرتبطت بحقيقة اجتماعية أخرى ، أى بنظرية مبدئية. كذلك التجريب لايطبق إلا جزئيا فى العلوم الاجتماعية ، ذلك لأن التجريب المباشر غير ممكن فى العالم الانسانى ، ان التجريب يمكن أن يتم إذا أمكن استخلاص المجرى المنتظم للظاهرة بشكل حاسم ، ولهذا فإن الحالات الباثولوجية هى المعادل العلمى الحقيقى للتجريب الخالص ،لأن الاضطرابات فى الكيان الاجتماعى يمكن أن تتكون مماثلا لأمراض الـكائن الفردى ، ويعتقد كومت أن دراسة الباثولوجيا يمكن أن تكون مقدمة ملائمة لفهم الظواهر العادية . أما المقارنة فهى المنهج العلمى ذو الأهمية الـكبرى لعالم الإجتماع ، على أن يضاف اليها المنهج التاريخى ، لأن المقارنات التاريخية

خلال الزمن الذى تطورت فيه الإنسانية يعتبر محور البحث فى علم الاجتماع ،وعلم الاجتماع لايكون شيئا إذا لم يثرى دراسته بحاسة التطور التاريخى (١) .

وعلى الرغم من أن كونت أدرك المجتمع عن طريق المماثلة بالكائن البيولوجى إلا أنه كان واعياً بالصعوبات المتضمنة فى هذا النوع من التفكير ، لأن الكائن البيولوجى محدود بحدود مادية ، والجسم الإجتماعى لايمكن أن يرتبط عن طريق وسائل فيزيائية ؛ ولكن عن طريق روابط روحية ، وهكذا أكد كونت أهمية اللغة والدين فوق كل شىء . ولم يدرسها فى حد ذاتها ولكن لما يسهمان به فى النظام الاجتماعى الأكبر .ومن أجل هذا لابد أن ينظر إلى كومت كواحدمن المحللين الوظيفيين المبكرين للمجتمع ، لأنه لم يلتفت فقط إلى النتائج التى تمارسها الظواهرالاجتماعية على الإنسان ، بل إنه أكد الإرتباطالمتبادل بين هذهالظواهر.

ويحق لنا الآن بعد أن فرغنا من تناول مضمون المصادر الأولى للفكر السوسيولوجى ، أن نلقى نظرة شاملة ومقارنة على هذه المصادر نستطيع معها أن نتبين مظاهر الإلتقاء وأوجه الإختلاف. ويمكنأن نقول ـ ابتداء ـ أنتذوق دور كايم وموقفهكان دوجماتيكيا ، وباريتو كان ساخراً ، أما فيبر فقد كان مثيرا. إن دوركايم كان يدعم ويبرهن على حقيقة يريدها أن تكون علمية وأخلاقية فى نفس الوقت . أما باريتو فكان يحاول إقامة وتدعيم نسق علمى يسخر من أوهام ذوى النزعات الإنسانية ، ومن آمال الثوريين ويميطاللثام عن الإتجاهاتالثورية والرأسمالية ، وفيبر كان يحاول أن يتفهم معنى كل أنواع الوجـــود ، الفردية والجمعية ، الدائمة أوالمختارة ، دون أن يخفى أثرالضرورات الإجتماعية التىتفرض نفسها علينا.أو الالتزام الذى لامفر منهلإصدار قرارات لايمكن الدفاععنهاعلمياً.

---

(١) Coser, Op. cit, pp. 5 – 6.

إن اللهجة التى تحدث بها كل منهم والأسلوب الذى عرض به أفكاره يمكن تفسيرهما من خلال المزاج الشخصى للمفكر أو ظروف أمته. لقد كان دوركايم أستاذاً للفلسفة وقد تأثرت طريقة عرضه لأفكاره فى كتبه بما كان يجب أن يعمله ليتغلب على الصعوبات التى تواجه تطلعه فى الجامعة الفرنسية. لقد كان يؤمن بالصدق الأخلاقى للعلم. ولهذا غمرته الرغبة فى أن يكون عالماً ومصلحاً فى نفس الوقت، ملاحظاً للحقائق، وخالقاً لنسق أخلاقى، وهذا تركيب أو تأليف قد يبدو غريباً، لكنه لم يكن كذلك فى بداية القرن عندما كان الايمان بالعلم يمتزج بنوع من الروح الدينية. والرمز الذى يشير إلى هذا الاقتران بين الإيمان والعلم، هو مفهوم المجتمع، الذى يعتبر فى علم اجتماع دوركايم مبدأ تفسيريا، ومصدراً للقيم العليا وموضع نوع من التألية، وأهم مايميز فكر دور كايم فى هذه الناحية أن مفهوم المجتمع يمكن أن يؤدى هـذه الأدوار على الفور. وخلال كل أعماله حاول أن يثبت أن علم الاجتماع يمكن أن يكون أساساً للاخلاقيات، فاهتم بالبحث عن حلول المشاكل التقليدية فى فرنسا، والازدواج بين الكنيسة والدولة وبين الدين والأخلاقيات العلمانية (١).

وعندما ننتقل إلى « باريتو » فإننا لانعبر جبال الألب فقط، بل إننا نترك استاذا لنجد ارستقراطيا لأن اللهجة التى عرض بها باريتو أفكاره ليست لهجة استاذ يحاول أن يقيم أو يعلم الأخلاقيات، بل انها لهجة سليل لأسرة نبيلة، تعلم الى درجة هائلة، وصاحب ذوق بالغ الرقة، هـذا الأرستقراطى كان دارسا، ولكنه لم يكن عالماً، بمعنى أن كان مؤمناً ايمانا مطلقاً بالقيمة الفريدة للعلم. ان مصدر سخرية « باريتو » لها سببان: فيقول إذا أنت عرفت ماذا يعنى العلم

---

(١) Aron, Op. cit, pp. 1 – 8.

فإنك لابد أن تدرك أنه لا يمكن أن يكون أساساً للاخلاقيات . كما أنك إذا عرفت من هم الناس ، فإنك تدرك أيضاً انهم ليسوا بحاجة الى أسباب علمية من أجل الايمان بالأخلاقيات . فالإنسان ليست عنده الامكانيات التى تمكنه من أن يؤمن بالقيم أو الموضوعات التى يمكن أن تتحدى العلم أو المنطق .

هل ينتمى « باريتو » إلى الثقـــافة الإيطالية بنفس الطريقة التى انتمى بها « دور كايم » الى الثقافة الفرنسية ؟ ربما يكون هذا صحيحاً من وجهة نظر معينة ، ذلك أن « باريتو » احتل مكانه بين طائفة من المفكرين السياسيين الذين كان أولهم وأعظمهم هو « ماكيافيلى » ، فتأكيد الصراع بين الحكومة وبين المحكومين ، والملاحظات الساخرة عن دور الصفوة ، وجهل الجماهير ، يعتبر نوعا من علم الاجتماع الذى تمركز حول أفكار سياسية وهو من المميزات الهامة للتراث الايطالى . ولكن علينا ألا نبالغ فى تأثير القومية ، فقد تأثر « باريتو » بكتابات « جورج سوريل » الفرنسى ، ومع ذلك لم يكن فى فرنسا كتاب ينتمون إلى ما يسمى بالمدرسة الماكيافيلية ، مثلما كان من العسير أن نجد بين الكتاب العقلانيين فى ايطاليا من خدعهم الوهم الذى قاد « دور كايم » ، إلى الإعتقاد بأن علم الاجتماع يمكن أن يكون علماً ، وفى نفس الوقت يمكن أن يكون أساساً للاخلاقيات (١)

أما فيما يتعلق « بماكس فيبر » فإن أهم ما يميزه أنه كان ألمانيا بشكل واضح الأمر الذى يؤدى إلى أن فهم فكره يقتضى وضعه فى مجرى التاريخ الفكرى الالمانى ،

---

(١) See, Ginsberg, Pareto's General Sociology, The Sociological Review, XXVIII, 3, 1936, pp. 221 – 245. Also: Homans & Curtis, Charles p. An Introduction to Pareto ; His Sociology, N. Y, 1934.

حيث يظهر بوضوح أنه يتبع المدرسة التاريخية المثالية ، وربما كانت محاولته أو تصوره لعلم شامل تعتبر رد فعل لهذه المدرسة ، إن هذا العلم الشامل الذى يتناول الواقع الإجتماعى يجب فى رأيه ، أن يكون منفصلا كلية عن متيافيزيقا العقل أو التاريخ ، ويجب أن يكون علماً موضوعياً قادراً على البرهنة والحصول على الأدلة . إن « فيبر » كان أستاذا مثل « دوركايم » ، إلا أنه كان مشرعاً وإقتصادياً وسياسياً أكثر منه فيلسوفاً ، وكثير من مفهوماته وتصوراته الفكرية ستمدت من إهتماماته السابقة ، ومثال ذلك أن « فيبر » يؤكد أهمية فكرة « المعنى الذاتى » ، لأن مايحاول علماء الاجتماع أن يصلوا إليه هو المعنى الذى يخلعه الفاعل أو القائم بالدور على أفعاله وقراراته سواء كانت إيجابية أو سلبية . والتأكيد على ذاتية المعنى يستمد أصوله من دراساته القانونية ، لأنه فى القانون من السهل أن نميز بين المعنى الموضوعى الذى يعطيه المشرع لقواعد القانون ، والمعنى الذاتى أى التفسيرات التى يقوم بها أولئك الذين يطبقون هذه القواعد ، أو بمعنى آخر ، تأثير القانون على السلوك الانسانى . وفى كثير من دراساته المعرفية حاول فيبر أن يميز بعناية بين الطرق المختلفة لتفسير القانون ، (ليذكرنا بأن عالم الاجتماع يهتم بالمعنى الذاتى) أو القانون كما يدركه الأفراد من حيث هو مؤثر فى سلوكهم ؛ وبنفس الطريقة فإن خبرة « فيبر » كاقتصادى قادته إلى تأمل العلاقة بين النظرية الاقتصادية أو البناء العقلانى للسلوك ، وبين الواقع الاقتصادى كما هو ملموس ومشاهد فى خبرة الأنسان .

وعلى الرغم من تأثير خبرة فيبر القانونية والاقتصادية على أفكاره . إلا أن فكره قد تشكل نتيجة لصراع داخلى يبدو أنه مرتبط بالتناقض بين الدين وبين الضرورات المهنية . وإذا كان بوسعنا أن نقول : إنه من زاوية معينة كان الخط

الرئيسى الذى يسيطر على فكر الثلاثة الكبار متمثلا فى العلاقة بين العلم والدين ، فقد كانت اجابة « دور كايم » هى أن العلم يستطيع أن يفهم الدين ، وأن يفسر قيام معتقدات دينية جديدة ، أما « باريتو » فإنه أجاب على هذه النقطة بطريقة ساخرة (لا تحفل بالدين لأن الرواسب لا تتغير والمعتقدات الجديدة سوف تنشأ مهما بلغ تنوع المشتقات التى تبررها) بينما كان فيبر يرى التناقض قائما بين مجتمع يقوم على العقلانية وبين الحاجة إلى الإعتقاد أو الايمان ، أن الطبيعة كما يفسرها العلم وكما تعالجها التكنولوجيا ، ليس فيها متسع لسحر الدين وأساطيره القديمة ، أن الايمان يجب أن ينسحب ليعيش فى عزلة مع الضمير ، الانسان يجب أن يوزع جهوده بين النشاط المهنى الذى يتسم بالعقلانية والجزئية ، وبين الحنين أو التشوق إلى نظرة متكاملة عن العالم ، والتطلع إلى الصدق المطلق . (١)

لقد كان فكر « فيبر » يتوزع عبر اهتمامات مختلفة ، نتيجة للتناقض بين العلم وبين العقل ، أو بين منطق الأستاذ ومنطق السياسى. وإذا كان « دور كايم »هو مؤسس الأخلاقيات التى درست فى « Ecole Normale » ، وكان باريتو مدمر كل الإيديولوجيات ، فإن فيبر هو مناصر الأصلاح البرلمانى فى الدستور الألمانى. ان هؤلاء الثلاثة ينتمون إلى أقطار مختلفة ، وكل منهم وجه تساؤلات مختلفة إلى عصره، كما كان لكل منهم لهجته الخاصة التى لم تنفصل عن المسائل التىأثارها ، والمزاج الذى عبر عن نفسه وظهر واضحاً فيما سأل وفيما أجاب . لكن كيف فسر هؤلاء الثلاثة المجتمع الذى عاشوا فيه ؟

بالنسبة لدور كايم كانت المسألة الاجتماعية مسألة أخلاقية أساساً ، ومن ثم

---

(١) Bendix, R, Max Weber : An Intellectual Portrait, Gardin City, 1960. Passim.

تكون الأزمة القائمة فى المجتمع الحديث راجعة إلى بناء المجتمع ذاته ، ومن وجهة نظر « دور كايم » ، كما هو الحال بالنسبة لأوجيست كومت ، المجتمع وحدة بالطبيعة ، يقوم على أساس الاتفاق ، والصراع ليس هو دافع الحركة التاريخية أو المعبر عن الطبيعة الانسانية ، وليس المصاحب الذى لا مفر منه لكل أنواع الحياة الجماعية ، انما هو عرض لنوع من المرض أو الأزمة . ان المجتمعات الحديثة من وجهة نظر دور كايم تتحدد أساسا عن طريق اهتمامها المبدئى المرتبط بالنشاط الإقتصادى ، وبالتباين الواسع النطاق للوظائف والأشخاص ، بالإضافة إلى المخاطرة بانهيار هذا الاتفاق الذى بدونه لا يمكن أن يقوم النظام الاجتماعى(١).

إلا أنه فى نفس الوقت فإن « دور كايم » الذى يعتبر اللامعيارية أو فقدان المعايير أو انهيار الاتفاق ، هو التهديد الأكبر للمجتمعات الحديثة . كان مقتنعاً بأن القيم المقدسة لعصرنا هى الشخصية الإنسانية ، والحرية الشخصية ، والاستقلالية والحكم النقدى ، ومن ثم يتبين الطابع المزدوج لتفكير « دور كايم » .

وإذا كان من الضرورى أن نلخص حدس دور كايم الأساسى فى جملة واحدة فإنه يمكن القول : ان المجتمعات الحديثة عند دور كايم تتحدد عن طريق الإلتزام وتنشأ بالجماعية وانه لا بد من نمو شخصية الإنسان ، لكى يحقق ذاته ، ويؤدى وظيفته الإجتماعية وان المجتمع ذاته هو الذى يمنح القيمة العليا للاستقلال الشخصى . ولعله من السهل أن ندرك التناقض فى هذا الحدس ، ذلك لأنه إذا كانت القيمة العليا للشخصية المستقلة ذاتياً ، تقوم على الزام اجتماعى فما الذى يحدث عندما يفرض

---

(١) See, Gehlke, C. Emile Durkheim's Contribution to Sociological Theory. Studies in history, Sociology and Public Law, ed. the Faculty of Political Science of Columbia University, Vol 63. No 1, N. Y, 1915.

المجتمع ، باسم بناء الاتفاق من جديد ، على كل انسان التزاماً بألا يحقق ذاته، بل أن عليه أن يطيع ، أو بمعنى آخر إذا أعتبر أحد جوهر الفكر الدوركايمى، هو أن المجتمع هو بداية ونهاية الالتزام الاخلاقى والدينى والايمان ، فإن دور كايم حينئذ يبدو كأنه يسير على تراث المفكرين الذين دافعوا عن الأولوية العقلية والصائبة للجمعية فى مقابل الفرد . ومن ناحية أخرى إذا أخذنا فكرة « دور كايم » الأخرى أنه فى عصرنا تسود قيم الفردية والعقلانيـــة ، فإن دور كايم يكون سائرا على تراث مفكرى عصر التنوير ، وأنه كان يحاول أن يجد أساساً اجتماعياً لقيم العقلانية والفردية . ان « دور كايم » الحقيقى لا يمكن أن تعرفه عن طريق هذين التفسيرين ولـكن عن طريق دمجها معا ، هذا الدمج الذى لا يمـكن الوصول اليـه بسهولة ، ذلك أن هذه المسألة التى تعتبر مركزية بالنسبة لفكر « دور كايم » ، هى نفسها مشكلة العلاقة بين فكر « أوجيست كومت » المبكر وفـــكره المتأخر ، وإذن فالمشكلة هى مشكلة تلك المدرسة الفكرية التى تضم كلا من « كومت » و « دور كايم » اللذين حاولا أن يقيما قيم العقلانية على الملزمات اجتماعية، ليطعما الثورة ببعض أفكار المفكرين غير الثوريين من أمثال بونالد Bonald وميستر Maister,[1] .

ومن السهل أن ننقد « باريتو » و « ماكس فيبر » من خلال العصر الذى عاش فيه كل منها ، ومن خلال عصرنا أيضا ، ومن خلال ربط فكرهما بكاتب قرأوا له ونقدوه باستفاضة وهو « كارل ماركس » ، لقد رجع « باريتو » بصورة متكررة إلى أعمال « ماركس » وقد يكون من المناسب أن يعرض المرء لفـكر « باريتو » كنقد للماركسية ، وقد لا يبدو هذا واضحاً فى كتابه عن علم الاجتماع العام مثلما وضح بشكل كبير ، فى كتابه عن الانساق الاجتماعية ، حيث يمكن أن نجـد نقداً اقتصادياً

---

(١) Aron, Op. cit, pp, 1 – 8.

لرأس المال ، ونقداً لنظرية القيمة والنظرية الاقتصادية للاستغلال ، أن باريتو الذى كان فى أول أمره اقتصاديا ، ينتمى إلى مدرسة « لوزان » ، ويعتبر نفسه تابعاً «لولراس» ، قد أنشأ نظرية فى التوازن الاقتصادى تقوم على الإختيار الفردى وأعتبر فكرة ماركس عن فائض العمل نظرية عفى عليها الزمان ، كما أنه أعتبر كل البراهين التى قدمها ماركس عن فائض القيمة والاستغلال لا تستحق أى تقدير علمى . بل أن باريتو قد أنشأ نظرية فى توزيع الدخول ، وأعتقد أن هذا التوزيع يسير فى كل المجتمعات متطابقاً مع قانون رياضى ، ومن ثم فإن فرصة تغيير توزيع الدخل عن طريق ثورة أو عن طريق تغيير شكل النظام القائم قليلة للغاية ، وبناء على بعض مبادىء العقلانية والكفاية دافع باريتو عن نظام الملكية الخاصة ، والمنافسة ، وهو يفسر المنافسة هنا وإلى حد معين بأنها نوع من الانتقاء الطبيعى ، ولهذا فإن المنافسة الاقتصادية التى يراها الماركسيون نوعا من التحكم الرأسمالى تصبح عند « باريتو » طريقة فى الاختيار مناسبة لظروف التقدم الاقتصادى .

أما نقد « فيبر » للنظرية الماركسية فإنه يشبه نقد « باريتو » بصورة أو بأخرى ، لكنه لم يهتم كثيراً بالمصلحة الاقتصادية الذاتية فى كل الأنظمة بقدر ما أهتم بالأداء التنظيمى والبيروقراطى ، لقد قال « باريتو » أن المنافسة والملكية الخاصة بصفة عامة هى النظم الاقتصادية الأكثر صلاحية لزيادة الثروة . أما نمو البيروقراطية وانتشار اشتراكية الدولة وطمس أو انهاء الدخل الشخصى عن طريق الدولة من أجل البيروقراطية فإن هذا جدير بأن يؤدى إلى تدمير الاقتصاد بأكمله .

أما « فيبر » فقد أعطى الإهتمام كله للتنظيم العقلانى للبيروقراطية ، باعتبارها البناء القائم للمجتمعات الحديثة والذى لا يمكن أن يتعرض للضعف ، بل أنه يستمد مظاهر القوة بالتحول نحو الاشتراكية ، ومن العجيب أن فيبر يعتقد أن قيام

اقتصاد اشتراكى بملكية جمعية لوسائل الانتاج مع ما يؤدى اليه ذلك من أنهاء ، لميكانيزمات السوق ، سوف يكون أمرا بيروقراطيا .

أن لفيبر وباريتو ملاحظات أخرى على ماركس . إذ يعتبر « باريتو » الآمال الثورية ويعالجها ، ليس على أنهـا رد فعل عقلانى لأزمة اجتماعية لوحظت بالفعل أو شعر الناس بها ، بل على أنها تعبير عن الرواسب الدائمة لأحـــلام اجتماعية ميتافيزيقية توجـد باستمرار فى كل العصور ، وتعتقـد الماركسية بشكل عام أن تناقضات الرأسمالية سوف تؤدى إلى تنظيم البروليتاريا وتحولها إلى طبقة وإلى حزب ، وأن البروليتارى سوف يقوم بالدور المفروض أن يقوم به العقل التاريخى وبالأخص انهاء النظام الرأسمالى وبناء نظام جديد . ان المنظور الماركسى عقلانى للتاريخ العالمى ولهذا فإنه يتضمن نوعاً من السيكولوجية العقلانية حيث يتصرف الناس والجماعات اتفاقا مع مصالحهم ، وأى علم نفس يزعم أن الناس عندهم قدر كبير من وضوح الرؤية ومن القدرة على البحث الذاتى ، يجب وصفه بأنه متفائل . ومثل هذا التفسير للسلوك الانسانى يوصف عادة بأنه مادى أو شكى ولكن هـذا خطأ كبير ، اذ أن الوجود الاجتماعى يمكن أن يكون أسهل من ذلك بكثير إذا كانت كل الجماعات عندها وضوح الرؤيا والقـدرة على البحث الذاتى ، أو إذا كانوا يعلمون أين تقع مصالحهم ، لأنهم إذا علموا ذلك لتصرفوا طبقاً لها ، لقد قال أحد علماء النفس الـــكبار باسم « هتلر » أن التوفيق بين المصالح ممـكن ، أما التوفيق بين الفلسفات فمستحيل .

وقد رد « باريتو » وإلى حد ما « فيبر » على هذه الرؤية العقلانية عند ماركس ، بإدعاء أن الحركات الاجتماعية التى تعتبر الاشتراكية واحـدة منها ، لا يلهمها الوعى بالمصالح الجماعية ، فهى ليست التحقيق المتكامل للعقل التاريخى ، بل هى مظهر

للحاجات العاطفية والدينية القديمة قدم الانسانية نفسها . لقد أشار « فيبر » إلى أن علم الاجتماع الدينى عنده هو النقد الإمبيريقى المادية التاريخية ، كما أن باريتو يؤكد أن الناس اذا تصرفوا منطقياً فإنهم سيكونون موجهين على أساس السعى وراء مصالحهم أو السعى من أجل القوة ، وأن الصراع بين الجماعات يمكن تفسيره بشكل حاسم من خلال مصطلحات عقلانية ، لكن الذى يحرك الناس بالفعل هى الرواسب ذات الطابع الدائم، ان التاريخ لا يتحرك نحو هدف عالمى بل انه يتحرك من خلال دوائر تعتمد بعضها على بعض .

ما الذى قدمه هؤلاء الثلاثة إذن لنمو علم الإجتماع ؟ لقد كتب الثلاثة من خلال المضمون التاريخى عن الدين والعلم، أى على أساس النظرية السوسيولوجية للدين والتفسير الدينى للحركات الاجتماعية . إن المؤمن الإجتماعى مخلوق دينى ، والمؤمن الدينى مخلوق إجتماعى . إن اسهام الثلاثة فى نمو علم الاجتماع كعلم لا بد أن ينظر اليه من خلال هذا الإهتمام المبدئى . « فباريتو » و « فيبر » بطريقة واضحة ، ودوركايم بطريقة متضمنة ،وجهوا النظر إلى مفهوم علم الاجتماع كعلم الفعل الإجتماعى ،والإنسان كمخلوق اجتماعى ودينى، هوخالق القيم والأنساق الاجتماعية، وعلم الاجتماع يسعى إلى فهم بناء هذه القيم والأنساق، أو بمعنى آخر بناء الفعل الإجتماعى وقد كان « فيبر » هو الذى صاغ تعريف علم الاجتماع على أنه العلم الشامل للفعل الإنسانى . ومع أن مثل هذا التعريف لم يظهر بحرفيته فى علم الإجتماع العام عند « باريتو » ، إلا أن فكرة مماثلة ظهرت فى ثنايا عرضه لأفكاره ، كما أن دوركايم أشار إلى تعريف لا يختلف عن هذا التعريف كثيرا .

إن إدراك علم الإجتماع كعلم شامل للسلوك الإنسانى يعنى أولا ، استبعاد أى تفسير ينتمى إلى ما يعرف بالتفسير الطبيعى ، ومعنى ذلك أيضاً استبعاد أى احتمال

لإمكانية معـالجة الفعل الإجتماعى من خلال مفهومات تتصل بالبيئة أو الوراثة . إن الإنسان يفعل (يتصرف أو يسلك) أى أنه يختار الموضوعات . يجمع بين الوسائل،ويتوافق مع الظروف،ويستلهم أنساق القيم ،وكل هذه العبارات تشير إلى وجه واحد من الفهم الشامل للسلوك ، أى الى عنصر واحد من بناء الفعل الإجتماعى .

ولقد خصص « تولكوت بارسونز » كتابه الهام عن «بناء الفعل الإجتماعى» لتحليل مؤلفات باريتو ودوركايم وفيبر ، لأنها أسهمت فى نظرية الفعل الإجتماعى التى يمكن أن تعتبر أساس علم الاجتماع . ولقد أوضح بارسونز بشكل معين أنه بالرغم من المفهومات المختلفة فإن كلا من هؤلاء قد أسهم فى نظرية مشتركة عن بناء الفعل الإجتماعى ، وهى نظرية شاملة يمكن أن تتبنى كل ما هو حق وصحيح فى اسهامات هؤلاء الثلاثة (١) .

ان تعريف علم الاجتماع كعلم الفعل الإنسانى يعتبر تعريفـاً شاملا ومفسراً فى نفس الوقت ، فهو شامل لأنه يكشف عن المنطق المتضمن أو العقلانية فى الفرد والسلوك الجمعى ، وهو مفسر لأنه يبنى ما يمكن أن ينتظم حوله التفسير أو أنه يضع الصور الجزئية للسلوك من خلال المضمونات التى تعطيها المعنى ، وعلى هذا الأساس فإنه يمكن تتبع نمو النظرية العامة للفعل الاجتماعى ابتداء من نماذج الفعل الأربعة عند فيبر ، الى مفهومات « بارسونز » وعلـماء الاجتماع الامريكيين المعاصرين .

يبقى بعد ذلك كله أن نناقش موقف أوجست كومت ، ويتعين لكى نستطيع

---

(١) Parsons, Op. cit, Introduction.

تقييم هذا الموقف أن نبرز بعض الحقائق ، وأهمها أن فلسفة التنوير كانت متأصلة فى فكر القرن ١٧ ، وكانت الاتجاهات الفلسفية السائدة فى هذا القرن متبلورة فى العقلانية والامبيريقية اللتين امتزجتا بصورة تركيبية فى الفلسفة التى عبرت عن يقينها وثقتها فى العمل والملاحظة كوسيلتين لحل مشاكل الإنسان ، والقضية الرئيسية التى أثيرت خلال هذه الفترة هى : أن العالم محكوم بقوانين ثابتة ، وأن الإنسان والمجتمع من الممكن أن يكونا أفضل عن طريق تنظيم البيئة الاجتماعية والسياسية بناء على هذه القوانين التى يسهل اكتشافها . وقد أصبحت هذه الافكار أساس الحركات الفكرية فى القرن ١٩ ولكنها تعدلت بدرجة ملحوظة عن طريق المفكرين الرومانتيكيين والمحافظين ، ذلك لأنهم انصرفوا عما اعتبروه نوعاً من التفاؤل الساذج وعقلانية القرن ١٨ ، ولم يفعلوا ذلك عن طريق التعرف على العوامل اللاعقلانية فى السلوك الإنسانى فحسب،ولكن بإعطائها قيمة موضوعية أيضا . ولهذا نظر إلى التقاليد والتخيل والشعور والدين على أنها أمور طبيعية ووضعية (١) .

إن مصطلح « الوضعى » كما استخدمه كومت فى الفلسفة الوضعية كان مصطلحاً جدلياً قصد به أن يكون سلاحاً أيديولوجياً يحارب به فلسفة التنوير والثورة . إن المبادىء النقدية والهدامة للفلسفة السلبية (فلسفة النفى) يجب أن تقتلع حتى يمكن أن يحل محلها المبادىء الإيجابية والبناءة للفلسفة الوضعية . لقد حدث هذا الهجوم المضاد المعقل فى المانيا حيث حاول الوضعيون أن يعارضوا الميل الراديكالى فى فكر هيجل. وكان إعتراضهم الجوهرى على فلسفة النفى عند هيجل أنها تنفى الاشياء

---

(١) Coser, Op. cit, p. 35.

(٢) Ibid , p. 70,

كما هى » ، إن أحوال الحقيقة التى تصنع الوضع الراهن ، إذا نظر اليها بمنظار العقل ، تصبح منفية أو سلبية ، محدودة ومؤقتة ، أى أنها تصبح صورا زائلة لعملية مستغرقة شاملة يمكن أن تؤدى إلى ما هو أبعد منها . وكان ينظر إلى الجدل الهيجلى على أنه النموذج الذى يحتذيه كل النفى الهدام لما هو معطى ، لأن من خلاله تنتقل كل صورة مباشرة إلى نقيضها وتصل الى مضمونها الحقيق بهذه الطريقة وحدها ... » هذه الفلسفة فى رأى النقاد تنكر على المعطى جلال الحقيق ، أنها تنطوى على تأكيد مبدأ الصورة » .

على أن الاهتمام هنا يجب أن ينصب على فرنسا حيث حارب كومت ضد فلاسفة التنوير وفى أثناء هذه المعركة شكل فلسفته الخاصة . لقد رأى كومت أن هناك حالة من الفوضى لا يمكن السكوت عليها فى أيامه ، وأعتقد أن « الفيزياء الاجتماعية » التى تواجه الحاجات الأساسية ومشاكل المجتمع يمكن أن تؤدى الى احلال النظام محل الفوضى . وكان يأمل أن يسترعى هذا العلم انتباه رجال السياسة الذين يعترفون أنهم يوجهون جهودهم نحو مواجهة التركيب الثورى للمجتمعات الحديثة . إن الفوضى الأخلاقية والاجتماعية نتيجة للفوضى الفكرية ، وهذه نتيجة لإنهيار الفلسفة الميتافيزيقية اللاهوتية من ناحية ، ولأن الفلسفة الوضعية لم تصل بعد إلى النقطة التى يمكن أن يكون لها أساس فكرى لتنظيم جديد وبالتالى يمكن أن تخلص المجتمع من كارثة التفكك والإنهيار من ناحية أخرى (١) .

ولابد من التوحيد بين النظام والتقدم فى الحال وإلى الأبد، هذا التوحيد

---

(١) Ibid : p. 71.

والإلتقاء الذى ظن القدماء أنه مستحيل. ولقد كان كومت يرى أن من مساوىء عصره أن يعالج كل منهما كأنهما متناقضان أو متعارضان ، حتى أن تعارضهما كان يعكس عور اهتمام الأحزاب السياسية ، ومثال ذلك أن الحزب الرجعى كان يتبنى فكرة النظام ، بينما كان الحزب «الفوضوى» يتبنى فكرة التقدم ، ومن المعروف أن فكرة النظام استمدت من الفلسفة الاجتماعية اللاهوتية التى يمثلها كل من بونالد Bonald وميستر Maistre ، بينما أستمدت فكرة التقدم من الاتجاهات النقدية فى التنوير والاصطلاح . ويرى كومت أن الطبقات الاجتماعية القائمة تبلور وتساند إحدى الفكرتين على الأخرى ، الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى الصراع الطبقى والتفلك والفوضوية ، وفى كل أزمة كان الحزب المحافظ يرجع المشكلة القائمة إلى تحطيم النظام القديم ولهذا يطالب بالإبقاء والحفاظ عليه . أما الحزب الفوضوى فإنه على العكس يرى أن أى اضطراب ينبع من أن تدمير النظام القديم لم يكن تاماً ولهذا يطالب بإستمرار الثورة .

وكان كومت مثل سان سيمون يقدر بعض وجوه النظام اللاهوتى الإقطاعى ولم يرفضه كلية . حقيقة إنه قد أصبح عميقاً لأنه قد تجاوز الفائدة منه إلا أنه سهل نمو المجتمع الحديث ، ولما كان هذا النظام لا يستطيع أن يواجه أو يتفاعل مع التقدم الطبيعى للعلم والتغيرات الاجتماعية الأولى ، فإن السياسة اللاهوتية لايمكن أن تكون مرة ثانية أساس النظام الاجتماعى . وقد حاول كومت أن يصل إلى التأليف بين النظام والتقدم ، لأنه كان يعتقد أنه من خلال هذه الوحدة الفكرية يمكن الحفاظ على الوحدة الاجتماعية (١) .

لقد كان تقدم العلم وإزدهار الصناعة من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى

---

(١) Loc, cit.

انهيار النظام الاقطاعى اللاهوتى ، كما أن انتشار الروح العلمية جعل من المستحيل الإحتفاظ بهذا النظام ، إذا كان هـذا هو شأن المرحلة اللاهوتية فما هو الموقف بالنسبة للحالة الميتافيزيقية ؟ إن مبادىء الميتافيزيقيين كانت فى الأساس نقدية وثورية ، إلا أنهم أسهموا فى التقدم ولـكن بصورة سلبية . ان المرحلة الميتافيزيقية مهمة لأنها حطمت المرحلة السابقة ، ومهدت السبيل إلى المرحلة اللاحقة وهى المرحلة الوضعية . أن الأزمة الاجتماعية سوف تستمر طالما ظلت الفـكرتان المتصارعتان اللاهوتية والميتافيزيقية قائمتين . ولن ينشأ النظام ولن يكون ممكناً إلا إذا اجتاحتهما المرحلة الوضعية .

ولقد كان كومت يبدى احتقاره للفوضى الفـكرية ، وكان يعتقد أنها السبب الرئيسى وراء التفـكك الأخلاقى ، كما أبدى أيضا مخاوفه من الاهتمام المعاصر له بالاعتبارات المادية واعتبر ذلك مدمرا للتقدم ، لأنه كان يعتقد أن مصدر الشرور الاجتماعية لايجب أن نبحث عنه فى النظم الاجتماعية والاقتصادية الأساسية ، بـل لابد أن نبحث عنه فى الأفكار والأخلاق (١) : وكان كومت واثقاً أشد الثقة فى تفوق المبادىء الوضعية ، فى تماسكها المنطقى التام وفى وظائفها الاجتماعية . ان الفلسفة الوضعية تتفوق على أى فلسفة سبقتها ، لأنه بينما تدين المدرسة الميتافيزيقية كل المراحل التى سبقت الثورة ، وتفعـل نفس الشىء المدرسة الرجعية بالنسبة للعصر الحديث ، فإن المبدأ الوضعى قادر عـلى إدراك القانون الأساسى للنمو الانسانى المستمر ، وأن التطور القائم ماهو إلا نتيجة ضرورية للمراحل المتدرجة للتغيرات السابقة ، وذلك عن طريق مد الظواهر الاجتماعية بالروح التى تحكم معالجة كل الظواهر الطبيعية .

---

(١) Ibid, pp. 72 – 74.

إن أهم مايميز الروح العلمية هو اخضاعها،وبشكل ثابت،التخيل للملاحظة ، والعقل للحقائق . وهـذا يخالف تصور القرن ١٨ حيث كان التفـكير والتعقل ثم الملاحظة ، وظائف متآزرة للمنهج العلمى . ويرى كومت أن التنبؤ يمكن أن ييسر عملية الضبط الاجتماعى الذى كان يعتبره هدف مبدئه الوضعى (التنبؤ من أجل الضبط) .

أما النظام والتقدم فهما الوجهان الاستاتيكى والدينامى للمجتمع ، حيث يشير النظام إلى الانسجام والتوازن الذى يسود بين الظروف المختلفة للوجود ، بينما يشير التقدم إلى نمو المجتمع المنظم طبقاً للقوانين الاجتماعية الطبيعية. وهكذا يتوحد الميدآن اللذان كانا من قبل متعارضان . ذلك أن من الطبيعى والعادى لنظم المجتمع (عناصر النسق الاجتماعى) أن تتساند وأن تـكون لها علاقات متبادلة . ولذلك فانه حتى للأغراض التحليلية ، لا يجب أن نفـكر فى العناصر الاجتماعية منفصلة كما لو كان لها وجود مستقل .

إن الديناميكا الاجتماعية تشير إلى دراسة أنماط التقدم التطورى حيث يكون تتابع النمو ضروريا ولا مفر منه . فالديناميكا الاجتماعية هى فى الواقع نظام مستمر يسير وفقا لقوانين طبيعية ومنظمة وضرورية ، لأنه إذا لم تكن الحركة محكومة بهذه القوانين فانها لن تؤدى إلى التنظيم الكامل للنسق الاجتماعى [١] .

أما بالنسبة للوجوه الأخرى لمنهج كومت فإنه أكد أهمية وسائل مثل الملاحظة والتجريب والمقارنة . كما أنه على الرغم من العناصر الايديولوجية الظاهرة فى منهجه العام، فانه كان يحاول دائما أن يمسك ببعض مبادىء المنهج العلمى وإن ظلت

---

(١) Ibid. pp. 76 – 77.

تابعة لبناء المجتمع التدرجي والعضوى والتسلطى . ان الملاحظة غير ممكنة بدون نظرية ، وأول شيء أن نوجهها ثم نفسر مالاحظناه،ذلك لأن الحقائق لا تتكلم عن نفسها .

إن المخطط العام لمبدئه الوضعى ايديولوجى بكل ماتحمل هذه الكلمة من معان كما أن العلم لايمكن أن يصل إلى استقلاله أو ذاتيته بناء على مبادئه والنسق الشمولى الذى كان يدعو اليه ، لقد ظل كومت حاملا خلال كتاباته لمثال الحرية حتى فى ارتباطه بالعلم ، ولهذا فشل بشكل ظاهر فى إدراك كيف أن وجوهاً كثيرة من المجتمع قد أغلقها بطريقة درجاتيكية فى وجه العلم عن طريق شعاراته ومبادئه.

والواقع أن أغلب أحكام أوجيست كومت لم تقم على الخبرة والملاحظة بل قامت على قيم وعواطف ، وهى ولا شك قيم وعواطف ومصالح البورجوازية . ذلك أنه لم يدرك، أو لم يرد ذلك ، أن مبادىء التنظيم متأصلة فى مضمون اجتماعى تاريخى محدد . كما أنه رفض أن يعترف بأن الانسان ليس مجرد شيء، بل موضوع فعال يستطيع أن يقرر، وليس مجرد انسان محكوم ، وأنه يستطيع فوق كل ذلك أن يغير المجتمع طبقاً لأهداف معينة (١) .

(١) Ibid, pp. 77 – 79.

ثانيا : نماذج النظرية واتجاهاتها

إن مناقشة نماذج النظرية واتجاهاتها فى علم الاجتماع ، يرتبط بمشكلة شغلت إهتمام معظم المشتغلين بتاريخ الفكر الاجتماعى والنظريات السوسيولوجية ، تلك هى مشكلة تصنيف هذه النظريات . وهناك صعوبات عديدة تثيرها هذه المشكلة ، أهمها الاتفاق على إطار واضح ومحدد للتصنيف ، على أن يتحقق لهـــذا الإطار الاتساق المنطقى والعمومية . وربما كان تعدد النظريات السوسيولوجية ، وتنوع الأطر المرجعية لكل منها ، وإرتباط هذه النظريات بأسماء أصحابها ، هو الذى عوق إمكانية ظهور مثل هذا الإطار الموحد المتكامل(١) .

---

(١) هناك محاولات عديدة لتصنيف النظريات السوسيولوجية ، نذكر منهـا تصنيف سوروكين عام ١٩٢٨ وهو يقسم مدارس علم الاجتماع الى : المدرسة الميكانيكية ، ومدرسة فريدريك لوبلاى ، والمدرسة الجغرافية ، والمدرسة البيولوجية ، والمدرسة الانثروبولوجية المنصرية ، ثم التفسير السوسيولوجى للصراع من أجل البقاء وسوسيولوجية الحرب، والمدرسة الديموجرافية ، والمدرسة السوسيولوجية بفروعها الصورية والاقتصـــادية ، والمدرسة السيكولوجية . أنظر :

Sorokin, Contemporary Sociological Theories, N. Y, 1928.

ثم قدم سوروكين تصنيفا آخر للنظريات الحديثة فى مؤلفه الذى صدر عام ١٩٦٦ بعنوان : النظريات السوسيولوجية فى عالم اليوم حيث صنف النظريات المعاصرة الى الاتجاه الاسمى التفردى الذرى فى علم الاجتماع العام المعاصر ، ونظريات الانساق الثقـــافية ، ونظريات الانساق الاجتماعية — الثقافية .

See, Sorokin, Sociological Theories of Today, N. Y, 1966.

وهناك تصنيف آخر قدمه دون مارتندل فى مؤلفه طبيعة وأنماط النظرية السوسيولوجية يشمل : نظرية الصراع والنظرية الصورية ، والسلوكية الاجتماعية ، والوضعية العضوية ، والوظيفية السوسيولوجية .

وإزاء هذا الموقف ، لانستطيع لتحقيق أغراضنا إلا أن نختار من بين أطر التصنيف العديدة أكثرها شمولا وتمثيلا ، ويمكننا هنـــا أن نشير إلى ثلاث محاولات أساسية ، إعتمدت كل منها على معايير مختلفة لتصنيف النظـــريات والنماذج ، أما المحـاولة الأولى فهى تتمثل فى تصنيف النظريات السوسيولوجية إلى «إتجاهات» أساسية بغض النظر عن أسماء أصحابها ، وتشمل هذه الاتجاهات : الاتجاه الأيكولوجى ، والديموجرافى ، والمادى . والسيكولوجى ، والتكنولوجى ، والإتجاهات البنائية الإجتماعية ، والتفاعلية الرمزية ، ونظريق الفعل والملزمات الوظيفية (١) . بينما تركز المحـاولة الثانية على إبـراز الأطر المرجعيـة للنظريات السوسيولوجية فتعـرض للنموذج الميـكانيكى ، والعضوى ، ونموذج العمليـة ، وتضيف اليها نموذجى بارسونز وهومانز (٢) . وأخيراً تسعى المحاولة الثـالثة إلى تصنيف النظريات السوسيولوجية فى ضوء تفسيرها للنظام الإجتماعى ، لب الدراسة فى علم الاجتماع ، ويشمل هذا التصنيف : نظرية القهر ، ونظرية المصلحة ، ونظرية

Don, Martindale. The Nature and Types of Sociological Theories,= London, 1967.

وهناك مقال حديث نسبيا ركز على دراسة وتحليل مشكلة التصنيف فى النظرية السوسيولوجية هو مقال فاجنر .

Wagner, H. Types of Sociological Theory : Toward a System of Classification , American Sociological Review, 1963 , 28 , 735 – 743.

(١) Walter Wallace, Sociological Theory, London, 1969, pp. 17 – 36.

(٢) Walter Buckley, Sociology and Modern Systems Theory, New Jersey, 1967. pp, 8 – 39.

الإتفاق القيمى ، ونظرية التصور الداتى [١] . ونستطيع أن نعرض لمضمون كل هذه المحاولات على النحو التالى :

المحاولة الأولى :

١ ـ الاتجاه الايكولوجى :

يفسر التعريف الايكولوجى الظواهر الاجتماعية على أساس ظروف خارجية مفروضة عليها ، وفى ضوء الخصائص البيئية للمشاركين وهى خصائص تتميز بأنها غير بشرية فى الغالب ؛ حيث يذهب هاولى Hawley إلى أن المجتمع المحلى يعتمد على الإستجابة الجماعية التى تعبر عن توافق الكائنات العضوية مع البيئة، والثقافة بالتالى لاتعدو إلا أن تكون طريقة لتطوير أساليب فنيـــة تساعد السكان على الإستمرار فى البيئة . كذلك عرف كوين J. A. Quinn الإيكولوجيا البشرية بأنها دراسة العلاقات بين بنى البشر التى تتأثر بالموارد المحدودة للبيئة ، وليست هناك دراسة سوسيولوجية توصف بأنها ايكولوجية دون أن تستخدم جوانب معينة من المؤثرات البيئية بوصفها مبادىء أو أسس يعتمد عليها التفسير . كذلك أكد دنكن أن النظم الإجتماعية لاتستمر على ما هى عليه دائما ، ولكنها تتعدل وتتغير بإستمرار لكى تتوافق مع الظروف البيئية ، بل إن هذا التعديل ذاته إما أن يرجع إلى تغير فى البيئة أو إلى نمو أو تطور تكنولوجى .

ويلاحظ أن علماء الايكولوجيا يضيفون مجموعة عوامل أخرى لها مكانة نظرية ثانوية بالطبع ، فقد ذهب بارك Park الى أنه يبدو أن النظم الإيكولوجية،

---

(١) Percy. S. Cohen, Modern Social Theory, London, 1969, pp. 18 – 33.

والإقتصادية ، والسياسية . والأخلاقيـة ترتبط فيما بينها على شكل تسلسل أو تدرج هرمى ، قاعدته النظام الأيكولوجى وقمته النظام الأخلاقى (١) .

٣ ـ الاتجاه الديموجرافى :

فرق هاوزر Hauser ودنكن Duncan بين إستخدامين لمصطلح الديموجرافيا حينما ذهبا إلى أن «التحليل الديموجرافى يقتصر على دراسة مكونات التباين السكانى وتغير . ولا تهتم الدراسات السكانية بمتغيرات تتعلق بالسكان فحسب، ولكنها تعنى أيضا بالعلاقات بين تغيرات السكان ومتغيرات أخرى : اجتماعية ، واقتصـادية ، وسياسية ، وبيولوجية ، ونشوئية ، وجغرافية ... الخ . وهكذا ، يمكن إدراك الديموجرافيا من منظور ضيق على أنها مرادفة للتحليل الديموجـرافى ، وتصورها من المنظور الواسع بوصفها تتضمن التحليل الديموجرافى ، ودراسات السكان . ونحن هنا نهتم بالتعريف الواسع للديموجرافيا ، وهو الذى يشير إلى ما نقصـد إليه من الاتجاه الديموجرافى . ويحاول هذا الاتجاه من زاوية التحليل النظرى ، أن يقدم تفسيرين متميزين للظواهر الإجتماعية بإعتبارها تتأثر بعدد أو حجـــم المشاركين فيها ، وبالتغيرات التى تطرأ على هذا الحجم نتيجة معدلات المواليد أو الوفيات ، أو الهجرة . ومن المسلم به أن فكرة تأثير حجم السكان على طبيعـــة الظواهر الاجتماعية فكرة قديمة فى علم الإجتماع ، فقد أشار اليها كل من مالتس ،

---

(١) See, Hawley, Human Ecology, N. Y, 1950. Quinn, The Nature of Human Ecology, Social Forces, 1939, 18 : 163. Duncan, Social Organization and the Ecosystem, in Faris, Handbook of Modern Sociology, N. Y, 1967:

وزيمل ، ودوركايم[١] .

وهكذا ، يمكن القول إن الاتجاه الديموجرافي يقدم تفسيرات ترتكز على الخصائص البيئية للشاركين ، بإعتبار أن هذه البيئة تنطوى على أعداد معينة للسكان ، فكأن الاتجاه الديموجرافي يحدد ماهو إجتماعى فى ضوء السلوك الموضوعى ، فضلا عن أن معظم هذه الدراسات ، تسعى إلى كشف العلاقات الموضوعية التى تظهر فى عمليات : التحضر ، والانتاج الاقتصادى ، والأنساق السياسية ، والأنساق التربوية . ومع ذلك ، فإن بعض هذه الدراسات ، يهتم بالطبع بالأنماط الذاتية للسلوك مثل القيم الثقافية .

٣ ـ الاتجاه المادى :

حدد ماركس وإنجلز جوهر التفسير المادى بقولهما : « إن الحقيقة التاريخية الأولى هى إنتاج وسائل إشباع الحاجات الأساسية ، أى إنتاج الحياة المادية ذاتها » . وعلى الرغم من أن الاتجاهات الإيكولوجية ، والديموجرافية ، والمادية تحدد مقولة « الإجتماعى » فى ضوء علاقات موضوعية ، الا أن القضايا التى قدمها كل من ماركس وانجلز تؤكد الطبيعة السيكولوجية وحاجات الانسان فى تفسيرها للظواهر الاجتماعية ، بينما يميل الاتجاه الايكولوجى إلى تأكيد البيئة اللا إنسانية ، ويحاول الاتجاه الديموجرافى إثبات أثر البيئة الانسانية .

وتوضح عبارات ماركس وإنجلز الواردة فى مؤلفهما اسهامهما فى نقد

---

(١) Kingesly Davis, the Sociology of Demographic Behaviour, in Merton & Broom & Cotrell (eds). Sociology Today, N. Y, 1959, p. 313.

الإقتصاد السياسي . والأيديولوجية الألمانية ، الأولوية التي منحها كل منهما للبناء الإقتصادي للمجتمع ، بإعتبار أنه يشبع الحاجات الفسيولوجية للانسان من مأكل ومشرب، وملبس، ومأوى ، وكذلك يخلق حاجات فسيولوجية وغيرفسيولوجية جديدة يشبعها البناء الفوقي القانوني ، والسياسي الذي ينهض على هـذا الأساس الإقتصادي ، وقد عدل إنجلز في السنوات الأخيرة هذا التصور السببي ذو الجانب الواحد حينما قال : « إن الموقف الإقتصادي يمثل الأساس ـ لكن العناصر المختلفـة للبناء الفوقي . والصور السياسية للصراع الطبقي ونتائجه ... تمارس أيضا دورها في مجرى الصراع التاريخي في كثير من الحالات . وهناك تفاعل بين كل هـــذه العناصر ... حيث تؤكد الحركة الإقتصادية في نهاية الأمر ذاتهـــا بوصفها ضرورية » (١) .

وهناك وجهة نظر موازية لذلك طورها هومانز حينما قرر : « إذا إفترضنـا أنه يوجد بين أعضاء الجماعة مجموعة من العلاقات تشبع حاجة الجمـاعة إلى البقـاء خلال الزمن في بيئتها الخاصة ، الفيزيقية والإجتماعية، فسوف نرى أنه على أساس هذه العـــلاقات ، تطور الجمـاعة علاقات جديدة ، بحيث تعمل الأخـيرة على تطوير علاقات من النوع الذي افترضنا وجوده . وأخيراً سنجد أن سلوك الجماعة فضلا عن أنه تحدد من خلال البيئة ، سوف يغير هو ذاته من البيئة نفسها »(٢).

على أن هناك عناصر مشتركة بين هومانز وتصور ماركس وانجلز ، فبالإضافة إلى أنهما يؤكدان ضرورة إشباع الحاجات المادية ، أو الوفاء بشروط البقـاء (هومانز) ، أو التفاعل بين البناء الإقتصادي والبناء العـلوي (ماركس) ، أو

(١) Marx & Engels, The German Ideology International, 1939.

(٢) Homans, The Human Group, London, 1958, p. 91.

النسق الخارجى والنسق الداخلى (هومانز) ، فـكلاهما يفسر مقولة الإجتماعى بالرجوع إلى إفتراض يتعلق بالطبيعة الإنسانية أساسا ، فبينما يبرز هومانز الطبيعة السيكولوجية للانسان ، يحاول ماركس وإنجلز إظهار أثر الطبيعة الفسيولوجية له .

٤ ـ الاتجاه السيكولوجى :

يظهر التأكيد على أهمية المتغيرات السيكولوجية فى تفسير مقولة «الإجتماعى» واضحا فى كتابات جورج هومانز . إذ أن الجماعة فى رأيه تحتاج إلى تدعيم التعاون ، ومجموعة من الأنشطة ، وإطار محدد للتفاعل بين الأعضاء لكى تحقق إستمرارها ونحن حينما ندرس الجماعات التى تمثل جزءا من مجتمع معقد ، نجد أن هناك عواطفا تظهر داخل هذه الجماعة ، تكونت لديها من خلال تفاعلها مع النسق الخارجى . وقد أكد هومانز فى كتابه عن السلوك الاجتماعى أهمية الدوافع النفسية المفروضة على الجماعات فى تفسير بناء الجماعة ، بل وكافة المتغيرات الأخرى التى تنطوى عليها الأنساق الداخلية والخارجية ، ويتضمن ذلك النشاط ، والتفاعل ، والمعايير ، والعواطف التى تنشأ عما هو إجتماعى . وهكذا ، يركز هومانز إهتمامه حول أشكال السلوك الإجتماعى ، التى تختلف بإختلاف المجتمعات والثقافات . على أن هذه الخصائص النفسية لا تفسر فقط نشأة الظواهر الاجتماعية المركبة ، إذ لا يوجد أى نظام دون أن يرجع فى أصله إلى سلوك اجتماعى أولى ، بل إنها تدعم الظواهر الاجتماعية بعد تشكيلها(١) .

٥ ـ الاتجاه التكنولوجى :

هناك مؤلفان يمثلان هذا الاتجاه بوضوح الأول هو وليم أوجبرن Ogburn

---

(١) Homans, Social Behavior, N. Y, 1950 p. 6.

صاحب نظرية التخلف الثقافى ، حينما تبنى وجهة نظر تركز أساساً على التكنولوجيا ، أو الثقافة المادية . فالماديات تتراكم على نحو معين ، بحيث تشكل فى النهاية قوى دافعة للتغير الإجتماعى ، والتغير فى هذه الجوانب المادية يسير بمعدلات أسرع بكثير من تغير الجوانب اللامادية للثقافة ، مما ينشأ عنه التخلف الثقافى . ويجب أن نميز فى رأى أوجبرن بين الثقافة المادية الإجتماعية ، وبين الظروف المادية الطبيعية للحياة التى تشغل اهتمام علماء الإيكولوجيا . وأكد أوجبرن فى مقال لاحق له أن إفتراض « التخلف » لا يقتصر فقط على العلاقة بين جانبى الثقافة المادية واللامادية . ولكنه يمتد لكى يغطى العلاقة بين جوانب الحياة الإجتماعية بصفة عامة (١) .

أما المثال الثانى على الإتجاه التكنولوجى فى نظرية علم الإجتماع فهو كتابات كوترل Cottrell حينما ذهب إلى أن التكنولوجيا مسئولة عن تحديد الطاقة المتاحة لدى الإنسان ، وهذه الطاقة تحدد ما يستطيع أن يفعله ، وما يريد أن يحققه فى المستقبل . واهتم كوترل أيضا فى مؤلفه : الطاقة والمجتمع Energy and Society ١٩٥٥ ، بوصف النتائج الإجتماعية والثقافية لإكتشاف الطاقة خلال التاريخ الإنسانى ، وما ترتب على ذلك من بناء وحدات إنتاجية كبرى ، وماصاحبها من حاجة إلى مركزية المراقبة ، والتخصص والتقسيم الدقيق الأعمال (٢) .

وهكذا يبدو أن الاتجاه التكنولوجى عند أوجبرن وكوترل يشترك فى خصائص عامة ، فكلاهما يعرف مقولة « الاجتماعى » على أساس الإتجاهين المادى والسيكولوجى ، لكن الإتجاه التكنولوجى يفسر « الإجتماعى » من خلال الرجوع إلى ظواهر غير انسانية (كالآلات) تؤثر فى البيئة الخارجية المشاركين .

---

(١) Ogburn, Social Change, N. Y, 1933 p. 73.

(٢) Fred Cottrell, Energy and Society N, Y, 1955, p. 2

٦ ـ الاتجاهات البنائية الاجتماعية : الوظيفية ، التبادلية ، الصراع :

تشترك النظريات البنائية فى خاصية واحدة وهى تفسير الظواهر الإجتماعية من خلال الرجوع إلى المراكز الإجتماعية المقررة للمشاركين ، وهى تتميز عن الاتجاه التكنولوجى من حيث أنها تهتم بالأشياء التى يطورها المشاركون الاجتماعيون خلال علاقاتهم المتبادلة ، بينما الأخيرة تهتم بالمخترعات المادية وما تحدثه من نتائج فى سلوك أعضاء الجماعات المختلفة .

وهناك على الأقل ثلاث وجهات نظر بنائية اجتماعية ، سوف نناقش كل منها باختصار ، الأولى تمثلها أعمال روبرت ميرتون وكنجزلى دافيز وغيرهما ، وتعرف باسم البنائية الوظيفية ، والثانية تمثلها دراسات تبوت Thibaut وكيلى Kelley وبلاو Blau وتعرف بإسم بنائية التبادل ، أما الأخيرة فتمثلها أعمال كوزر Coser ، ودهرندورف Dahrendorf ، ويمكن أن نطلق عليها الاتجاه البنائى فى دراسة الصراع . ونستطيع أن نعرض الافكار الأساسية التى تتضمنها هذه الاتجاهات على النحو التالى :

أ ـ البنائية الوظيفية :

ينسب هذا الإتجاه فى صورته المعاصرة إلى أعمال روبرت ميرتون وكنجزلى دافيز ، وهو يسلم عموماً بأنه لكى نستطيع تفسير وجود ظاهرة إجتماعية معينة علينا أن نبحث عن وظيفتها أى النتائج المترتبة عليها بالنسبة للنسق الإجتماعى الأكبر الذى تمثل جزءا منه . ويقول ميرتون « إن محور إهتمام البنائية الوظيفية هو تفسير البيانات عن طريق الكشف عن نتائجها بالنسبة للبناءات الكبرى التى تضمها » ، كذلك ذهب دافيز Davis إلى أن التحليل الوظيفى هو « تأويل الظواهر فى ضوء الصلات المتبادلة بينها من جهة ، وبينها وبين المجتمعات الكلية من جهة وضع المجتمعات ،

ومعنى آراء دافيز وميرتون أنهما يؤكدان إعتماد الكل على أجزائه ، مثلما تعتمد الأجزاء على الكل أيضا .(١)

ب- البنائية التبادلية:

بينما تميل البنائية الوظيفية إلى التركيز على جانب واحد فقط للعلاقة بين متغيرين أ ، ب ، نجد أن مفهوم التبادل يسمح بتحليل كافة أنماط التفاعل المتوقعة بين هذين المتغيرين ، فإذا كان الإتجاه الاول يعنى ببحث النتائج المصاحبة للمتغير (أ) على الظاهرة الاجتماعية (ب) ويفترض أن تأثير (ب) شيء آلى أو لا يمثل مشكلة يجب دراستها ، فإن التبادلية تشير إلى ضرورة بحث كلا الجانبين . ويلاحظ جولدنر أن مفهوم التبادل على هذا النحو يحقق التكامل بين الأحداث الماضية ، والأحداث المتوقعة فى المستقبل ، وأنماط السلوك الحالية . كذلك لاحظ وليام جود Goode ، أن البناء الإجتماعى يتضمن مجموعة علاقات بين الادوار ، وأن المجموع الكلى للقرارات الخاصة بكل دور يحدد درجة التكامل بين العناصر المختلفة للبناء الإجتماعى ... كما أن الجهد الذى يبذله الأفراد للتقليل من الضغوط التى تواجه أدوارهم ، يحدد بصوره مباشرة بناء النسق الاجتماعى، فكأن «جود» يرى أن العلاقات التبادلية بين الذين يشغلون مراكز إجتماعية مختلفة تمثل تفسيراً أساسياً للانساق الاجتماعية . لكنه يذهب أيضا إلى أن التبادل يعتمد بدوره على سيطرة الفرد أو تحكمه فى التزامات الدور الذى يقوم به ، والميكانيزمات

(1) See, W. Buckley, Structural – Functional Analysis in Modern Sociology, in Howard Becker & Alvin Boskoff. (eds). Modern Sociological Theory; in Continuity and Change, N. Y, 1057, pp. 236, 295,

التي يلجأ اليها لخفض حدة الضغوط التي يتعرض لها هذا الدور ، تلك التي تقدمها له الثقافة والمجتمع الذي يعيش فيه . كذلك عرض بلاو نظرية بنائية تبادلية تسلم بالأفكار السابقة ، لكنها تتبنى وجهة نظر سيكولوجية إلى حد ما ، حيث أنه ذهب « إلى أن العمليات الإجتماعية الأساسية التي تحكم الترابط بين الناس لها جذورها في العمليات السيكولوجية الأولية ».(١)

حـ ـ النظرية البنائية في الصراع:

هذه النظرية تمثل فرعا من النظرية السابقة ، طالما أن الإهتمام هنا ينصب على النزاع المتبادل بين بعض الأنماط السلوكية ، إذ عبر كوزر عن ذلك بقوله : « إن الصراع ... هو دائما نوع من الإحتكاك » ، كذلك أشار دهرندورف في تحليله لخصائص الصراع كميكانيزم للتغير الاجتماعي إلى أن هناك ثلاثة تساؤلات يتعين أن تجيب عليها نظرية الصراع هي : ١ ـ كيف ظهرت الجماعات المتصارعة في بناء المجتمع ؟ ٢ ـ وما هي أشكال الصراع التي يمكن ملاحظتها بين هذه الجماعات؟ ٣ ـ وكيف يؤثر الصراع بين هذه الجماعات في تغير البناءات الإجتماعية ؟ . أما بلاو فإنه اعتبر التبادل مؤديا إلى الصراع ، طالما أنه ينطوي دائما على تباين في توزيع القوة .(٢)

وعموماً ، فإن هذه النظريات تمثل وجهات نظر مختلفة نحو أنماط مختارة للتفاعل الاجتماعي ، كما أن البنائية الوظيفية تعبر عن وجهة نظر واحدة في تحليل

---

(١) Blau, Exchange and Power in Social life. Wiley, 1964.

(٢) L. Coser, The Functions of Social Conflict, Glencoe, 1956, p. 123.

العلاقة بين متغيرين ، على حين أن النظريات البنائية فى الصراع والتبادل تعبر عن محاولة لإستيعاب كافة العلاقات بين المتغيرات أو الظواهر الاجتماعية .

٧ ــ التفاعلية الرمزية :

إتجاه يحاول أن يصور الاحتمالات الممكنة التى تواجه عملية التفـــاعل بين الأفراد ، وبخاصة فيما يتعلق بتكوين الذات . ويمثل هذا الاتجاه جورج هربرت ميد، وبلومر Blumer ، فالتفاعل الإنسانى فى رأيهما هو عملية تـكوين ايجابية لها أسلوبها الخاص . وعلى المشاركين فى هذه العملية أن يحددوا اتجـاهات سلوكهم على أساس تفسيرات دائمة للأفعال التى يقوم بها الآخرين . وهم خلال هذه العملية يقومون بتعديل ،أو بتغيير إستجاباتهم لأفعال الآخرين أو إعادة تنظيم مقاصدهم ، ورغباتهم ، ومشاعرهم ، وإتجاهاتهم ، والنظر فى مدى ملاءمة المعـايير والقيم التى يعتقدونها ، لكى يستطيعون التكيف والتوافق مع موقف التفـاعل . وتنظر التفاعلية الرمزيه إلى كل سلوك أو فعل مستمر بين شخصين على أن له تاريخـــه الخاص ، وإنتظامه ، وتكراره على أساس التوحد أو التعريف المشترك للموقف بين هذين الشخصين. (١)

٨ ــ نظريتى الفعل الاجتماعى والملزمات الوظيفية :

تمثل أفكار بارسونز هـــذا الأتجاه الذى يجمع بين هاتين النظريتين ، أما النظرية الأولى فهى تسعى إلى تعريف مقولة « الاجتماعى » فى ضوء السلوك الذاتى وتحاول تفسيرها ، بالرجوع إلى ظواهر نتجت إجتماعيا خلال التفاعل بين خصائص

---

(١) G. H. Mead in. Anselm Strause (ed). the Social Psychology of George Herbert Mead. Chicago, 1950, pp. 244 – 445.

البيئة التى يوجد فيها المشاركون ، والخصائص المميزة لهؤلاء المشاركين أيضـا . ويبدو ذلك واضحاً من نظرية بارسونز عن الفعل الاجتماعى ؛ التى يمكن أن نقول انها تسعى إلى الإجابة على تساؤلين أساسين هما : كيف يمكننا أن نحـدد بوضوح العلاقات بين بدائل الوسائل والغايات التى يواجهها الفاعل الاجتماعى ، ومعايير الاختيار بينها التى يحتكم اليها ، ثم ما هى العوامل المفسرة لاستقرار هذه المعايير ، ومن ثم انتظام الاختيارات ، وإنتظام الحياة الاجتماعية ذاتها ؟.

كذلك يلاحظ أن نظرية الملزمات الوظيفية تعرف مقولة الاجتماعى فى ضوء السلوك الذاتى ، وتسعى إلى تفسيره معتمدة على نفس الأطار السابق . وترتكز هذه النظرية أيضا على فكرة بارسونز عن مشكلات النسق الاجتماعى ، إذ يتعين على كل نسق اجتماعى أن يقدم حلا لأربعة مشكلات ، فمن الضـــرورى أن يسعى هذا النسق الى تدعيم النمط ، والقضاء على التوتر ، وأنجاز الأهـداف ، والتوافق ، ومواجهة مطلب الكمون الذى يتمثل فى تضامن الوحدات من أجـل الأداء الوظيفى .

المحاولة الثانية :

١ ـ النموذج الميكانيكى :

دفع تقدم العلوم الطبيعية والميكانيكا والرياضيات إبان القرن السابع عشر الى طرح التفسيرات الغائية والغيبية جانبا ، وأدى إلى ظهور علم الطبيعـــة الاجتماعية الذى حاول دراسة الانسان والمجتمع دراسة علمية . ولا تتناول الطبيعة الاجتماعية الانسان بإعتباره شيئاً ملموسا ، بل باعتباره آلة متطورة وتفســر تصرفاته بإرجاعها الى مبادىء ذات طابع ميكانيكى .

أما المجتمع فهو يمثل — من وجهة النظر الميكانيكية — « نسقاً فلكياً » Astronomical system ، عناصره المكونة هى الأفراد — والأفراد تربطهم ببعضهم علاقات تجاذب أو تنافر — كذلك المجتمعات تكون فيما بينها انساقا من عناصر متعارضة ولكنها فى حالة توازن . فالمجتمع اذن يمثل نسقاً فلكياً يتألف من العلاقات الاجتماعية بين أفراد يتجاذبون ويتنافرون فيما بينهم ، وكل تلك العلاقات يمكن اخضاعها للقياس ، فهى النتيجة الطبيعية التى تترتب على تفاعل أسباب طبيعية يمكن التعبير عنها فى أسلوب قوانين الميكانيكا الاجتماعية .

ويمثل التنظيم الاجتماعى والقوة والسلطة النتائج الناجمة عن أشكال الضغوط التى تمارسها « الذرات الاجتماعية » على بعضها البعض ، فالطبيعة الاجتماعية تنظر اذن الى التوازن الاجتماعى على أنه نوع من التوازن الميكانيكى . والى التغير باعتباره دالة للزمان والمكان يمكن التعبير عنها فى شكل منحنيات رياضية .

وقد ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتجاه نحو العودة الى النموذج الميكانيكى ، وأن لم يعترف أعلامه بإنتسابهم الى مدرسة القرن السابع عشر — وقد اقيمت فكرة النسق عند كل من كارى ، وبنتلى ، وكارفر ، وباريتو ، على مفاهيم مثل مجالات القوة وتحول الطاقة . والنسق الاجتماعى عند باريتو عبارة عن مجموعة من العناصر ترتبط فيما بينها بعلاقات متبادلة ، وقد يصل النسق الى حالة من التوازن بحيث اذا أعترى أيا من عناصر النسق تغيير ، عملت سائر مكونات النسق على التوافق بحيث تعود به الى حالة التوازن . وقد أخذ العديد من العلماء عن باريتو ذلك التصور ومنهم بوكارين وزنانيكى ولوين ومن المعاصرين هومانز وبارسونز .

كما أخذ بعض العلماء عن باريتو فكرة « النسق وإن لم يعتبروه ميكانيكياً

بالضرورة ، مثال ذلك أن ماكيفر يتصور المجتمع فى شكل نسق ولكنه يعطى أهمية خاصة العوامل الفكرية ، فالمجتمع عنده مغلق يخضع لقانون مماثل لقانون القصور الذاتى فى مجال العلوم الطبيعية ، بمعنى أن عوامل التغير خارجيـة عن النسق وأن قوى النسق الداخلية تعمل — فى حالة إختلال التوازن أو حدوث التغير — على اعادة التوازن للنسق الاجتماعى .(١)

ولكن إعادة التوازن عند ماكيفر لاتعنى العودة بالضرورة إلى الشكل الأول للتوازن وانما تحقيق شكل جديد من التوازن ، وبالتالى يكتسب التوازن طبيعة متغـيرة .

ويذهب بعض العلماء إلى أن فكرة التوازن ما هى إلا مجرد فـكرة تساعدنا على الوصول إلى فهم أوضح للنسق الاجتماعى ، فبارسونز مثلا يرى أنه من الضرورى التوصل إلى نسق ثابت فى المجتمع يمكن اتخاذه نقطة مرجعيـة نقيس التغـــير على أساسها .

وقد أختـار بارسونز نسق السلوك النظامى لهـذا الغرض - ولـكنه لا يكتفى بتلك النقطة المرجعية بل يلجأ إلى استخدام مفهوم النسق والقصور الذاتى فى تفسيراته وهو ما لا يوقع بارسونز فى تناقض حين يعتبر قوى التغير جـزءاً لا يتجزأ من النسق ، ومن ثم تواجهه المشكلة التى تتلخص فى التساؤل التالى :

كيف تعمل قوى النسق الداخلية على اعادة التوازن تارة وعلى احداث التغير تارة أخرى ؟

ومن أبرز الأعتراضات التى قامت على وجهة النظر الميكانيكية أنهـا أغفلت

---

(١) Buckley, Op. cit, p. 8,

وجود العديد من الممكنات بالنسبة للسلوك الاجتماعى ، إلى جانب السلوك النظامى ، ووجود معايير مرضية إلى جانب المعايير السوية — ووجود لسلوك منحرف إلى جانب السلوك الممتثل ، أما إذا حاول النموذج الميكانيكى تفسير كل ذلك على أنه مجرد رواسب فى النسق الاجتماعى فلا يمكننا - فى رأى باكلى - أن نعتبر ذلك تفسيراً جاداً .

٣ - النموذج العضوى :

أغرى تقدم العلوم البيولوجية - ابان القرن التاسع عشر - علماء الاجتماع من أمثال سبنسر ووبرمز وشافل إلى استعارة فكرة الكيان العضوى ، وتصور المجتمع فى إطارها ، وقد تمادى بعض العلماء فى استخدام تلك المماثلة بين الكائن العضوى والكائن الإجتماعى ، حتى أن بعض أتباع سبنسر ذهبوا إلى حد البحث عن مكان القلب والعقل والدورة الدموية فى الكائن الاجتماعى ، مع أن سبنسر وهو رائد هذا الاتجاه كان يرى المماثلة فى حدود فكرة تساند أجزاء الكائن الاجتماعى على غرار التساند المشاهد بين أجزاء الكائن العضوى .(١)

ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام أن فكرة تساند الأجزاء ليست فكرة أصيلة أتى بها النموذج العضوى وانما أبرزها النموذج الميكانيكى من قبل .

ويرى باكلى أن النموذج العضوى قد وقع فى الخطأ بمحاولته المماثلة بين الكائن الإجتماعى والكائن العضوى دون أن يأخذ فى اعتباره الاختلافات فى النوع ، فسبنسر يرى أن علاقة الأجزاء ببعضها داخل الكائن الاجتماعى مماثلة للعلاقات التى تربط بين أجزاء الكائن العضوى وبعضها ، وكان الأجدى به فى رأى باكلى أن يماثل العلاقات الإجتماعية

---

(١) Ibid p. 11.

والعلاقات بين عناصر النوع : وذلك لأن المجتمعات - كما يقول وارد - لا تموت كما تموت الكائنات العضوية ، كما ان الصراع فى حالة الكائن الإجتماعى ليس من أجل البقاء وإنما من أجل البناء .

وينبغى التمييز بين اتجاهين مختلفين لدى علماء المدرسة العضوية الإتجاه الأول هو اتجاه سبنسر ويشبه الكائن الاجتماعى بالكائن العضوى ذى الأعضاء المتساندة ويطرح فكرة الصراع من اجل البقاء جانبا .

اما الإتجاه الثانى - ويتزعمه داروين - فينظر الى المجتمع باعتباره (مركب ايكولوجى) تتصارع أجزاؤه من أجل البقاء .

ويمثل الإتجاه الوظيفى فى علم الإجتماع الصيغة الجديدة للنموذج البيولوجى ويؤكد فكرة التعاون بين أجزاء النسق الإجتماعى ، ووجود ميكانزم داخلى يعمل على إعادة التوازن تلقائيا إلى النسق الاجتماعى تماما كما يحدث داخل الكائن العضوى.

٣ - نموذج العملية :

يرجع نموذج العملية إلى سيمل وفون فيز Von Wiese وقد شايعته مدرسة شيكاجو بعد ذلك فى أوائل القرن العشرين وبخاصة كتابات ميد Mead وبارك وبيرجس Burgess .

ويتصور هذا النموذج النسق الاجتماعى فى شكل عمليات تجمع وتفكك مستمرة ، والبناء الاجتماعى ماهو إلا تصوير لهذا التغير فى فترة زمنية محددة . ومن أبرز العلماء الذين فسروا المجتمع على ضوء هذا النموذج ماركس وانجلز اللذان فسرا التاريخ تفسيرا ديالكتيكيا . ومن الواضح أن التغير فى ضوء العملية الديالكتيكية يقف على النقيض تماما من نموذج التوازن الاجتماعى .

ويرجع سمول ـ على سبيل المثال ـ وهو من أنصار نموذج العملية ـ عمليات التغير إلى تصارع المصالح داخل المجتمع .

هذا ويعتبر نموذج العملية نقلة طيبة بالنسبة لعلم الاجتماع إذ أنه طرح جانباً فكرة التفسير على ضوء المماثلة العضوية لتتجه إلى دراسة العمليات الاجتماعية فى حد ذاتها دراسة علمية .

وبالرغم مما اشتهر عن المدرسة الصورية التى يتزعمها سيمل من أنها تدرس أشكال التفاعل إلا أنها فى الواقع عنيت عناية خاصة بالتفاعل باعتباره عملية اجتماعية .

فكأن نموذج العملية يطرح إذن دراسة البناء الاجتماعى باعتباره كياناً استاتيكيا جانبا ، ويركز كل اهتمامه على دراسة عمليات التغير حتى أن كلمة العملية داخل هذا التصور تعتبر مرادفة لكلمة « التغير » .

فتصور البناء الاجتماعى على أنه استاتيكى وتصور التغير على أنه ظاهرة مرضية انما هو تصور خاطىء كما يقول نادل فالتغير يمثل الموضوع الرئيسى لدراسة المجتمع أما البناء الاجتماعى فما هو إلا الطريقة التى تعبر بها الحقيقة المتغيرة عن نفسها أمام الباحث المشاهد فى لحظة معينة تبدو خلالها ساكنة على غير حقيقتها (١) .

٤ ـ نموذج بارسونز

يمثل النظام « Order » عنصراً هاما فى تصور بارسونز للنسق الاجتماعى ، الذى يتكون من مجموعة من المتغيرات المتساندة ، والتساند ما هو إلا نظام العلاقات القائمة بين الأجزاء المكونة للنسق .

---

(١) Buckley, Op. cit, p. 17.

النظام بهذا المفهوم حكم تقديرى بحت يعبر عن شكل العلاقات الموجودة داخل النسق . ولكن مفهوم النظام عند بارسونز ليس أحادى المعنى إذ يتضمن حكما معيارياً فى احيان أخرى حيث يعنى (التعايش السلمى فىظل شروط القدرة) :

ثم يضع بارسونز مسلمة أولى هى أن بداخل النسق الاجتماعى دافع إلى التوازن فى مواجهة مؤثرات خارجية نابعة من البيئة المحيطة ـ وهذا الدافع يفسر لنا المعنى الثانى لمفهوم النظام عند بارسونز ـ كما أنه من حيث طبيعته قريب الشبه بفكرة « إعادة التوازن Homostasis » فى الكائن البيولوجى .

ثم يستعير بارسونز من العلوم الطبيعية قانون التصور الذاتى وينسبه إلى النسق الاجتماعى حيث يقرر أن استمرار التوازن لا يمثل مشكلة على الإطلاق إذ يتحقق بفعل قانون يحكم العملية الاجتماعية قريب الشبه جدا من قانون القصور الذاتى . ولكن ذلك لا ينفى وجود اتجـــاهات تؤدى إلى الانحراف عن التوازن منها أولا دخول أعضاء جدد إلى داخل النسق . وثانيا وجود اتجاهات منحرفة، ويقوم النسق بمعالجة تلك المشاكل عن طريق ميكانزمات التعلم والضبط التى توازرها من ناحية أخرى ميكانزمات الدفاع والتوافق داخل الشخصية، التى تدفع الفاعل إلى أن يسلك وفقا لنسق التوقعات الذى يعطيه المجتمع أهمية خاصة . كما أن النسق يقوم بتقليل احتمالات اختلال التوازن داخله عن طريق ميكانزمات الضبط وتأكيد التماثل بين الأفراد واستقرار المعتقدات ، وبالطبع إذا لم تعمل ميكانزمات الضبط بفاعلية فإن النسق يصبح مهدداً بالإنهيار .

ويعتبر مفهوم الانحراف من أكثر المفاهيم غموضـا داخل النمـوذج النظرى لبارسونز ـ فتارة يبدو الانحراف جزءاً لا يتجزأ من النسق الاجتماعى ، وتارة اخرى يعرف بارسونز النسق الاجتماعى على أنه نسق السلوك النظامى فحسب بحيث

يصبح تعبير (الانحراف النظامى) يحمل تضاربا فى المعانى - فإذا نحن نظرنا نظرة علمية ، أى موضوعية إلى مفهوم الانحراف نجد أنه يتضمن حكما معياريا - فالسلوك المنحرف منحرف بالنسبة لسلوك آخر، وبالقياس على معيار تحكمى قام الباحث باختياره كنقطة مرجعية لعملية التقييم - عندئذ يصبح السلوك المنحرف مثله كمثل الممتثل جزءاً لا يتجزأ من النسق الاجتماعى ، وبالتالى يصبح تعريف بارسونز للنسق الاجتماعى على أنه مجموعة العلاقات النظامية متناقضاً مع هـــذا المفهوم للانحراف (١) .

كما يترتب على إعتبار الانحراف جزءا من النسق ضرورة طـــرح قانون القصور الذاتى جانبا إذ أنه يصبح متعارضا مع فكرة النسق المغلق الذى يحمل بداخله عوامل التغيير . فقانون القصور الذاتى لا ينطبق على نسق يحمل بداخله قوى تدفعه نحو التغير أو الانحراف ، وهنا يصبح تحقيق التوازن أمراً من أصعب الأمور .

وهكذا يتعين على بارسونز أن يختار أحد أمرين : إما أن يعتبر الانحراف جزءا من النسق وبالتالى ينبغى دراسة ميكانزمات الانحراف وميكانزمات الضبط سواء بسواء ويكون من الضرورى إذن طرح قانون القصور الذاتى جانباً لعدم تمشيه مع طبيعة النسق الاجتماعى الذى يحمل بداخــله عوامل الانحراف وعوامل التوازن - وإما أن يقصر بارسونز مفهوم النسق الاجتماعى على نسق السلوك النظامى فحسب وبالتالى تصبح عوامل الانحراف كلها خارجية على النسق بالرغم من تأكيده صراحة لعكس ذلك فى كتاباته .

ويمكننا تلخيص أهم المشاكل التى يطرحها نموذج بارسونز فى النقـــاط السبع التالية :

---

(١) Buckley, Op. cit, p. 23.

١) النسق الاجتماعى عند بارسونز هــو مجموعة العلاقات الإجتماعية التى اتخذت شكلا نظامياً ، وهذا النسق الأساسى هــو النقطة المرجعية التى إختارها بارسونز ليقيم على أساسها احتمالات الانحراف فى الأنساق ، الفرعية ويعمل النسق الاجتماعى على مواجهة أى اتجاه نحو الإنحراف بواسطة ميكانزمات الضبط التى لديه - ومن الواضح أن فى ذلك التعريف تضييق لمفهـوم النسق الاجتماعى ، إذ يقتصر على مجموعة العلاقات المستقرة (علاقات التعايش السلمى) (والنظام) كما يقول بارسونز ذاته .

٢) وهذا يعنى أن الانحراف والضغوط المختلفة الموجهة ضـد توازن النسق تمثل رواسب فى النسق الاجتماعى ينبغى القضـــاء عليها بإعتبارها عنـــاصر معوقة وظيفياً .

٣) ما زال السؤال التالى مطروحاً : هل يمكننا اعتبار قانون القصور الذاتى بمثابة أول القوانين التى تحكم النسق الاجتماعى . بالرغم مما إنتهى اليه بارسونز من أنه ينبغى طرح دراسة توازن النسق فى وضع معين جانبـا إلا إذا توصلنـا إلى معرفة عوامل التغير معرفة ثابتة - وبالرغم من تقريره أن قانون القصور الذاتى يتعارض ومنطق العلوم الإجتماعية .

٤) أن نموذج بارسونز تشوبه الغاية والتشبيهات الإنسانية ، فالنسق عنده لديه مشاكل ويسعى إلى تحقيق التوازن .

٥) يتم تمييز ميكانزمات الضبط فى نموذج بارسونز على أساس النسق النظامى الذى اختاره كنقطة مرجعية كما سبق أن رأينـا ، ويترتب على ذلك أن تصبح سائر الأنساق الفرعية داخل النسق الكلى للمجتمع أنساقا معوقة وظيفياً

وذلك عدا النسق النظامى وحده ـ بينما كان الأجدر ببارسونز أن يعتبر أنساق الضغوط وأنساق الإنحراف « structured deviance » ، جـــزءاً لايتجزأ من النسق الاجتماعى ، وأن يعمل على عزل الميكانزمات التى تعمل على بقاء واستقرار تلك الأنساق . ولكن ذلك يؤدى بالباحث مباشرة إلى التعرض لمسائل القـوة الأيديولوجية والدعاية والمصالح المستترة وهى مسائل بالغة الأهمية .

فكأن نموذج بارسونز ينتهى بنا إلى دراسة ميكانزمات الدفـــاع والتوافق والضبط ،التى تستهدف توافق الفاعل داخل بناء معين،هو البناء أوالنسق النظامى دون العناية بدراسة ميكانزمات التغير ، التى أثرت عـبر التاريخ فى توازن وتغير النسق الإجتماعى من أجل توافقه مع الفاعل ومن أجل المحافظة على النسق الكلى.

٦) يترتب على ذلك فشل نموذج بارسونز فى معالجة موضوع التغير كمافشل من قبل فى معالجة موضوع الإنحراف ، فبارسونز يبدو كما لو كان يعتقد إعتقادا ضمنياً بأن أسباب التغير أسباب خارجية على النسق بالرغم من تصريحه بأن النسق الإجتماعى يحمل بداخله عوامل تغيره .

٧) المشكلة بالنسبة لنموذج بارسونز مصدرها أنه خليـط من النموذج البيولوجى البنائى الوظيفى ،ومن نموذج التوازن الميكانيكى ـ وتتمثل نقاط الضعف بالنسبة لنموذج بارسونز فيما يلى :

أ) أن النسق العضوى يتميز ببناء خاص بالنوع كله ،

ب) وهذا البناء يزودنا بمعيار ثابت يمكننا على أساسه تمييز الإنحراف .

ج) توجد ميكانزمات ضبط تلقائية تقوم بالمحافظة على البناء السليم .

د) وفى حالة فشل تلك الميكانزمات يتحلل البناء .

هذا فى الوقت الذى لايتميز فيه النسق الاجتماعى بأى بناء ثابت أى أنه من المحتمل أن يتغير خلال عمره الثقافى .

٥ ـ نموذج هومانز :

بالرغم من أن هومانز قد تأثر ـ شأنه شأن بارسونز ـ بفكرة التوازن عند باريتو إلا أن نموذجه مع ذلك يقف على طرف النقيض من نموذج بارسونز .

ويمكن تحليل نموذج هومانز فى سبع نقاط كما سبق أن فعلنا بالنسبة لبارسونز على النحو التالى .

١) النسق فى مفهوم هومانز هو العلاقات المتبادلة بين كل الأجـــزاء ، وتتمثل العناصر الأساسية لتلك العلاقات فى نشاط الفاعل والعاطفة والمعايير ، ومعنى ذلك أن هومانز لم يتخذ من أى نسق فرعى نقطة مرجعية كما فعل بارسونز.

٢) وبالتالى يصبح الإنحراف جزءاً لايتجزأ من النسق يفسر على ضـــوء العلاقات المتبادلة بين عناصره ، كما أن عمليـة الضبط تمارس كذلك بواسطة تلك العلاقات التى تحقق فى النهاية استمرار التوازن التلقائى للنسق .

٣) يعتبر هومانز أن استمرار البناء من قبيل المعجزة ـ فأى تغـير فى عنصر من عناصر البناء تتبعه ردود فعل فى سائر عناصر البناء، تؤدى فى النهاية إلى تحقيق التوازن مرة أخرى ـ ولكن قد يحدث ألا تؤدى ردود الفعل إلى استعادة التوازن بل تستمر سلسلة التغيرات .

٤) يتحاشى هومانز فى نموذجه كل تشبيهات إنسانية ـ فالبناءات الجديدة لاتظهر إلى الوجود لأن هناك حاجة وظيفية إلى ظهورها ، بل لأن هناك قوى

مسببة تعمل على ظهورها بالتالى ، فكما أن البناءات قد تظهر لأسباب معينة فهى قد تختفى أيضا بفعل أسباب أخرى .

٥) النسق الاجتماعى لايمارس عملية الضبط بل يمثل الضبط بعينه ، إذ أن الضبط يمارس عن طريق العلاقات المتبادلة بين الأفراد وتلك العلاقات هى نفسها مكونات النسق الاجتماعى .

٦) دراسة التغير ما هى إلا دراسة النتائج المترتبة على التغير فى قيمة عنصر من عناصر النسق . ويميز هومانز بصدد دراسة موضوع التغير - بين نوعين من العمليات : عمليات النمو وعمليات التفكك - وهو لهذا الغرض يميز بين نسقين يفصل بينهما لغرض التحليل فحسب ، وهما النسق الخارجى والنسق الداخلى ، ويتمثل النسق الخارجى فى العلاقات القائمة بين العواطف والنشاط والتفاعل والمعايير بوصفها كلها نتيجة تفاعل أعضاء المجتمع مع البيئة المحيطة من أجل البقاء . أما النسق الداخلى فيتمثل فى علاقة تلك العناصر بعضها ببعض تلك العلاقة التى يحددها النسق الخارجى ، ومع ذلك تقوم بالتأثير فيه هى الأخرى وفى النسق الكلى فى النهاية وقد تم الفصل بين النسقين لغرض التحليل فحسب كما قلنا من قبل ، إذ أن كلاهما معتمد على الآخر وكلاهما لايمكن تعريفه فى حد ذاته بل يعرف بالنسبة للآخر .

٧) يرفض هومانز النموذج البيولوجى البنائى الوظيفى فهو يرى أن فكرة استمرار النسق فكرة هزيلة إذا لم تعاد صياغتها على أساس التوازن .

وتكمن نقاط الضعف فى نموذج هومانز فى اعتماده على النموذج الميكانيكى ، فهو يرى أن التوازن حالة يمكننا دراستها عن طريق دراسة النتائج المترتبة على

وجودها ـ أى أن تعريفه للتوازن تعريف إجرائى لايزودنا بمعيار مستقل عن تلك النتائج الامبيريقية المشاهدة .

وينبغى أن نلاحظ أن النسق الاجتماعى عند هومانز نسق مفتوح وقد وضح ذلك إبان عرضه للنسق الخارجى والنسق الداخلى .

وقد خرج هومانز من تحليله بنتيجتين هامتين:

١) أن الطبيعة العضوية المجتمع أوسع نطـــاقاً من المفهوم الذى يستخدمه الأنثربولوجيون الوظيفيون كما أن مفهوم النسق الاجتماعى يتعدى حدود مفهوم نموذج التوازن الميكانيكى، حيث أن النسق الميكانيكى لايخلق علاقات جديدة أكثر تعقيدا كما هو الحال بالنسبة للنسق الاجتماعى .

٢) انتهى هومانز إلى فكرة (التوازن الفعلى) وذلك لتفادى اللجوء إلى أية حجة غيبية ، فالتوازن عنده ليس غاية النسق ، ولا هو ضرورة يحققها النسق حتما ، وإنما هو حالة تتحقق لبعض الأنساق ، ويمكننا ملاحظتها ملاحظة علميـة والرجوع اليها لتفسير سائر سمات السلوك الاجتماعى .

وبذلك يكون هومانز قد ابتعد عن كل من نموذجى التوازن الكلاسيكى والعضوى الوظيفى (١) .

المحاولة الثالثة :

تستهدف هذه المحاولة تصنيف النظريات السوسيولوجية فى ضوء تفسيراتها لفكرة « النظام الإجتماعى » ، جوهر الدراسة فى علم الاجتماع. ويتضمن مصطلح النظام الاجتماعى عدة معان :

---

(١) Buckley, Op. cit, p. 31.

الأول ، يشير إلى وجود القيود والمحرمات الموضوعة لمقاومة الاعتداء أو وجود الضبط الذى يمارس عند حدوث العنف فى الحياة الإجتماعية . بينما يشير المعنى الثانى إلى وجود التعاون المتبادل فى الحياة الإجتماعية ، ويؤكد المعنى الثالث عامل التنبؤ فى الحياة الاجتماعية حيث لا يستطيع الناس أن يسلكوا بطريقة إجتماعية ألا إذا عرفوا ما يتوقعـــه كل من الآخر . ويتضمن المعنيان الرابع والخامس مسألة الاتساق والاستمرار . ويجب أن يكون فى الذهن أن تصنيف هذه المعانى بهذه الصورة لا يعنى أكثر من توضيح معالم أو متضمنات النظام الإجتماعى، لأنها جميعاً مرتبطة من الناحيتين المنطقية والامبيريقية (١) .

١ - نظرية القهر :

تفسر هذه النظرية وجود النظام الإجتماعى بالرجوع إلى فكرة إستخدام القهر بصوره المختلفة، الفيزيقى ، أو الرمزى أو الخلقى . وطبقا لهذه النظرية يوجد القهر فى المجتمع نتيجة للقوة التى تتحقق عند بعض الناس الذين يستخدمونها فى اخضاع الآخرين لارادتهم ، فالناس يفعلون ما هو متوقع منهم لأنهم مضطرون إلى ذلك ، أما إذا أمتنعوا عن القيام بمـــا هو متوقع منهم ، فسوف يواجهون التهديد بإستخدام بعض صور العقاب الفيزيقى ، أو الحرمان من الملكية أو الموارد أو الحقوق . وتحاول هذه النظرية أن تفسر مختلف جوانب النظام الاجتماعى ، فالناس يكبحون دوافعهم ويمتثلون المعايير لأنهم يخافون النتائج التى يمكن أن تترتب على أخلالهم بذلك . إنهم يقومون بالتزاماتهم ويتوقعون من الآخرين نفس الشىء ، لأن الاخفاق فى ذلك سوف يواجه بالعقاب من جانب السلطة (٢).

---

(١) Cohen, Modern Social Theory London, 1969, p. 18.

(٢) Ibid. p. 21.

وتستطيع هذه النظرية أيضا تفسير مظاهر التفكك والصراع والتغير ، ففى جميع المجتمعات يوجد على الأقل ، نوعان من الصراع . فهناك أولا صراع بين الناس حول مراكز القوة : لأنه طالما أن النظام لا يقوم على شيء غير القهر ، فإن أى مظهر يدل على الضعف من جانب هؤلاء الذين يشغلون تلك المراكز سوف يؤدى إلى صراع حولها ينشأ بين المقربين من مركز القوة . ويحدث ذلك فى الغالب عندما تكون السلطة ضعيفة ، أو ترزح تحت ضغط معين . وهناك ثانياً صراع بين هؤلاء الذين يمتلكون القوة ، وبين أولئك الذين حرموا منها : فحينما يمارس القهر ، نجد أنه يخلق بعض الحدود التى تؤدى بالتالى إلى رد فعل ضده . وغالبا ما ينجح رد الفعل إذا صاحبته صراعات داخل الجماعة الحاكمة . وفى مثل تلك الظروف يمكن أن يحدث التغير الاجتماعى .

وإذا كانت هذه النظرية تسلم بأن القهر يعتبر شرطاً ضرورياً للنظام الاجتماعى ، إلا أن ذلك قد لايتحقق فى كل الظروف ، خاصة فى المجتمعات التى يوجد بها نظام لا يرتكز على سلطة مركزية واحدة تستطيع أن تقهر الأعضاء ، مثل المجتمعات القبلية التى أطلق عليها اسم « مجتمعات بلا دولة » أو مجتمعات لا تؤلف دولة ، ففى مثل هذه المجتمعات هناك مراكز للسلطة داخل الجماعة الأسرية أو العائلة ، وداخل المجتمع المحلى الأقسام القرابية ، ولكن نادراً ما تكون هناك سلطة بالنسبة للمجتمع ككل . أما تدعيم النظام بين الأعضاء الذين ينتمون إلى أقسام مختلفة فيعتمد على عدد من الشروط ، أولها : أن هناك إستخداما كامناً للعنف وذلك للعمل على وقف النزاع بين أعضاء البدنات أو العشائر المختلفة . والشرط الثانى وجود روابط من أنواع مختلفة وخصوصاً روابط الزواج ، والقرابة بين الأقسام المختلفة ، فإذا تزوج الرجال من خارج بدناتهم وعشائرهم ، فإن ذلك من شأنه أن تخلق

روابط وطيده بينهم وبين أصهــــارهم . والشرط الثالث ، وجود بعض وسطاء ، قد تكون لديهم مكانة شعائرية ، يتوسطون بين الأطراف المتصارعة . بالاضافة إلى وجود جزاءات أخلاقيـة متعددة تضع الحـدود أمام إستخدام العنف (١) .

إن هــذه الوقائع الاثنوجرافية تجعلنـا نرفض ذلك الأدعاء الذى يعتبر وجود القهر شرطاً ضرورياً للنظــام الاجتماعى . ومع ذلك فقـد نوافق على أن القهر يعتبر ضرورياً ، لـكنه من العسير أن نسلم بأنه كاف أيضـا لوجود النظام الاجتماعى . وان ممارسة القوة الظاهرة يمـكن أن يحقق درجـة معينة من النظام الاجتماعى فى المدى القصير ، أما فى المــدى الطويل فقد تعمل على أثارة التعارض أو إستخدام العنف وذلك بالأبقاء عليها أو التخلص منها . وهناك شك أيضـا حول ما إذا كان مثل هـذا القهر كافيـاً لتحقيق النظـام الاجتماعى حتى فى المدى القصير .

وإذا كان القهر ضرورياً ، ولو أنه غير كـاف ، لتدعيم النظـام الاجتماعى فإنه يبدو أن أى ضعف تعانى منه القوة القهرية ، يعتبر شرطاً كافياً لحدوث التفكك الاجتماعى أو التغير الاجتماعى . ومن الصعب أن نختبر ذلك اختبـاراً أمبيريقياً طالما أننا لا نجد مجتمعاً يختفى فيه القهر اختفاءاً كلياً .

٢ – نظرية المصلحة

هناك صورتان رئيسيتان متعارضتان فى نظرية المصلحة ، الأولى تفسر النظام الاجتماعى على أنه نتيجة للتعاقـد بين الناس لتحقيق مصالحم ، وتقرر هــــذه

---

(٢) Ibid, p. 24.

الصورة أن الناس لا يستطيعون انجاز أهدافهم بدون التعاون أو ، على الأقل ، بدون قابليتهم للاعتماد على الآخرون، وهذا بدورة يتطلب وضع القواعد التى تحدد لكل جانب حقوقه والتزاماته، التى تمثل منفعة متبادلة ، والتى تمنع بعض الأطراف من تحقيق منافعهم على حساب الأطراف الاخرى .

وتفسر هذه النظرية ظهور التفكك والتغير فى ضوء عدم كفاية القواعد الموجودة ، فيسود الصراع ، لفترة معينة ، نتيجة للحاجة الى قواعد جديدة .

وهناك وجهان للنقص فى ذلك النموذج من النظرية : الأول ، هو أنها تفسر النظام الاجتماعى إلى حد كبير على أساس مقاصد الناس ، ومن الواضح أن نظما اجتماعية متعددة توجد دون أن تكون هناك مقاصد لها . والثانى ، أنها فشلت فى تفسير كيف أن تلك المقاصد تستطيع أن تظهر أو أن تؤثر فى النظام الاجتماعى قبل وجود أى تعاقد بين الناس حولها . والواقع أن هذين الاعتراضين مترابطان تماماً . أذ من العسير أن ندرك كيف يطور الناس أفكارهم التى تعبر عن مقاصدهم الاجتماعية دون أن يكون لديهم مبادىء الحياة الاجتماعية الأساسية وخصوصاً اللغة (١) .

أما الصورة الثانية فى نظرية « المصلحة » فهى أكثر تعقيداً من الأولى حيث تذهب إلى أن النظام الاجتماعى نتاج غير مقصود لأفعال عدد كبير من الناس الذين يتصرفون طبقاً لمصالحهم بطريقة منفصلة أو مستقلة . ذلك لأن الناس لا يكتشفون هذا النظام فى مصالحهم الجمعية ثم يدعونه ، بل أنهم يدعمون النظام بطريقة غير مقصودة . ثم يكتشفون بعد ذلك أنه يحقق

---

(١) Ibid , p. 25 .

مصالحهم. فكل انسان يحاول تحقيق مصالحه الخاصة ويوجه ذاته من أجل ذلك فى طريق ملائم ، وفى قيامه بهذا الفعل ، يجد أن ذلك يؤدى به إلى نوع من الاحتكاك بالآخرين ، ونوع من التوافق مع سلوكهم ، ومن ثم فإنه يأخذ هذا السلوك فى اعتباره . وقد يؤدى ذلك فى بداية الأمر إلى تصادمات ، لكن كل فرد سوف يجد أن مصالحه يمكن أن تتحقق بطريقة أفضل - فى المدى الطويل - باستبعاد تلك التصادمات، وبتدعيم التعاون المتبادل ، مما يترتب عليه إقامة توقعات سلوكية متبادلة ، وتعديل متدرج لها لتحقيق التوازن .

وبالرغم من أوجه النقص التى توجد فى هذه النظرية ، إلا أنها تمثل أحدى الاسهامات الكبرى فى تطوير النظرية السوسيولوجية . لأنهـا تدرك الظواهر الاجتماعية فى ضوء العمليات العلية المستقلة - إلى حد ما - عن الارادة الانسانية. وعموماً ، فإن هذه النظرية لم تستطع أن تفسر نشأة المصالح ، فقد ذهب كل من دوركايم وبارسونز إلى أن هذه المصالح تتحدد - إلى حد ما - عن طريق المجتمع نفسه ، أى أن وجودها يفترض مسبقاً وجود النظام الاجتماعى . أما الاعتراض الثانى على هذه النظرية ، فيمتثل فى أنها تدعى أن الناس يتوافقون سلوكيا بعضهم مع بعض بحرية كاملة ، وأن اختيارهم تحكمه اعتبارات تلقائية خالصة ، ولهذا فإن الدور الذى تنسبه هذه النظرية للقوة ، فيه كثير من المبالغة ، طالما أنه يتجاهل الرغبات الخاصة .

وهكذا تكون عملية توافق المصالح ليست، على الأطلاق، كافية لأقامة وتدعيم النظام الاجتماعى ولكنها مع ذلك ضرورية (١) .

---

(١) Ibid, pp. 26 – 27.

٣ ـ نظرية الاتفاق القيمي :

تقرر النظرية الثالثة أن النظام يقوم على وجود حد أدنى من الاتفاق حول بعض القيم التي قد تكون اخلاقية أو فنية أو جمالية . أما الادعاء الذى تتضمنه تلك النظرية فهو انه إذا اتفق الناس على نفس القيم ، فإنهم يشكلون وحدة مشتركة ضد الآخرين ، فيوافقون على أهداف مشتركة ، فضلا عن الوسائل والأساليب المستخدمة لتحقيقها . أما اختيار الفرد لسلوك معين ، فانه يكون محكوماً بتلك المستويات المشتركة ، وبالاشباع السيكولوجي الذى يحققه مثل هذا الاختيار . إن الاتفاق حول القيم يمكن الناس من تحديد الوسائل التي تعدل من المصالح المتصارعة أو تعمل على توافقها ، وكذلك تحويل العنف القهرى الى سلطة مشروعة (١).

إلا أن هذه النظرية تفسر التفكك والتغير على أساس أن الناس لا يوافقون موافقة مطلقة على المستويات المشتركة ، مما يؤدى الى ظهور الانحرافات والصراعات .

إن هذه النظرية ليست جديدة ، حيث أشار اليها أوجست كومت ، والى حد ما أميل دوركايم الذى كان يعترف كذلك بضعفها كنظرية عامة . فقد ذهب كومت الى أن الانحلال الذى يوجد فى المجتمع ينتج عن ضعف الاتفاق حول الأفكار والمبادىء الأساسية المتعلقة بالنموذج المرغوب للحياة الاجتماعية وأنسب الوسائل القادرة على تحقيقه . كما ذهب الى أن الاتفاق يقل عن طريق نمو تقسيم العمل الذى يؤدى الى التمايز والصراع الطائفى .

---

(١) Durkheim, The Division of Labor in Society, (Trans.by George Simpson), free Press, Gelneoé, 1447, esp. pp 64 – 71.

أما دور كايم فقد رفض جوهر إدعاء كومت ، وذهب إلى أن النسق الموحد الذى يتألف من الأفكار والأخلاقيات لا يكون ممكناً إلا فى مجتمع بسيط نسبياً وغير متمايز . واعترف بأن تقسيم العمل يؤدى الى تمايزات وصراعات ، ولكنه قدم تصوراً جديداً للاعتماد المتبادل . ففى المجتمعات المتمايزة إلى حد كبير لا يمكن أن يكون هناك اتفاق قائم على قواعد أخلاقية مفصلة ، على أنه من الممكن أن يكون هناك اتفاق على بعض القيم الأخلاقية التى تحدد قواعد السلوك المرعيـــة .

وإذا كانت هذه النظرية تقرر أن الاتفاق يعتبر شرطاً كافياً لخلق وتدعيم النظام الاجتماعى فانها تكون أكثر ضعفاً من النظريات السابقـة . فمن الملاحظ أولا أنها فشلت فى تفسير ، كيف يمكن التوصل إلى الاتفاق دون وجود النظام الاجتماعى ، وثانياً أنها غير قادرة على تفسير استمرار النظام ، فقد يكون هنـاك اتفاق بين أعضاء المجتمع الحديث على الرغبة فى مستويات معيشية أرقى ، ولـكن هـذا من شأنه أن يؤدى إلى اثارة الصراع . أما إذا قررت النظرية أن وجـود درجة معينة من الاتفاق على القيم المشتركة يعتبر شرطاً ضرورياً للنظام الاجتماعى فانها تكون أكثر ملاءمة .

٤ ـ نظرية القصور الذاتى :

أما النموذج الرابع والأخير من نظريات النظام الاجتماعى فيختلف عن النماذج السابقة فى أنه يبحث عن تفسير مظهر واحد أو جانب واحد من النظام الاجتماعى ، وأقصد به عامل الاستمرار أو البقاء فى الحياة الاجتماعية . وهو يختلف عن النظريات السابقة أيضاً فى أنها لا تشير إلى عامل واحد أو إلى عملية بالذات ، بل إنه يشير الى أى عدد محتمل من هذه العوامل . وتؤكد هذه النظرية باختصار أنه إذا وجد

النظام الاجتماعى توجد معه شروط استمراره ودوامه خلال الزمن . والواقع أن هذه النظرية تؤكد نقطه مؤداها أن بعض العمليات العلية فى الظواهر الاجتماعية غالبا ما تكون دائرية ، بحيث يتدعم النظام الاجتماعى بصفة مستمرة خلال مراحل محددة ، يقاوم فيها التغير الذى قد يهدد توازنه ويسعى إلى تأكيد شروط بقائه(١)

وهكذا نستطيع أن نخلص من هذا العرض السابق لنظريات النظام لاجتماعى الى نتيجة هامة هى أن هذه النظريات وإن كانت قد حاولت فعلا أن تكشف عن العوامل المؤدية الى استمرار النظام الاجتماعى وتفككه أو تغيره ، إلا انها لم تستطع أن تتبع أصول هذا النظام والظروف المؤدية الى وجوده وبالتالى قدمت كل منها شرطاً ضرورياً ولكنه غير كاف لتفسير النظام الاجتماعى .

ثالثا : إتجاهان أساسيان
(الوظيفية والفعل)

هناك اتجاهان أساسيان يسيطران الآن على نظرية علم الاجتماع هما ، المدخل الوظيفى أو الكلى ، ومدخل الفعل ، وقد أشرنا إلى هذين الاتجاهين خلال عرضنا السابق لتصنيفات النظرية ، إلا أن الاهمية المتزايدة لهما وسيطرتهما ، نسبيا على كافة التحليلات النظرية فى علم الاجتماع الحديث ، تجعلنا نخصص لها قسماً مستقلا .

ويمكن إرجاع الإتجاه الوظيفى فى دراسة الظواهر الاجتماعية إلى مفكرى اليونان القدامى ، غير أن بعض المؤرخين يرجعون أصول المذهب الوظيفى الحديث إلى مونتسكيو Montesquieu . ولكن الأفضل أن نرجع جذوره

(١) Cohen, Op. cit, p. 31.

الى كومت Comte ، الذى أشار الى مبدأ تساند الظواهر الاجتماعية ، ويندرج تحت ذلك قوله بأن « جميع النظم الاجتماعية ، والمعتقدات ، والأخلاقيات التى توجد فى مجتمع معين ، ترتبط ارتباطاً متبادلا فيما بينها ، ولذلك فإنه ينبغى اذا أردنا تفسير إحداها ، أن نكتشف أولا ذلك القانون الذى يحدد كيفية ارتباط هذه الظاهرة بجميع الظواهر الأخرى » . هذا ، وعلى الرغم من الانتقادات التى وجهت الى كومت فى هذه النقطة بالذات ، الا أنه لايمكن انكار أثره فى تطوير المدخل الكلى فى دراسة الظواهر الاجتماعية .

وقد أضاف « سبنسر Spencer » شيئاً جديدا الى المفهوم الوظيفى المجتمع ، حينما عقد مماثلة وظيفية بين العمليات التى توجد فى الكائنات العضوية ، وتلك التى يتضمنها المجتمع ، يضاف الى ذلك أنه عمل على تكوين نوع من التصنيف التطورى المجتمعات ، يشبه تصنيف الكائنات العضوية من حيث تفاوت درجات كل منها فى التعقيد البنائى ، الذى يمكن أن يقاس فى ضوء عدد نماذج العناصر المختلفة التى تكون منها البناء ، فعندما يتكون البناء من عدد من العناصر المتشابهة أو المترابطة ، فإن كل عنصر منها يميل الى الاكتفاء الذاتى . ولكن عندما يتألف من عناصر غير متشابهة ، أى حينما يكون البناء متمايزاً من الناحية الداخلية ، ـ تكون هناك درجة أكبر من الاعتماد المتبادل بين الأجزاء . ومن ثم ، كلما زادت درجة التمايز بين مكونات البناء ، زادت درجة تكامل البناء ككل .

وهناك كثير من دعاوى الوظيفية ، يمكن ارجاعها الى « دوركايم Durkheim » أكثر منها الى سبنسر . ومع ذلك فان دوركايم يشبه « سبنسر » ، فى كتاباته الأولى التى تأثر فيها بالاتجاهات العضوية .

لم يستخدم دوركايم مصطلح « الوظيفية » ، والحقيقة أنه كان متوقعا لكثير من الاتجاهات الحديثة التى توجه اليها ، وبالرغم من ذلك فقد عاون على أن يكون هذا المذهب مفيداً ومثمراً بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا ، وعلماء الاجتماع بوجه عام . وقد ميز فى كتابه عن « تقسيم العمل الاجتماعى » بين وظيفة تقسيم العمل وسببه الفعال ، فالوظيفة تتمثل فى تكامل أو إعادة تكامل المجتمع ، أما السبب فيرجع إلى تزايد « المسافة الأخلاقية » الناتجة عن الضغط السكانى . ويتلخص رأى دوركايم فيما يلى :

« عندما يكون هناك ضغط سكانى متزايد ، وتفاعل اجتماعى متزايد أيضا ، يحدث تصدع فى ضوابط المجتمع « الإنقسامى » البسيط وزيادة فى المنافسة ، بما يهدد النظام الإجتماعى . ولكنه يمكن التقليل من حدة هذه المنافسة ، أو التحكم فيها عن طريق إدخال المهام المتخصصة ، التى تجعل الناس أكثر إعتمادا على بعضهم البعض ، وأكثر قدرة على تقبل الإلتزامات المتبادلة » .

ولكن دوركايم لم يفسر كيفية لجوء الناس إلى هذا الحل ، الذى تبنوه لمشكلة المسافة المتزايدة ، فلم يذهب إلى أنهم فعلوا ذلك بطريقة شعورية ، كما لم يقرر صراحة أنهم تبنوا هذا الحل بصورة لاشعورية .

وعلى أى حال ، فإن المذهب الذى عرف فى تاريخ العلم الاجتماعى بإسم الوظيفية ينسب حديثا إلى كتابات مالينوفسكى ، وإن كان تأثير مالينوفسكى أقل أهمية فى بعض الجوانب من تأثير « راد كليف براون » الذى وصف نفسه بأنه « عالم وظيفى » ، ووضع مجموعة أفكار تصلح كأساس للاتجاه الوظيفى وهناك رأى شائع ، مؤداه أن الموقف الذى تبناه كل من مالينوفسكى ، ورادكليف براون كان موجها ضد مذهبين سيطرا على الفكر الأنثروبولوجى فى القرن التاسع عشر

وبداية القرن العشرين : وهما المذهبين ، التطورى ، والإنتشارى . والواقع أن كلا من مالينوفسكى وراد كليف براون لم يرفضا وجهة النظر القائلة : بأن المجتمعات الإنسانية ، قد تطورت من البسيط إلى المركب ، ولم يرفضا كذلك أن المجتمعات تمر من مرحلة إلى أخرى . وكل ما فعلاه ، هو انتقادهما لعدد من الدعاوى التطورية التى كان لها أثر فى دراسة المجتمعات البدائية والريفية المعاصرة. وتتلخص هذه الدعاوى فيما يلى :

أن المجتمعات البدائية الموجودة ، تمثل المراحل الأولى من التطور الاجتماعى الانسانى ، وأنه يمكن وضع هذه المجتمعات ذاتها على مقياس تطورى يشتمل على بعض المقاييس المحددة ، كما أن تاريخ تطور المجتمع ، أو المجتمعات المتجاورة يمكن أن يعاد بناؤه فى ضوء وجود بعض الخصائص التى ترجع إلى الماضى ، تلك التى إذا لم تتلاءم مع مرحلة معينة من مراحل التطور ، أمكن تفسيرها باعتبارها « رواسب » تخلفت عن الماضى .

والواقع أن موقف هذين « المؤسسين » للاتجاه الوظيفى ، من الانتشاريين ، يشبه موقفهما من التطوريين ، وذلك عندما رفضا تلك الفروض المتطرفة التى وضعها بعض الانتشاريين الذين حاولوا إرجاع وجود بعض النظم والسمات الثقافية التى توجد فى مجتمعات مختلفة ، إلى الأصول المشتركة . وهذا بالاضافة إلى أن كليهما قد رفض الدعاوى النظرية للانتشاريين .

وهناك مذهب ثالث كان له أنصار كثيرون قبل الوظيفية وبعدها ، يمكن أن يسمى « بالاتجاه الشمولى السيكولوجى ، الذى يرتبط بالتطورية . ويرجع هذا الاتجاه إلى « سير جيمس فريزر » ، الذى حاول أن يكشف باستمرار أن هناك عوامل دائمة تتعلق بالكيان العقلى والعاطفى للناس ، تؤدى إلى ظهور

بعض الظواهر الثقافية الشاملة. وقد كان رفض كل من «مالينوفسكى» وراد كليف براون، لهذا الموقف أعنف بكثير من رفضها للاتجاهين السابقين (التطورى والانتشارى).

وقد تمثلت الفكرة الأساسية عند مالينوفسكى فى أنه إذا أراد الباحث أن يفهم موضوعا ثقافيا معينا، يجب عليه أن يرجع إلى بعض المبادىء العامة للسلوك الانسانى، وبعض العناصر الأخرى فى نفس المجتمع، التى تشكل مع الظاهرة المدروسة سياقا واحداً وفى هذه النقطة بالذات. كانت لمالينوفسكى إسهامات كبرى: فقد أدخل منهجاً للبحث الاثنولوجى، وطور أفكاراً معينة لتفسير الظواهر الاجتماعية، وأخيراً رفض التصورات القبلية عن الإنسان البدائى، بوصفه كائنا غير عقلانى، وتوجهه العادة الجمعية.

لقد كان أثر مالينوفسكى فى تطوير الدراسات الحقلية الانثروبولوجية، ملحوظا إلى حد كبير. ولكن التصورات النظرية التى قادت الانثروبولوجيين الإجتماعيين أخيراً، ترجع إلى راد كليف براون.

أما «راد كليف براون» فهو يشبه مالينوفسكى فى رفضه لكل من الاتجاهين التطورى، والانتشارى، وحاول دراسة وتحليل المجتمعات فى ضوء وجودها الحالى. ولكنه رفض أى محاولة لربط الموضوعات الثقافية بالحاجات الفردية، سواء كانت بيولوجية أو سيكولوجية، ولم يحاول أيضا أن يشتق هذه الحاجات من الموضوعات الثقافية. وكان يشبه دور كايم فى إدعائه أن طبيعة الظواهر الاجتماعية والثقافية، يمكن أن تفسر فى ضوء مصطلحات إجتماعية.

وقد بدأ راد كليف براون من مجموعة قضايا، حدد على أساسها اتجاهه الوظيفى، فإذا كان لا بد للمجتمع من أن يستمر، يجب أن يوجد فيه حد أدنى من التماسك

بين أعضائه . وتكمن وظيفةالظواهر الإجتماعية فى خلق هذا التماسك ،أوفى تدعيمه. ولذلك ، فإنه يجب أن يكون هناك حد أدنى من الإتساق فى العلاقـة بين أجزاء النسق الإجتماعى،ويكشف كل مجتمع ، أو أى نموذج من نماذج المجتمعات ، عن وجود بعض الخصائص البنائية الأساسية، والمارسات المختلفة التى تسهم فى تدعيمه.

وعموماً فقد عالج « رادكليف براون » البناء الاجتماعى ومتطلباته ، بوصفها أشياء أساسية وضرورية ، بنفس الطريقة التى عالج بهـا مالينوفسكى الحـاجات بوصفها أساسية ولا غنى عنها . ومعنى ذلك إذن أنه كان يميل إلى تفسير الأفكار والممارسات ، فى ضوء البناء الاجتماعى . ولهـــذا السبب كان رادكليف براون وتلاميـذه يشيرون إلى أنفسهم بوصفهم « بنائيين Sturcturalists » أكثر منهـم « وظيفيين Functionalists » .

وهكذا ، قام رادكليف براون بتحليـل ، وتفسير عـدد كبير من الظواهر ، بطريقة تختلف إختلافا تاما عن أتباعه من الأنثروبولوجيين، حيث أهتم بالكشف عن أن هذه الممارسات لا تمثل نتائج بعض الشروط البنائية فحسب ، بل إنها تسهم أيضا فى تدعيم هذه الشروط ، وفى تماسك الجماعة الإجتماعية ككل (١) .

وهنا يظهر سؤال هام مؤداه : لماذا قام هـــذان الباحثان بصياغة مذهبين مختلفين تماماً ؟

وربما يرجع السبب الأول ، إلى أن المجتمعـــات غير المتمدينة ، تفتقر إلى سجـلات مكتوبة عن حياتها الماضية . يضاف إلى ذلك أن الناس فى المجتمعـات البدائية ، ليس لديهم وعى تاريخى . إنهم يشعرون بالماضى ، ولـكنهم يربطونه

---

(١) Radcliffe – Brown, on The Concept of Function in Social Science, in Structure and Function in Primitive Societies, London, 1952.

ببعض الأحداث الخاصة . ويمثل هذا الإفتقار إلى الوعى بالتاريخ ، مظهراً للثبات النسبى فى الأنساق الإجتماعية البسيطة ، والواقع أن تجربة الدراسة الميدانية ذاتها تمثل أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى صياغة المذهب الوظيفى ، وقد أمد هذا المذهب الوظيفيين بمنهج لتنظيم ملاحظاتهم ، وأوضح أيضاً أمامهم عدداً من المشكلات التى توجه أبحاثهم ، والتى كانت قائمة على النظرية والمنهج .

وهناك بعض الإسهامات الحديثة فى النظرية الوظيفية فى أمريكا قدمها بارسونز وآخرون ، وقد تمركزت إحدى المهام الرئيسية لعلم الإجتماع عند بارسونز حول تحليل المجتمع كنسق من المتغيرات المترابطة وظيفيا ، وذلك من خلال تحقيق التكامل بين بعض أفكار مالينوفسكى ، وباريتو ، ودوركايم ، أى أنه عالج حاجات الشخصية بوصفها متغيرات فى النسق الإجتماعى . وظهر ذلك بوجه خاص فى تحليله لوظيفة القواعد المهنية . وخصوصاً قواعد الآداب . ولذلك إهتم بارسونز بصياغة نظرية فى التحليل الوظيفى لكل نسق إجتماعى ، وأوضح مجموعة المتطلبات الوظيفية ، فى جميع الأنساق الاجتماعية .

تلك نظرة سريعة على الاتجاه الوظيفى ، يبقى بعدها أن نشير إلى أهم الانتقادات التى وجهت إلى الوظيفية ، وهى إنتقادات كثيرة ظهرت خلال العشر سنوات الأخيرة . والواقع أن معظمها كان خارجا عن الموضوع ، وفى كل حالة كان النقد يفشل فى الإعتراف بمميزات المدخل الوظيفى . وعلى أى حال فهناك عدد منها ذكر أن الوظيفية قد أسهم الى حد كبير فى نمو النظرية الاجتماعية . ويمكن تقسيم هذه الانتقادات الى ثلاثة أنواع ، الانتقادات : المنطقية ، والواقعية ، والايديولوجية .

وتتمثل الدعاوى المنطقية الأساسية ضد الوظيفية فى : أنها تشجع التفسير الغائى ، وتقترح فروضا غير قابلة للاختبار ، وتطالب بمستوى فى البحث العلمى لا يوجد فى علم الاجتماع ، وأخيرا تحول دون المقارنة . أما من الناحيه الواقعية

فإن الوظيفية تبالغ فى تأكيد العنصر المعيارى فى الحياة الاجتماعية ، وتقلل من أهمية الصراع الاجتماعى على حساب تأكيدها التماسك الاجتماعى ؛ وتركز على الطبيعة المنسجمة للانساق الاجتماعية ، وأخيراً ، تفشل فى أن تأخذ فى اعتبارها التغير الاجتماعى ، وتعالجه بوصفه حالة شاذة . ويتمثل النقد الايديولوجى الأساسى ، فى أن الوظيفية تشجع التعصب للاتجاه المحافظ ، أو أنها تعكس هذا التعصب . أما الإدعاء الذى يكمن وراء ذلك ، فهو أن الوظيفية ، عن طريق تأكيدها للعلاقات المنسجمة بين أجزء النسق الاجتماعى المختلفة ، تميل الى معالجة كل نسق كما لو كان فى حالة أفضل من جميع الحالات الأخرى الممكنة . وينطبق ذلك بوجه خاص على النظرية الوظيفية فى التدرج الطبقى الاجتماعى ، التى وصفها كل من دافيز ، ومور ، والى حد ما بارسونز ، والتى كانت مشتقة من دور كايم (١)

أما إذا انتقلنا إلى عرض مدخل الفعل ، فسنجد أن نظرية الفعل تعتمد على قضايا تصف نموذج التحليل الذى يستهدف تفسير الفعل أو السلوك الذى يقوم به الأفراد المتشابهون فى مواقف متشابهة . ويطلق عليهم « الفاعلون الاجتماعيون » . وتسلم هذه النظرية بأنه توجد لدى الفاعل أهداف أو أغراض أو غايات يمارس أفعاله على أساسها ، وغالبا ما يتضمن الفعل انتقاء الوسائل التى تحقق الأهداف ، ولكن حتى إذا بدأ الفعل وكأنه يخلو من هذا الانتقاء ، فإنه من الممكن بالنسبة الملاحظ أن يميز بطريقة تحليلية بين الوسائل والأهداف . وتكون لدى الفاعل دائماً أهداف متعددة ، ولذلك فإن أفعاله التى تتم طبقا لأى هدف منها

---

(١) Kingsley Davis, 'the Myth of Functional Analysis as a Speial Method in Sociology and Social Anthropology, American Sociological Review, 24, 1959, 757 – 75.

تؤثر وتتأثر بأفعاله التى تتم طبقا للاهداف الأخرى. أما تحقيق الأهداف وانتقاء الوسائل فإنه يتم من خلال مواقف تؤثر فى مجال الفعل برمته . وكثيراً ما يضع الفاعل بعض الدعاوى التى تتعلق بطبيعة أهدافه وبإمكانية تحقيقها، ولا يتأثر الفعل فقط بالموقف ، بل وبمعرفة الفاعل لهذا الموقف أيضا ، حيث توجد لدى الفاعل بعض الأفكار أو نماذج المعرفة التى تؤثر فى إدراكه الانتقائى للمواقف ، كما تتحقق عنده أيضا بعض المشاعر أو الانطباعات الإيجابية التى تؤثر فى إدراكه للمواقف وإختياره للاهداف ، فضلا عن المعايير والقيم التى تحكم إختياره للاهداف وتنظيمه لها فى مخطط محدد للاولويات (١) .

على أن القول بأن جميع الافعال الانسانية موجهة لتحقيق أهداف ، يبدو أنه واضح وغير قابل للنقاش ، الا أن هناك بعض نماذج من الافعال تبدو أنها خالية من الهدف ، فقد يمكن القول بأن تدخين سيجارة هو فعل بلا أى هدف معين ، ولكن يمكن المرء أن يدعى أن مثل هذا الفعل يظهر فقط على أنه كذلك ، بينما يستهدف الشخص الذى يدخن السيجارة التغلب على القلق ، والاستعداد لعمل معين . وإذن فمن الممكن معالجة الأهداف بوصفها نوعية ، وقابلة للاعتراف الشعورى إن لم يكن معترفا بها ظاهريا .

أما القول بأن الفعل يتضمن إستخدام وسائل لتحقيق أهداف معينة فمعناه أن كلا من الوسائل والأهداف تتمايز من الناحيتين الأمبريقية والتحليلية . وعندما تكون الوسائل والأهداف عبارة عن أشياء أو حالات مترابطة من الناحية الملموسة ، فإنه يمكن التمييز بينها بسهولة ، ولكن عندما تعبر عن عدة أحداث معقدة ، فإن التمييز بينها لا يمكن أن يحدث إلا عن طريق جهد تحليلى . وعموما

(١) See L. Von Mises, Human Action, Chicego, 1966.

فإن الباحث السوسيولوجى عليه أن يعنى عناية خاصة بالتفرقة بين الوسائل والأهداف . ومن الضرورى كذلك معرفة العلاقة بين الاهداف ذاتها . لانه حينما ينظر الاشخاص إلى بعض الأهداف كاحترام الذات بوصفها مطلقة ، فان كل الأهداف الأخرى تعتبر بمثابة وسائل لهذا الهدف . بينما تكون هناك أهداف أخرى ، كالحصول على الثروة ، تعتبر ذات أهمية استراتيجية لتحقيق عدد آخر من الأهداف ، ومعنى ذلك أن أعتبار بعض الاهداف أكثر أهمية من أهداف أخرى يمكن أن ينجم عنه وجود بناء ثابت نسبيا من العلاقة بين الأهداف المختلفة .

وهناك ثلاثة أسباب تفسر أولوية الاهداف على بعضها الآخر ، الاول : أن بعض الأهداف تكون لها قيمة أعلى من قيمة أهداف أخرى ، والثانى أن تحقيق بعض الاهداف يعتبر وسيلة هامة لتحقيق أهداف غيرها ، أما الثالث . فهو يكمن فى أن متابعة بعض الأهداف قد لا يكون ميسرا فى بعض الظروف ، أو أن ثمن تحقيقها قد يكون مرتفعا لدرجة أنه يعطى أولوية لأهداف أخرى بديلة وأقل ثمنا .

أما فيما يتعلق بتفسير الفعل ، فإن ذلك يعنى وضع الفاعل فى موقف معين ، أو نموذج معين من المواقف . فالأفعال النمطية هى تلك التى تحدث عندما تكون شروط الموقف بمثابة وقائع للعلاقات الإجتماعية والثقافية ، والى حد ما ، يعبر الناس عن أهدافهم فى مواقفهم ؛ ولكن غالبا ، ما تخلق المواقف أهدافا جديدة . وهناك جانب هام من جوانب الموقف ، يتمثل فى قابلية الوسائل لتحقيق أهداف معينة . يضاف الى ذلك ، أن أفعال الناس ليست محكومة عن طريق ظروف المواقف ، التى تعتبر خارجة عنهم ، ولكنها محكومة كذلك بواسطة الأسلوب الشخصى الذى تعتبر هذه المواقف جزءاً منه . وتتكون العناصر الشخصية للمواقف

من أفكار الفاعل ، ومشاعره ، ومعرفته . وغالبا ما تتحدد هذه العناصر عن طريق الثقافة . ولذلك فإن الموقف يكون اجتماعيا خالصا ، عندما تتمثل عوامله الخارجية فى فاعلين اجتماعيين آخرين ، أما العوامل الداخلية أوالشخصية فهى تلك العناصر التى توجد لدى الفاعل ذاته وتتحدد عن طريق الثقافة أيضا .

واذا ادعى الفاعل أن هناك احتمالا لتحقيق هدف معين بطريقة محددة ، أو أن هناك هدفا يمكن أن يتحقق تماما ، أو اذا رأى أن بعض الأفعال سوف تؤدى الى نتائج من نوع معين ، فإنه سوف يمارس الفعل اذن فى ضوء هذه الدعاوى ، سواء كانت صحيحة أم غير ذلك ، لكن معرفة الفاعل هى التى تحكم استجابته نحو الموقف. فإذا علم قائد الجيش بأن قوات العدو أقل قدرة من قواته فإن ذلك يمكن أن يحفزه الى الهجوم . وقد تكون معرفة الفاعل صحيحة . ولكنها جزئية، أى قد تكون قوة العدو أقل ولكنها معدة بطريقة سليمة . ولنموذج معين للهجوم . وفى أى حالة من تلك الحالات ، تحدد معرفة القائد ذلك الموقف الذى يمكن أن يقوم به . وقد لا يتأثر انتقاء الفاعل للمعلومات ، وإدراكه لموقفه وسلوكه بهذه الدعاوى فحسب ، بل ببعض نماذج فكره التى قد لا يشعر بها . والواقع ان ادراك المواقف وانتقاء الأهداف مسائل تتأثر كذلك بالحاجات العاطفية أو المشاعر ، التى قد تكون بسيطة كعاطفة العداوة والحب والكراهيه والولاء او الحاجة الى الأمن ، أو تكون مكونة من عدد من العوامل المختلفة . ويمكن التعبير عن العواطف اوالمشاعر بطريقة مباشرة اوبواسطة عمليات متعددة عندما يرتبط الفاعل بالموضوع ارتباطاً عاطفيا شديداً. وتتمثل العمليات الأساسية من هذا النوع فى : التوحد والاندماج . والاعتراض أو الرفض ، والاستبعاد .

والواقع أن أختيار الفاعل للاهداف ، وترتيبه لها ، يتأثر بالمعايير والقيم ،

وتعتبر المعايير محددات خاصة لممارسات المقننة ،أما القيم فهى تعبر عن مستويات التفضيل ، والأولويات ، أو نماذج الأفعال المرغوبة ،ولكنها لا تحدد صوراً نوعية للسلوك .

ولاشك أن الدرجة التى تتأثر عندها الأفعال بالمعايير والقيم يمكن أن تتغير من نموذج للسلوك الى نموذج آخر ، ومن مجتمع لآخر . وفى كل المجتمعات تميل القيم والمعايير الى التأثير فى سلوك الناس ، عندما يكون هذا السلوك متضمنا فى أفعال الآخرين. ولكن هناك فرق كبير بين تأثير المعايير فى السلوك ، وتحديد السلوك بصفة عامة عن طريق المعايير (١) .

إن ذلك كله يعنى أنه يمكن تصنيف الأفعال فى ضوء أمكانية الاختيار ، والشروط التى تحدد هذه الأفعال.وقد نوقشت هذه المسألة فى التراث السوسيولوجى تحت اسم مشكلة العقلانية واللاعقلانية فى السلوك . ولهذا يكون من المناسب الآن أن نعرض لآراء ثلاثة من المفكرين الذين أبرزوا ، أكثر من غيرهم ، المسائل الأساسية المتعلقة بدرجة عقلانية السلوك الاجتماعى وهم ماركس،وفيبر، وباريتو.

لقد استخدم « ماركس » نموذجا مبسطا جدا لما يمكن أن يسمى التعقل كاداة . أى أنه ذهب الى أن الناس لديهم بعض الأهداف ، فإذا أتيحت لهم الفرص فانهم سوف يستخدمون أى وسائل متاحة لتحقيق تلك الأهداف . وكان يميل الى النظر « للفاعل الاجتماعى » على أنه يشبه الآله الحاسبة الحية للتكنيكات والإستراتيجيات .

---

(١) Parsons, The Structure of Social Action, 1949.

(١) Marx & Nngels, Selecped Works in two Volumes, Moscow, 1951.

ولم يرفض ماركس القول بأن الناس لديهم حاجات عاطفية وقيم ، ولكنه أعتبر توجيه التعبير العاطفى نحو أهداف اجتماعية أمر محكوم بواسطة الأعتبارات العملية لهؤلاء الذين يوجدون فى وضع يتيح لهم التاثير فى المشاعر الاجتماعية ، وأن القيم تعتبر الى حـــد كبير تعبيرات عن تلك الطبقة التى تسود مصالحها فى المجتمع (١) .

وكان مفهوم ماركس عن الفعل الإجتماعى مشتقاً من مخطط الأهــــداف والوسائل ، الذى استخدمه رجال الإقتصاد الكلاسيكون . وكل مافعله هو توسيع نموذج التحليل من الدائرة الاقتصادية إلى تحليل النسق الاجتماعى بوجه عام . إن استخدام ماركس لفكرة التعقل كأداة قد مكنه من النظر إلى خصائص كل جزء من النسق الاجتماعى ، بوصفها نتائج ضرورية لخصائص الأجزاء الرئيسية : فمنطق الأوضاع الاقتصادية يفرض بالقوة منطقاً آخر للأوضاع السياسية والقانونية . ونفس الفكرة البسيطة ، مكنت ماركس من تكوين نموذج لتطور كل نسق ، ولتحوله إلى نموذج آخر .

وقد تمثلت نقطة الانطلاق عند ماركس ، والتى انبعثت من العقلانية الوسيلية ، فى إستخـــدامه لفكرة « الوعى الزائف » ، حيث ذهب إلى أنه : بينما يكون عند هؤلاء الذين يملكون ويديرون قوى الانتاج والعمل ، إدراك عقلانى بالعلاقات بين أهدافهم المختلفة ووسائل تحقيقها ، فإن أولئك الذين يخضعون لهم ، قـــد لايكون لديهم مثل هذا الادراك . إن الطبقة المستغلة ، قد تفشل - بعض الوقت - فى أن تدرك المنطق الحقيقى لوضعها ، ولذلك فإنها تعتبر ضحية « الوعى الزائف » .

(١) Weber, the Theory of Social and Economic Oryanization, N. Y, 1947, pp. 79 – 112, 145, 56, 170 – 1.

الذى يؤدى بها إلى الموافقة على وضعها . باعتباره غير قابل للتغيير ، والموافقة على حقوق هؤلاء المسيطرين عليهم ، بوصفها حقوقا غير قابلة للمعارضة والهجوم ، وعندما يتبدد هذا « الوعى الزائف » يكون هناك اعتراف بأن بعض الأهداف قابلة للتحقيق ، وأن هناك فرصاً يمكن أن تنتهز لتحقيقها . والواقع أن تطبيق ماركس للعقلانية الوسيلية ، يعتبر مبسطا جدا ، لدرجة أنه لايمكن الموافقة عليه كأساس لكل بحث سوسيولوجى . ولكن فائدته الكبرى تكمن فى تأكيده على بناء المواقف ، وعلى « المنطق » المترابط بين المواقف المتصلة . وقد اختلف ماركس عن الماركسين المتطرفين ، فى أنه ذهب إلى أن جميع الأشخاص ، يمارسون أفعالهم طبقا لمتطلبات مواقفهم وهم - بناء على ذلك - يعتبرون ضحية لها ، ولكن هذه النظرة تعتبر محدودة جدا .

أما ماكس فيبر فقد قام بصياغة نظرية واضحة أو مخطط للفعل الاجتماعى ، فالفعل أو السلوك ، يجب أن يكون ذا معنى من الناحية الذاتية ، ولكى نفهم سلوك الآخرين ، يجب ألا نلاحظ فحسب مايفعلونه ، بل نعرف كذلك المعنى الذى يربطونه بهذه الأفعال . وقد ميز فيبر بين أربعة نماذج رئيسية للفعل : العقلانى الوسيلى ، والعقلانى الموجه نحو قيمة ، والتقليدى ، والعاطفى . ويكون الفعل « عقلانيا » ، اذا وجهته الحقيقة التى مؤداها : أن إستخدام بعض الوسائل يعتبر ضروريا لتحقيق الأهداف معينة . ويعتبر الفعل العقلانى الوسيلى ، صورة خالصة للفعل العقلانى . وفى هذا النموذج قد يكون الفاعل مقدرا لثمن إنجاز هدف ما بطريقة معينة ، وقد يكون أيضا مقدراً لقيمة الهدف ذاته ؛ وكان فيبر يقصد بذلك أن الهدف يمكنه أن يعالج بوصفه وسيلة لهدف آخر . أما النموذج الثانى للفعل العقلانى ، فهو الفعل العقلانى الموجه نحو قيمة وهنا لاتوجد طريقة لتقدير فاعلية الوسائل ، وما هو أكثر من ذلك أن الهدف يعتبر غاية تقيم فى

ذاتها ، وليست كوسيلة لغاية أخرى .وعموما كان فيبر يستخدم مصطلح «العقلانى» ليشير إلى السلوك ، ولكنه فى بعض المناسبات كان يطبقه أيضا على معتقدات الفاعل .

ويمكن أن يصنف السلوك التقليدى على أنه عقلانى على اعتبار أن هدفه يتمثل فى الاحتفاظ بالتقاليد ذاتها . وإذا قال أحد المعترضين ، بأن هناك تمييزا بسيطا بين وسائل وأهداف السلوك التقليدى ،أو أنه ليس هناك فرق بالمرة، فمن الممكن الرد عليه بأن معظم السلوك التقليدى ليس أقل عقلانية من السلوك الذى أسماه فيبر « بالسلوك الموجه نحو القيمة،طالما أنه ليست هناك طريقة ـ فى كلتا الحالتين ـ للحصول على سبب يبرر الدعاوى التى تكمن وراء السلوك .

ويعتبر السلوك عاطفياً ، إذا كان محكوما إلى حد كبير ، عن طريق الحاجة إلى التعبير عن بعض الانفعالات . ويعتبر السلوك العاطفى ، فى جانب منه ، سلوكا إنعكاسيا فالتعبير عن الخوف يعتبر رد فعل للتهديد ، وفى هذه الحالة لا يكون للسلوك هدف غير التعبير عن الانفعال ، أما الجانب الآخر للسلوك العاطفى ،فهو مرتبط بالعقلانية ،ويحدث ذلك عندما تنتقى بعض الوسائل لتحقيق حالة عاطفية معينة . وكان فيبر ينظر إلى السلوك العاطفى ، على أنه ملائم للبحث السوسيولوجى. ومثال ذلك أنه كان يفسر أصول الحركات الدينية ، فى ضوء نداء العاطفة ، الذى يعبر عنه بعض الرجال نحو اتباعهم ، وقد أطلق على هذا النداء ، اسم « الكاريسما Charisma »: على اعتبار أن هؤلاء الرجال لديهم بعض خصائص الفضيلة التى تجعلهم موضع احترام الآخرين . الا أن فيبر لم يعط أهمية كبرى للسلوك العاطفى .

---

(١) Pareto, V. Sociologicul Writings Pall Mall, 1966, pp. 15 – 87, 183 – 250.

وكانت العقلانية عند فيبر ، تشكل أيضا ، نموذجا امبيريقيا فانهيار الأبنية التقليدية للمجتمع ، يؤدى الى حدوث تطور فى اتجاه العقلانية (١) .

ولقد كان باريتو يشبه فيبر فى أنه قام ببناء مخطط الفعل الاجتماعى ، يتميز بالوضوح الشديد ، ويماثل فيبر أيضا ، فى تمييزه بين السلوك المنطقى واللامنطقى. ولكن التشابه ينتهى بينهما عند هذه النقطة ، حيث أن باريتو وضع أهمية كبرى لفئة الفعل المنطقى ، أكثر مما فعل فيبر . ويعتبر الفعل المنطقى ، عند باريتو ،غير ملائم البحث الاجتماعى الا نادرا . وفى بعض الجوانب الأخرى كانت وجهات نظر باريتو شبيهة بأفكار ماركس ، حيث أن كلاهما ركز اهتماما ضئيلا على الفعل فى حد ذاته ، وأخذ يبحث عن الدوافع التى تكمن وراء الأسباب القائمــــة لدى الفاعلين ، ولكن بينما كانت الدوافع - فى نظر ماركس - مشتقة الى حد كبير من الظروف المحيطة بالفعل ذاته ، اختلف الأمر بالنسبة لباريتو ، حيث أنه ذهب إلى أن الدوافع الحقيقية يمكن أن ترتبط بالفاعل نفسه . ويتمثل الفعل المنطقى عند باريتو ، فى تطبيق المنهج التجريبى المنطقى . ويحدث ذلك عن طريق إستخدام المعرفة الإمبريقية ، والتدخل الحقيقى لإختيار الوسائل التى تحقق الاهــــداف . ويمكن أن يكون الفعل غير منطقى لأسباب عديدة ، منها أن نتائج الفعل ليست موضع اعتبار لدى الفاعل ، وإذا لم تكن دوافع الفعل معترف بها ، ثم إذا كانت الافعال التى تمت لا تتسق مع الأسس الحقيقيــة للسلوك .

أما النظريات التى يتضمنها تفسير باريتو بسبب تعدد الظروف المؤدية إلى

---

(٨) Weber, the Theory of Social and Economic Oryanization, N. Y, 1947, pp. 79 – 112, 145, 56, 170 – 1.

الفعل اللامنطقى ، فهى : نظرية الغرائز ، والرواسب ، والمصالح ، والمشاعر ، والمشتقات .

إن هذا المخطط الذى وضعه باريتو ، يثير صعوبات عديدة :أولها ، أن تسمية الفعل بأنه لامنطقى لأن دعاوى الفاعل زائفة ، أمر يدعو للسخرية ، فكثير من النظريات العلمية إعتبرت زائفة ، بالرغم من أنها كانت صادقة لعدة قرون متتالية. وكذلك ، فإن كثيرا من الدعاوى السحرية والدينية التى تكمن وراء أفعال معينة ، تعتبر صادقة ، نظراً لحاجة الناس الشديدة إليها . وتتمثل الصعوبة الثانية ، فى تأكيد باريتو على أن الفعل يكون لامنطقياً ، إذ لم يفكر الفاعل فى نتائجه. وبهذا المعنى لايكون هناك فعل منطقى ، طالما أنه ليس هناك شخص يستطيع أن يفكر فى أكثر من بضعة نتائج قليلة للفعل . أما الصعوبة الثالثة ، فهى تظهر من تأكيده على أن الفعل يكون لامنطقياً عندما لايعترف الفاعل بدوافعه . ولكن هناك كثير من الأفعال التى لايعرف فيها الفاعل مسبقاً ، دوافع فعله الحقيقية ، وإنما يتخذ من بعض الدعاوى مبررات تظهر فعله على أنه منطقى (١) .

والحقيقة أن كلا من فيبر وباريتو لم يستبعدا بعض الصعوبات التى تظهر فى محاولة التفرقة بين الفعل المنطقى واللامنطقى ، بالرغم من انهما حاولا أبراز عدد من المشكلات ، وناقشا بعض العوامل المؤثرة فى ظهور الفعل ، وهذا من شأنه أن يمكننا من التقدم بهذا الإسهام إلى الامام ، والطريق إلى ذلك ، هو البدء بوضع قائمة للعوامل التى يمكن أن توجد فى أى نموذج للفعل .

أما العامل الأول : فهو الأهمية الاستراتيجية لهدف معين : فهل يعتبر الهدف

---

(٨) Paeto, V· Sociological Writings Pall Mall, 1966, pp. 15 – 87, 183 – 250.

وسيلة لغاية أخرى أم لا ؟ وإذا كان كذلك ، هل يستخدم كوسيلة لعدة أهداف أخرى أو لبضعة أهداف قليلة ، أم لهدف واحد ؟

والعامل الثانى : هو مقدار البدائل المتاحة : هل هناك وسائل متعددة لتحقيق هدف معين ، أو وسائل محدودة ؟ وهل عدد الوسائل يتحدد عن طريق تعريف الهدف ذاته ،أم عن طريق نطاق المعرفة المتاحة ؟

والعامل الثالث يتمثل فى المكانة الابستمولوجية للهدف : فهل هو ظرف يمكن أن يوصف عن طريق قضية قابلة للاختبار الامبريقى أم لا ؟ ويعبر العامل الرابع عن الوضع الأبستمولوجى للعلاقة بين الوسائل والاهداف : هل يمكن وصف هذه العلاقة عن طريق قضية قابلة للاختبار الأمبيريقى أم لا ؟ ويشير العامل الخامس إلى فاعلية الوسائل، والسادس إلى ملاءمة العواطف ، والسابع يحدد الدور الذى تقوم به القيم ، والثامن دور المعايير ، والتاسع الاتجاه نحو دعاوى السلوك . والعاشر هو التقييم الكلى ، فهل يقيم الفعل بطريقة استراتيجية فى علاقته بعدد من الأفعال الأخرى أم لا ، والحادى عشر يرجع إلى وعى الفاعل بخصائص الموقف : فهل هو واع بدعاويه ودوافعه أم لا (١) .

ان كل هذه العوامل كانت موضع اهتمام فيبر وباريتو غير أن كلا منهما كان يعتقد أن التأليفات الممكنة لها ، محدودة جدا : حيث كانت نماذج الفعل لاتزيد عن أربعة نماذج عند فيبر ، وأثنين عند باريتو ، ويمكن القول ، أن التأليفات

---

(١) أنظر دراسة تحليلية للفعل كاطار مرجعى فى مؤلف جون ركس « المشكلات الرئيسية فى نظرية علم الاجتماع »

John Rex, Key Problems of Sociological Theory, London, 1961; pp. 87 – 8.

الممكنة أكبر بكثير مما هو عند باريتو وفيبر .

يبقى بعد ذلك أن نناقش الأسس التى أرتكز عليها مدخل الفعل وهنا نلاحظ أن هناك عددا من الانتقادات التى وجهت إليه منها : أنه تبنى النزعة السيكولوجية الزائفه التى تؤكد أن جميع المسائل السوسيولوجية قابلة للتفسير فى ضوء مصطلحات نفسية خالصه طالما أن كل الظواهر الاجتماعية ترجع إلى خصائص العقل الانسانى ، على حين أن الخصائص العقلية التى تفسر بها هذه النزعة ، الظواهر الاجتماعية ، ليست إلا نتيجة للصور الاجتماعية الخالصة التى يجب أن تفسر هى من خلالها . وهنا يكون النموذج الثانى من النقد ملائماً ، ومؤداه أنه إذا كانت نظرية الفعل قد استخدمت مفاهيم « كالدوافع » ، « والتوجيه المعرفى » ، « والمشاعر » ، « والمسائل العاطفية » ، الخ ... فإنه يجب عليها أيضا أن تستخدم نظريات تفسر بها كيفية قيام هذه الميكانزمات بوظائفها .

أما النقد الثالث الذى صاغه « تورين Alain Touraine » حديثا ، وكان يدافع عن مدخل الفعل فهو يختلف عن النقدين السابقين ، ويتلخص إدعاء « تورين » فى أن نظرية الفعل التى تنظر إلى الامتثال للمعايير بوصفه عاملا ضروريا ولاغنى عنه ، لاتتمكن من تفسير التغير الاجتماعى ، ولاتستطيع ، بناء على ذلك أن تفسر كيف تتكون المعايير ذاتها . وتعتبر نظرية « تورين » نظرية ماركسية جديدة Neo – Marxist Theory ، مؤداها أن الناس يشكلون المعايير الأساسية للمجتمع ، من خلال ذلك الفعل الخلاق الذى يظهر فى العمل ، وفى علاقات العمل ، وأن التغيرات التى تطرأ على هذه العلاقات ، تحدث عن طريق التفاعل المستمر بين الانسان وبين بيئته المادية والاجتماعية التى تعتبر من صنعه . وكانت دعاوى الفعل عند « تورين » ، والتى تأثرت بشدة بكتابات ماركس المبكرة ، بعيدة جداً عن

تلك العقلانية الوسيلية . إن إنتقادات تورين لنظرية الفعل ، هامة ، وقوية ، ولكنها ليست مقنعة تماما .

ويتمثل النقد الأخير لمدخل الفعل فى أنه إذا استبعد هذا المدخل النزعة السيكولوجية ، ولم يعترف بها ، فإنه لن يفسر شيئا على الإطلاق ، ومعنى ذلك أن هذه النظرية ، إذا فسرت الظواهر الإجتماعية فى ضوء بناء المواقف الإجتماعية ، التى تتضمن وجهة النظر الذاتية للفاعل ، فإنها بذلك تفسر الظاهرة بما يحتاج إلى تفسير فى ذاته . وبتعبير آخر ، فإن هذا التفسير يعتبر دائريا أولغوياً ؛ فالموقف الإجتماعى نتاج للفعل ، والفعل محكوم بالموقف ، وبنماذج الإدراك وردود الفعل المحددة ثقافياً !!

خاتمــــة :

لقد استهدف العرض السابق للاتجاهات النظرية توضيح كيفيــة معالجتها للظواهر الاجتماعية ، سواء من حيث تحديد نطاق هذه الظواهر ، وتعريف مقولة الإجتماعى ، أى حصر الملاحظات التى يتعين أن يقوم بها الباحث الاجتماعى ، أو التفسير الذى تقدمه وجهات النظر المختلفة لهذه المقولة ، والمكانة المنطقية للتعميمات التى تقدمها هذه الاتجاهات .

إن الأساس فى تقديم هــذه التصنيفات هو إبراز الحقيقة التى مؤداها : أن وجهات النظر هذه تكمل إحداها الأخرى ، قد تكون هناك اختلافات فى الظاهرة المراد تفسيرها ، وفى طبيعة التفسير ذاته ، لكن كل وجهة نظر صادقة فى حدودها الخاصة ، لذلك يمكن الإفادة منها جميعا فى التعريف والتفسير المتكاملين .

وهناك إضافات يجب أن تؤخذ فى الاعتبار فى هــذا الصدد ، أولا أنه ليس

من الضرورى أن يوجد فصل مطلق بين الظواهر التى ينبغى تفسيرهـــا ، والتفسيرات التى يقدمها كل اتجاه ، فمن الممكن أن تكون هناك نمـاذج مختلفة فى التعريف والتفسير تحقق فائدة أكـثر فى فهمنـا للظواهر الاجتماعيـة وثانيا أن الاتجاهات النظرية تميز بين مستويين للتحليل هما : تحليل الوحدات الكبرى ، وتحليل الوحدات الصغرى ، لـكن هناك علاقة متبادلة بين هذين المستويين ، حينما نقوم بالملاحظات على المستوى الواقعى ، وثالثا : إن عنصر الزمن يجب أن يكون عنصرا أساسيا حينما نقوم بدراسة الظواهر ، وهنا يجب أن نفحص كل الاعتبارات المتعلقة بنشأة الظواهر الاجتماعية وعوامل استمرارها والمحافظة على كيانها ، وكذلك مظاهر استقرار وتغير الظواهر الاجتماعية . وإذن ، فإضافة بعد الزمن للتصنيفات السابقة معنـاه تحديد الوقت الملائم للقيـام بالملاحظات ، والمرحلة المناسبة لذلك خلال تطور الظواهر الاجتماعية .

إن دراستنا للاتجاهات النظرية المختلفة فى علم الاجتماع تمكننا من استخلاص ثلاثة نتائج عامة :

أولا . هناك مجموعة تساؤلات يجب أن يواجهها الباحث السوسيولوجى بعناية ، سواء حينما يقوم باختيار مشكلة الدراسة ، أو تحليلها نظريا ، أو عندما يحاول تفسير النتائج واستخلاص القضايا النظرية من التعميمات الامبيريقية . فكأن هناك تساؤلات خاصة بكل ظاهرة اجتماعية تحتاج الى تفسير وهى :

ا ـ الى أى مدى تتكون هـــذه الظاهره من جوانب سلوكية موضوعية أو ذاتية ؟

ب ـ هل هى تمثل وحدة كبرى أم وحدة صغرى ؟

حـ ـ الى أى مدى يمكن تفسير نشأتها ومحافظتها على كيانها ؟

د ـ الى أى مدى يمكن تفسير تغيرها أو استقرارها ؟

أما فيما يتعلق بكل ظاهرة مقترحة بوصفها تمثل تفسيراً فإن هذه التساؤلات تتخذ الشكل التالى :

ا ـ إلى أى مدى تكون هذه الظاهرة مفروضة على الظاهرة الاجتماعية المراد تفسيرها ، أو منبثقة عنها ؟

ب ـ الى أى مدى تتخلل هذه الظاهرة البيئة المحيطة بالمشاركين الاجتماعيين ، أو هل تتخلل خصائص المشاركين أنفسهم ؟ واذا كانت تتعلق بالبيئة هل هذه البيئة انسانية (السكان) أم غير انسانية (التكنولوجيا) ؟ أما فيما يتعلق بالأشخاص أنفسهم فيجب التساؤل عن صلة الظاهرة بالحاجات الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية .

هـ ـ الى أى مدى تمثل هذه الظاهرة المفسرة وحدة كبرى أو صغرى ؟

ان الاجابة على التساؤلات السابقة سوف توجه البحث نحو النظريات القائمة توجيها صحيحا ، لاختيار الفروض وصياغتها ، كما ستوجه أيضـــا المناهج والاجراءات المستخدمة فى الدراسة الامبيريقية . كما أنها تيسر عملية المقارنة بين نتائج الدراسات المختلفة وتحقق تراكم نتائج البحث السوسيولوجى ، على نحو يطور الأطار المرجعى لعلم الاجتماع فى الاتجاه الصحيح .

وثانيا : أن الأسس التى اعتمدت عليها هذه التصنيفات تسمح باستيعاب التنوعات المختلفة للنظريات السوسيولوجية . لكن الاتجاهات التى عرضناها لا تعنى

أنه ليس من الممكن أن تظهر اتجاهات أخرى جديدة للنظرية السوسيولوجية وإنما علينا باستمرار أن نكشف عن الصلات المتبادلة بين كل هذه الاتجاهات .

ثالثا : تكتسب فكرة العمومية معنى جديدا حينما تطبق على نظرية علم الاجتماع، فهى هنا تتعلق بمدى قدرة هذه النظرية على تفسير كل من السلوك الذاتى والموضوعى، والظواهر الكبرى والصغرى ، وعمليات النشوء والتطور وكذلك المحافظة على كيان الظواهر القائمة ، والتغير الاجتماعى والاستقرار الاجتماعى .

الفصل الرابع

منظورات متعددة لتقييم النظرية السوسيولوجية

يحين الوقت الآن لإلقاء نظرة نقدية على نظريات علم الاجتماع ، وذلك بعد أن تعرفنا فى الفصلين السابقين على النظرية من حيث بنائها ، ونماذجها ، واتجاهاتها الأساسية ، وربما يكون من المناسب فى مؤلف يعرض للموقف النظرى فى علم الاجتماع ويحاول تقييمه ، ألا نكتفى بتناول موقف نقدى وحيد ، خاصة وأن حجم الدراسات التى تخصص الآن لتقييم نظريات علم الاجتماع أخذ يتزايد بصورة ملحوظة ، وبطريقة يصعب معها الفصل بين وجهات النظر المختلفة فصلا قاطعاً . وهكذا يكون من الضرورى أن نتبنى فكرة « المنظورات المتعددة » فى تقييمنا لعلم الاجتماع ، مثلما تناولنا تصنيف النظريات بالاعتماد على نفس هذه الفكرة ، ذلك أن الوقت لا يزال مبكراً لإستخدام إطار واحد متكامل عند التقييم .

وينتظم عرضنا لتقييم الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر عبر خطين أساسيين : الأول ، هو تحليل علم الاجتماع كنظام أكاديمى يتزايد نموه بصورة ملحوظة فى الجامعات ومراكز البحث العلمى ، ثم « كثقافة عامة » بين جمهور المثقفين فى العالم الحديث من جهة ، كما يتسع نطاقها فى الأقطار الغربية بصفة خاصة من جهة أخرى . أما الخط الثانى فيتمثل فى الابتعـــاد بقدر الامكان عن المناقشات الكلاسيكية التى كانت تدور حول مناهج علم الاجتماع ، أو مدى علميته ، أو إقترابه من الانسانيات . . الخ . والاتجاه بدلا من ذلك إلى الاستعانة بالآراء

والأفكار التى ظهرت فى أحدث الكتابات النقديه ، والتى تبنت على وجه الخصوص منظوراً شاملا .

أولا - علم اجتماع الاجتماع :

يعالج الكتاب المثير الذى كتبه « روبرت فريدريكس » النظرية الاجتماعية المعاصرة والبحث من منظور علم اجتماع الاجتماع ومن خلال الأفكار التى قدمها « توماس كن » فى كتابه « بناء الثورات العلمية » . ولهذا فإن المؤلف يرى أن استعراض أى نظام علمى يجب أن يعتمد على فهم يقوم على التمييز بين مراحل عادية أو ثورية فى نموه مع أخذ الافتراضات أو النماذج التى تكمن وراء كل منها فى الاعتبار . ويرى « فريدريكس » أنه وراء كل حوار يتعلق بمدى كفاءة الصورة الحقيقية التى تقوم عليها النظرية الاجتماعية والبحث يوجد الحوار الأساسى حول النموذج أو التصور الذى يواجه صورة عالم الاجتماع لذاته (١) .

---

(١) راجع Friedrichs. W. Sociology of Sociology, N. Y, 1960.

ويعتبر مؤلف فريدريكس هذا من أهم الدراسات التحليلية النقدية لبناء علم الاجتماع كعلم ويقول نورمان برينبام فى معرض تصديره لهذا الكتاب : « انه يحاول فحص دعاوى علم الاجتماع العلمى ، بالاستناد الى معايير تختلف عن تلك التى كان يحتكم اليها علماء الاجتماع فى فترة ما بعد الحرب ... واعتمد المؤلف فى ذلك على مادة وثائقية هائلة ، كما أدرك تطور علم الاجتماع من المنظور التاريخى التحليلى ، وناقش مشكلات الامبيريقية ، والفينومينولوجية والمكانطية الحدثة ، وكذلك الاطار السياسى لعلم الاجتماع » .

ومن الجدير بالذكر أن الدراسات التى سار فى هذا الاتجاه قليلة للغاية ، ومع ذلك يمكن للقارىء أن يرجع الى المصادر التالية :

Bogardus, E. 'Obtaining a Position in Sociology, Sociology and Social Research, 1953, 38, pp. 38 – 45. Coser, 1. Georg Simmel's=

لقد وجد « فريد ريكس » أنه من المناسب للوصول الى الحقيقة أن يكون تحليله قائماً على أساس التعمق فى الأصول التاريخية لعلم الاجتماع ، وبالذات التراث الفكرى الأكبر الذى انبثق منه ، وكذلك منطق العلم الذى قام عليه سواء كان طبيعيا أو اجتماعيا ، وعندما نقوم بذلك فإنه من اليسير أن تقول إن النماذج المتماثلة تصارع بعضها فى العلم الاجتماعى الماركسى المعاصر ، ويطل «فريدريكس» بفكره على السبعينيات مشيراً الى أن « علم الاجتماع » إذا اقترب من الفهم الذاتى فإنه يمكن أن يؤدى الى طريق تستطيع على أساسه المجتمعات الكبرى ، وخاصة فى العالم الغربى أن تبلور تصوراتها وأفكارها حول المسئولية والحرية ، من خلال مضمون حقيقى يبتعد عن المضمون البيانى أو البلاغى . وهذا هو الذى جعل فريدريكس يعتقد أن علم اجتماع الاجتماع يمكن أن يكون ذا قيمة كبرى لعلمـــاء الاجتماع والعلماء الاجتماعيين بوجه عام والمؤرخين وغيرهم ممن يحاولون البحث عن فهم للمرحلة الثورية التى تجتاح الجماعة السوسيولوجية .

ويرى « نورمان برنبوم » ان شيئا ما قد تغير فى علم الاجتماع الأمريكى وأن كتاب «فريدريكس» يسعى الى استكشاف هذه الحقيقة ، فهو يحاول أن يختبر دعاوى علم الاجتماع العلمى عن طريق مستويات أخرى غير تلك التى ظهرت . كالنقد الذاتى الذى قام به علم الاجتماع الأمريكى فى مرحلة ما قبل الحرب التى شارفت على الانتهاء الآن ، ولقدنما النقد الذاتى من خلال مجموعة من الافتراضات التى أصبحت هى نفسها مجالا للحوار .

Style of Work: A Contribution to the Sociology of Sociologists",= American Journal of Sociology, 63, 1958, pp. 635 – 40. Lundberg, G. The future of the Social Sciences, Scientific Monthly, 53, 1941, pp. 346 – 59.

لقد حاول « فريدريكس » أن يعالج الخصائص الأساسية لعلم الاجتماع الأمبيريقى حيث يمكن أن يكون هناك سبب للاعتقاد بأن النتائج التى يصل إليها يمكن أن تستخدم لأهداف سياسية ، ويتوقف قدر كبير من هذا الاعتقاد على نوع الاستقراء من المادة العلمية أو التفسير الذى تخضع له. إن كثيرا من الدراسات التى قامت فى أوروبا بعد الحرب تمت تحت التأثير الأمريكى ، وجسمت التراث الاصلاحى والراديكالى السياسى الذى لم يغب مطلقا عن علماء الاجتماع الأوروبيين. ومن المألوف أن تقول أن الفلسفة البرجماسية تشكل الأساس الذى يقوم عليه علم الاجتماع الأمريكى ، وجدير بالذكر هنا أن تأثير الفلسفة أو المزج بين الفلسفة والاجتماع ودراسة الاقتصاد والسياسة كما هو حادث فى جامعة لندن قد أدى إلى مواقف معرفية تبناها علماء الاجتماع فى أوروبا مثل الكانتية المحدثة والوضعية المحدثة والظواهرية . أن انتشار الاتجاه البنائى فى فرنسا يعكس هذا الاتجاه فى المنهج فى العلوم الاجتماعية الذى ينقلب فى أغلب الأحيان إلى مناقشة فلسفية .

ومن المناسب هنا أن نحاول التعمق وبصورة مركزة فى مثلين محدثين للحوار الذى يتزايد فى علم الاجتماع الاوروبى الآن . الاول يتم فى باريس باعتبارها العاصمة الروحية المشتركة للعالم الغربى. ويعتبر المقرر المعدل لتدريس علم الاجتماع الذى اقترحته وزارة التربية والتعليم فى فرنسا والذى تم بناء على توصيات مدرسى علم الاجتماع سنة ١٩٦٦ كجزء من اصلاحات « فوشيه » Fouchat للتعليم العالى نهاية مرحلة ، فقد ألغيت الفلسفة من مقررات علم الاجتماع ، بناء على نظرة اقتربت الى حد كبير من النظرة السائدة فى أمريكا ، لكن خارج نطاق قاعات المحاضرات كان هناك نوع من الحوار المختلف يدور حول تساؤل هام مؤداه : هل العلوم الاجتماعية . وبالاخص علم الاجتماع ، يمكن أن تكون جزءا من هذا

الجهد الكبير الذى يبذل لإزاحة الستار عن تاريخ المجتمع الانسانى . إن الاتجاه البنائى وخاصة فى القسم الذى قاده « ليفى ستراوس » كان يؤكد الطبيعة المتكررة والمحددة لأشكال المجتمع والثقافة ، وذلك بتطبيق وسائل التحليل اللغوى على التاريخ ، وقد ظهر فريق يعارض هذا الاتجاه اتخذ من الماركسية منطلقا له . ومهما كان الرأى فى اختلاف من استخدموا الماركسية بأية صورة من صورها فى معارضة الاتجاه السابق ، إلا أن الماركسيين ذوى النزعة الانسانية كانوا يحاولون أن يوصلوا علم الاجتماع من خلال تصور الهدف الانسانى الكامن (١) .

إن الاهتمام الاكبر لعلم الإجتماع الفرنسى الآن يتركز حول الإمكانيات الاجتماعية لتعديل الوجود الانسانى وتغييره أكثر من مجرد المحاولة البسيطة التى تتمثل فى وصف هذا الوجود ، إن أكثر هـذا العمل يعكس تأثير « جورج جورفيتش » الذى كان يعتقد ان علم الاجتماع هو دراسة التغييرات التى تنبثق من داخل المجتمع ، فى الوقت الذى أبدى عدم اهتمامه بالمناهج الفنية إذا كانت على حساب تحليل الواقع الاجتماعى وبما هو جدير بالذكر أن « جورفيتش » جمع بين تأثيرات الماركسية وتراث المدرسة الفرنسية ابتداء من « سان سيمون » و « برودون » الى « دوركايم » والظواهرية ، حتى أنه يعتبر أحد الذين قادوا الدفاع ضد تحول علم الاجتماع الفرنسى الى الوقوع فى شرك الالتزام المطلق بما تفرضه الأدوات الفنية للبحث فى علم الاجتماع . ان هذه الإتجاهات لاشك انها تعيش بصورة أو بأخرى بجانب اتجاهات مختلفة ، ومثال ذلك أن « ريموند آرون » معتنقا منهجا تاريخياً ووصفيا مطعما بليبرالية شكلية ، حاول أن يحرض معاصريه على الإعتقاد بأن العالم كما هو الآن غير قابل للتغير كثيراً ، ويعتقد أن جانبا من الحوار

---

(١) Ibid, xii.

المنهجى الذى يقوم بين زملائه والذى يقوم بين نقاد هذا الحوار أيضاً هو نوع من مدرسية العصور الوسطى ، إلا أنه اعترف بأهمية عنصر التفسير فى التحليل السوسيولوجى (١) .

إن الألمان يبدو أنهم فقدوا تفوقهم الفلسفى فى علم الاجتماع الأوربى بالمقارنة بالفرنسيين ، إلا أن الظروف التى مرت على المجتمع الألمانى بعد الحرب ، مضافا اليها بعث التراث القومى لعلم الاجتماع ،قد أدت إلى مناقشات سوسيولوجية واسعة النطاق تعتبر ذات أهمية كبيرة فى يومنا هذا .

لقد تميز علم الاجتماع فى الفترة التى تلت الحرب مباشره باتجاه ميكانيكى أخذ عن أدوات البحث الاجتماعى الأمريكية ، ومما هو جدير بالذكر أن الاتجاه الامبيريقى قد بدأ يزحف على مدرسة « فرانكفورت » التى تلقى روادها فى أمريكا تأثيرات عديدة ، الا أنه أصبح واضحا الآن أن علم الاجتماع فى ألمانيا على يد « ماكس هوركهايمر » و « هلموت شلسكى » و « رالف داهرندورف » قد بدأ يتأثر بالاتجاهات التاريخية والفلسفية والماركسية .

وقد يميل كثير من علماء الاجتماع الذين ينشغلون فى المناقشات والحوار حول النظرية الى القول بأن علم الاجتماع لم يكن له حتى الآن نموذج مشترك ، ومن المؤكد أنه من الصعب القول بأن هناك اتفاقا واسع النطاق حول الطبيعة الاساسية لموضوع علم الاجتماع سواء فى أوربا أو أمريكا خلال الفترة التى انتهت بالحرب العالمية الثانية . ومن ناحية أخرى ، من الصعب أن ننكر أنه ابتداء من الثلاثينيات وخلال الاعوام المبكره من الاربعينات بدأت صورة محددة لعلم

---

(١) Ibid. pp. 1 – 10.

الاجتماع فى الظهور . وليس هناك شك فى أن كتاب « بناء الفعل الاجتماعى » الذى أخرجه « تولكوت بارسونز سنة ١٩٣٧ كان مصدرا من المصادر التى رجع اليها غالبية علماء الاجتماع . لقد استطاع بارسونز ، فى هذا المؤلف أن يربط بين الخيوط التى نسجها الرواد الأول لعلم الاجتماع فى المزج بين الوظيفية والمثالية، وقد دار تحليله حول نموذج الفعل الذى اختاره بديلا عن كلمة السلوك التى استخدمت فى التراث الوضعى ، ومصدر الخلاف الأساسى فى هـــذا الصدد أن « السلوك » يعكس الظاهرة الامبيريقية فى الحركة . بينما يعكس « الفعل » فاعلا نشطاً خلاقا ، مقيما فى الوقت الذى يكون فيه الفعل اختيارياً وموجهاً إلى غاية محددة ذاتياً من خلال اختيار يجريه الفاعل لوسيلة من بين وسائل بديلة متعددة . وقد وصل تأثير بارسونز إلى القمة فى علم الاجتماع الأمريكى سنة ١٩٥١ بنشر كتابه، نحو نظرية عامة فى الفعل والنسق الإجتماعى ، وبعد ذلك بسنتين كتابه، « أوراق عمـــل فى نظرية الفعل ، وتمثل هذه الكتب نظرية فريدة فى علم الإجتماع الأمريكى حتى أنه كان على كل طالب يحضر لدرجة الدكتوراه فى فترة ما بعد الحرب أن يعرف بارسونز كما يعرف الاحصاء ، وقد كتب الكثير عن تحول بارسونز من الفعل إلى النسق وعن ارتباطه بالوظيفية , إلا أنه من المبالغ فيـــه الزعم بأن « بارسونز » كان المجرى الوحيد الذى تدفقت منه الوظيفية فى علم الاجتماع الأمريكى، ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى كتاب زنانيكى « منهج علم الاجتماع » سنة ١٩٢٤ وكتاب روبرت ميرتون عن النظرية الاجتماعية والبناء الإجتماعى سنة ١٩٤٩ وكذلك دراسات « كنجزلى دافيز » و « جورج هومانز » (١) .

---

(١) See Parsons, the Social System, N. Y, 1951. Merlon. Social Theory and Social Structvre. N. Y, 1949.

والواقع أن علم الاجتماع لم يجد مكانا ملائماً يستقر فيه بعد قيامه ، إلا بعد أن نضجت فيه أفكار تبلورت فى اتجاهين أساسيين ، الأول الاتجاه الماركسى الذى أصبح الطابع الرسمى للعلم الاجتماعى فى الاتحاد السوفييتى ، والاجتماع الأكاديمى على حد تعبير جولدنر الذى أصبح جزءاً من الثقافة الأمريكية ، ويمكن اعتبار كل من هذين الصيغتين لعلم الاجتماع منبعا للثقافة الغربية ، أو صيغتان لعلم الاجتماع الغربى (١) . ولقد انتشر علم الاجتماع فى كلا الاتجاهين عن طريق شريحة اجتماعية مختلفة ، فالماركسية ارتبطت منذ البداية بالحركة الثقافية والفكرية التى عملت من أجل الجماعات الدنيا (المناضلة) والتى كانت بطبيعتها ثائرة على المجتمع البورجوازى الذى رفضهم ، أما علم الاجتماع الأكاديمى فقد نما فى الولايات المتحدة على أيدى الأكاديميين فى الجامعات الذين كانوا يعملون لتدعيم الطبقة الوسطى، والذين انحصر نشاطهم فى الإصلاح دون الثورة ، ومعنى ذلك أن كلا الاتجاهين ربط نفسه بداءة بالحركات الاجتماعية ذات الاتجاهات المختلفة ، ولهذا كان لكل منهما وجهة نظره فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى « الجديد » .

وقد تمركز الاهتمام بعلم الاجتماع فى أمريكا فى جامعة شيكاجو بعد الحرب العالمية الأولى حيث ظهرت مشاكل التصنيع وتراكمت ، تلك التى نظر اليها علم الاجتماع على أنها « مشاكل المجتمعات الحضرية » أى أنها راجعة إلى تعاظم حجم المناطق الحضرية التى تتشابه فى أوضاعها إلى درجة كبيرة ، أو بمعنى آخر لم تكن هذه المشاكل (من وجهة نظر علماء علم الاجتماع الأمريكان) مرتبطة بنمط الاقتصاد المتغير أو النسق الطبقى أو نظم الملكية فى مدينة بعينها . لكن الماركسية

---

(١) Gouldner, A. the Coming Crisis of Western Sociology, London. New Delhi, 1971. p. 20.

أصلت جذورها فى أجزاء من أوربا حيث ظهر التباطؤ فى حركة التصنيع، ولذلك عندما نجحت الثورة الشيوعية فى روسيا على يد لينين كان فى قمة أهدافها التعجيل بالتصنيع . ولهذا ، وإتفاقا مع الاستراتيجية الفكرية للماركسية، تحددت المشاكل الأوربية وأرجعت أساساً إلى وجود الرأسمالية أو بمعنى آخر كانت المشاكل ناجمة عن استمرار وجود نسق طبقى تقليدى ونظم الملكية معوقة للنمو الصناعى (١).

ولقد اتفق علم الاجتماع الأكاديمى والماركسية المبكرة فى نقطة هامة، هى أن المجتمع الحديث يواجه مشاكل عديدة لايمكن أن تحل إلا ببناء أو استمارة أنماط جديدة ، ولكنهما اختلفا فى أن علم الإجتماع الأكاديمى مال الى اعتبار المشاكل القائمة سوف تحل على مر الزمن عندما ينضج المجتمع على مهل ، ويبنى على أسس سليمة وبطريقة تدريجية ، بينما وجدت الماركسية أن هذه المشاكل متأصلة بعمق فى الصراعات التى ورثها المجتمع الجديد ولا يمكن حلها فى اطار المجتمع القائم . وارتبط النوعان المميزان لعلم الإجتماع بالأمة التى نسب كل منهما اليها . فقد هيمنت الماركسية على العلم الإجتماعى الذى توقف فكرياً فى عصر ستالين، واستمر علم الإجتماع فى أمريكا واقعاً تحت نفوذ مدرسة شيكاجو حتى ١٩٣٠ ، العام الذى بدأ بعده فى التحرك الى هارفارد وكولومبيا، ثم تمركز بعد ذلك فى كاليفورنيا (بركلى) فى منتصف الستينات، ومعنى ذلك أن مراكز التأثير فى نمو علم الاجتماع أصبحت متعددة فى الولايات المتحدة الآن . وترتب على الإهتمام المتعاظم بعلم الإجتماع فى أمريكا ، أنه أصبح مرتبطاً بها ويشار اليه على أنه كذلك أكثر مما يشار الى أى فرع آخر من فروع المعرفة الإنسانية أو الطبيعية أو الرياضية . الأمر الذى مكن علماء الاجتماع والباحثين من تنمية النظرية والمنهج وأدوات البحث بشكل

(١) Ibid. p. 21.

لامثيل له فى أى جزء من العالم . حتى أن رايت ميلز قال إن العصر الحديث هو بحق عصر علم الاجتماع ، لأن هذا العصر هو عصر دولة الرعاية (١). ومن ثم فقد علم الاجتماع الأمريكى بعد الحرب العالمية الثانيـــة « عزلته الأكاديمية » تحت تأثير دولة الرعاية ، ونما علم الاجتماع بمعدل سريع لم يسبق له مثيل، ووجد علماء الاجتماع أنفسهم يواجهون ضغوطا جديدة واغراءات وفرص فى الداخل وفى الخارج .

إن علم الاجتماع نتيجة انفتاحه على العـــالم ومجتمعات أخرى يواجه الآن تغيرات جذرية ، وفى نفس الوقت ، يمر علم الاجتماع فى القسم الآخر من أوربا بما فيه الاتحاد السوفيتى بتغيرات مماثلة . ومعنى هـذا أن الضغوط الهائلة التى يواجها علم الاجتماع فى أمريكا وفى الاتحـاد السوفيتى نتيجة للقوى الاجتماعية المتزايدة والحركات المتعددة والمشاكل الكامنة والظاهرة المتفاقمة سوف تعجل فى رأى جولدنر بما أسماه « أزمة علم الاجتماع العالميـــة » . وإذن ، فعلم الاجتماع الاكاديمى (عند جولدنر) هو علم الاجتماع الأمريكى الآن ، ولكن ينبغى أن نتساءل ما هو علم الاجتماع الأكاديمى ؟ الاجابة على هـذا السؤال لا يمكن أن تعالج إلا تاريخيا ، ولهذا تصبح المحاولات المعرفية الآنذاك وزن فى البحث عن الأصول الإجتماعية لعلم الاجتماع الأكاديمى .

يقول جولدنر « فى بداية علم الاجتماع الفرنسى ، شرع تلاميذ سان سيمون، أوجيست كومت وبازارد Bazard ، وانفاتين Enfatin فى القـــاء مجموعة محاضرات ، ركزوا فيها على ماهية علم الاجتماع ، ولكنهم جميعـــا وفى النهاية

---

(١) Ibid, pp. 22 – 23.

أكدوا أنهم يحاولون إقامة دين جديد ، دين للانسانية ، وآمنوا أن رسله هم بالضرورة علماء الاجتماع ، أو بمعنى آخر، أن عالم الاجتماع كان ينظر إليه فى مبدأ الأمر على أنه يقوم بدور الاصلاح الدينى والاجتماعى (١) .

ولكننا نقول فى هذه الايام وبطريقة غير نقدية ، أن عالم الاجتماع هو الذى يدرس الحياة الجمعية ، ويفحص الإنسان فى المجتمع ، ويقوم بأبحاث عن العلاقات الانسانية ، ولكن جولدنر يرى أن هذا التعريف لدور عالم الاجتماع قاصر ومتناقض فى نفس الوقت ، لأنه إذا كان عالم الاجتماع يدرس غيره فى المجتمع فلماذا لا يدرس نفسه فى المجتمع أيضا ؟ (٢) .

يجب على علماء الاجتماع أن يدرسوا أنفسهم كما يدرسون غيرهم ، وأن يسألوا أنفسهم نفس الأسئلة التى يسألونها لغيرهم ، أن محاولة علماء الاجتماع تحرير علم الاجتماع من النظرة القيمية ومناداتهم أن يكون ، نظاما معرفيا متحررا ، قيميا هى محاولة متناقضة ، لأنهم يجب أن يتراجعوا عن إعتقادهم (الخاطىء) أن الآخرين يؤمنون عن حاجة ، بينما هم يؤمنون علما ومنطقا وعقلا . إن هذا أمر قد لا يطيقه ولا يقبله علماء الاجتماع لأنه يتعارض مع إعتقادهم المهنى وسيصعب عليهم أن يشعروا فى أعماقهم بأن المنهج العلمى ليس منطقا فحسب بل هو أخلاقيات كذلك ، إن أحدا من علماء الاجتماع لن يستطيع أن يجيب بصراحة أو يفهم لماذا نعتبر بحثا إجتماعيا جيدا وآخر سيئا أو لماذا ينتقل علم الاجتماع من نظرية إلى أخرى، إن علماء الاجتماع لازالوا يخلطون بين الامبيريقية وبين الاجابات الاخلاقية.

ومن الضرورى أن نبحث نقديا الرسالة الاجتماعية لعلم الاجتماع الأكاديمى

---

(١) Ibid, p. 24.

(٢) Ibid, p. 25.

وأن ندرس الأفكار التى يعمل من خلالها والايديولوجيات التى يعبر عنها والصلة التى تربطة بالمجتمع الكبير . وقد يكون من الملائم استعراض المدارس الفكرية الكبرى السائدة فيه كالوظيفية وتعاليم تولكوت بارسونز ، إلا أن التغيرات الجارية فيها لا يمكن فهمها إلا بمواجهة الاتجاهات الفكرية التى تظهر الآن فى أمريكا . ولما كانت الاتجاهات الفكرية لا تنبثق فى فراغ ، فلا بد لكى نفهم علم الاجتماع فى أمريكا أن نعرف طبيعة المشاكل التى توجد الآن فى هذا المجتمع (١).

والحقيقة أن كثيرا ممن يعملون فى ميدان علم الاجتماع يؤكدون الجانب العلمى فيه ويعتبرونه أهم ما يميزه ويشيرون إليه على أنه علم إجتماعى ، ولهذا يصفون أنفسهم بأنهم علماء ، ويحاولون أن يكونوا أكثر رياضية وصورية فيستخدمون الأدوات ويحسنون فى أدائها لوظائفها ، كما أنهم يؤكدون أهمية المنهج العلمى فى الدراسة على أهمية الموضوع وطبيعة إدراكهم له .

ولكن مهما كان موقف علماء الإجتماع من المكانة المنهجية لعلم الاجتماع الا أن الغالبية العظمى يوافقون على أن معرفة الحياة الاجتماعية تتطلب فى لحظة معينة ، القيـــام بأبحاث ، واخضاع الافتراضات لاختبارات امبيريقية ، وأن الاستنتاجات المنطقية لابد أن تخضع الملاحظات الحسية ، كما أن الغالبية العظمى يوافقون على أنه لابد أن يكون هناك نوع من النظر الى الناس والاستماع اليهم ، ألا يمكن والحال هكذا : أن نقول إن طابع علم الاجتماع ينحصر فى الاهتمام بمعرفة العالم الاجتماعى أمبيريقيا ؟ أو لا يمكن أن يكون سؤالنا عن طابع علم الأجتماع هو: تحت أى ظروف يبدأ الناس فى دراسة العالم الاجتماعى امبيريقيا؟

---

(١) Ibid. pp. 25, 26, 27.

ان أحد الأسباب التى تجعلنا لا نضع المسألة على هذا النحو ، ربما يكون أن هناك طرقا متعددة يمكن أن ندرس على أساسها العالم الاجتماعى ، وكل منها يتساوى فى علميته أو أمبيريقيته . ولكن لا يبدو أن هناك سببا منطقيا يدعونا الى الاعتقاد بأن ما يقوم به الاقتصاديون وعلماء السياسة ، والأنثروبولوجيون ، وعلماء النفس الإجتماعيون ، أقل علمية مما يقوم به علماء الإجتماع ، على الرغم مما يظهر من اختلافهم الشديد . وأكثر من ذلك فإن الدراسة الأمبيريقية للعالم الاجتماعى تفترض أن الانسان عنده تصورات معينة عنه ، وباختصار اذا قامت دراسة للحياة الإجتماعية ، إمبيريقية كانت أو غير إمبيريقية ، فإن ذلك يتوقف على الافتراضات المسبقة عن الانسان والمجتمع ، أو فى الحقيقة على وجود مشاعر معينة تتناول العلاقات بين المجتمع وبين الناس .

ولكن اذا كان الهدف الرسمى من علم الإجتماع هو اكتشاف طبيعة العالم الإجتماعى ، فكيف يقوم ذلك على أساس افتراضات مسبقة تتعلق بهذا الطابع ؟ إن علم الإجتماع يتحرك بالضرورة من خلال الحدود التى تصنع إطار افتراضاته ، وتظل هذه الافتراضات محور الاكتشاف وموضع الأختبار وغير ذلك من النشاط العلمى الذى يقوم به هذا العلم . وسواء قبل هذا علماء الإجتماع أو لم يقبلوه عرفوه أو لم يعرفوه ، فإنهم سوف ينظمون أبحاثهم من خلال هذه الافتراضات المسبقة ، ولهذا سوف يعتمد طابع علم الاجتماع عليها وسوف يتغير إذا تغيرت .

على أننا حينما نتحدث عن الافتراضات التى تحدد طابع علم الاجتماع فليس معنى ذلك أننا نحصر أنفسنا فى نطاق تلك الافتراضات التى يقوم علماء الاجتماع بتوضيح معالمها فى نظرياتهم ، لأننا سوف نفهم هذه النظريات جميعا ، على أنها نتاج إنسانى واجتماعى ، ومعنى ذلك أننا نريد أن نكون قادرين على أن

نفسر بطريقة سوسيولوجية ، وليس بطريقة منطقيـة فقط ، لماذا يتبنى علماء الاجتماع نظريات معينة ، ويرفضون نظريات أخرى، ولماذا يغيرون انتماءهم من نظرية الى نظرية أخرى (١) .

ولا شك أنه من أجـل أن نفهم طابع علم الإجتماع . فإنه من الضرورى أن نفهم الافتراضات الأساسيه أو الجوهرية فيــه . وهى التى تنقسم الى قسمين : افتراضات لها طابع عالمى ، وافتراضات لها طابع محلى . ويمكن أن نستنتج هذه الافتراضات من النظريات الإجتماعية التى تقوم عليها . ومع ذلك فإن هــذه النظريات تشكل جزءا ، وليس كل المـادة التى يمكن أن ننظر من خلالها الى الافتراضات الاساسية ، إن الأخيرة تمثل رأس المال الفكرى الموروث للعـالم ، ويمكن أن ترتدى ثوبا متجددا نتيجة لنمو فى المعرفة أو لتحسن فى أدوات البحث. ومع ذلك فإن التغيرات العظمى فى أى علم لا يمكن أن تستمد من اختراع أدوات جديدة للبحث فقط. بل إنها تنبثق عن تطور نظرة خلاقة المادة العلمية. (٢)

أما السبب الرئيسى الذى يجعـل الافتراضات الخاصة (المحلية) ذات أهمية فيما وراء البناء النظرى فهو أنهـا تهيء جو المشاعر ، والحـالات الانفعالية والعواطف . مثـال ذلك إذا أعتقد أحـد أن الزنوج كسالى ، وأعتقـد أيضا أن هـذه الصفة سيئة فإنه لا يـكون صائبا تماما . لأن الذين يعتقدون فى سوء هذه الصفة لديهم أكثر من مجرد الاعتقاد ، فهم يشعرون بها وربما يشعرون بها بقوة ، أو بمعنى آخر ربما تكون عندهم عواطف الإبتعاد أو الرغبة فى انزال العقاب ، المرتبطة بأحوال الزنوج وسوء التقدير الذى يلحقهم . ولهــذا يعتقد

---

(١) Ibid, pp. 27 – 28.

(٢) Ibid, pp. 29 – 35.

« جولدنر » ان كثيرا من النظريات الإجتماعية تعكس افتراضات محلية ، ونوعا من العواطف ، كما أن الإستجابة لهذه النظريات تتضمن عواطف أولئك الذين يقرأونها ويكتبونها ، ومهما يكن من أمر فإن النظرية سواء رفضت، تغيرت أو لم تتغير، فالمسألة هنا ليست مسألة منطق أو عقل كلية،ومثال ذلك أن نظرية «ماكس فيبر » عن البيروقراطية والتى أكدت إمكان تمدد الأشكال البيروقراطيــة فى التنظيمات الاجتماعية الحديثة الكبيرة والمعقدة تتضمن من غير شك نوعا من إنتزاع عواطف التشاؤم التى تتعلق بإمكانية حدوث تغير إجتماعى على نطاق واســع ، يمكن أن يعالج بنجاح اغتراب الإنسان . ومن ناحية أخرى فإن أولئك الذين يدينون الجهود التى تبذل من أجل مثل هذا التغير سوف تنشأ لديهم عـواطف مضادة ، وسوف يستجيبون إستجابة نقدية لهذه النظرية أما بأن يقترحوا شيئا أخر ، وإما أن يرفضوا النظرية كلية .

وإذا كانت النظرية الإجتماعية ، هى ضمنا، نظرية فى السياسة ، فإن كل نظرية هى أيضا نظرية شخصية تعبر لا محالة ، عن التجربة الشخصية للأفـــراد الـذين يؤلفونها ، ومهما كانت الإختلافات الأخرى لعلماء الاجتماع، فإنهم يحاولون دراسة شىء فى العالم الاجتماعى ينظرون اليه على أنه واقعى أو حقيقى.ومهما كانت فلسفتهم فى العلم فإنهم يحاولون أن يفسروا ما يرونه من خلال ما يقرون أنه حقيقى وواقعى كذلك . ويرى « جولدنر » أن هناك نوعين من الواقع يؤثران فى علماء الاجتماع : الأول يتكون من واقعيات الدور ، أى الأشياء التى يتعلمونها كعلماء اجتماع، وهذه تتكون من الأشياء التى يعتقدون أنها حقائق نجمت عن أبحاث سابقة ومن ثم فإنها تمثل إنطباعات محددة صنعها وبلورها هؤلاء الناس عن العالم ، ولهذا فإن نسبة الواقعية أو الحقيقة إلى مثل هذه الانطباعات أو حق وجهات النظر عن العالم يعتبر نوعا من التعبير عن الاعتقاد الشخصى الذى يمكن أن يرقى إلى مستوى

التحيز . أما الأمر الثانى فهو يتعلق بما يراه علماء الإجتماع من وجهة نظرهم الخاصة على أنه حقيقى أو واقعى ، ومثل هذه الآراء المتعلقة بواقعيات العالم الذى يصنعه علماء الاجتماع لا تتعلق بالبراهين أو بالبحث ، بل إنها وجدت كذلك عنـــدهم لأنهم لاحظوها أو سمعوا بها ، أو أخبروا بها أو ربما قرؤها ، ومثال ذلك أنه خلال الأربعينيات والخمسينيات وتحت التأثير المتزايد « لتولكوت بارسونز » ، فإن كثيرا من علماء الاجتماع أكدوا أهمية النظرية فى بناء البحث ، وبما أن علماء الاجتماع لا يستطيعون أن يتعرفوا على كل أجزاء العالم الاجتماعى ، أو ينظروا اليه بنفس الدرجة من الأهمية أنهم يركزون إنتباههم عليه بطريقة إختيـارية (أى يختارون أجزاء أو يتركون أجزاء أخرى) فإنهم انتهـوا من ذلك إلى أن هذا التنظيم الإدراكى كان نتيجة للنظريات التى أعتبروها حقائق ، ومعنى هـذا أن الحقائق نظر اليها على أنها متفاعلة مع النظريات سواء أكدتهـا أو تؤيدها ، إلا أنها فى النهاية تشكل نوعا من النمو النظرى . لكن هذا التأثير مال إلى مخالفة التقليد المبكر للامبيريقية المنهجية التى ربطت من حيث الأهمية بين البحث و مادته ، فاذا كان الأمبيريقيون قد أكدوا أن علماء الاجتماع يجب أن توجههم الحقائق التى تترتب على بحث موجه توجيها صحيحا . فإن علماء الإجتماع الذين يؤكدون أهمية النظرية يميلون إلى القول بأن علماء الاجتماع لابد أن يوجهوا أسـاسـا من خلال نظرية مختبره بعناية ، ويرى « جولدنر » أن كلا هذين الاتجاهين خاطىء من وجهة معينة .

ومما يؤكد صدق ما يذهب اليه « جولدنر » أن النظرية العامة للبيروقراطيـة عند « ماكس فيبر » تأثرت إلى حد كبير بأبحاثه الأكاديمية والتاريخية وبمعرفتـه المباشرة بالبيروقراطية الألمانية ، أو بمعنى أدق بالبيروقراطية الحكومية أكثر من

البيروقراطية الخاصة ، ذلك أن البيروقراطية الألمانية الحكومية كبناء اجتماعى ، وكمثل ثقافى ، شكلت عند فيبر واقعا شخصيا وكانت بالنسبة له نموذجا مركزيا لكل البيروقراطيات . أى انها امدته بالاطار الذى نظم ووفق على أساسه بين الحقائق التى توافرت له عن طريق ابحاثه المدرسية (١)

ان مشاركة الباحث فى ثقافة المجتمع وفى حياته تؤدى إلى طابع معين يتمثل فى تنظيمه الفكرى وتجاربه الخاصة التى لها دخل كبير فى المفضلات النظرية، ولهذا يطلق « جولدنر » «البناء التحتى» للنظرية على ما تشارك فيه المجتمع والثقافة والخبره الفردية وإختلاف التجارب الشخصية فى هذا العالم . إن كل نظرية تحمل اسم شخص معين ، لكنها فى الحقيقة نتيجة لجماعة تؤثر فى مجرى النظرية وفى اتجاهاتها المختلفة .

ويعتقد جولدنر أن كل نظرية وكل صانع للنظرية يقيم وجهة نظره للواقع الاجتماعى بناء على ايديولوجية معينة، ولهذا فان ادخال الايديولوجية فى علم الاجتماع لم يكن أمرا مهجورا من الآباء المؤسسين لهذا العلم ، بل انه أمر غاب عن علماء الاجتماع المحدثين . وهذا يظهر بوضوح فى تلك المدرسة الفكرية التى اصرت على ضرورة اعطاء علم الاجتماع الطابع المهنى ، وإبراز استقلاله الفكرى ، وهى المدرسة التى تتبع تعاليم « تولكوت بارسونز » وعلى الرغم من المقالات التى جمعت فى كتاب علم الاجتماع الأمريكى الذى اشرف على اصداره « بارسونز » ١٩٦٨ فإن الاتجاه الغالب فى هذا الكتاب خلا من اية ايديولوجية على الرغم من انه نشر اثناء احتدام المعارك فى فيتنام وارتفاع حد العداوة بين البيض والسود الذى

---

(١) Ibid, pp. 40 – 45.

وصل الى حد العنف والتقاتل وأخذ يتعمق كل ما يتصل بالمجتمع الأمريكى وموقفه من العالم وتدعيم النظرة الأمريكية الطابع الشاكل المحلية والعالمية .(١)

وهكذا ، فإن مناقشة امكان استقلال علم الاجتماع عن الايديولوجية والتجربة والتعلقات الشخصية قد أوقع علماء الاجتماع أنفسهم وخصوصا الذين يرون ذلك فى تناقضات تتصل بالنظرية وتتصل بالمنهج ايضا .(٢)

ملاحظات حول طابع علم الاجتماع المعاصر وإهتماماته :

١ - هناك انفصام واضح فى تاريخ الحركات الليبرالية الأمريكية بين النقد الذى يوجه إلى المجتمع ، وبين النقد الذى يوجه إلى النظرية ، ولعل هذا أهم علامة تميز اليسار الجديد حيث لاتجد النظرية الإجتماعية تقديراً أو اهتماماً ، وربما كان ذلك راجعاً إلى حداثة عهد هذه الحركات الإجتماعية وانغماس أعضائها فى النشاط السياسى ، ويقتضى الأمر مرور بعض الوقت لتكون هناك نظرية (٣) .

٢ - لقد أصبح علم الإجتماع فى أمريكا وخاصة فى الفترة ما بين عامى ١٩٤٠-١٩٦٠ ثقافة عامة Popular Culture حتى أن صناعة الكتب فى علم الاجتماع تتزايد بشكل جعل هذه الكتب متاحة لكل قطاعات السكان، وقد دعم ذلك أن آلافا من الكتب قد أخرجتها المطابع تتناول موضوعات متنوعة . فأصبح علم الإجتماع نظاميا أكثر منه أكاديمياً (٤) . وقد أدى هذا إلى أن أصبح الكثيرون يقبلون ما يكتب

---

(١) Ibid. pp. 40 – 49.

(٢) Ibid, pp. 54 – 60.

(٣) Ibid. p. 3.

(٤) Ibid. p. 4.

فى العلوم الاجتماعيه دون نقد ، كما أصبح الاهتمام بالمعلومات أكثر وضوحا من الاهتمام بالنظريات لدرجة أن البعض يعتقـد أن التنظير نوع من الهروب أو الجبن الأخلاقى .

٣ ـ إذا كان الراديكاليون فى أمريكا يريدون تغيير عالمهم ، فإنهم يجب أن يتوقعوا أن يفعلوا ذلك فى وجه مقاومة البعض ومساعدة البعض الآخر ، لكن أولئك الذين يعارضونهم والذين يريدون معاونتهم أو الانضمام اليهم يجب أن يكونوا موجهين بنظريات . ولهـذا فإنه بدون نظرية واضحة المعالم سيصبح الراديكاليون عاجزين عن فهم أو تغيـير أعدائهم وأصدقائهم معا . إن الراديكاليين الذين يعتقدون أنه من الممـكن الفصل بين عمـل النظرية وبين تغيير المجتمع لايعملون فى الواقع بدون نظرية ، وإنما يعملون فى حقيقة الأمر بنظرية ساذجة غير مختبرة وغير صحيحة ،فإذا لم يتمكنوا من أن يفسروا أو أن يفهموا نظرياتهم فإنهم فى الواقـع سيستسلمون للاغتراب الذى يعارضونه . إن تغيير المجتمع الذى يحـاول أن يصل اليـه الراديكاليون لا يمـكن أن يتـأتى عن طريق الوسائل السياسية وحدها ، لأن المجتمع القديم لايقوم على مجرد القوة والعنف أو النفعية أو التعقل ، ان المجتمع القديم يستمر فى الوجود من خلال النظريات، الايديولوجيات التى تمارس نوعا من السيطرة على عقول عدد كبير من الناس ، ولهذا فإنه سيكون من الصعب تحرير الانسان من المجتمع القديم أو بناء مجتمع جديد،إلا عن طريق بناء ثقافة شاملة تتضمن بين ما تتضمن، نظريات اجتماعية جديدة، وسيكون هذا مستحيلا دون البدء بنقد للنظريات الاجتماعية السائدة فى هذه الأيام . إن الموقف المزدوج من النظرية بين بعض قطاعات اليسار الجديد الذى يتمثل فى الاحساس بعدم ملاءمتها ، أو الاحساس بضرورتها ، كان واضحا فيما عبر عنه Daniel Colin-Bandit أحد زعماء التمرد الطلابى الفرنسى الذى بدأ

فى « Nanterre » فى ربيع عام ١٩٦٨ ، عندما قال إن الفوضويين قد أثروا فيه عن طريق بعض أنشطتهم أكثر مما أثروا عن طريق نظرياتهم . لكنه قال إن هناك ثغرة بين النظرية والتطبيق ، وأضاف أننا نحاول أن ننشىء نظرية بحيث تمارس نوعا من التأثير على اليسار الجديد النامى مهما كان الإتجاه نحوها .

وتقوم مدرسة « فرانكفورت » فى علم الاجتماع التقدمى بدور بارز فى هذا الصدد عن طريق أعمال بعض أعضائها ، كما أن هناك استجابة عالمية من الراديكاليين الجدد لآراء عضو آخر فى هذه المدرسة هو هربرت ماركيوز Herbert Marcuse الذى ذاع صيته بسبب النقد السوفييتى لنظريته . إن الحاجة لإعادة بناء النظريات القديمة أو بناء نظريات جديدة نتيجة إحساس الراديكاليين بأهميـــة النظرية جعلتهم يقتنعون إلى حد ما بما هو شائع عن الماركسية ، وربما يكون هذا أفضل من البديل الذى يصف أفكار شخص بعينه بأنهـــا ماركسية ، ومع ذلك فإن إستخدام الراديكاليين الأمريكيين الماركسية يتسم بالبدائية والسطحية . (١)

٤ ـ اننا نعيش عصرا يتميز بأن جيل الشباب فيه قد أصبح له بناء مختلف من العواطف والمشاعر الجمعية ، تغاير تلك العواطف التى ميزت تاريخيا الأطار الذى صيغت فيه النظريات القديمة ، وهذا يجعل بعض جيل الشباب هـذا اما غير مبال أو عدوانى بمرارة للنظريات القديـة . إن الثغرة التى تفصل العواطف القديـــة وعواطف الراديكاليين الشبان اليوم لم توضع لها بعـــد الجسور عن طريقة صيغة نظرية يستطيع من خلالها الشباب أن يعبروا عن أنفسهم وعن تصورهم للحقيقة ، وقـد يجيب على ذلك المنظرون الإجتماعيون الأكاديميون بقولهم إن اليسار الجديد موجه توجيها خاطئا ، ولكن ماذا تـكون العـلاقة بين النظريات وبين العواطف

---

(١) Ibid, pp. 4, 5, 6.

الشخصية ؟ يجيب الأكاديميون على ذلك بقولهم إن النظريات لا يجب أن تتوافق مع عواطف الناس قبل أن تقبل أو ترفض ، إلا أن « جولدنر » يرى فى هذا الصدد أن الملاءمة بين النظريات والعواطف لها دخل كبير فى نجاح النظرية ، لأن كثيرا من العقم النظرى عند الراديكاليين الجدد أو الشبان ونزوعهم نحو الماركسية وتأكيدهم لفكرة الأغتراب الماركسية ، يكشف عن الثغرة القائمة بين البناء الجديد وعواطف هؤلاء الشبان، أو بين تقديرهم لما هو حقيقى من ناحية ، وبين النظريات القديمة السائدة فى المحيط الإجتماعى والأكاديمى من ناحيـــة أخرى . (١) ويعبر الراديكاليون عن التناقض بين النظرية والواقع عند علماء الإجتماع بقولهم إن هؤلاء يقولون مالا يفعلون ، ولهذا حينما يكتب العالم نظرياته ، وينسحب من واقع الحياة، فإنه يكون باحثا فحسب عن وظيفة تدر له دخلا من خلال دراسة بؤس الآخرين . وفى هذا لاحظ أحد الراديكاليين الشبان أن واحدا من العلماء كتب عن ثقافة الفقر ولم يظهر تعاطفا على الأطلاق مع الفقراء ، كما أنه برغم كل ما يكتب عن الزنوج وما يقاسونه فى أمريكا ، فإننا لا نجد واحداً من علماء الإجتماع ذوى الشهرة يقبل أن يدرس فى كليات الزنوج فى الجنوب . إذن لا يمكن أن نعتبر عالم الإجتماع رجلا عاما أو رجلا لكل المجتمع، لأن حياته لا تتسق مع ما يكتب أو مع ما يعتقد ، ولهذا يتضح موقف الشبان من علماء الإجتماع فى أنهم ينظرون اليهم على أنهم مجرد طبقة قد تقدمت فى السن يحملون نفس الأفكار التى يعارضونها (٢)

٥ ـ يلاحظ الراديكاليون الشبان وبشكل يحيرهم أن علم إجتماع من النوع الأكاديمى قد بدأ يظهر فى روسيا ، مشابه لما هو موجود فى الولايات المتحدة ،

---

(١) Ibid, p. 7.

(٢) Ibid, pp. 8 – 9.

لأنهم كانوا يعتقدون أن علم الإجتماع الأكاديمي الأمريكي ليس إلا أداة في يد الرأسمالية الاحتكارية الأمريكية ، ومن الواضح أن الطابع المحافظ لعلم الإجتماع الأمريكي لا يمكن أن ينسب للرأسمالية الاحتكارية ، اذا كان شبيها له قد ظهر في الاتحاد السوفيتي حيث لاتوجد رأسمالية احتكارية، هـــذه الحيرة أو التناقض مرجعـه ذلك النقـد المتسرع الذي يرى أن علم الإجتماع ليس إلا أداة رجعيـة للمجتمع الرجعي ، ومن الضروري هنا أن نلاحظ أن الزعماء المبرزين لحركات تمرد الشباب في أنحاء العالم المختلفة من « Nanterre » إلى جامعات كولومبيا كانوا طلبة في أقسام الإجتماع ، ويعتبر « كون بندت » في فرنسا أحد هذه الحالات البارزة ، وقد لاحظ « ليزلي فايدلر » Lezlie Fidler بشكل عام أنه في أعمـاق كل طالب يدرس علم الإجتماع في أمريكا وأوروبا يمكن أن نكشف (ا) أنه طـالب لعلم الإجتماع ، أو (ب) يهودي أو (ج) مغترب . أو له صفتان على الأول مما سبق . ومع ذلك فإن « جولدنر » يعتقد أن لعلماء الإجتماع الشبان دورا فيما هو حادث من تمرد للشباب ، ويستطرد فيقول : إذا كان هـذا هو الحال فـكيف يمـكن أن تنسب إلى علم الاجتماع صفة النزعة المحافظة السياسية ؟ (١) .

٦ ـ كيف تفهم موقف الراديكالية من خــلال علماء الاجتماع الشبان الذين يتهمون علم الاجتماع بأنه محافظ؟ ليس هناك شك في الأتجاه المحافظ لبعض نظريات علم الاجتماع الأمريكي الهامة إلا أن علمـــاء الاجتماع الذين يتهمون علمهم بأنه محافظ يسلمون ضمنا بأن علم الاجتماع يمكن أن يؤدي إلى اتجاهات محـــافظة وراديكالية في نفس الوقت . ويرى جولدنر أن علم الاجتماع يستطيع أن يدفع باتجاهات راديكالية أكثر تطرفا من الاتجاهات السائدة. إن علم الاجتماع يجتذب

---

(١) Ibid. p. 10.

الشباب من الجنسين الذين لديهم نزعات اصلاحية ، وربما يرجع نقدهم له إلى توقعاتهم المحبطة ، ولكن إذا كان علم الاجتماع يجتذب الراديكاليين فماذا عن علم الاجتماع نفسه الذى يجتذب هؤلاء .

أن العلاقة بين علم الاجتماع واليسار الجديد مسألة معقدة ولست أستطيع أن أن أقول إن انتشار علم الاجتماع واعتباره نوعا من الثقافة العامة هو الذى نشط اليسار الجديد . إن علم اجتماع اليوم يشبه إلى حد ما الهيجيلية فى أوائل القرن التاسع عشر فى ازدواجية أفكارها السياسية ، ذلك أنه على الرغم من الاتجاهات التسلطية والمحافظة فى الهيجيلية إلا انها انطوت على متضمنات راديكالية الهمت « ماركس » وجعلته قادرا على صياغة نسق من الفكر له الطابع الثورى .

ثانيا : التطور البنائى لعلم الاجتماع : تحليل ونقد

هناك أربع مراحل كبرى للتطور العالمى الذى طرأ على علم الاجتماع الغربى، يمكن تحديدها كما يلى [١]:

المرحلة الأولى : الاتجاه الوضعى السوسيولوجى ، الذى بدأ منذ حوالى الربع الأول من القرن التاسع عشر فى فرنسا ، والذى يعتبر كل من « سان سيمون » و « أوجست كومت » من أهم أسهموا فيه ...

---

(١) أنظر عرضا تفصيليا لكل ممثلى هذه الاتجاهات سواء فى البدايات المبكرة لعلم الاجتماع المعاصر فى المصادر التالية :

Goser, Masters of Sociological Thought, 1971, Aron, R. Main Currents in Sociological Thought, Op. cit, Don Martindale, Nature and Types of Sociological Theories 1961, Sorokin, Sociological Theories of Today, 1966.

المرحلة الثانية : هى الماركسية، التى تبلورت فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر، وعبرت عن جهد معين للارتقاء بتراث المثالية الألمانية، وإدماجه بنماذج أخرى من التراث، كالاشتراكية الفرنسية، وعلم الاقتصاد.

المرحلة الثالثة : تمثل علم الاجتماع الكلاسيكى، الذى تطور قبل الحرب العالمية الأولى، ويمكن النظر إلى هذه المرحلة بوصفها مرحلة توفيق. وإدماج. حيث حاول علم الاجتماع فيها أن يوفق بين التطورات التى حدثت فى المرحلتين: الأولى، والثانية، عن طريق تحقيق نوع من التكامل بين الوضعية. والماركسية، أو البحث عن طريق ثالث. وقد أعتبرت هذه المرحلة «كلاسيكية» لأن معظم روادها، ينظر إليهم الآن على أنهم كلاسيكيون. ومن أمثلتهم، ماكس فيبر، وإميل دوركايم، وباريتو.

أما المرحلة الرابعة : فهى الاتجاه الوظيفى - البنائى عند بارسونز، الذى تبلور فى الثلاثينات فى الولايات المتحدة. وأضيفت إليه تطورات أخرى عن طريق جماعة المدرسيين الشبان، الذين قاموا بدراساتهم مع بارسونز فى وقت مبكر، وكان تم ذلك فى جامعة هارفارد، ومن أمثلتهم: روبرت ميرتون، وكنجزلى دافيز، وويلبرت مور، وروبين ويليامز. وآخرين.

وسوف نحاول فى الصفحات القادمة أن نناقش هذه المراحل، على أن نوضح الإسهامات التى قدمتها كل مرحلة. وجوانب الضعف فيها أيضاً (١).

١ - المرحلة الأولى : الاتجاه الوضعى السوسيولوجى

لقد تميزت بداية الإتجاه الوضعى فى علم الإجتماع بتناقض وجدانى نحو الإتجاه النفعى التقليدى عند الطبقة الوسطى، حيث كان الإتجاه الأول ينقد الإتجاه

---

(١) See Gouldner, pp. 88 – 160.

الثانى ، ويكمله فى نفس الوقت . إن « سان سيمون Saint Simon — أحد أباء الإشتراكية الحديثة ، وعلم الإجتماع - كان يتساءل دائمـــا : ما الذى يمكن أن يحدث إذا إفتقدت فرنسا فى يوم ما ، علماءها ورجال صناعتها ، وعمالها ، وموظفيها ، ووزرائها ، وقضاتها ، وكبار ملاك الأراضى فيها ؟ ويعتقد سان سيمون إن أثر افتقاد الطبقة الأخيرة سوف يكون عاطفياً . ولـكنه لن يسبب ضرراً سياسياً للدولة : طالما أنه يمكن إحلال أناس آخرين مـكان هؤلاء . أما بالنسبة للجماعة الأولى ، فإن فقدانها ، يعتبر كارثة لفرنسا ، ومن شأنه أن يغير من وضعها كدولة رائدة .

ومن الواضح أن « سان سيمون » كان فى هذا التساؤل يميز بين ما هـو مفيد وما هو عديم الفائدة ، وهو يتساءل أيضا : مفيد بالنسبة لمن ؟ وكانت إجابته تنصب على أن الفائدة أو المنفعة يجب أن تكون للامة وللانسانية جمعاء . وقد إهتم « سان سيمون » اهتماما ملحوظا بتساؤل محدد مؤداه : ماهو الشيء النافع ؟ وهنا يعلق أهمية كبرى على فائدة العلم ، والمعرفة ، والتكنولوجيا (١) .

إن مايتميز به « سان سيمون » من جدة وأصالة ، لايتمثل فى اهتمامه بالمنفعة ، أو فى إصراره على أن المنفعة الإجتماعية تتعارض مع المنفعة الفردية ، بل يظهر فى تصوره عن : ما الذى جعـل المنفعة نافعة ؟ أو ما الذى أمد المنفعة بالأشيـاء التى تجعلها مفيدة ؟ والواقع أن تأكيده على فائدة العلم والتكنولوجيا . وامتزاج ذلك بفكرته عن نسبية المنفعة ، أدى بأتباعه الى نقد الملكية الخاصة .

وقد أصبح أتباع سان سيمون إشتراكيين ، عندما ذهبوا إلى أنه فى ظـــل

---

(١) Ibid; pp. 90 – 91.

الظروف الحديثة، لا يمكن أن تؤدى الملكية الخاصة إلى إنتاج يخدم المنفعة الإجتماعية. إن إشتراكيتهم الخيالية، أدت بهم إلى تصور المنفعة بوصفها معياراً إجتماعياً، ومن ثم وجهوا نقدهم نحو النظم التى تدعم المنفعة الخاصة. وباختصار، فإن الوضعيين، واليوتوبيين، حاولوا توسيع نطاق الإتجاه النفعى الفردى، وإعطائه طابعاً اجتماعيا.

ولقد كان علم الإجتماع، منذ بدايته الوضعية فى القرن التاسع عشر، يمثل توازناً مضاداً لمتطلبات الثقافة النفعية الفردية. هذا، وعلى الرغم من الموقف النقدى لعلم الإجتماع الوضعى من تلك الثقافة النفعية. إلا أن هدفه من ذلك لم يكن تدميرها والقضاء عليها، بل محاولة استكمالها. وفى بداياته الوضعية، أدخل هذا العلم الاجتماعى الجديد، نظرية فى « التخلف الثقافى »، تفسر التوترات الإجتماعية الشائعة، بوصفها علامة على ماهو موجود بالنسق كله، وقد ترتب على ذلك أحد أمرين : ـ وجود النظم التى كانت ـ فيما سبق ـ تؤدى وظائفها ولكنها عجزت عن القيام بتلك المهمة الآن، أو عدم نضوج النسق الصناعى الجديد الذى ظهر، ولكنه فشل فى خلق نظم جديدة، ملائمة فى قطاعات أخرى. وباختصار، نظر علم الإجتماع فى تلك الفترة الى المجتمع الجديد على اعتبار أنه « مراهق متخلف »، أكثر منه نتاجا للعصر القديم (١).

وقد أسهم كل من « سان سيمون » و « كومت »، وأخيرا دور كايم، فى ذلك التراث السوسيولوجى الذى أكد أهمية تطوير أنساق المعتقدات، والمصالح، والرغبات المشتركة، وكذلك التجمعات الإجتماعية المستقرة. فضلا عن ضرورة ضبط الأنشطة الفنية عن طريق نقابات تشبه الروابط المهنية، تتميز بالطابع

---

(٨) Ibid, p. 92.

العام. والدور الهام فى تنظيم الحياة الشخصية عن طريق الترتيبات النظامية التى تحكمها القيم المشتركة . والهدف من هذا كله ، استعادة ما فقد ، وجعل المجتمع كلا متكاملا .

خلاصة القول ، إن علم الإجتماع فى ذلك الوقت لم يكن يرفض الدعاوى النفعية لثقافة الطبقة الوسطى الجديدة ، بل عمل على توسيعها ، وجعلها إجتماعية . وأصبح مهتما بالمنفعة الجمعية فى مقابل المنفعة الفردية ، أو بحاجات المجتمع التى تدعم استقراره وتقدمه ، أو بما هو مفيد (نافع) بالنسبة له . ومن ثم ، فقد ولد علم الاجتماع كتوازن مضاد للاقتصاد السياسى فى الطبقة الوسطى ، وكان ذلك فى الربع الأول من القرن التاسع عشر .

وهكذا ، ركز علم الاجتماع معظم دراساته على ما هو إجتماعى ، وخصوصاً ، ما تعلق بالأسرة ، والجماعات السلالية ، والمجتمع الحضرى ، والإنتحار ، والجريمة ، والطلاق . وفى كل هذه المعالجات المدرسية . كان علم الاجتماع يمثل دراسة ما هو مفتقد فى العلوم الأخرى ، وبذلك أصبح أساسا لهذه العلوم . غير أن هذا القول لا يعتبر مقنعا من الناحية العقلية ، أو المهنية . فعلم الاجتماع — على المستوى النظرى — كان ينظر إلى ذاته بوصفه نظاماً تحليليا ، يتميز بمنظورات مختلفة ، عن تلك التى توجد فى العلوم الأخرى . وهذا يعنى — من حيث المبدأ — أن علم الاجتماع يستطيع أن يقوم بدراسة أى جانب من جوانب الحياة الانسانية . أى نظام ، أو قطاع ، أو جماعة ، أو صورة من صور السلوك . تماماً كما يستطيع علم الاقتصاد أن يقوم بدراسة قضاياه المختلفة . وقد ذهب بعض علماء الاجتماع فى الفترة الأخيرة ، من أمثال : ليوبولد فون فيزه ، وجورج سيمل ، إلى أن مجال دراسة علم الإجتماع يتمثل تلك الجوانب الصورية للعلاقات الإجتماعية ، مثل : دراسة التعاون ، والتنافس ، والتكامل ، والصراع ، وتحليل المظاهر الثنائية

والثلاثية للتفاعل ، أى دراسة معدلاته . أما الفكرة الأساسية التى تكمن وراء هذا الاهتمام بالمسائل الصورية ، منذ أفلاطون ، فهى تتمثل فى قضية النظام الاجتماعى: من حيث طبيعة التكامل ، والالتحام ، والتماسك الاجتماعى ، ومصادر كل منها (١) .

ولذلك ، فقد ظل علم الاجتماع مهتما بالمجتمع « ككل » ، ولكنه أصبح ينظر إلى ذاته الآن ، باعتباره مسئولا عن بعد واحد فقط من هذا الكل ، وهو البعد الاجتماعى .

إن علم الاجتماع - من حيث النظرية - لا يختلف الآن عن أى علم آخر من العلوم الاجتماعية ، لأن كلا منها يتميز بنوع معين من الاهتمام ، وبطريقته الخاصة فى النظر إلى الكل . أما من حيث التطبيق ، فان هناك بحوثا خاصة فى علم الاجتماع ركزت اهتمامها على المسائل المختلفة ، أو على النظم والمشاكل الملموسة التى لم تتناولها علوم إجتماعية أخرى. وقد ظل علم الاجتماع علماً متخلفا من حيث تطبيقه، بالرغم من كونه مستقلا كعلم تحليلى ، يقوم بدراسة القضية العامة المتعلقة بتكامل الجماعات أو المجتمعات (٢) .

وذلك يعنى أن علم الاجتماع الأكاديمى يزعم أنه يمكن تحليل النظام الاجتماعى وفهمه ، دون الاهتمام بالمسائل والمشكلات الأساسية لعلم الاقتصاد ، وهذا يتضمن بدوره إمكان حل مشكلة النظام الاجتماعى - عملياً وعقلياً - دون توضيح مشكلة : الندرة ، التى يهتم بها علم الاقتصاد اهتماما مركزيا . ومن ثم ، فإن علم

---

(١) Ibid, p. 93.

(٢) Ibid, p. 94.

الأجتماع يهتم بمصادر النظام الأجتماعى غير الأقتصادية. هذا ويرفض علم الأجتماع الأكاديمى ذلك الرأى الذى مؤداه أن التغير الأقتصادى ، يعتبر شرطا كافياً ، أو ضرورياً ، لتدعيم النظام الأجتماعى .

وخلال هذه المرحلة ، عمل علم الأجتماع على تكوين نظرية كبرى عن المجتمع ، تؤكد بشدة أهمية الدراسة العلمية المجتمع : بنفس الطريقة التى تدرس بها العلوم الأخرى موضوعاتها . فلقد ظهرت الوضعية فى فرنسا خلال ذلك العمل الذى قام به سان سيمون فى مجال علم الأجتماع بعد ثورة ١٧٨٩ . وقام كومت بتنظيمه وتنسيقه على هيئة نظرية كبرى أثناء مرحلة إعادة البناء ، وهى فترة لحقت هزيمة نابليون .

وباختصار ، تضمنت عملية إعادة البناء الاجتماعى ، بوصفها تمثل المادة الأساسية لبلورة الوضعية السوسيولوجية ، مجموعة العوامل الكبرى الآتية (١) :

(١) صراع عميق بين طبقة النبلاء والطبقة الوسطى ، يضم الخصائص الأساسية للمجتمع القديم ، والعوامل الضرورية لتدعيم الثورة .

(٢) وجود إنشقاق بين النبلاء ، وتمزق بين المعتدلين والمتطرفين وصراع داخل الطبقة الوسطى ذاتها .

(٣) النقد الذى وجه لامكان قيام جماعة معينة بضبط المجتمع باعتبار أن تصور النظام الأجتماعى الملائم يختلف من جماعة إلى أخرى .

(٤) عجز مصادر السلطة القديمة عن الضبط الشامل ، وخصوصا بعد ظهور جماعات جديدة .

---

(١) Ibid, p. 95.

(ه) استمرار العلم فى تقدمه وتطوره ، واحرازه تقديراً عظيما . يتزايد حتى بين الجماهير .

وقد ارتبط الاتجاه الوضعى السوسيولوجى بانهيار النظم الاجتماعية التقليدية ، وهو يعبر عن ذلك فى إحساسه بعدم ملاءمة النظم الاجتماعية السائدة والمتاحة فى ذلك الوقت ، وكذلك فى بحثه المستمر عن أسلوب جديد للنظام الاجتماعى . أما السلطات التى سوف تكون مسئولة عن وضع هذا النظام الجديد ، فهى تتمثل فى العلماء ، والتكنولوجيين ، ورجال الصناعة . ويعتبر العلم طريقهم الجديد نحو بناء نظم العالم الاجتماعى .

ولذلك ، فإن الاتجاه الوضعى ، كان ينادى بعلم إجتماعى جديد ، يتميز بأنه : عملى ، ومفيد ، وأخلاقى ويعتبر أداة لصناعة النظم الاجتماعية .

ومن أجل هذا ، كانت الوضعية تعبر منذ بدايتها عن ذلك الصراع الواضح والعميق بين آرائها : فما هو « وضعى » يعنى من الناحية الاولى ، أنه يجب على الناس أن يقيموا نظمهم على قضايا علمية أكيدة ، ولكنه يتضمن من الناحية الاخرى ، أنه لا يجب عليهم أن يكونوا نقديين فحسب ، بل يجب عليهم أن يحددوا « ماينبغى أن يكون عليه المجتمع » .

قد بدأ هذا التنافر بين جانبى الوضعية ، يقل عن طريق التمايز الذى ظهر بين أتباع سان سيمون . حيث تكونت - بعد موته - جماعتان متميزتان . إحداهما ، تمركزت حول « ألفاتين Enfantin » و « بازار Bazard » ، واتفقت مع الهيجلية فى ألمانيا ، وأسهمت فى تطوير الماركسية . أما الجماعة الأخرى ، فقد تمركزت حول كومت ، واستغرقت فى علم الإجتماع الأكاديمى .

ويبدو إحد الإختلافات الأساسية بين هذين الفريقين فى تصورهما للعلم

ذاته . فقد كان كل من « أنفانتين » ، و « بازار » يعتقد فى الدور الخلاق الذى يمكن أن يقوم به : الافتراض ، والحدس ، والعبقرية فى عملية المعرفة . وباختصار ، نظرا إلى العلم بوصفه « مصباحا » أكثر منه « مرآة » .

أما بالنسبة لفريق كومت ، فعندما فشل فى الجهود التى بذلها من أجل إحراز موافقة على هذا النظام الجديد الذى حاول وضعه . وهو دين الإنسانية ، ترك هذا الجهد ، وأصبح يزيد اهتمامه بالمنهج الذى يتمكن من صناعة النظام ، أكثر من اهتمامه بصناعة النظام ذاته .

وهكذا يمكن القول بأن علم الإجتماع الأكاديمى ظهر فى صورته الوضعية ، كنتيجة لفشل جهود كومت واتباعه فى حركتهم الإجتماعية العملية من أجل إعادة البناء الثقافى .

ولقد عززت الثقافة النفعية ، فى إلتقائها بأزمة إعادة البناء ، ذلك الشعور القوى بالانفصال أو الإنقسام . ثم ترجمت الوضعية هذا الشعور بالانفصال إلى أيديولوجية وأخلاق . وكان الإنفصال أساساً مميزاً للاخلاق الموضوعية ، بينما كانت الموضوعية الوضعية ، تقدر أهمية الشعور بالإنفصال ذاته . والموضوعية هى قدرة الناس على أن يقدموا أنفسهم أو يمنحوها لشىء معين ، وطبقا لهذا المستوى ، لا تمثل هذه الموضوعية حيادا وإنما إغترابا عن الذات والمجتمع فى نفس الوقت . إنها إغتراب عن المجتمع بوصفه شيئاً غير محبب إلى الذات . فالموضوعية هى طريقة النظر إلى عالم لا يحبه الإنسان ، ولكن لا يجب عليه أن يتعارض معه . إنها تظهر عندما ينفصل المرء عن الحالة الراهنة التى يعيش فيها ، وعن النظام السائد فى الواقع الإجتماعى ، وكذلك عن النظم البديلة ذات الدلالة . والموضوعية أيضاً هى إيديولوجية هؤلاء الذين اغتربوا ، وأصبحوا بلا وطن ، بالرغم من

أنهم يمثلون الطبقة الوسطى فى مجتمعهم، ويعملون من خلال إطار الحالة الإجتماعية القائمة.

هذا ، وعلى الرغم من إدعاء الوضعية بالحياد ، إلا أن تأكيدها المعرفى كان يركز الانتباه على مسائل الواقع ، على أعتبار أن مسألة الصراع القيمى الموجودة يمكن أن تحل بعيدا عن السياسة . ودون أى صراع سياسى . ومن أجل هذا ، كانت الوضعية باستمرار، تمثل طريقة لاستبعاد الصراعات بين النظم ، وإذن لم يكن الأثر الاجتماعى للوضعيـــة محايدا . نظرا لتأكيدها على مشكلة النظام الاجتماعى . وأصوله الاجتماعية . والتعليم ; ولإصرارها على تدعيم الوضع القائم (١) :

وفى نفس الوقت الذى كانت الطبقة الوسطى تسعى فيه إلى تقوية وضعها الجديد فى المجتمع ضد الصفوة القديمة . وجدت نفسها أمام طبقة البروليتـاريا التى ظهرت حديثاً . والجموع الحضرية التى صادرت النضال الثورى للطبقة الوسطى . من أجل تحقيق مصالحها الخاصة .

ولذلك ظلت الطبقة الوسطى فى القرن التاسع عشر . فى ذلك الوضع الذى تنادى فيه بتدعيم مصالحها . مما جعلها تناضل على جبهتين : فهى تحتاج إلى إستكمال ثورتها من ناحية ، وحماية وضعها وملكيتها من التفكك الحضرى. وطبقة البروليتاريا . من الناحية الأخرى .

ومما هو جدير بالذكر أن علم الاجتماع التطورى عند كومت . يدعى أن ما هو

---

(١) See , Saran. A. K. "Some Aspects of Positivism in Sociology" Transactions of The fifth World Congress of Sociology, International Sociological Association, 1962, pp. 220 - 23:

مطلوب فى هذه الحالة ، من أجل إكتمال المجتمع الجديد ، ليس هو الثورة ، بل التطبيق السلمى للعلم والمعرفة (الاتجاه الوضعى) ولذلك فإن علم الاجتماع عند كومت ، كان يعكس رغبة الطبقة الوسطى فى تدعيم وضعها الاجتماعى الجديد ضد مسالة إعادة البناء ، بينما يستبعد الثورة منذ البداية (١). ومن أجل هذا كان علم الاجتماع الجديد يعبر عن شعور الطبقة الوسطى الذى كان مقيـدا أو محصورا بين الماضى والمستقبل ، أو بين الصفوة القديمة التى ما زالت قوية ، وبين الجموع التى ظهرت حديثا .

ولكن علم الاجتماع لم يتخذ وضعه الطبيعى ، إلا عندما عمق الاتجاه الصناعى سيطرته على المجتمع ، أى عندما أصبحت الطبقة الوسطى مطمئنة إلى عـدم قدرة الصفوة القديمة على عملية إعادة البناء ، وكذلك عندما لم تعد تنظر إلى الماضى باعتباره يهددها ، أو إلى المستقبل بوصفه يتطلب شيئا مختلفا عما هو موجود : فى هذا الوقت فقط استطاعت الطبقة الوسطى أن تتخلى عن نظرية التخلف الثقافى التى تفسر التوترات الاجتماعية القائمة باعتبـارها تنتج عن النظم القديمة . وكان ذلك ضمن الشروط الاساسية التى أوجدت ما سمى بنظامية علم الاجتماع فى الطبقة المتوسطة . ولذلك ، فإن النظرية الاجتماعية الوظيفية الحديثة ، بل وعلم الاجتماع ذاته ، يعتبران - إلى حـــد كبير - نتاج تلك المجتمعات التى كان الاتجاه الصناعى لدى الطبقة المتوسطة فيها ، يتحرك بسرعة فائقة ، ونقصد بها : فرنسا ، وإنجلترا ، والولايات المتحدة .

---

(٢) Gouldner, Op. cit, p. 106.

المرحلة الثانية : الماركسية :

أعطت الماركسية قيمة مركزية للمنفعة الاجتماعية ، وبالرغم من ذلك كان موقفها معارضا للنفعية عند بنتام. ويلاحظ أن ماركس نظر إلى المنفعة بوصفها معيارا ، وحاول أن يعممها ، ويعطيها الطابع الاجتماعي الاشتراكي فى الوقت الذى حاول فيه أن يوجد التوازن بين المنفعة واعتبارات الحاجات الانسانية ، حتى أثناء مراحل التطور الصناعى المبكرة (١) .

والواقع أن موقف ماركس من الاتجاه النفعى كان معقداً جداً ، ولفهم هذا الموقف الجدلى ، لا بد من التعرض لأهم ماسافه من دعاوى :

أولا : أصر ماركس على أنه لا يمكننا أن نتحدث عن المنفعة بوجه عام ، بل عن المنفعة بالنسبة لشىء ما . ولذلك أكد أنه لا يمكننا أن نقول عن شىء ما أنه نافع للانسان ما لم يكن لدينا تصور عام وشامل عن الطبيعة الانسانية ، ومفهوم تاريخى لها .

ثانيا : أدان ماركس التفسيرات التى أرجعت جميع صور النشاط الانسانى - كاللغة ، والحب إلخ ... - إلى علاقة نفعية . فأحياناً ، يستخدم ، الانسان أشياء معينة بوصفها وسائل لأهداف أخرى ، ولكن ذلك لا يتم فى ظل جميع الظروف .

ثالثا : أدان ماركس إدعاء بنثام : أن ما هو مفيد بالنسبة للبورجوازية الانجليزية ، مفيد أيضا للبشرية جميعا .

---

(١) Kolakowski, Leszek, Toward a Marxist Humanism : Essayz on the life Today, Grove, 1968.

وأخيرا : إن النقطة المركزية فى تحليل ماركس للرأسمالية ، والتى تتعلق بوجهة نظـــره فى الاتجاه النفعى كأيديولوجية بورجوازية - أنه على الرغم من أن البورجوازى يتكلم عن « المنفعـة » ، فإنه يقصد فى الواقـع « الربح » . كما إن البورجوازى لا ينتج ما هو « نافع » ، ولـكنه ينتج ما هـــو « مربح » ، وما يمكن أن يباع . ومن ثم فإن النفعيـة وعى زائف عند البورجوازى .

يمكن أن نستخلص من هذا كله ، أن نقد ماركس للاتجاه النفعى ، يتركز أساسا حول الصورة البورجوازية المحدودة لهذا الاتجاه ، فقد هاجم فـكرة الربح الفردى الخاص ، وذهب إلى أن الاتجاه النفعى يعتبر - إلى حد كبير - نزعة أنانية فردية. ومن أجل هذا ، فإن ماركس لم يعمم نقده لجميع صور الاتجاه النفعى ، بل ركزه على الصورة البورجوازية له . وانصب اهتمامه على ما هو نافع للانسانية كلها ؛ ويقول فى هذا الصدد ، أنه يجب على المرء أن يختار مهنة يستطيع من خلالها أن يسهم فى نفع الانسانية ، وإذا لم يفعل ذلك ، فسوف يتحول إلى كائن عديم الفائدة (١) .

كان ماركس إذن نفعياً متطوراً ، ونفعيـاً اجتماعياً ، حيث أراد أن يكون الناس نافعين للمجتمع كله ، وبذلك كان رائداً للاشتراكية التقدمية ، وخصـوصاً عندما طالب أن يعطى كل بقدر قدراته ، وأن يأخذ كل بقدر حاجاته ، ، وهذا هو الاتجاه النفعى الأخلاقى (٢) .

ولذلك فإنه يمكن القول ، بأن الماركسية كانت تتضمن تناقضا وجدانياً نحو

---

(١) Gouldner, Op. cit, p. 110.

(٢) Gouldner, Op. cit, p. 111.

الاتجاه النفعى ؛ فهى تعارض الاتجاه النفعى الفردى ، ولكنها فى نفس الوقت تعترف بضرورة الاتجاه النفعى الاجتماعى .

لقد بدأت الخصائص البنائية الكبرى لعلم الاجتماع الغربى تتطور بعد ظهور الماركسية ؛ حين انقسم إلى معسكرين ، لكل منهما تراثه الفكرى المتكامل ، وقضاياه المتميزة ؛ الأول ، يؤيد برنامج كومت فى « علم الاجتماع الخالص » ، الذى أصبح بمرور الوقت علم إجتماع أكاديمى ، أى علم إجتماع الطبقة الوسطى الذى يدرس فى الجامعات ، والذى حقق تطوره النظامى الكامل فى الولايات المتحدة . والآخر ، هو علم الاجتماع عند كارل ماركس ، أو الماركسية ، وهو علم إجتماع المثقفين الموجه نحو البروليتاريا ، وقد حقق نجاحا عظيما فى أوربا الشرقية .

أما بالنسبة للماركسية ، فبدلا من أن تحدد ذاتها بوصفها علم اجتماع نظرى خالص ، كما فعل كومت - أكدت « وحدة النظرية والتطبيق . وإذا كان كومت قد اندفع وراء نداءات الطبقة المتوسطة . فإن ماركس لم يجد مادته العلمية فى تلك الطبقة التى استطاعت أن تتكامل فى مجتمع الطبقة المتوسطة الجديدة بسرعة ، بل وجدها فى تلك الطبقات التى مازالت هامشية ، ومضطهدة وبلاقوة ، ولا تتمتع بأرباح وفوائد المجتمع الجديد .

ولم تكن الماركسية أقل تحيزاً من الاتجاه الوضعى ، ولكنها أفلحت فى تطوير تلك المسائل التى تجاهلها كومت . فبدلا من أن تنظر الى المجتمع بوصفه يميل بطريقة طبيعية الى الثبات والنظام - كما رأى كومت - أدركت أنه يتضمن « بذور فنائه » . وبدلا من أن تشغل نفسها بالاستقرار الاجتماعى ، نظرت الى الواقع الاجتماعى بوصفه عملية ؛ وحاولت أن تفهم التغير الإجتماعى ،

وتعمل على تحقيقه فى آن واحـــد . إنها لم تركز إهتمامها على دراسة الجماعات ، الطبيعية ، الصغرى ، كالأسرة ، التى إعتقـد ماركس أنها تدعم النظام بطريقـة تلقائية . ولـكنها إهتمت بتحليل الطبقات الإجتماعية الـكبرى التى يؤدى الصراع بينها إلى تدمير النظام الإجتماعى، وإهتمت كذلك بالمنظمات المخططة ، كالأحزاب السياسية ، والنقابات ، التى تتمكن بطريقة رشيدة ، من تعديل العالم الإجتماعى بما يتفق مع متطلبات العلم الاجتماعى لقد بحدت الماركسية العمل ، والمعرفة ، والإندماج ، بينما خلدت الـكومتية الأخلاق ، والمعرفة ، والإنفصال العلمى (الموضوعية) . ويمكن تمثيل الصيغـة الكومتيه فى : منهج علمى × ميتافيزيقيا هيراركية = علـم اجتماع وضعى . أما الصيغة الماركسية فهى : منهج علمى × ميتافيزيقا رومانتيكية = اشتراكية علمية . لقد أكد ماركس على الجـانب الإقتصادى ، والصناعى. الذى كان موجوداً عند سان سيمون ـ ولكنه نظـــر إليـــه بوصفه مسألة إقتصاد وقوة ، أكثر من كونه علماً وتكنولوجيـــا . وهكذا أصبح الاتجاه الكومتى ، وعلم الإجتماع الأكاديمى ، بمثابة علم إجتماع وأيديولوجية للطبقات التى حققت تقـدماً هائلا وسريعـاً عن طـريق التصنيع . أما الماركسية فقد أصبحت . علم إجتماع تبنته المناطق النامية أو الأقل سرعة فى تطورها ، والجماعات الأقل تكاملا فى المجتمعات الصناعية ، والطبقات التى تناضل ولكنها تحرم من أرباحها .

المرحلة الثالثة : علم الاجتماع الكلاسيكى :

ظهر علم الاجتماع الكلاسيكى خلال الربع الأخـير من القرن التاسع عشر ، وقد تميزت هذه الفترة بالتصنيع المتفوق ، والتنظيم الكبير ، والإمبريالية المتقدمة.

ويمثل هذا العلم إنجازاً كبيراً للطبقة الوسطى من أوروبا الغربية ،فى أواخر القرن التاسع عشر ؛ وذلك عندما تدعمت المشروعات الفردية الحـــرة ، عن طريق التوسع فى التنظيمات الصناعية البيروقراطية الـكبيرة الحجم ، وعندما أصبحت الطبقة الوسطى مهددة دائماً بظهور الإشتراكية الماركسية (١) .

وقد إختلف علم الإجتماع الاكاديمى فى مرحلته الكلاسيكية ، عنه فى المرحلة الوضعية ، من عدة جوانب. وتتمثل أهم مظاهر هذا الإختلاف فى ضمور الإتجاه التطورى فى كتابات كل من دوركايم، وماكس فيبر ، وإحلال الدراسة «المقارنة» محله . وهذا هو أحد الأسباب التى تفسر عـدم إعتبار « هربرت سبنسر » ضمن المفكرين المميزين للمرحلة الكلاسيكية . ففى ألمانيـــا - بوجه خاص - تركزت الدراسات المقارنة على مجتمعات أوروبا الغربية، أو الحضارات الكبرى المتقدمة. وفى فرنسا ، إهتمت الدراسات المقارنة بجمع معلومات عن المجتمعات المختلفة -كما هو الحال بالنسبة لمدرسة دوركايم. وهنا حدث إلتقاء بينها وبين الأنثروبولوجيا، وأصبحت ذات تأثير على تطور الانثروبولوجيا البريطانية من خلال أعمال « راد كليف براون » . ومن ثم كان إنهيار التطورية ، مرتبطاً باستمرار ، بظهور الوظيفية ، وقد أثر ذلك على تطور كل من علم الإجتماع والأنثروبولوجيا على حد سواء .

ويمكن فحص تلك الحركة التى كانت تبتعد باستمرار عن الإتجـاه التطورى الوضعى ، وتقترب من الاتجاه الوظيفى ، فى أعمال دوركايم ، وخصوصاً عندما تقارن بأعمال كومت .

لقد تميزت نظرة كومت إلى المـاضى بتناقض وجـدانى واضح : إذ كان

---

(١) Gouldner, Op. cit, pp. 113 – 116.

مرتبطاً به أشد الارتباط ، وخائفاً منه فى نفس الوقت أكثر من دوركايم. وكان ينظر إلى المجتمع الوضعى الجديد ، بوصفه مرحلة فحسب ضمن عملية تطورية ، على الرغم من اعتقاده بأنها أرقى مرحلة فى التطـور يمكن أن يصل إليها الجنس البشـــرى (١) .

أما دوركايم ، فقد كان له موقف آخـر مختلف تماماً . حيث أصبح المجتمع الصناعى الحديث، فى زمانه ، أكثر تطـــوراً مما كان عليه فى عصر كومت وكان التهديد الحقيقى ، هو ذلك الذى تمارسه الصفوة القـوية فى ذلك الوقت ، التى تريد الإصلاح وإعادة البنـــاء . وباختصار ، فإنه لم يمكن ينظر إلى الخطر على أنه موجود فى شىء متعلق بالماضى، ولكنه موجود فى الوقت الحاضر.

إن الخطـر الحقيقى الذى يؤثر فى المجتمع ، يتمثـل فى صفــة « النهم » (Insatiability) الفطرية التى يتميز بها الانسان ، والتى سوف تظـل موجودة فى كل المجتمعات ولن تتغير فى المستقبل . وفى رأى دوركـــايم لن تستطيع الاشتراكية أن تؤدى إلى تغير فعال فى هذا الشأن ، فهى صفـة ضرورية ولازمة للانسان. وقد كانت هذه الفكرة متضمنة ـ بصورة أخرى ـ فى وجهة نظر ماكس فيبر ، عن التصنيع الحديث بوصفه «بيروقراطياً» بطبيعته ، وحتى فى الاشتراكية ذاتها ، لن يكون التصنيع أقل بيروقراطية .

وقد تبنت الاشتراكية ، والماركسية ـ بمنظورها الموجه نحـــو المستقبل ـ إتجاهاً تاريخياً وتطورياً ، يؤكد أن المجتمع الراهن لابد أن يتبعه مجتمعاً آخـر يختلف عنه إختلافاً جذرياً . وبالنسبة لهذا الموقف ، ادعى دوركايم أن العـلم

---

(١) Gouldner, Op cit, p. 117.

الاجتماعى لم يصل بعد إلى درجة النضوج التى تمكنه من رؤية المستقبل. وباختصار كان دوركايم ينظر إلى علم الإجتماع ، بوصفه علماً اجتماعياً للحظة الحاضرة ، وهذا المنظور هو الذى تبناه الإتجاه الوظيفى المعاصر .

ويتميز إبتعاد دوركايم عن الإتجاه التطورى ، واقترابه من الدراسات المقارنة ، بخاصية فكرية هامة ، تتمثل فى تجاهل التساؤل الذى مؤداه : هل لمجتمع الماضى أى رابطة تاريخية معروفة ، تربطه بمجتمع الحاضر ؟ ولذلك أمكن دراسة مجتمعات متعددة غير المجتمعات الأوروبية المتقدمة ، وخصوصاً المجتمعات القبلية التى لم يعرف بعد تاريخها . ومن أجل هذا أسهم إتجاه دوركايم فى تطوير الانثروبولوجيا وخصوصا فى إنجلترا .

لقد إنتقل المفهوم الواسع « للمنفعة » والذى بدأه الاتجاه الوضعى ، إلى الاتجاه الوظيفى من خلال أعمال دوركايم ، ثم انتشر فى الأنثربولوجيا البريطانية . فاستطاعت الوظيفية أن تبرر تلك المشاعر العملية ، والنفعية لهؤلاء الذين نشأوا فى ثقافة الطبقة المتوسطة ، والذين يشعرون بأنه يجب تقييم الأشياء والناس فى ضوء مدى ما يحققانه من منفعة ، ولذلك حدث إلتقاء بين الإتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع وبين الطبقة المتوسطة ، فى صراعها ضد الجموع الجديدة ، وضد الصفوة القديمة .

أما بالنسبة للألمان ، ونخص بالذكر ماركس ، وماكس فيبر ، فقد رفضوا الاتجاه الوظيفى . ولذلك فقد تميز علم الاجتماع الألمانى ، باتجاه مضاد للنفعية ، ومثال ذلك أن علم الاجتماع الدينى عند ماكس فيبر ، ركز على أهمية الأفكار بوجه عام ، والأخلاق الدينية بوجه خاص ، باعتبارها تؤثر فى التطور الاجتماعى

وفى السلوك الانسانى ، بصورة تفوق تركيزه على الفعل الاجتماعى من حيث وظائفه أو نتائجه النافعة .

وقد تبنى دوركايم موقف النفعية المتقدمة ، عندما أكد ، فائدة ، تقسيم العمل . فذهب إلى أنه ليس مفيداً أو نافعاً من الناحية الاقتصادية فحسب ، بل إنه وسيلة لزيادة الانتاج ، وله أيضاً وظيفة أخرى ذات أهمية كبرى ، أو له فائدة أخرى ، وهى تحقيق نوع من التضامن الاجتماعى العضوى . وقد ذهب دوركايم إلى أن التنظيم الجديد لتقسيم العمل ، ليس سوياً ، ولذلك فإنه يحتاج إلى أخلاق جديدة ، تعمل على تقييد نزوات الناس ، وتنظيم وربط التخصصات المهنية ، وجعل الناس يوافقون على الأدوار والمكافآت المتمايزة ، ومن ثم ، فإن تركيز دوركايم على الأخلاق ، وتقسيم العمل ، يعكس إهتمامه بوظائف كل منهما ، وبمبلغ ضرورتهما ، وفائدتهما لتدعيم المجتمع والنظام الاجتماعى . فالأخلاق عند دوركايم ، هى التى تسهم فى التضامن الاجتماعى أو تفيده ، ولذلك يمكن القول بأن نظرة دوركايم إلى الأخلاق تلتقى مع إحساس البورجوازية بما هو مفيد ، وخصوصاً عندما ذهب إلى القول بأنه ليس هناك شيء نافع للمجتمع أكثر من الأخلاق (١) .

وإذا إنتقلنا بعد ذلك إلى مجال الدراسات الأنثروبولوجية وبخاصة تلك التى تأثرت بأفكار دوركايم، سنجد أن الاتجاه الوظيفى كان واضحاً فى الأنثروبولوجيا البريطانية أكثر منه فى علم الاجتماع ، ومما لا شك فيه أن بريطانيا لم تبدأ فى تطوير علم اجتماع نظامى أكاديمى ، إلا فى السنوات الأخيرة . أما سبب عدم وجود علم إجتماع وظيفى ، وضعف التطور النظامى لعلم الاجتماع بوجه عام ،

---

(١) Gouldner, Op. cit, ppp 122 – 123 – 125.

فيمكن إرجاعه إلى وجهة النظر التى تربط بين علم الاجتماع الوظيفى والاتجاه النفعى . وهكذا يحق لنا أن نتساءل : لماذا وجدت الأنثروبولوجيا الوظيفية فى بريطانيا ، بينما لم يوجد علم اجتماع وظيفى ؟ .

تحتاج الاجابة على هذا السؤال ، إلى تفسير يضع فى إعتباره سبب وجود علم الاجتماع الوظيفى فى بعض الحالات ، وعدم وجوده فى حالات أخرى . ويعتبر تحليل « بيرى أندرسون Perry Anderson » لهذه المشكلة ، تحليلا ملائما فى هذا الصدد ، فقد ذهب إلى أن الطبقة الوسطى الانجليزية ، قد اندمجت فى الارستقراطية الانجليزية ، بسبب الأذى الذى سببته لها الثورة الفرنسية ، وخوفها من حركة الطبقة العاملة ، فبدلا من أن تبقى متميزة عن الارستقراطية ، اختلطت معها لكى تشكل طبقة حاكمة « مركبة » . ولذلك ، ظلت الثقافة البريطانية ، تحت التأثير الارستقراطى ، ولم يعد الاتجاه النفعى عند الطبقة الوسطى ، له أثر ثقافى مسيطر. والواقع أن الارستقراطية الانجليزية ، مثلها فى ذلك مثل بقية الارستقراطيات فى العالم ، لم تكن تعتقد أن وضعها الاجتماعى يمكن تبريره عن طريق عمل شاق ، ودراسات متخصصة ، بل عن طريق الأعمال التى يقوم بها نبلاؤها . إن ذلك يفسر عدم وجود علم اجتماع وظيفى فى بريطانيا ، ولكنه لم يوضح سبب عدم وجود أى نوع من علم الاجتماع الأكاديمى هناك ، وقد أرجع « بيرى اندرسون » ذلك الى عدم وجود تراث ماركسى قوى فى بريطانيا .

ولقد انصب الاهتمام الأساسى للأنثروبولوجيا البريطانية على دراسة المستعمرات البريطانية فى كل مكان ، ولذلك ، فإن الأنثروبولوجيا التطورية تكونت فى مرحلة السيطرة الانجليزية على المستعمرات . أما الاتجاه الوظيفى ، فقد ظهر بعد الحرب العالمية الأولى ، عندما تغيرت الامبراطورية الانجليزية ،

ولم يعد الانجليز يشعرون بتلك الثقة فى أن مجتمعهم يمثل مرحلة تطورية عليا ، يستطيع فيها أن ينظر إلى الشعوب الاخرى ، بوصفها أدنى منه . ولذلك فإن ظهور الاتجاه الوظيفى ، فى الأنثروبولوجيا بوجه خاص ، ارتبط بتلك المشاعر المتغيرة التى سادت أوروبا .

ويمثل الأنثروبولوجيا الوظيفية عالمان مبرزان هما : رادكليف براون ، ومالينوفسكى . وقد تأثر كل منهما تأثراً عميقاً بدوركايم ، ولو أن هذا التأثر كان مختلفاً إلى حد ما . وعلى أى حال ، فان كلا منهما وافق على وجهة النظر المضادة للتطورية ، وذهب إلى أن الممارسات ، والعادات الجمعية والمعتقدات ، يجب أن تفسر فى ضوء حاضرها ، ووظيفتها الراهنة فى المجتمع الذى توجد فيه .

وكانت أفكار كل من مالينوفسكى ورادكليف براون جسراً يصل بين دوركايم والإتجاه الوظيفى الحديث فى علم الإجتماع . فبالرغم من محاولة أصحاب هذا الإتجاه ، تنقية نظامهم العلمى من دعاوى الوظيفية القديمة التى وضعها الأنثروبولوجيون ، إلا أنه لايمكن إنكار تأثرهم الشديد بها . ومن مظاهر هذا التأثر موقف الوظيفيين المتأخرين المألوف من الاتجاه التطورى . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل إن الإتجاه الوظيفى الحديث فى علم الإجتماع ، قد تأثر بدعاوى الوظيفية القديمة ، وأهمها تركيز البحث والتحليل على الحاضر فقط دون الرجوع إلى الماضى ، أو النظر إلى المستقبل .

إن هذا الموقف الذى إتخذته الوظيفية الأنثروبولوجية من التاريخ ، جعلها تقوم بدراسة المجتمعات دون الاهتمام بتاريخها المدون ، بل إن الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع ، تبنى هذه النظرة حتى فى تحليله للمجتمعات المتحضرة ذات

التاريخ المكتوب . ومن أجل هذا ، لم يستطع أصحاب الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع أن يحققوا ما حققه علماء الأنثروبولوجيا الوظيفية وهو دراسة المجتمعات باعتبارها أن كلا منها «كل» لايقبل الانقسام ، حيث كان من الممكن تطبيق هذه الطريقة عند الانثروبولوجيين بواسطة أسلوب الملاحظة ، لأن المجتمعات التى كانوا يدرسونها لم تزد عن بضعة مئات من البشر . أما بالنسبة لعلماء الاجتماع الذين تبنوا هذا المنظور ، واستبعدوا البعد التاريخى ، فقد وجدوا أنه من الصعب جداً دراسة المجتمعات «ككل» . ومن ثم ، فإن أصحاب الاتجاه الوظيفى فى الأنثروبولوجيا ، استطاعوا دراسة المجتمعات التى لم تعمل بعد على تطوير نظم سياسية حديثة ، والتى لم تحصل على إستقلالها الوطنى ، ولا تعرف شيئا عن التصنيع . وكانت مهمة المسئولين عن إدارة المستعمرات ، لاتتمثل فى تيسير التغير ، بل فى الاحتفاظ بالحالة الثابتة والمستقرة للنظام .

ولكن بينما كان المسئولون عن إدارة المستعمرات ، وكذلك الأنثروبولوجيون ، يرغبون فى أن تحافظ هـذه الثقافات على وضعها الراهن ، فإن هؤلاء المسئولين ، كانوا يطالبون الأهالى بدفـع الضرائب ، وكانوا فى نفس الوقت يرغبون فى أن يـكون السكان فى حالة لائقة للعمل . ولذلك ، ظهر التناقض فى سياسة ادارة المستعمرات ، وكان من الضرورى حدوث إحتكاك بين الأهالى وبين القيم البريطانية والتـكنولوجيا . ولـكن الأنثروبولوجيا الوظيفية المبكرة ، لم تكن تهتم بمثل هذا الاحتكاك ، أو بالعلاقات بين القوة الاستعمارية والمجتمع المستعمر .

والواقع أن مالينوفسكى نظر الى النظم الاجتماعية عند البدائيين ، من منظور أرستقراطى ، حيث لاحظ وجود أوجه شبه بين أعراف الأرستقراطية وأعراف تلك المجتمعات البدائية . ولذلك ، فإن دفاع مالينوفسكى عن أعراف أهالى هذه

المجتمعات ، يتضمن دفاعاً عن أعراف الأرستقراطية . ومن ثم ، فإن الاتجاه الوظيفى ، لايعبر عن أيديولوجية البورجوزاية التى تتميز بالفردية ، والمنافسة ، حيث أن الأيديولوجية الاجتماعية لهذه الطبقة ، كانت « الداروينية الاجتماعية » . وإنما أصبح الاتجاه الوظيفى بمثابة النظرية الاجتماعية للطبقة المتوسطة العليا التى لا تركز على المنافسة الفردية ، نظراً لأن آمالها كانت تتمثل فى التآلف مع الأرستقراطية.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

إن أحـــد الخصائص الجديدة والهامة لعلم الاجتماع الأكاديمى فى المرحلة الكلاسيكية، هى علمانيته .ففى المرحلة الأولى ، أو الوضعية ، كان علماء الاجتماع يعالجون الدين كمجال يحتاج الى بيان عملى . وينطبق ذلك على كل من سان سيمون، وكومت ، اللذين كرسا جهدهما العقلى لوضع خطط تفصيلية لديانات انسانية جديدة . وقد نظرا الى خططهم الدينية بوصفها مشروعات للدارسين ولأنفسهم فى الوقت نفسه . وتعتبر ضرورية لأنها تمد دراساتهم السوسيولوجية بالطابع العملى . فكأن «دين الإنسانية» هو علم الاجتماع التطبيقى عند أصحاب الاتجاه الوضعى.

أما فى المرحلة الكلاسيكية ، فقد اختفى دين الانسانية كبناء متميز فى عمل علماء الاجتماع ، وحل محله علم الاجتماع الدينى . حيث نجحت عملية خلق أديان جديدة ، عن طريق دراسة الأديان الموجودة أو التاريخية . ولا يعنى ذلك أن علماء الاجتماع فى المرحلة الكلاسيكية نظروا الى الدين بوصفه ظاهرة اجتماعية لاتقل فى اهميتها بالنسبة للمجتمع عن أى ظاهرة أخرى . حيث كانت النظرة الى الدين يحمل أهمية خاصة بالنسبة لبعض أعمال الانسان . ان اهتمام علم الاجتماع بالدين أصبح علمانياً ، دون أن يتضاءل . ويمكن أن يلاحظ هذا التحول ، فى الاختلاف بين معالجة كل من كومت ودور كايم للدين ، اذ أن

الأخير لم يعبر عن الدافع الدينى كما عبر عنه الأول ، لأنه لم يتصور وجود دين للانسانية . وقد أعطى دوركايم علم الاجتماع صورة علمانية جديدة شاملة .فأصبح هنده يهتم فى المحل الأول بما هو كائن لا بما ينبغى أن يكون . فمفهوم « التحرر من القيمة Value Free فى علم الاجتماع ، ظهر فى أعمال دور كايم بشكل واضح.

ولقد صاحب هذا التغير البنائى فى مفهوم علم الإجتماع ، ودوره أثناء المرحلة الكلاسيكية ، تكامل جديد لهذا العلم داخل الجامعات النامية الجديدة فى أوربا. حين أصبحت الجامعة ذاتها ، فى هذه المرحلة ، هيئات تستطيع أن تعمل من أجل تكامل المجتمع على المستوى القومى والعالمى . من خلال اسهامها فى تطوير صورة معينة عن الثقافة القومية ، والدفاع عن الدولة القومية كثقافة محددة .

وبإنتهاء القرن التاسع عشر ، تحقق إستقلال السياسة عن الدين ؛ وقد عمق هذا الإستقلال صلة الدولة كهيئة علمانيـــة بالجامعة . والحقيقة ، أنه كلما ارتبطت الجامعة بالدولة ، واندمجت مع المشاعر القومية ، أصبحت عرضة للحركات الطلابية الإشتراكية . ومن ثم ، أصبح علم الإجتماع الأكاديمى الجديد ، على صلة بالإشتراكية والماركسية ، من خلال بناء الجامعة المتصل بالدولة . ومع ذلك فقد وجه علم الإجتماع الأكاديمى نقداً مدرسياً للاشتراكية والماركسية ، وإنصبت معظم المناقشات وخصوصا التى أوضحتها محاضرات دوركايم فى الإشتراكية ، على التمييز بين علم الإجتماع والاشتراكية ، والفصل بينهما . وهكذا ظهر التمايز البنائى الواضح بين علم الاجتماع الأكاديمى والاشتراكية ، فى المرحله الكلاسيكية . وفى هذا الوقت شغل علم الاجتماع نفسه (داخل الجامعه) بالحالة السياسية والدينية الراهنة .

المرحلة الرابعة : الاتجاه الوظيفي البنائي عند بارسونز :

بدأت المرحلة الرابعة من مراحل تطور الفكر السوسيولوجي في الثلاثينات داخل الولايات المتحدة . وتمثل الأعمال الاولى عند بارسونز محاولة التوفيق بين المحتوى « الروحي » للاتجاه الرومانتيكي الألماني ، الذي يركز على التوجيه الداخلي للفاعل ، وبين تراث النظرية الوظيفية الفرنسية .وعلى أي حال ، فقد وجه بارسونز اهتمامه الأساسي منذ البداية الى المحتوى الرومانتيكي ، الذي ظهر في موقفه الطوعي، ولذلك فإن نظريته تشتمل على إتجاهين متميزين من الناحيتين التاريخية ، والثقافية . فهناك الاتجاه النفعي الاجتماعي الفرنسي ، الذي تفسر من خلاله الترتيبات الاجتماعية في ضوء فائدتها ووظيفتها بالنسبة للجماعة الكبرى أوالمجتمع، وقد نظر اليها بوصفها « نسق » العوامل المرتبطة . وهناك أيضا الأهمية الرومانتيكية التي تنسب إلى العوامل الخلقية أو القيمية ، التي تمارس وظيفتها في تدعيم الامتثال.

إن التكامل الذي حققه بارسونز بين الاتجاه الوظيفي والاتجاه الطوعي ، يمثل إنعكاسا للصراع بين المنفعة ، والأخلاق أو « الحقوق الطبيعية » الذي وجد في الثقافة البورجوازية ، ومن ثم ، فإن محاولة بارسونز تمثل مواجهة لهذا الصراع الثقافي ومحاولة حله على المستوى النظري .

وقد أضاف بارسونز تأكيداً أمريكيا ، الى تراث الاتجاه الرومانتيكي الألماني . الذي ركز على الأهمية « الداخلية » المثل التي تشكل الحياة الخاصة للعقل ، والتي تختلف عن الحياة العامة والسياسية . وعندما توصل بارسونز إلى ذلك الاتجاه الرومانتيكي الألماني ، من خلال أعمال ماكس فيبر ، اهتم بدور الأفكار بوصفها بواعث على الفعل الخارجي أو العام . ولذلك فقد رفض بارسونز الاتجاه التشاؤمي الذي ميز الرومانتيكية الألمانية ، وعمل

على بلورة صياغة أخرى تفاؤلية وإيجابية للرومانتيكية فى علم الاجتماع .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، ظهر إتجاه فى علم الاجتماع الامريكى ، يعود إلى الاتجاه النفسى الاجتماعى ، وتبلور فى أعمال بارسونز بوجه خاص وفى النظرية الوظيفية بوجه عام . ففى مؤلفات بارسونز الأخيرة ، ونخص بالذكر منها كتابه عن «النسق الاجتماعى ١٩٥١» ، نجده يعلق أهمية كبرى على إمتثال الأفراد للقيم ، وإسهامات البناءات والعمليات الاجتماعية المختلفة فى تكامل الأنساق الاجتماعية . وفى نفس الوقت تقريبا ، إتجه «روبرت ميرتون» إتجاها نفسيا اجتماعيا ، ظهر فى تأكيده عن النتائج الوظيفية للنماذج الاجتماعية المختلفة ، بوصفها نقطة إنطلاق فى دراساته . وقد اكتمل هذا الاتجاه النفسى الاجتماعى فى علم الاجتماع الأمريكى ، فى نظرية «جورج هومانز» عن التبادل .

والواقع أنه يمكن تحليل البناء الداخلى لعلم الاجتماع فى ضوء تلك الموضوعات التى إستبعدت ، ولم تحظ بالدراسة . فبالاضافة إلى التجاهل المنظم فى علم الاجتماع للعوامل الاقتصادية ، هناك قصور عقلى واضح فى البناء الداخلى للتطبيق السوسيولوجى الأكاديمى : وأقصد به عدم وجود علم إجتماع للأخلاقيات أو القيم . ومع أن علم الاجتماع الأكاديمى ، بدأ بالاتجاه الوضعى السوسيولوجى الذى ركز اهتماما كبيرا على أهمية القيم الأخلاقية المشتركة ، وأن إميل دوركايم حاول إقامة علم اجتماع أخلاقى ، وأن الاهتمام بالقيم الأخلاقية ، كان يشغل مكانة هامة فى علم الاجتماع الدينى عند ماكس فيبر ، وفى النظرية «الطوعية» عند تولكوت بارسونز ، فلايزال هناك عدم إهتمام واضح عند المدرسيين بما يمكن أن يسمى «علم إجتماع القيم الأخلاقية» ولذلك فإن علم الاجتماع الأكاديمى ، من الناحية البنائية ، يتميز بإهتمامه بالقيم

لكنه أخفق فى اقامة علم خاص بها . وقد أدى هذا التناقض البنـائى فى علم الاجتماع ، إلى وجود مشكلات هامة ، يمكن ملاحظتها فى النظرية الاجتماعية عند بارسونز .

ولعله من الضرورى أن نربط الاتجاه البارسونى المضاد للنفعية ، فى فترة ماقبل الحرب ، بسياقه التاريخى أثناء فترة « الكساد العظيم » ، فإتجاه بارسونز المضاد للنفعية ، أو نظريته « الطوعية » تعتبر ـ إلى حدما ـ استجابة للصراعات الاجتماعية . وللانحلال الأخلاقى الذى ظهر خلال هذه الفترة . وقداعتقد بارسونز أن الأخلاق هى التى يجب أن تدعم بناء المجتمع مرة أخرى ، دون إحداث أى تغيرات فى النظم الاقتصادية ، ودون الإلتجاء إلى اعادة توزيـع الدخل والقوة ، لأن ذلك من شأنه تهديد الامتيازات القائمة . وباختصار ، لم تلتق نظرية بارسونز ـ فى تلك الفترة ـ بدولة الرفاهية .

وقد اختلفت فترة الحرب عن الفترة السابقة عليها وهى فترة الكساد العظيم . فأصبحت الدولة تتصرف باسم الوحدة القومية ، وبدأ علماء الاجتماع يعملون عند البيروقراطيين الفدراليين . وهنا أحرزوا تفوقاً عظيما، وخاضوا تجربة هائلة مع القوة ، والهيبة . ومنذ ذلك الوقت ، تدعمت علاقتهم بالدولة .

وهكذا ظهر الإتجاه الآخر عند « بارسونز » ، الذى يلتقى مع دولةالرفاهية ، ففى فترة ما بعد الحرب ، تركز اهتمام بارسونز على المجتمع بوصفه « نسقا اجتماعيا » مكونا من نظم متفاعلة ، ومتضمنات أخرى متداخلة. وفى تلكالمرحلة أيضاظهر تأكيد بارسونز على فكرة التدعيم الذاتى . والنسق المتوازن . وهوذلك الكل المعقد الذى يشتمل على الميكانيزمات الخاصة التى تسهم بدورها فى الإستقرار الداخلى للمجتمع ، ومن ثم ، كان بارسونز يهتم فى فترة ما قبل الحـرب بالقيم

الأخلاقية بوصفها بواعث داخلية على الفعل الإجتماعى . إن هـذه الفـترة المبكرة كانت تركز على أهمية تدعيم النسق ، أما فى الفترة الثانية ، فقد نظر إلى استقرار النسق الاجتماعى ، بإعتباره متوقفا على محاولاته الخاصه التى يبذلها من أجل التكامل والتوافق ، وذلك بدلا من النظر إلى إرادة الأفراد و بواعثهم . ولذلك ، أنصب اهتمام ارسونز على أن تدعيم النسق الاجتماعى لتكامله ، يجعل الأفـراد متوافقين مع ميكانزماته ونظمه . ويعودهم باستمرار أن يمدوا النسق بما يحتاج إليه .

هكذا ، إنبثق موقف بارسونز التوفيقى ، من تلك الأزمة العميقة فى مجتمعات الطبقة الوسطى، التى تطورت قبل فترة الكساد العظيم،وقد كانت هذه الأزمة شديدة وعامه ، وذات جوانب إقتصادية ، وسياسية ، وقومية ، وعالمية . وقبل محـاولة بارسونز التوفيقية ، تمثلت الأزمة فى أربع حركات كبرى ، كان لـكل منهمـا أثره العالمى :

(أ) الحرب العالمية الأولى، التى دمرت دولة القومية وخلقت دولا جديدة فى أوربا ، ووسعت من نطاق سيطرة أمريكا على أوربا.

(ب) الثوررة السوفيتية ، التى أثارت قلق أوربا الغربية والوسطى لفترة معينة وبدأت تدعم التوترات الدولية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

(حـ) ظهور الفاشية فى إيطاليا ، والنازية فى المانيا .

(د) الأزمة الاقتصادية العالمية التى حدثت فى الثلاثينيات .

خلاصة القول أن اتجاه بارسونز ، تطور فى وقت كادت مخاوف الطبقة الوسطى فيه ، أن تصل إلى ذروتها فى بلاد مختلفـة .

وقد تركزت هذه المخاوف حول الخطر الدولى المشترك وهو ظهور القـوة

الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى ، وتركزت أيضا حول الأزمة الاقتصادية العالميـة المشـتركة .

وإذا كانت المرحلة الكلاسيكية فى علم الاجتماع ، تعكس مجموعة توترات تشعر بها الطبقة الوسطى فى بعض الدول، فإن إتجاه بارسونز يعكس أزمة أمريكية أوربية عامة تمر بها الطبقة الوسطى فى العالم كله .

لقد كان كبار المفكرين فى المرحلة الكلاسيكية قوميين من الناحية السياسـية والثقافية ، فى تجربتهم وتوجيههم ؛ والدليل على ذلك أن نظرياتهم الاجتماعيـة ، تطورت متجاهله ذلك العمل الذى يتم فى مجال النظرية فى بلاد أخـرى . ويعتبر تجاهل كل من فيبر ودوركايم لأعمال الآخر ، أوضح مثال على ذلك . وعلى أية حال ، فإن بارسونز بدأ ينظر إلى النظرية الاجتماعية الأوربية الغربية ، من خلال إطار البناء الأمريكى الذى يشمل المشاعر ، والدعاوى ، والواقع الشخصى . إن بارسونز لم يلجأ - ببساطة - إلى تحويل النظرية الأوربية إلى ثقافة أمريكية، ولكنه أعاد بناء تلك النظرية ، وأعاد تأليفها وصياغتها ، فى ضوء التجربة الأمريكية المختلفة . وقد أصبحت نظريته حائزة على الموافقة فى الحياة الأكاديمية الأمريكية ، وملائمة للثقافة الأوربية . ولذلك كانت بمثابة الجسر الذى يصل بين الحياة الفكرية الأوربية والأمريكية ، والخطوة الواسعة فى سبيل عالمية علم الاجتماع الأكاديمى .

بدء مرحلة جديدة : الاتجاهات الحديثة :

لقد انتهت المرحلة الرابعة ، من مراحل التطور البنائى لعلم الاجتماع . ولكن إذا نظرنا -- بالمنظور العالمى -- إلى ذلك الانقسام بين علم الاجتماع الأكاديمى والماركسية، لوجدنا أنه كان -- وما يزال حتى الآن - يمثل الخصائص الأساسية للبناء التاريخى لعلم الاجتماع الغربى .

وبعد الثورة البلشفية فى روسيا ، أصبح تطور الماركسية متأثراً إلى حد كبير بالرقابة الدولية التى يمارسها الاتحاد السوفيتى . وبعد أن أصبح علم الاجتماع علما أكاديميا نظاميا فى جامعة شيكاجو عام ١٩٢٠ ، بدأت التطورات العالمية لهذا العلم تتأثر ـ بقوة ـ بالولايات المتحدة . ومن ثم ، فإن الانقسام الفكرى بين الماركسية وعلم الاجتماع الأكاديمى ، لا يرجع إلى اختلاف المصادر التى تدعم كل منهما فى أى دولة من دول العالم ، وإنما يرجع الى وجود أقطاب دولية تمارس تأثيرها فى هذين الاتجاهين .

وفى الجزء الأخير من المرحلة الرابعة ، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية وانتهاء الستالينية ، اصبحت المناقشة العامة بين هذين التراثين تنمو بسرعة فائقة . حيث ظهر « علم الاجتماع الواقعى » كنظام علمى اكاديمى فى الاتحاد السوفيتى ، بينما اثارت الماركسية فى الولايات المتحدة نقدا من جانب البارسونية ـ وهذه هى بداية علم اجتماع اكثر تميزا « بالجدلية » .

وقد ظل الانقسام بين الماركسية وعلم الاجتماع الأكاديمى قائما بل أصبح اكثر عنفا فى المرحلة البارسونية . ففى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ، كان علم الاجتماع يستخدم كأداة لسياسة الدولة ، سواء ما تعلق منها بالمشاكل المحلية ، او العلاقات الدولية التى تستهدف التأثير والهيبة . وقد استخدم الاتحاد السوفيتى ، الماركسية ، استخداما واسع النطاق ، لتحقيق هذا الهدف ؛ اما الولايات المتحدة ، فقد بدات توسع من نطاق استخدامها لعلم الاجتماع منذ نمو دولة الرفاهية بعد الحرب العالمية الثانية ، وتستخدم العلوم الاجتماعية للتعرف على الأثر الذى تمارسه الحركات السياسية والعقلية ، تجاه الماركسية والشيوعية وتبعث بعلماء الاجتماع إلى « فيتنام » ، وتقوم بدراسة الحركات الثورية فى أمريكا اللاتينية ، وتدعم إنشاء هيئات العلوم الاجتماعية فى أوربا .

وقد أدت هذه النزعة التوسعية الأمريكية الجديدة، إلى ازدياد تعقد الانقسام بين الماركسية وعلم الاجتماع الأكاديمى ، بظهور « قوة ثالثة » مستقلة إلى حد ما ، تتكون من علماء إجتماع أوربيين ، تميزوا برفضهم لذلك الاتجاه المضاد الماركسية ، ورفضهم لكثير من القضايا الفكرية الأمريكية ، وهم الذين يسمون « باليساريين الجدد » أو « أصحاب الاتجاه اليسارى الجديد » .

ثالثا : الخيال السوسيولوجى وأزمة الامبيريقية :

تعرض رايت ميلز فى دراسته الخيال السوسيولوجى لتحليل المجتمع الأمريكى الحديث ، وتوضيح مظاهر الضعف فى هذا المجتمع الذى أخـذ يؤكد على الثروة كقيمة وحيدة وكسند أساسى للقوة والسلطة . ان قادة هذا المجتمع لا يحـاولون تبرير قراراتهم بأرجاعها الى ايديولوجية أو قيم معينة ،الأمر الذى أدى الى شعور الفرد بعجزه عن تغيير مجريات الأمور أو التأثير فى تلك القرارات التى تتخـذها الدوله . وهو ـ أى ميلز ـ يحاول من دراسة هذا المجتمع الذى انتشرت فيه ظاهرة اللا مبالاة انتشارا واسعا ، أن يبلور تصورا معينا عن المجتمع وعن مهمة علم الاجتماع ودور الدارسين فى العلوم الاجتماعية .(١)

إن التقدم التكنولوجى فى هذا المجتمع قد أرتبط ،الى جانب ارتباطه بالكثير من المشكلات الاجتماعية ، بظاهرة اغتراب الفرد عن عمله ، وبموقفه اللامبالى من الأمور . ان الفرد فى هذا المجتمع لا يحاول ان يغير من الواقع شيئا ، وحتى اذا ما تذمر فان تذمره هذا قد يفسر على انه حالة نفسية مرضية . ولا ينظر اليه ابدا على أنه مشكلة إجتماعية . ومن هنا كان علم الاجتماع الأمريكى يؤكد على قيمة

---

(١) Mills, The Sociological Imagination, N. Y, 1966. pp. 1 – 24.

« التوافق » لتفادى ما يمكن أن يترتب على هذا التذمر من مشكلات اجتماعيـة . وعبثا تحاول أساليب الترشيد التى أرتبطت بهذا التقدم التكنولوجى فى إتجاهه الى انتاج الوحدات الكبرى ، أن تؤكد للفرد حريته وممارسته لحياة ديمقراطية حرة ، ولكنها تجعله دائما يشعر بأنه محاصر بقوى هائلة تكاد تسحقه وتحدد له كل شىء،الأمر الذى ترتب عليه عزوف الفرد عن ممارسة حياته بحرية ، وعن اتخاذ قراراته بنفسه . بل استسلم لهذا النمط من الحياة وأصبح غريبا عن ذاته وعن المجتمع . وأمام تلك الظواهر المرضية ، حاول علم الاجتماع الأمريكى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية والبيولوجية ، التى حققت نجاحا ملحوظا ، فاستعار وبصفة خاصة أساليب البحث الأمبريقى وأدخلها فى مجال الدراسة فى علم الاجتماع ومن ثم أجتاح التيار الأمبريقى ميادين البحث فى هذا العلم (١).

إن أزمة علم الاجتماع الغربى كما يصورها ميلز ترجع الى التصورات الخاطئة المفهوم السوسيولوجى ، إن هذا المفهوم لا بد وأن يكون فكرة ذات مضمون امبريقى ، فإذا كان المضمون أكبر من الفكرة ، تردى علم الاجتماع فى التيـار الأمبريقى ، واذا كانت الفكرة اوسع من المضمون فإن علم الاجتماع يقع فى شرك النظريات الكبرى التى تحلق فى عالم المجردات . وميلز هنا ينقد كلا الاتجاهين: التجريد الامبريقى من ناحية ، واتجاهات النظريات الكبرى من ناحية اخرى .

فالتجريد الإمبريقى يستهدف الوصول إلى نظرية سوسيولوجية ترتكز . على تراكم النتائج المستنبطه من الدراسة الواقعية لموضوعات مختارة، ولكنه فى الواقع يمثل محاولة لدراسة الظاهرة بمعزل عن بقية أجزاء النسق الإجتماعى أو دراسة الظاهرة الإجتماعية على أساس تصور المجتمع كنسق مترابط . يضاف إلى ذلك

(١) Ibid. p. 9 – 10.

أنه لاينطلق من أى نظرية ، وانما يبـدأ بالاستقراء الدقيق للواقع ليتوصل فى النهاية إلى صياغة بناء نظرى ، وهذا أمر لايتحقق لهذا الاتجاه خاصة وأنه لايملك أى مبادىء نظرية يتم على أساسها اختيار موضوعات بحثه . إن هذا الاتجاه يعنى بالمنهج أكثر من اهتمامه بالموضوع . ولقد ترتب على أغفاله لاهمية البعـد التاريخى فى النظرية السوسيولوجية أن تردى فى أخطاء التفسيرات السيكولوجية التى تدرس أفـراد المجتمع فى علاقتهم بالبيئة أكثر من علاقتهم بالنسق الاجتماعى كما أن إفتقار هذا الاتجاه للبناء النظرى والمبادىء الثابته التى يتم على أساسها اختيار موضوعات البحث قد جعل علم الاجتماع فى خدمة المؤسسات المالية وأفقده موضوعيته واستقلاله ، فأصبح أداة لتبرير الأمر الواقع ، ووسيلة من وسائل التهدم القهر وتأكيد الأيديولوجية السائدة فى المجتمع(١).

وفى مقابل ذلك يبتعد أصحاب النظريات الكبرى عن الواقع تماماويبحثون فى أمـور مجردة وعامـة بدلا من البحث فى المشكلات الاجتماعية داخـل سياقهـا البنائى والتاريخى . وقد غاب عن ذهن الكثير منهم أن الغرض من تعريف المفهوم السوسيولوجى هو اكتشاف جوانب الواقع ، وليس وضع المفاهيم لها قوالب بعيدة عن هذا الواقـع ، أو بعبارة أخـرى ربط النظرية بالواقع ، بحيث يودى البحث الامبريقى من النظرية ويثريها هو فى الوقت ذاته . إن أصحاب هذا الاتجاه لايتجهون إلى دراسة البناء الاجتماعى دراسة واقعية بل يعملون على صياغة نماذج مثالية له . ولعل أوضح الأمثله التى ساقها ميلز على ذلك موقف بارسونز من دراسة البناء الاجتماعى ، فبـارسونز كما يقول قد أقام تصوره لعنـاصر البناء

---

(١) Ibid, p. 50.

الاجتماعى على أنها تعمل تلقائيا من أجل تحقيق توازن البناء ، وذلك عن طريق أساليب التنشئة الاجتماعى والضبط الاجتماعى ، وهو ينطلق أساسا من منطلق فلسفى أشبه بفكرة النظام الطبيعى التى سيطرت على الفكر الاجتماعى فى القرن الثامن عشر. لقد طور بارسونز نظريته الكبرى وحاول صياغة نسق من القيم المجردة التى تبرر الأمر الواقع طالما أنه لا يدرس النظم الاجتماعية فى ذاتها ، بل يسعى إلى إضفاء صفة المشروعية عليها ، ومن ثم فشأنه شأن غيره من أصحاب هذا الاتجاه ، عجز عن تفسير وفهم حركة التاريخ، وبالتالى عجز عن أى يقدم نظرية كبرى تنطبق على كافة المجتمعات نظرا لاختلاف الظروف التاريخية والقوانين الاجتماعية التى تحكم حركة كل مجتمع،وهكذا تصبح محاولة هذا الاتجاه التجريد والتعميم ضربا من الخيال (١) .

إن ميلز يرى ـ إذن ـ أن الاتجاه الأمريكى يغرق فى التفصيلات ويحاول اخضاع الحقيقة الاجتماعية للمعالجة المعملية والاحصائية ، ويجرد المشاكل الاجتماعية عن صفتها السوسيولوجية ، ويفسرها بعوامل سيكولوجية بعيداً عن الأبعاد البنائية والتاريخية ، كما أن النظريات الكبرى تدير ظهرها للواقع وتحلق فى عالم الأفكار المجردة ، محاولة صياغة بناء نظرى يصلح لكل المجتمعات وكل العصور فى الوقت الذى تهمل البعد التاريخى ، فتعجز عن فهم حركة التاريخ . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن إذن دراسة المجتمع ؟

يقرر ميلز أن دارس علم الاجتماع يجب أن يتسلح بما أسماه « الخيال السوسيولوجى»، كأداة تمكنه من إدراك أبعاد المشكلة الاجتماعية التى تجتاح المجتمع الصناعى متمثله فى أغتراب الفرد ، عن ذاته وعمله ، ومحيطه الاجتماعى وشعوره

(١) Ibid, p 25.

بالضياع وسط قوى اجتماعية تضيق عليه الخناق ، وتحاول توجيهه وفقاً لإرادتها ومصلحتها وليس وفقا لارادته أو مصلحته الخاصة .

إن للخيال السوسيولوجى فى نظر ميلز دوراً هاما فى إدارك الباحث للفرد كجزء من المجتمع ، والمجتمع كجزء من التاريخ ، أو إدراك الفرد من خلال دوره فى البناء الاجتماعى ، وإدراك البناء الاجتماعى من خلال موقعه من التاريخ. كما أنه يحول دون « تقوقع »الفرد داخل نفسه أو انغلافه فى اطار تجربته الخاصة، بل يتيح له فرصة أوسع ليمارس دوره فى توجيه مجريات الأمور ، فهو يصل مابين الفرد والمجتمع ، ولا يعزل أحدهما عن الآخر ، وهو أيضا أداه تعين الباحث على دراسة المشكلات الاجتماعية فى المجتمع الحديث على أنها مشكلات بنائية ، وليست مشكلات فردية ، أى بتناولها على مستوى النظم الاجتماعية ، لا على المستوى السيكولوجى . انه الاداه الوحيدة للتغلب على مشكلة الاغتراب لأن الفرد يستطيع بالخيال السوسيولوجى أن يدرك ذاته بأعتبارها جزءا من كيان كلى أكبر. هو البناء الاجتماعى أولا والتاريخى ثانيا . والخيال السوسيولوجى فوق كل ذلك هو الدعامة الأساسية للديموقراطية ، لأن الفهم هو أول خطوات التغيير الواعى لمجريات الامور ، ولذلك يهتم ميلز هنا بالدور الذى تلعبه الارادة الحرة فى عمليات التغير الاجتماعى ، ويشير إلى أن الباحث فى مجال العلوم الاجتماعية يجب ألا يفصل مابين عمله وحياته ، فهو دائما فى موقف الملاحظ المشارك ، وعليه أن يسجل ملاحظته باستمرار وبطريقة واضحة تساعد على الفهم والتحليل . ذلك لأن دوره الهام فى تحرير الفرد وإصلاح المجتمع وتجمله من خلال وعيه الاجتماعى ، دعامة الديموقراطية الصحيحة .

والواقع أن إدراك المكانة الحقيقية التى أصبح يمثلها الخيال السوسيولوجى فى

النظرية المعاصرة ، يرتبط إرتباطا وثيقا بموقف الامبيريقية فى علم الإجتماع ، ونموها ، والمشكلات التى تواجهها . ويجـــدر فى البداية أن نشير اليها كاتجاه سيطر على عـــلم الاجتماع الأمريكى خلال العشرين سنة الأخيرة وأدى إلى وضع العلم فى طريق مسدود ، وحصر كل اتجاهاته ونظرياته داخل إطار نظامى يهتم بتمثيل الصورة الاجتماعية أكثر من أهتمامه بتدعيم الخيال الاجتماعى . وقد دارت المناقشات من خلال هذا الاطار النظامى حول موضوعات سطحية ، تعكس اهتمامات بعض الشخصيات العلمية ، أو الهيئات المشرفة على البحوث . كذلك فأن الصورة الشائعة لعلم الاجتماع ، والتى تمخضت عن جهود الاتجاه الامبيريقى ، قد تبلورت فى صورة معاهد ومكاتب للبحث، كما تركزت حول فكرة أن علم الاجتماع يقيم الحقائق أكثر من أهتمامه بالمعانى ،وأن المهمة الأساسية له تتمثل فى التمييز بين المعلومات الواقعية والنماذج الإجرائية (١) .

وقد تفسر نشأة الامبيريقية فى علم الاجتماع الأمريكى من خلال توضيح مخاطر الانزلاق فى فهم علم الإجتماع بطريقة أخرى غيرها . لذلك يتحـــدث أصحاب هذا الإتجاه عن الامبيريقية فرد فعل المذهب التاريخى ، كما أن البعض يقدمون تفسيرا يستند إلى ما يسود العلوم الإجتماعية بوجه عام من إتجاه علمانى ، وأهتمام بمسائل علمانية ، وقد يعرض البعض الآخر وجهة نظر خاطئة مؤداهـا أن الامبيريقية السوسيولوجية تتوافق مع روح العصر ، ومع طابعه التحليـــلى وأخيرا يؤكد بعض العلماء أن الامبيريقية هى أفضل الطرق للحصول على نتائج واقعية مستقلة عن الدعاوى الأيديولوجية والأعتبارات القيمية .

---

(١) Horowitz, (ed). The New Sociology, N. Y. 1964. pp. 3 - 47.

على أن كل ما سبق قد لا يشكل محور إهتمامنا الآن ، إذ ليس ذلك مجال إثبات صدق أو كذب ادعاءات الامبيريقية ، وانما الذى يعنينا هو أن نوضح كيف استطاعت الامبيريقية السوسيولوجية أن تحتفظ بتفوقها أمام كل التحديات على مدى العشرين سنة الأخيرة .

إن الامبيريقة ، أيديولوجية اجتماعية ، وليست مجرد منهج للبحث فى علم الاجتماع . فلقد وجهت الدراسات العليا والبحوث فى جامعات أمريكا وجهة خاصة تؤكد الاتجاه الامبيريقى ، حيث يسيطر الأساتذة سيطرة كاملة ومباشرة على الخريجين، ويلقن طلاب الدراسات العليا ، طريقة معينة فى التفكير تؤكد لهم أن الأصالة هى وضع مشكلة أو القدرة على إكتشاف جانب معين منها ، وأن الكفاءة هى فى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الجديدة والموثقة حولها ، وأن الصلاحية تتحقق بالعمل فى فريق بحث متكامل ، كما يتعين على الباحث أن يبذل جهدا مرضيا فى فحص الأدلة واستكمال البحث والحصول على معرفة منظمة بالمشكلة ، وعليه أيضا أن ينمى أحترامه للواقعية والإهتمام بالمناقشات والقضايا التى تنحصر داخل حدود واضحة المعالم . وباختصار ، فأن هذا الإتجاه يتلخص فى عملية حشد الطاقات ، من أجل العمل فى مجالات تتوافر عنها المعلومات ، وبالتالى يتجنب البحث فى مشاكل أو موضوعات تعوزها الأدلة ، وتفتقر إلى معلومات مؤكدة فى معظم الأحيان .

ويرتبط بعملية حشد الطاقات هذه ، توجيه سوسيولوجى يتأكد فيه أهمية التركيز على التجربة كشىء مستقل عن النظرية ، كما لا يتم الإعتماد فقط على الاستبار أو المقابلة كأداة وحيدة للبحث . وقد عاون على ذلك بالطبع التراث الهائل حول تصميم البحوث ، وطرق أختيار العينات ، مما ساعد على تطوير

نظرة منهجية أكثر تحديدا لأغراض علم الإجتماع . ولقد حاول علماء الإجتماع والباحثون فى العلوم الاجتماعية بأستخدامهم لمناهج العلوم الطبيعية عند بناء أنساقهم ، أن يتوصلوا إلى معايير علمية سليمة . كإجراء الملاحظات الموضوعية، واستخدام وسائل ثابتة ومحددة لإجراء هذه الملاحظات ، ووضع الفروض التى تعمل على أجراء مزيد من البحوث ، ثم صياغة نظريات تستند إلى هذه الفروض .

يضاف إلى ماسبق حقيقة أخرى، وهى أن معظم الدراسات والبحوث التى تجرى فى علم الإجتماع الامريكى تمولها روابط رجال الأعمال ، مما تترتب عليه الاهتمام بتوظيف علم الإجتماع لخدمة أغراض خاصة، وعلى الرغم من أن نتائج البحث تكون متاحة للجميع من الناحية النظرية، إلا أنها من الناحية العملية تصبح متاحة للهيئة الخاصة التى لديها إمكانيات مالية أكثر ، وهكذا تحول إهتمام علم الإجتماع من البحث الأكاديمى الخالص إلى البحث التطبيقى أو النظامى . وقد أدى ذلك بدوره إلى تحول واضح فى موضوع الدراسة ، إذ أن كثيراً من مجالات البحث فى هذا العلم كالنظرية السوسيولوجية ، وتاريخ علم الإجتماع ، وعلم اجتماع الدينى ، وعلم اجتماع المعرفة ، أخذت تحظى بإهتمام ضئيل جدا ، وبناء على طغيان الرغبة فى تطوير علم الإجتماع كوسيلة كشفية ، وأصبحت المسائل الخاصة بإمكانيات التمويل هى الدافع الأساسى لدراسات علم الإجتماع الأمريكى (١).

ظهر جيل من علماء الإجتماع الأمريكيين بعد الحرب وإنتهاء فترة الكساد ينادون بحيادية العلوم الأجتماعية وضرورة الأبتعاد عن مناقشة الموضوعات

---

(١) Lazarsfeld, Reflections on Business, American Journal, of Sociology, LXV, July, 1959, pp. 1 – 26.

الأخلاقية ، أى أنه فى الثلاثينات ، ظهر اتجاه عام الفصل بين الواقع والقيمة ، وقد تطور هذا الاتجاه ليصبح قانوناً صريحاً فى علم الاجتماع يقرر أن العلم «متحرر من القيمة » Value Free بوجه عام، ومحايد من الناحية السياسية بوجه خاص، وأنه يجب أن نؤكد التمييز بين علم الاجتماع من جهة ، والفلسفة السياسية والاجتماعية من جهة أخرى . ولاشك أن الامبيريقية تؤكد ذلك بوضوح ، إذ تقرر أنه من الصعب أى نضع احصاء لبدائل القيمة ، وأن العلم يستطيع فقط أن يعلمنا كيف نحقق أهدافنا ولكنه لايحدد لنا أى الأهداف يجب أن نحققها [١] .

ويتضح هذا الإتجاه المحايد فى الدراسات الحديثة التى أجريت حول الحرب النووية ، إذ أن علماء الإجتماع لايتساءلون أو يبحثون فى احتمال أو ضرورة قيام صراع نووى ، بل يهتمون فقط بالسرعة التى يمكن بها معالجة نتائج هذه الحرب لإستعادة بناء الأنماط الاجتماعية . ولا يعنى ذلك أن القيم قد اختفت تماماً من العلوم الاجتماعية ، فكل ما فى الأمر أن الباحث فى هذه العلوم يتوحد بالنسق القيمى السائد أو القائم . وتؤكد هذه الظاهرة وجهة النظر القائلة،ان الامبيريقية السوسيولوجية هى الشكل الوحيد والمفيد فى علم الاجتماع،طالما أنها تدعم الموقف الامريكى المسيطر ، الذى يرى أن عدم الالتزام الأخلاقى أمر ضرورى ومكمل للموضوعية العالمية.

أما فيما يتعلق باستعانة الجمعيات المتخصصة وروابط رجال الأعمال بعلمــاء

(١) Horowitz, I. " Social Science Objectivity and Value Neutrality ; Historical Problems and Projections " Diogence; International Review of Philosophy and Humanistic Studies, No, 39, Fall 1962, pp. 14 – 44.

الاجتماع فقد كان واحدا من الأسباب الاساسية التى أدت إلى أزمة علم الإجتماع الإمبيريقى ؛ إذ لا يستطيع الإمبيريقى عندما يقدم خدماته لرجـــل الأعمال أن يفصل بين النظرية والواقع ، بمعنى أنه لايستطيع أن يقـدم له نتـائج على درجـة عالية من التخصص أو النوعية ، دون أن يكون لها قدر من الثبات والعمومية ، كما أنه يعجز عن تقديم نظرية مجردة لايمكن تطبيقها فى نطاق المشروع .

وقـد يصر بعض الأمبيريقيين على أن علم الاجتماع يجب أن يشبه ممارسة التحليل النفسى بحيث يتعين فى نظرهم أن يتقابل علماء الاجتماع مع رجال الأعمال، يناقشون معهم مشاكلهم ، ويضعون لهم الحلول المناسبة لها . وهم فى ذلك يقررون أن العلم الاجتماعى ينطوى على مجموعة ضيقة من القوانين التى وضعت خصيصاً لتضع الحلول لأية مشكلة مهما كانت . غير أن هذا الاتجاه يخلط مابين القانون ، وبين مجرد تكرار وقوع الحوادث ، فالقانون فى العلم الاجتماعى يتناول علاقة ثابتة تمكن الباحث من أن يجمع المعلومات ليس فقط عن الماضى بل وأيضـا عن المستقبل . إن الامبيريقية تبسط قوانين المجتمع لتصبح أقوالا أو قضايا تكرارية ليست على درجة عالية من التعميم ، فيتعذر تطبيقها على مشكلة كبرى إلا بصعوبة . ولذلك فأن الأمبيريقيـة تفتقر دائمـا إلى أدوات منهجيـة ، تمكن الباحث من أن يضع أجابات لأسئلة أو مشاكل نوعية لاتتفق ومنطوق القانون ذاته .

وعلى الرغم من أن البحث عن القانون ظاهرة صحيـة فى حد ذاتها إلا أنها تعبر هنا عن أزمة الاتجـاه الأمبيريقى ؛ لأن الثورة التى حـدثت داخل هـذا الإتجاه كانت ثورة غير مؤثرة ومحفوفة بالمخاطر ، خاصه فى دعوتهـا لتحويل علم الاجتماع إلى علم علاجى يتنـــاول مشكلات رجال الأعمال . وأمراض التنظيم البيروقراطى . إن المشكلة الاساسية فى المدخل الأمبيريقى تتمثل فى أن الامبيريقيين

يقدمون إفتراضات متنوعة تفيد من يعمل فى مجال السياسة العامة ، وهم فى الوقت ذاته يبتعدون منهجيا عن مجال وضع قرارات السياسة العامة ومسئولياتها .

وعلى العكس من الاتجاه الامبيريقى ، نجد أن الموقف العقلانى فى علم الاجتماع الأمريكى ، الذى يهتم بالنظريات العامة ، يواجه مشكلة أخرى تتمثل فى أنه من الصعب تطبيق نظرية عامة على أحداث نوعية . إن علم الإجتماع العقلانى متعدد التصورات والمفاهيم مما جعله يحصر نطاق البحث فى أضيق حدود . ويميل فى نفس الوقت الى الإفراط فى التعميم ، فالقضية القائلة بأن المجتمع رشيد مسلمة تعنى أن كل أقسام المجتمع رشيدة أيضا ، ودوره الحياة فى مجتمع واحد تصلح لتفسير دورة الحياة فى كافة المجتمعات . إن هذا الإتجاه حينما يعتمد على نموذج التوازن يؤكد باستمرار أهمية الأتفاق الإجتماعى ، ومن ثم تغفل البحوث تناول مشكلات التغير الاجتماعى . إن هذا الموقف المحافظ لم يكن أمراً عارضا ، بل كان نتيجة مباشرة للمدخل السوسيولوجى الذى يؤكد على العناصر البنائية للمجتمع . والشىء المؤكد أنه كان من نتيجـــة المشاكل التى واجهت كلا من الموقفين الامبيريقى والعقلانى، أن الشخصيات الرائدة فيهما ، قد سيطرت على ميدان علم الاجتماع حتى العشرين سنة الماضية ، وعجزت عن تقديم تراث علمى يضيف جديدا ، إذ لا تزال نفس المناقشات التى تدرر حول إستخدام الإتجاه الوظيفى قائمة ، وكذلك حول مستوى إجراء البحوث (١) .

على أن أزمة الإتجاه الامبيريقى تتمثل فى أن الامبيريقية أصبحت معارضة للايديولوجية تماما ، كما انها تعبر عن موقف إدارى أكثر منه عقلى . فما تتمتع به

---

(١) H. Zetterborg. Sociel Theary ond Social Practice, N. Y, 1962, pp. 135- 62.

من قوة إدارية يخفى ما تعانيه من نقص عقلى . أن انتشار البيروقراطية هـو وحده الذى أبقى على الأمبيريقية ، وربما كان هذا هو ما يفسر لنا ذلك التحول فى وحدة الدراسة من تحليل الوحدات الكبرى إلى بحث وحدات صغرى [١] ، ففى العشرينات أهتمت المدرسة الأيكولوجية بدراسة المدن ذات الحجم الكبير مثل شيكاجو ، وفى الثلاثينات درست المدن ذات الحجم المتوسط . وفى الأربعينيات أصبحت دراسة المـدن الصغيرة إتجاها سائدا ظهر فى أعمال هولنجشد Hollingshead وكوفمان Kaufman ، وفى الخمسينات تناقص حجم المجتمع المدروس إلى أن أصبح حيا فى مدينة أو قسما فى تنظيم . وفى الستينات تضاءل المجال السوسيولوجى إلى أن وصل الى حد الجماعة التى تتألف من شخصين ، ولاشك أن تفاقم هذا الإتجاه سوف يعمل فى نهاية الأمر على ابراز اهمية التحليل على المستوى الفردى ، ومن ثم نبتعد كلية عن علم الاجتماع لندخل فى مجـال علم النفس ان كثيراً من الدراسات الحديثة تسير كما يقول هوروفيتز Horowitz فى اتجاه « التصفية الذاتية لعلم الاجتماع » . غير أنه على الرغم من ذلك ، ونظراً لما لعلم الاجتماع من مكانة كنظام فكرى وفى ضوء الأطار النظامى الدى يدعم هذا العلم فى الوقت الحاضر ، فإنه من المتوقع ان تصبح دائرة البحث السوسيولوجى أكثر إتساعاً . إذ لاتزال هناك موضوعات عديدة جديرة بالبحث السوسيولوجى مثل دراسة الشعارات ، والرموز ، والتغيرات الثورية ، والأحداث التلقائيـة كسلوك الحشد . وتباين توزيع القوة السياسية وغير ذلك من الموضوعات التى أهملها علماء الإقتصاد والأنثروبولوجيا والسياسة . وهنا تظهر الحاجة إلى « علم اجتماع جديد » هو علم اجتماع الوحدات الكبرى كضرورة ملحة ، كما تتجـلى

---

(١) Horowitz, Op. cit, p. 17.

بوضوح الإسهامات الحقيقية لرايت ميلز (١).

إن علم الاجتماع الجديد هو محاولة أو جهد منظم لاقامة علم اجتماع يهتم بدراسة الوحدات الكبرى ، ولا تعبر هذه المحاولة أو ذلك الجهد عن تحيز سياسى معين ، كما أنها ليست حكراً لفرد بالذات أو لجماعه بعينها ، وإنما علم اجتماع الوحدات الكبرى هو علم اجتماع عام يخضع النقد والتفنيد ويتقبل كل اصلاح وتجديد . وعلى الرغم من القول بأنه يمثل تحولا جديداً فى تاريخ العلم، إلا أنه لا يعبر عن أكثر من استمرار للتقليد العقلى فى علم الاجتماع فى مواجهة الاتجاه الأكاديمى الضيق النطاق .

ومع أن هناك سيلا جارما من الانتقادات التى وجهت لأعمال رايت ميلز ، إلا أن إتجاهه وأفكاره قد جذبت إهتمام كثير من الدارسين والباحثين فى فروع العلوم الانسانية ، حتى أصبح هذا التحول الجديد هو القوة الغالبة والمسيطرة على منظمات ومعاهد العلوم الاجتماعية ، خاصة بعد أن أتضح خطأ الاعتقاد السائد فى العشرين سنة الأخيرة من أن حل المشكلات ذات المدى أو النطاق المتوسط ، يمهد الطريق لاكتشاف حل معقول للمشكلات الكبرى . وعلى علماء الاجتماع كما يقول هوروفيتز أن نسترجع ما أسماه روبرت بارك «الاحساس بالأحداث الكبرى» وأن نفكر فيما أطلق عليه روبرت ليند Robert Lyud «الفروض الخيالية» ، ذلك لأنه على الرغم من أن البحث على مستوى الوحدات المتوسطة كان فى الأصل محاولة لتجنب نظرية الجماعة الصغيرة ، (أى بحث الوحدات الصغرى) وتفادى التنظير المجرد

---

(١) Horowitz, Op. cit, 18.

وقارن كذلك : New.Comb, The Study of Concensus In Merton et al (eds). Sociology Today, N. Y, 1959, pp. 279 – 84.

(أى الاسراف فى التجريد النظرى) إلا أنه مع ذلك قد زاد المشكلة تعقيـــداً وزاد علم الاجتماع غموضاً (١) .

وهكذا تتميز المشكلات الأساسية فى علم الاجتماع الجديد بأنها ذات نطـاق واسع ، مثل تعدد الصور الاجتماعية للرأسمالية والاشتراكية ، ومشاكل السكان والصحة العالمية ، والصراع العـالمى ، وغيرها ممـــا يشغـل أهتمام كثير من الباحثين . ويتعين على علم الاجتماع أن يفحص هذه المشاكل على المستوى الواقعى ، وأن يقدم المعلومات والنظريات الخاصة بالحلول الاجتماعية لهـا . فمن الخطأ مثلا أن نبحث مشاكل التنمية الاجتماعية فى مدينة صغيرة على اعتبار أن ذلك المستوى من البحث يمكن أن يوفى بمتطلبات مجال التنمية ، والا أصبـح علم الاجتماع التطبيقى مجرد نوع من العمل الميدانى ، أو الخدمة الاجتماعيـة ، وأضطر علماء الاجتماع الى العمل داخل أطار حدود تفرضه بعض الظروف السياسية. أن علم الاجتماع ليس مجرد أداة لرسم السياسة ، أنه ناقد بارع لها ، ولابد أن يقوم بهذا الدور حتى لايصبح مجرد إيديولوجية زائفة لتبرير المصالح الخاصة (٢) .

---

(١) Horowitz, Op. cit, p. 19.

(٢) هناك تراث هائل يتناول الوحدات الكبرى ويمكن أن نشير الى أهم الـكتابات مثل مؤلف أيريك فروم Irich Fromm بعنوان Escape from freedom وكـتاب دانيال فريدنبرج Daniel Z. Friedenderg بعنوان The Vanishing Adolescent وكـتاب دافيد ريسمان David Riesman بعنوان The Lonely Crowd ، وكـتاب آرثر فيديش وجوزيف بنزمان Arthur J. Vidich & Joseph Bensman بعنوان "Small Town in Mass Society" . وهكذا لم يكن ميلز وحيدا فى هذا الاتجاه العقلى كما توهم هو نفسه . ومن ناحية أخرى فان كل ما يفتقر اليه ، لجعـــل علم الاجتماع التاريخى المقارن على مستوى ملائم هو توافر النظرية والمنهج الملائمين لهذا النوع من=

لابد اذن من الاهتمام بدراسة الأحداث التاريخية الكبرى دراسة اجتماعية، ولقد ظهرت فى بعض الدوريات مقالات ممتازة ، تدور كلها حول قضية نزع السلاح بإعتبارها من الموضوعات الكبرى التى شغلت الأذهان فى فترة ما بعد الحرب، ومع ذلك لم تهتم هذه المقالات كما لم يهتم المتخصصون فى علم الاجتماع ، بتوضيح الانعكاس السوسيولوجى للاهتمام العام بهذه المشكلة الاجتماعية، ولا شك أن انعكاس هذه الأحداث فى بحوث اجتماعيه يتوقف على مدى ما يحصل عليه علماء الاجتماع من تأييد تمنحه لهم هيئاتهم العلمية ، وكذلك على طبيعة إهتمامات هذه الهيئات (١).

ولعل الاهتمام بالتاريخ والإحساس بالعلاقة بين علم الإجتماع والتاريخ يمثل مطلباً حيويا بالنسبة لعلم اجتماع الوحدات الكبرى . وهناك بعض الجهود الفردية التى بذلت فى هذا الصدد، من بينها أعمال روبرت ميرتون Robert K. Merton وهانز جيرث Hans H. Gerth . إن التاريخ كما يقول هوروفيتز، يعد أساسا تفتقر اليه كل أعمالنا ودراساتنا ، ذلك أننا لا نتعامل إلا مع أحداث وقعت فى الماضى أو الحاضر ، ويجب علينا ألا نفقد التذوق التاريخى للأحداث الراهنة التى تفرض نفسها علينا كتعبير ملموس ومحسوس عن الماضى . فالناس

= الدراسات، ونشير أيضا الى أعمال كل من ابراهام آدل Abraham Edel وأرنست بيكر Ernest Becker ومارفن سكوت Marvin Scott فى محاولة توسيع أفق المجال السوسيولوجى (الوحدات السوسيولوجية) .

(١) See, Davis, K. Human Society, N. Y, 1940. esp. pp. 519 – 20. Green, Sociology, N. Y, 1960. Horowitz, "Sociology and Politics, The Myth of Functionalism Revisited", Journal of Politics, 25, 1963, pp. 248 – 64.

يقرأون الصحف كل يوم لأن لديهم إحساسا قويا بأن ما يحدث فى أى يوم هو إستمرار لأحداث مضت ، إن الإحساس بالحاضر كتاريخ لايزال يعتبر قيمة سلبية فى علم الإجتماع »(١) .

وهكذا يحتاج هذا التحول الجديد الذى طرأ على علم الاجتماع الأمريكى الى استرجاع العقل والتخيل . فعلى الرغم من كثرة عدد الخريجين ، إلا أن نسبة القادرين على التخيل والتعقل قليلة جداً . إن الطلاب يتخرجون ، وهم لا يعلمون عن الأسس الفلسفية إلا القليل ، فكثير من دارسى علم الإجتماع يعتقدون أن موسكا Mosca أو ميشلز Michels فى القرن العشرين ، هما أصحاب نظرية الصفوة ، ومن ثم فهم لا يعرفون عن أرسطو أو أفلاطون شيئاً فى هــذا الصدد ، وهذا موقف تترتب عليه نتائج خطيرة من الناحية المنهجية ، فعلى الرغم - مثلا - من أن علماء الاجتماع يعتقدون أنهم اكتشفوا المنهج الملائم لدراساتهم (الوظيفية) إلا أن فلاسفة العلم يرون أن الاتجاه الوظيفى ليس إلا مجموعة مرددات محفوظة ، لا طائل من ورائها ، ويرجع الفضل إلى فلسفة العــلوم فى تأكيد أهمية المنهج التجريبى فى الدراسات الاجتماعية ، وتمكين علماء الاجتماع من تنــاول المنهج بصورة متعمقة (٢) .

والواقع أننا نتعلم الكثير من الفلسفة ، ليس فى مجال المناهج فحسب ، بل

---

(١) Horowitz; Op. cit, p. 25.

(٢) CF. Shills. E. A. Social Inquiry and the Antonomy of the Individual, in the Human Meaning of the Social Sciences, ed. Daniel Lerner, N. Y. 1959, pp. 114 – 57.

وأيضاً على مستوى التحليل الأخلاقى . لقد أشار جولدنر Gouldner إلى اننا نؤمن ببعض الشعارات المتوارثة عن الفصل بين الواقع والقيمة ، أو حول التمييز بين الفعل والفكر ، واننا نعيش مع هذه الثنائية حتى اننا فقدنا الحاجة إلى دراسة القيم . لقد استطاع البعض مثل ابراهام آدل Abraham Adel فى الفلسفة وابرهام ميزراحى Ephraim Mizruchi فى علم الاجتماع وإرنست بيكر Ernest Beeker فى الطب النفسى وروبرت ردفليد فى الأنثروبولوجيا أن يبحثوا الوقائع التى تدور حول القيم فى الوقت الذى لا يزال فيه الكثيرون يؤكدون صعوبة الجمع بينهما (١) .

وإذا كانت هناك حاجة ماسة لأن يزيد علماء الاجتماع من اهتمامهم بتاريخ الفلسفة ، فمن الضرورى أيضاً أن يظهروا عناية أكبر بتاريخ علم الاجتماع ، الأمر الذى يمكنهم من التخلى عن التحيز ، ويسيرون قدماً نحو علم اجتماع عالمى . إن فئة قليلة من علماء الاجتماع الأمريكيين هم الذين يعرفون ما يقوم به علماء الاجتماع فى مناطق أخرى ، أو ما تجريه معاهد علم الاجتماع من بحوث أو ما توصلت إليه من نتائج فى مختلف أنحاء العالم ، بل أن كثيراً منهم قد فشلوا فى اتقان اللغات الأجنبية ، كما انهم لا يناقشون الأمور إلا فى حدود المصلحة الأمريكية فى مقابل المصالح الاخرى . ولا شك ان هذه كلها صعوبات تعوق قدرة علم الاجتماع الأمريكى عن التعمق ، وتجعله متمركزا حول ذاته ، بدلا من الإنفتاح على التيارات العالمية الأخرى .

إننا لن نستطيع تطوير نظرية علم الاجتماع بدون تحقيق التعاون والتكامل

---

(١) Horowitz, Op. cit, p. 29.

بين العلوم الانسانية ، فذلك هو طريق التقدم العلمى الحقيقى، ولاشك أن انقسام هذه العـــلوم إلى تخصصات مصطنعة كان عاملا أساسيا فى أضعاف قيمة البحث الاجتماعى التطبيقى ، كما عوق الانتقال من مستوى العـلم الاجتماعى إلى مستوى المسئولية الاجتماعية (١) .

---

(١) See, Russell L. Ackoff as quoted in Alfsrd Kahn. the Study of Society : A Unified Approach, Homewood, Ill, 1963.

الفصل الخامس

التقاء علم الاجتماع بالتيار الماركسى

مدخـل :

كانت فلسفة كومت الوضعية — فى كثير من الأسس التى قامت عليها — محاولة للرد على « دعاوى » الفلسفة السلبية أو النقدية التى ظهرت وتدعمت فى عصر « التنوير » على أيدى البورجوازيين فى صراعهم ضد الطبقات القديمة ذات النظام الإقطاعى اللاهوتى . وقد أذكت الثورة الفرنسية هذا الصراع ، حتى أنه يمكن أن يقال إن الفلسفة النقدية ، قامت بوظيفة تاريخية هامة ، بالرغم من انتقاد كومت لهـا ، الذى اعتقد أن قيام النظام البورجوازى ، يسلب الفلسفة السلبية وماسمى « بمشروعية التنوير » الأسس التى استندت عليهـا . لأن تطور الانتاج والعمل واتجاهها إلى الاتساع والتعقد على أيدى البورجوازيين الصناعيين الجدد ، جعل الفلسفة النقدية نظاماً فكريا واجتماعيا لايؤدى من وجهة نظره إلا الى الإنقسام والصراع والتفكك ، لأنها تطلق العنان للخيال وتبعث الأمل عند العمال وتشجع الصراع الطبقى . فبدلا من التكيف مع المجتمع الجديد (العضوى) والبحث عن المكان والطريق المناسب ، بدأ العمال ، كما يرى كومت ، يناضلون ويصارعون من أجل تغيير المجتمع القائم . ولكن هذا الإتجاه لاينفى ضرورة إصلاح وتعديل الظروف التى تعيش فيها الطبقة العاملة (البروليتاريا) . ولهذا وصفت محاولته الفكرية بأنها إنصبت على ضرورة « التحسين والاصلاح » الذى يكون « حتميا » (ولكن من خلال التكيف) مع ظروف كل مرحلة من مراحل التقدم، وكلما مر المجتمع

« تقدما من مرحلة إلى مرحلة أخرى ، على أن يتم الأصلاح بصورة لا يفقد المجتمع منها أنسجامه « البنائى » أو توازنه وتجانسه .

ويستطرد كومت ، فيرى أن الثـــورة ـ التغيير الشامل للنسق الاجتماعى ـ قضية غير مطروحة لأن النتائج التى تسفر عنها ستقتصر على ما هو سلبى ، والتقدم لا يتم عن طريق النقد والصراع الطبقى والنشاط الثورى ، بل عن طريق التوفيق بين الاتجاهات والطبقات المتصارعة ، ويمكن التوصل إلى ذلك بتوعيـة وتربية جميع طبقات المجتمع وخصوصا الطبقات الدنيا لكى تحتل مكانها المناسب فى المجتمع الجديد المنظم تنظيما « تدرجيا » ، فى الوقت الذى يتكيف فيه الجميع للظروف القائمة. هذه هى « القضايا » الأساسية التى تشكل مضمون العلم الوضعى الجـديد ، وهى فى نفس الوقت وظيفته التى تتمثـل فى أقامة نظام اجتماعى عضوى جديد يقوم عـلى الصراع الحر . لكن ماركس رفض منذ البـداية « دعاوى الوضعية » وأصر عـلى « مشروعية التنوير » وقبل القضايا الفلسفية التى رفضها كومت ، وطورها ونماها واستخدمها فى التفسير والتحليل . وكانت فكرة « اكتمالية الانسان » من الأفكار المبدئية التى بنى عليها ماركس تحليله ونقده للنظام الرأسمالى وتصوره لامكان قيام مجتمع « انسانى حقيقى » . فالانسان من حيث حاجاته وإستعداداته الكامنة للنمو « كائن طبيعى » : وماركس فى هـذا الصدد لا يختلـف عن روسو وأغلب مفكرى عصر التنوير . . ومعنى هذا أن الانسان لديه القدرة على الوصول إلى الاكتمال بصورة لا حدود لها ، لأن قواه الأساسية (الكامنة والخفية) تستطيع أن تنمو نمواً لا متناهيا . وإذا كان الانسان فى هذا الوقت ، ليس أكثر من « دابة عاملة » فهو ليس مضطرا لان يظل على هذه الحال ، لأنه يستطيع أن يتوصل إلى أعلى مراتب الخلق والابتكار ، فكراً وعملا . لـكن الظروف الإجتماعية الموجـــودة فى كل

المجتمعات الطبقية تكبت هذه القوى الخلاقة والكامنة للانسان ، ولهذا فالنظام القائم « الرأسمالية » لا يمنع من تحقيق قدرات الإنسان كأنسان فحسب ، بل إنه يعوقه أيضا عن اشباع حاجاته الحيوانية - كالهواء النقى ، والأكل ، والجنس ... الخ . ومن أجل هذا أدان « ماركس » هذا النظام لآثاره المدمرة على الانسان كفرد (١) .

ومن الواضح أن ماركس كانت عنده صورة عن الانسان ، وخاصة ما يمكن أن يكون عليه ، وما يجب أن يكون عليه ، عبر عنها فى مؤلفاته الفلسفية حيث أكد أن محو أنسانية الانسان هو نتيجة للاغتراب ، تلك الفكرة التى أخذها عن هيجل وصاغها صياغة جديدة .فالاغتراب عند هيجل حالة أو ظاهرة من ظواهر العقل ، ظلت تحمل الطابع الفلسفى عند الهيجليين اليساريين بأعتبارها حالة أو ظرفا تظهر من خلاله قوى الإنسان الخاصة كعوامل مستقلة ، أو وحدات تقوم بضبط أفعاله . ففيورباخ مثلا أستخدم مفهوم الإغتراب فى تفسيره للظواهر الدينية ، ونظر إلى الكائنات الخارقة أو غير الدنيوية على أنها من إختراع الانسان . أما ماركس فقد ذهب إلى أبعد مما ذهب اليه فيورباخ حين نظر إلى الاغتراب على أنه ظاهرة فلسفية نفسية ، وهو لذلك ظاهرة اجتماعية تظهر فى سياق العلاقات الإجتماعية فى النسق الإجتماعى التاريخى المحدد .

ومما هو جدير بالذكر ، أن ماركس كان ينتقل فى كتاباته المبكرة من المفاهيم الفلسفية إلى مفاهيم الإقتصاد السياسى ، مؤكدا أن النتائج التى توصل اليها تعتبر منطقية وضرورية للتحليل العلمى القائم على الدراسة النقدية العلمية للاقتصاد

---

(١) Karl Marx; The Economic and Philosophic Manuscripts of 1844, Moscow, 1961.

السياسى ، كما أن هذا التحليل لايهدف إلى مجرد إبراز الوقائع الإقتصادية القائمة أو الألتزام بها ، وانما هدف التحليل النهائى العمل على تغييرها ، وقد استخدم « ماركس » مصطلح الأغتراب بمعان متعددة ، لأنه يرجع تحليليا إلى عملية معقدة ذات جوانب مختلفة . وقد وصفت هذه العملية ونتائجها وصفا مفصلا فى كتاب « رأس المال » ، حيث تبدأ بأنفصال الناس عن « وسائلهم فى الانتاج » وعن « جوهرهم » ، كما حدث فى انجلترا حينما نحى الناس عن أراضيهم لكى يعملوا فى مناطق أخرى فباعوا قوة عملهم لأصحاب العمل « الرأسماليين » . ولذلك يفقد العامل اى قدرة على ضبط عملية الانتاج أو توجيه نتائجها ويتحول ، عمله الى نشاط إغترابى ، يفقد معه محصلة هذا العمل ، وتصبح العملية الإنتاجية برمتها خارجه عنه وعن حاجاته الانسانية . ويترتب على ذلك أن عمل الفرد ليس أختياريا بل هو عمل مفروض ، وليس أشباعاً للحاجة ، وانما وسيلة لاشباع الحاجات الخارجه عنه . وإذن فالانسان ـ كعامل ـ أصبح أقل من الانسان طالما انفصل عن خصائصه الانسانية الكامنه .

لقد استخدم ماركس الديالكتيك الهيجلى بعد أن عدله وطوعه لخدمة قضاياه الأساسية . فالعقل عند هيجل يحتوى العالم كله ، أى أن كل نطاقاته العضوية وغير العضوية (الطبقة والمجتمع) تحكمها الفكرة ومنطقها الجدلى الديالكتيكى . والعقل قوة خالدة تعبر عن ذاتها فى كل جوانب الحقيقة الواقعية . ومن أجل هذا فان المفهوم الديالكتيكى عن الواقع والذى يمكن أن نرجعه إلى أرسطو وإلى فلاسفة ماقبل سقراط ، قد أثر تأثيراً عميقا فى تفكير ماركس عن الظواهر الاجتماعية . فالمرء لايستطيع أن يفهم النظام القائم دون أن يقوم بنقده ويضع له قضية عكسية . وهكذا يتضح أن هذا المدخل يتناقض بوضوح مع المدخل الوضعى الذى يعالج

الوقائع فى صورتها المعطاه بطريقة مباشرة ، بأعتبارهـا الحقيقة ذاتها . وقد رفض « ماركس » ـ وهو يشبه فى ذلك هيجل ـ أن يرجع الحقيقـة إلى المعطى الخاص » ، وأعتقد أن المواهب الكامنة فى الناس والأشياء لاتستنفذ فى الصور المعطاه والعلاقات التى يمكن أن تظهر بينها فى الواقع » (١). وبطبيعة الحال لايجب أن نفهم من ذلك أن ماركس لم يكن مهتما أو مدركا للوقائع، وإنما الفكرة الأساسية أنه كان دائما على وعى تام بالطابع التحولى والانتقالى لـكل الوقائـع المعطاه التى لاتمثل إلا لحظات سلبية فى العملية التاريخية غير المنقطعة . فالنظام الموجود الذى يتمثل فى الرأسمالية ـ على سبيل المثال ـ يجب لـكى نفهمـه بدقة أن ندرك كيف يتقض ، لأن إمكان الثورة يعتمد على مجموعة من الظروف الاقتصادية والسياسية الموضوعية الواضحة ، ولايمكن ادراك ذلك إلا عن طريق تحليل بناء الرأسمالية واتجاهاتها . ومن خلال هذه المعرفة الواقعية وحدها أستطاع ماركس أن يكون نظرية عامة تقـود العمل الثـورى للطبقـة العاملة . ومـا هو جـدير بالذكر أن « ماركس » حينما كان يصل الى تعميم علمى ، أو نظرية فإنه غالبا ما كان يشير الى الظـروف التاريخية الخـــاصة التى تنطبق عليها . ويقـول « هربرت ماركيوز Herbert Marcuse » إن قضية ماركس قضية نقدية ، تتضمن أن العلاقة السائدة بين الوعى وبين الوجود الاجتماعى زائفة ، يجب أن يقضى عليها قبل قيام العلاقة الصحيحة وأتضاحها (٢) . » كما أنه يؤكد مراراً أن نقطة البدء المادية قد فرضتها

---

(١) See. Bottomore (ed). Karl Marx : Selected Writings in Sociolgy and Social Philosophy N. Y, Introduction.

(٢) Herbert Marcuse; Reasan and Revolution, Boston, 1954 pp. 273 – 274.

وأنظر كـذلك الترجمة العربية التى قام بها الدكـتور فؤاد زكريا لهذا الكتاب بعنوان « العقل والثورة » .

عليه الخاصية المادية للمجتمع الذى يقوم بتحليله . وأن أساءة فهم هـذه النقطة أدى الى تحريف خطير لنظرية ماركس ، الى الحد الذى نسبت اليه أفكار كان يعارضها ، ومثال ذلك القول بأن « نموذجه » كان المجتمع المادى فى حين أنه كان يسعى الى تغيير العلاقة القائمة بين الكائن الاجتماعى والوعى الاجتماعى » .

ان الاشتراكية والشيوعية لم يكونا عند ماركس هدفين فى ذاتها . لأن القضاء على الملكية الخاصة والوصول الى اشتراكية وسائل الانتاج هما فى واقع الأمر خطوة أولى من أجل القضاء على العمل الأغترابى ، تؤدى الى قيام « منظمة » يصبح النمو الحر للفرد فيها شرطا للنمو الحر للمجموع . ولهذا فأول ما يجب أستبعاده وتجنبه فى هذه الحالة فهم المجتمع تجريديا كمعارض الفرد ، لأن الفرد هو الكائن الاجتماعى ، وحياته هى أعلى تمبير وتأكيد للحياة الاجتماعية . ومن أجل هذا كانت حاجات الفرد وحريته مطلباً أساسياً عند ماركس ، مما جعله يدين أى مجتمع يفرض تقسيم العمل دون أن يضع فى أعتباره حاجات الناس . وهـذا هو جوهر نقده للمجتمع الطبقى ، حيث تتحدد جميع قدرات الفرد من خلال وضعه الطبقى والوظيفة المسندة اليه فى نسق الانتاج .

لقد أخذ ماركس إذن من هيجل تأكيده على التفكير النقدى السلبى الذى جعله جزءاً متكاملا من نسقه الفكرى . والتفكير الجدلى عند ماركس ليس نقديا وثوريا فقط ولكنه تفكير سوسيولوجى وأمبيريقى فى نفس الوقت . ومثال ذلك تفسيره للصراع عن طريق المزج بين التجريد والعلاقات الإجتماعية المحسوسة .

المدرسة الماركسية فى علم الاجتماع :

أن نقطة الإنطلاق فى كل استقصاء المدرسة الماركسية فى علم الإجتماع تحدد عن طريق الوقائع الاجتماعية الأمبيريقية والمنهج العـام للمادية التاريخية ، أما

المسلمات الأساسية فى هذا المنهج فإنها مستمدة من قوانينها العامةالتى يمكن ابرازها كما يـــلى :

١ ـ قانون العلاقةبين الأساس الإجتماعى والبناء الفوقى :فالعلاقاتالاقتصادية فى الانتاج وتوزيع السلع المادية تحـدد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة قيـــام الانجازات الروحية والسياسية ، والأخلاقية ، والثقافية،والأيديولوجية فى مجتمع معين ، وهى التى تتساند وتتفاعـل مع العلاقات الاقتصادية ، كما تتفاعـل بعضها مـع بعض .

٢ ـ قانون نضال الجماعات الاجتماعية : يتحدد تطور كل مجتمع عن طريق الاختلافات والتناقضات والصراعات ، والنضال بين الجاعـات الاجتماعية المعينة التى يتكون منها ، كما يتحدد من خلاله علاقة هذا المجتمع بالمجتمعات الأخرى .

٣ ـ قانون التغير الثورى فى تطور المجتمعات المحـــددة : إن الصراع الذى يحدث فى مجتمع معين بين درجة التطور العليا وبين قواه الانتاجية ، وبـين تخلف النظم الاقتصادية وظواهر البناء الفوقى التى تتحدد عن طريق هذه النظم ، يمـكن أن يكون شديدا لدرجـة أن المجتمع يدخل مرحـلة ثورية فتنشأ نظـم إقتصادية جديدة تصاحبها صور جديدة للبناء الفوقى الاجتماعى .

٤ ـ قانون دور الأفراد فى الأحداث الاجتماعية : ان نشاط أو فعالية كل فرد فى أى جماعة خلال تنفيذ الأنواع المختلفة للوظائف الاجتماعية محدود بفعالية الأعضاء الآخرين فى نفس الجمـــاعة ، حتى أن النتائج المشتركة تنبثق من النفى الديالـكتيكى لأوجه النشاط الفردية .

٥ ـ قانون التقدم الاجتماعى : يتكون التقدم من تطور نظم مجتمعات محددة،

فتمر من صور بسيطة إلى صور إجتماعية معقدة ، الأمر الذى يكون مناسبا للعدد الأكبر من أعضائها ، أو لـــكل الناس إذا كانت مصالح الانسانية كـكل موضع التقدير .

إن هذه القوانين تشير إلى أى العناصر فى علاقات المجتمعات المحددة يكون لها طابع العمومية والضرورة فى تحديد مجرى الأحداث الاجتماعية ،لأن ما تعبرعنه أمر دائم ، يقيم الأساس لفعالية الظروف والأسباب التى تمثل الضرورة الأساسية للتغير الاجتماعى ، وفى نفس الوقت تكون الأساس الذى نقيس عليه النقاط الرئيسية للمنهج العام المطبق فى العلوم الاجتماعية التى تقوم على الفلسفة الماركسية .

ومن السمات المتميزة لمنهج المادية التاريخية أنه يبحث عن الأسباب الرئيسية للتغير الاجتماعى فى نطاق الحقائق التى تكون فى متناول التحليل ، وليس فى الحقائق الخارجة عنه . وهذا يتضمن أن كل ظاهرة إجتماعية تحمل داخلها جوهر تغيرها المستقبل ، الذى سوف ينمو فى أتجاه أو آخر معتمداً على الظروف المادية الخاصة فى البيئة التى تعمل من خلالها هذه الظواهر . كما أن النتائج التى يمكن التوصل اليها لابد أن تقارن بالخصائص الواقعية إذا كانت مضبوطة عليا ، وهذه المقارنة هى وحدها التى يمكن أن تحدد ما إذا كانت النتائج المحددة (الملموسة) تقوم على قاعدة ثابته من الحقائق .

إن هذه القضايا الأساسية للمادية التاريخية تكون الأطار الذى من خلاله يمكن أن نطبق المنهج العلمى الوصفى والاحصائى والرياضى والسيكولوجى والتاريخى وكل أداة استكشافية أستحدثها من أجل الوصول إلى تقييم الصلة بـــين النتائج وواقع الحيـاة الاجتماعية ولهـذا فإن المدرسة الماركسية فى علم الاجتماع تبنى

مدخل دراساتها على بحث الواقع الاجتماعى بناء على الأسس النظرية الكبرى ، التى توجه كل استخدام للمناهج المحددة الأخرى ، الرباضية والاحصائية والسيكولوجية والتاريخية ، وتوجه فى نفس الوقت تكييف البحث واختبار أدواته المناسبة (١) .

هكذا يبدو واضحا أن العلم الاجتماعى الماركسى يتطلع إلى صياغة نظرة كلية للانسان تحل محل النظره الجزئية ، ومن الناحية المنهجية يؤكد المدخل الماركسى لهذا العلم ، أن الإنسان الاقتصادى والانسان الاجتماعى ، والانسان الثقافى ، والانسان السياسى والمصطلحات المشابهة التى ترتبت على تقسيم العمل العلمى، تشكل « بناءاً نموذجياً » تباور خلال عملية طويلة من التجريد، ونضجت من خلال مواقف اجتماعية صغرى منفصلة نظاميا . إن الواقع الأصيل الوحيد الذى تنبعث منه هذه النماذج ، وترجع اليه هو الانسان ، الذى يعتمد فى حياته على البيئة الاجتماعية والثقافية ، لذلك فالنظر إلى هذه العملية على انها مجرد « كلية » تتكون من وظائف منعزلة نسبياً ، وتنتمى الى إطارات مرجعية مستقلة قد يؤدى الى تجريد مضلل ، ويتعين إذن ومن أجل فهم الانسان أن نجمع كل ما أكتشفناه فى محاولة التعرف على النواحى المختلفة لعملية الحياة الموحدة ، إن من أهم الأخطاء الخطيرة التى يقع فيها مفسروا النظرية الاجتماعية الاقتصادية الماركسية تلك المحاولة التى تدور حول رد هذه النظرية إلى نوع من الحتمية الاقصادية. إن ماكان يعنيه ماركس عندما أصر على إدخال الاطار المرجعى الاقتصادى فى تحليل الظواهر الاجتماعية كان شيئاً بعيداً تماماً عن الحتمية الاقتصادية ، ولهذا السبب كان بعيدا ايضا عن أى نوع من التحليل العاملى الوحيد ، وكل مافى الأمر أنه كان يرى أنه من أجل تفهم

---

(١) Ljubomir Zivkovic, the Structure of Marxist Sociology, in Berger (ed). Marxism and Sociology, N. Y, 1969, pp. 89 – 111.

الجوانب الايديولوجية والجماعية والثقافية للسلوك الانسانى ، فإن المرء لا بد أن ينظر اليها على أنها جزء من كل، أى جزء من بناء كلى يحتوى على البعدالاقتصادى لعملية الحياة كما يحتوى أيضا على كل الأبعاد الأخرى (١) .

لقد جرت عادة الذين يعالجون تاريخ العلوم الأنسانية أن يؤكدوا قيمة أقوال وأحكام رواد علم الاجتماع العلمى أو الحديث ، ويحاولون استنتاج أن الاتجاه الوضعى الحاضر فى العلوم الانسانية كان رد فعل نفسى أثاره النجاح الذى أحرز فى العلوم المضبوطة مثل الطبيعة والكيمياء .

وقدفسر الباحثون إقبالهم على ماهو مقيس أو متناه فى الصغر كمنطلق لفروضهم بأنه ضرورة فرضها أختيار نموذج ماهو ممكن تجريبياً سواء من حيث البحث أو أختبار النتائج ، إلى جانب ماينطوى عليه من إحراز المعرفة أو التقدير الاجتماعى والاحترام الأكاديمى .

ماهى إذن الخاصية الأساسية فى العلم الأنسانى الماركسى ؟ نستطيع أن نتوصل الى الاجابة الصحيحة عن طريق التعارض القائم بين المدخل الكلى أو الشمولى ، وبين المدخل التعددى لدراسة الظاهرة الاجتماعية. إن المدخل الاول يهتم بالنسق كنمط متميز يتكون من أجزاء تتبادل الارتباط والاعتماد بعضها على الآخر . إن العلم الانسانى يتفق لذلك ، منهجياً ، مع بعض الاتجاهات الحديثة فى الانثروبولوجيا البنائية عند « كلود ليفى ستراوس » ، أو فى علم النفس عند « جان بياجيه » ، ويتعارض مع السلوكية المتعددة الابعاد أو ذلك النموذج من علم الاجتماع الذى

---

(١) Oleg Manjiè, The Marxist School of Sociology; What is Sociology iu Marxist Sense? in Peter Berger (ed). Marxism and Sociology. N. Y, 1969. pp, 37 – 75.

لايفصل البناء عن التوزيع الاحصائى . وإذا حاولت السلوكية أكتشاف « المعنى » فى واقعة أو ظاهرة، فأنها تحاول أن تتبع أسبابها المحتملة عن طريق تحقيق المتغيرات المرتبطة احصائياً ، فى الوقت الذى تكتشف فيه الكلية البنائية المعنى عن طريق تحديد الوضع أو المكان الذى تشغله واقعة معينة أو ظاهرة فى بناء مستوى أعلى تكون جزءاً منه .

وهناك جوانب أخرى المدخل الماركسى للعلم الانسانى ، تتمثل فى الاهتمام المسبق والمكثف ببناء العملية المعرفية ، ومعنى ذلك تركيز بحث مستمر عن ظروف تحصيل الحقيقة فى الاستقصاءات الاجتماعية بالصورة التى تعالج بهـا فى علم إجتماع المعرفة ، أى الاهتمام بأمكان التحقق من صدق القضايا السوسيولوجية ومن شروطها أو متطلباتها . وكذلك تحليل العلاقات المترابطة التى تقوم بين العلم والايديولوجية ، وبين العلم الاجتماعى والبناء الاجتماعى والدور الذى تلعبه القيم والتصورات النظرية القبلية والتحيزات الثقافية فى العملية المعرفية . ثم البحث المتصل عن تعريف مرن لدور علم الاجتماع فى المجتمع ، لان العلم والتصورات القبلية لاتأتى عن طريق ضغوط خارجية فحسب بل قد تكون كامنة فى البحوث والبناءات النظرية ، ولهذا لابد من البحث الدقيق عن الآثار الاجتماعية لبحوث علم الاجتماع وأنشطته التربوية . هذا فضلا عن المحاولات المستمرة لتنظيم ميدان لعلم الاجتماع الحديث عن طريق تصنيف وتمييز تلك الكثرة الهائلة من اتجاهات ومدارس علم الاجتماع (١) .

---

(١) Zygmunt Bauman, Modern Simes, Modern Merxism pp. 1 – 17.

وأنظر كذلك دراسات عن البحوث الامبيريقية التى يجريها علماء الاجتماع السوفيت فى:
Simirenko (ed), Socviet Soviology, London, 1967, p. 295.

الماركسية وعلم الاجتماع الأكاديمى فى الاتحاد السوفيتى :

إن التطور الذى طرأ على النظرية الاجتماعية فى الاتحاد السوفيتى والكتلة السوفيتية ، لم يكن أقل من التطور الذى شهدته فى الولايات المتحدة . ويمكن أن نشير هنا الى مجموعة ملاحظات مستخلصة من دراسة موقف علم اجتماع فى ثلاثة بلاد أوربية شرقية - وهى بولنـدا ، ويوجوسلافيا ، والإتحاد السوفيتى ذاته .

(١) مما لاشك فيه أن هيكلا مستقلا موجود فى هذه البلاد يشتمل على النظرية والبحث السوسيولوجى المتميز وينمو نموا سريعا . ولا يمثل هذا الهيكل إحياء الماركسية ، ولا يمثل « ماركسية جديدة » بل قصد به أن يكون شيئا مختلفا ، إنه «علم اجتماع أكاديمى » . وقد أخذ طريقه الواضح فى الإتحاد السوفيتى ، خصوصا فى موسكو ، ولينينجراد حيث تحكمه معايير متميزة تماما عن معايير الماركسية التقليدية وقد نشأت فى هذه البلاد - معاهد جديدة للبحث العلمى ، أخذت على عاتقها نشر عدد كبير من الكتب المترجمة ، عن الأعمال النظرية الأمريكية ، بما فى ذلك علم الإجتماع الوظيفى الراهن .

(٢) على الرغم من أن تطور علم الإجتماع فى الكتلة السوفيتية ، لم يكن منتظما ، فإنه أنتج عملا نظريا له أهميته ، ومثال ذلك ظهور المجلة البولندية لعلم الإجتماع The Polish Sociological Bulletin ، التى نشرت بالإنجليزية ، كذلك زاد الإهتمام بالعلم الإجتماعى الرياضى .

ويبدو أن بعض علماء الاجتماع السوفيت ليسوا متحمسين للاسهام بأعمال منظمة فى النظرية الاجتماعية ، لأنهم يخشون نتائج هذه الأعمال التى تؤدى إلى ظهور علم اجتماع سوفيتى . وباختصار ، فانهم يخشون أن تؤدى بهم « صناعة النظرية »

إلى الاختلاف أو التناقض النظرى ، الذى لايلائم المرحلة الراهنة للتطور النظامى فى علم الإجتماع . يضاف إلى ذلك أن تطور النظرية السوسيولوجية السوفيتية ، من شأنه أن يزيد الهوة بين علم الاجتماع السوفيتى والماركسية السوفيتية .

(٣) تزايد إنفتاح دول أوربا الشرقية على دراسات علماء الإجتماع الامريكان ، وخصوصا منذ عام ١٩٦٦ ، والذى ظهر فى اهتمام المثقفين بقراءة علم الاجتماع الامريكى ، سواء الكتب المترجمة منه أو المنشورة بالإنجليزية .

(٤) شعور علماء الإجتماع السوفيت ، أن أعمالهم التى لم تنشر بعد ، أرقى من التى نشرت حديثاً فى روسيا ، وأفضل كذلك من الاعمال التى ترجمت إلى الإنجليزية .

(٥) بدات أحكام الباحثين الروس عن النظم السوفيتية ، والتدرج الاجتماعى لمجتمعهم ، تتميز بالواقعية ، وهذا من شأنه أن يفيد البحث الاجتماعى فى المستقبل .

(٦) أصبح علم الاجتماع السوفيتى يهتم بها أسماه بالبحث « المادى » . « فالمادى » أو « الملموس » Concrete ، هو المفهوم الذى يدور حوله معظم التطور الحديث فى علم الإجتماع السوفيتى ، إن مفهوم علم الاجتماع المادى لا يمثل فقط تأكيدا لبرنامج جديد فى البحث الإمبيريقى ولكنه يتضمن كذلك حكما نقدياً على الصور القديمة للتحليل النظرى ، واعتراضاً على العمل النظرى الذى لم يدعم بالبحث الامبيريقى ، ورفضاً للمداخل الذاتية فى دراسة النظرية الاجتماعية .

(٧) ويصاحب هذا ، إتجاه على أكثر قوة وصلابة ، يميز علماء الاجتماع فى أوربا الشرقية ، تجاه الماركسية والمادية التاريخية .

إن ذلك كله لايعنى أن علماء الإجتماع السوفيت ينظرون الى نتائج البحث المادي أو الملموس ، باعتبارها تحدد « الواقع » السوفيتى . حيث أن مايعتبره

علماء الاجتماع السوفيت ، واقعياً ، مازال حتى الآن منبثقاً عن نظريتهم الاجتماعية الكبرى (الماركسية) . وفى هذه النقطة بالذات ، يبدو أنهم لايختلفون عن علماء الاجتماع الغربيين ، الموالين للاتجاه الوظيفى ، والذين تعتبر مفاهيمهم عن الواقع الاجتماعى ، متأثرة أيضا بدعاواهم الميتافيزيقة المتضمنة فى نظريتهم الاجتماعية .

(٨) لايجب أن يفهم النمو الذى طرأ على التخصص السوسيولوجى فى أوروبا الشرقية ، على أنه تدعيم للاتجاه المضاد للاشتراكية ، أو الاتجاه الحزبى المضاد الذى يوجد عند طبقة المثقفين القدامى فى الجامعات . فمن الناحية الاولى ، نجد أن الحيوية الحقيقية فى علم الاجتماع الاوربى الشرقى ، موجودة عند الشباب . ومن الناحية الأخرى ، نجد أن علم الاجتماع الجديد فى هذه البلاد ، يهتم به هؤلاء الذين يحتلون مراكز فى الأحزاب الشيوعية فى بلادهم . كما أن هناك بعض الجوانب فى علم الاجتماع ، أدخلها أعضاء الحزب الشيوعى ذاته (١) .

وعلى الرغم من أن الاتجاه الوظيفى فى الولايات المتحدة ، يمر بأزمة كبرى ، إلا أن مستقبله العالمى لم ينتهى بعد . فقد بدأ طريق المستقبل يتضح أمام هذا الاتجاه فى أوروبا الشرقية ، بل وفى الاتحاد السوفيتى . حيث ظهر الاهتمام به عند المثقفين فى الكتلة السوفيتية ، وكذلك بعلم الاجتماع الأكاديمى ، ومما هو جدير بالذكر أنه برغم النقد الامريكى الذى يوجه لأعمال تولكوت بارسونز ، فهناك إهتمام يتزايد بتلك الأعمال ، من جانب المدرسين الاوروبيين ، الماركسيين منهم وغير الماركسيين .

---

(١) Gouldner Op. cit, pp. 461 - 462.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن علم الاجتماع العالمى ، إنقسم إلى إتجاهين : الأول ، أكاديمى ، حيث أصبحت النظرية الوظيفية فيه بمثابة القضية السائدة ، والآخر : ماركسى (١). غير أنه كان هناك تأثير متبادل بين الماركسية والاتجاه الوظيفى ، وخصوصاً قبل الحرب العالمية الثانية . حيث تأثرت الماركسية بالاتجاه الوظيفى أكثر من العكس ، ويرجع ذلك إلى أن الاتجاه الوظيفى ظل يتطور وينمو لفترة طويلة بعد الحرب العالمية الأولى ، بينما توقف التطور الفكرى للماركسية ، عن طريق سياسة ستالين وزيادة تسلطه على الإتحاد السوفييتى (٢). ومن الشواهد التى تشير إلى تأثير علم الاجتماع الأكاديمى على الماركسية السوفييتية ، ما جاء فى دراسات « نيقولا بوخارين Nikola Bukharin » ، الذى كان يشبه معظم كبار علماء الاجتماع فى الفترة الكلاسيكية. فقد حاول أن يطور نموذجاً للتحليل على مستوى « النسق » الاجتماعى .

وهناك دليل على تأثير الماركسية فى تلك الدراسات ذات الطابع الوظيفى بالرغم من عدم إعتراف أحد بهذا التأثير يظهر فى نظرية الانثروبولوجى

---

(١) أصبحت هذه القضية موضع قبول عام تقريبا ، بل ان البعض يذهب الى حد القول بأن هناك علمين للاجتماع Two Sociologies ، فقد تبلور فى العلم الاجتماع المعاصر تصوران أساسيان مختلفان عن المجتمع ، يعتمدان على مقولات ، ومفاهيم ، وقوانين ، وبناءات منطقية مختلفة ، الأول يطلق عليه « علم الاجتماع البورجوازى » ، الذى يأخذ صورة علم اجتماع وضعى امبيريقى بدون فلسفة ، والآخر يطلق علم عليه الاجتماع الماركسى ، الذى يقيم نظريته عن المجتمع والتاريخ على مبادىء فلسفية مستمدة من المادية التاريخية .

See, Ljubomir Zivkovie, Op. cit, p. 98.

(٢) Gouldner, Op. cit, pp. 463 – 464.

« مالينوفسكى » . وكذلك يعد تأثير الماركسية فى نظرية « روبرت ميرتون » . أمراً جديراً بالاهتمام . وعموماً ، يبدو أن التأثير الماركسى كان أوضح فى الانثروبولوجيا ، أكثر منه فى علم الإجتماع . ويرجع ذلك إلى أن الاهتمام الرئيسى للانثروبولوجيين إنصب دائما على الظروف « المادية » للحياة ، والأشياء المصنوعة ، وكل ما هو بيولوجى ، وتطورى .

ويمكن أن نتوصل من هذا كله ، إلى أن علم الإجتماع العالمى أصبح الآن أكثر ميلا نحو القضاء على الانقسام الذى ظل يعيش فيه أكثر من قرن . ولكن هذا القول لا يحمل أى تنبؤ بما يمكن أن يحدث فى المستقبل .

ولقد ظهرت أزمة الماركسية السوفيتية ، واضحة قبل المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ، فبدأ ستالين بنفسه (وحتى دون قصد) اثارة هذه الازمة عام ١٩٥٠ أثناء مناقشته لبعض المسائل المتعلقة باللغة . وقد أخذت هذه المناقشة صورة نقد لوجهات النظر التى قدمها عالم اللغة السوفيتى « مار M. Y. Marr » فى وقت مبكر ، حول طبيعة اللغة ، ومحاولة فهم مشكلتها من خلال الإطار الماركسى ، هل هى جزء من « أساس » البناء الإقتصادى ، أم هى جزء من «البناء الفوقى » الأيديولوجى الإجتماعى ؟ فطالما لا يوجد فى تراث ماركس ما يمكن أن يدل على وضع اللغة ، فقد لجأ « مار » إلى حل ذاتى . مؤداه أن اللغة تنتمى إلى البناء الفوقى للمجتمع . ولكن « ستالين » رفض هذا التفسير ، وذهب إلى أن اللغة ، إذا كانت جزءاً من البناء الفوقى ، فيجب أن تتغير بتغير أساس الاقتصاد الروسى ، من الشكل الاقطاعى ، إلى الرأسمالية ، فالاشتراكية . ومن الملاحظ — كما يرى ستالين — أن اللغة الروسية ظلت كما هى دون أن يطرأ عليها أى تغير وهنا تساءل « ستالين » : هل يمكن إعتبار اللغة جزءا من الأساس الاقتصادى ؟

وأجاب بالنفى . ثم تساءل مرة أخيرة : هل تعتبر اللغة إذن ظاهرة متوسطة ، تحتل موقفاً وسطاً بين الأساس الاقتصادى ، والبناء الفوقى الاجتماعى ؟ وأجاب بالنفى أيضاً (١) وعلى الرغم من إجابته على السؤال الأخير بالنفى ، إلا أنه أضاف — فى الواقع — مقولة عامة ثالثة ، إلى التفرقة الماركسية التقليدية بين البناء الأساسى ، والبناء الفوقى ، وقد حازت هذه الفكرة موافقة المدرسيين السوفيت . وتشتمل هذه المقولة على ظاهرة إجتماعية ، كاللغة ، وأيضا على الرياضيات ، والمنطق الرمزى ، ووقائع العلم وقد أصبحت — فى نظر هؤلاء مستقلة عن البناء الأساسى للاقتصاد ، ولا تتغير بتغيره .

إن ما فعله « ستالين » فى هذا الصدد ، يتمثل فى قوله إن هذه الثنائية بين مفهومى « البناء الفوقى » ، و « البناء الأساسى » والتى تعتبر فكرة أساسية عند الماركسية ، ليست واقعية أو عملية ، كذلك اعترض « ستالين » على مفهوم الطابع « الطبقى » للغة والذى دعمه « مار » عندما ذهب إلى أن اللغة تتأثر بنسق الطبقات الإجتماعية فى المجتمع الذى توجد فيه . ولكنه يرى من جانب آخر أن اللغة ليست ظاهرة طبيعية ، وانما هى ظاهرة « قومية » . وهكذا ، كان ستالين ينظر دائما إلى دعاوى الماركسية فى ضوء ظروف الدولة السوفيتية الجديدة ، يضاف الى ذلك أنه وضع مجموعة من الدعاوى التى تلتقى مع الإتجاه الوظيفى . ومن ثم بدأت تظهر الحاجة الى علم اجتماع موجه نحو مشكلة « المجتمع المتكامل (٢) .

إن الماركسية فى ناحية هامة منها تعتبر نظرية فى كيفية تغيير العالم . وهى صورة معكوسة لإتجاه كومت الذى تطور منه الإتجاه الوظيفى ، وهى أيضا لم

---

(١) Gouldner, Op. cit, pp. 452 – 453.

(٢) Gouldner, Op, cit, pp. 457 – 458.

تركز أى اهتمام على مشكلة استقرار المجتمع . ولو انه كلما حققت دول أوربا الشرقية تقدما فى مجال التصنيع ، ظهرت حاجتها الى نظرية تهتم « بالميكانيزمات التلقائية » للاستقرار والنظام الاجتماعى، ومن هنا ظهرت الحاجة الى النظرية الوظيفية.

والواقع أن أهمية فكرة «التوازن» عند بارسونز ، بالنسبة للكتلة السوفيتية هى فى تركيزها على الأسلوب الذى تتمكن الانساق الاجتماعية بواسطته ، من أن تدعم ذاتها بطريقة تلقائية ، وكذلك فى اهتمامها بالعوامل الداخلية التى تسهم فى مثل هذا التدعيم الذاتى التلقائى المجتمعى . ويعتبر مثل هذا التحليل له قيمة هامة ، لا لأنه يوضح ما يحدث بالفعل ، وإنما لأنه يركز على الطريقة التى تجعل الانساق الإجتماعية أكثر تدعيما لذاتها . وليس هناك شك فى أن كثيراً من التفاصيل والدعاوى الأساسية التى قدمها بارسونز فى محاولته حل مشكلة التوازن ، تعتبر خاطئة . ولكن من يهتم بهذه المسألة، يمكن - بل ويجب عليه - أن يرجع إلى بارسونز كنقطة انطلاق فى دراسته ، وكأساس يستطيع عن طريقه أن يشكل فكره الخاص . يضاف إلى ذلك أنه إذا كانت نظرية بارسونز تركز على تحليل التوازن ، وهى فى ذلك تكون مفيدة بالنسبة لبعض الدول، إلا أن هناك دولا أخرى، وخصوصاً تلك التى توجد فى العالم « الثالث » النامى ، لا تهتم الآن إهتماماً أساسياً بالمشكلة الإجتماعية التى مؤداها : كيف يمكن تطوير توازن يتميز بالتدعيم الذاتى . وإنما تتمثل مشكلتها فى : كيفية تغيير ما هو قائم ، وخصوصاً تغيير نسقها الاجتماعى القديم ، وكيفية تحريك « ميكانيزمات الانطلاق » لخلق طريق جديد نحو التطوير [١] .

ومعنى ذلك إذن أن إتجاه بارسونز ، وكذلك الاتجاه الوظيفى يهم أولئك

---

(١) Gouldner, Op. cit, pp. 454 – 455.

الذين يركزون على مشكلة « استقرار » مجتمعهم . وينطبق هذا بوجه خاص على الكتلة السوفيتية . فالضبط الذاتى فى المجتمع السوفيتى ، يعنى تخفيف حدة الضوابط المركزية الموجودة فى هذا المجتمع . ويقول ألفين جولدنر إن علماء الاجتماع فى أوربا الشرقية كانوا يؤكدون فى عامى ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ أهمية الأخلاق ، والقيم الخلقية (وهو اتجاه بارسونز) ، فى نفس الوقت الذى أهتم فيه علماء الاجتماع السوفيت ، بتدعيم ما أسموه « بالضبط الذاتى» عند المواطنين السوفيت ، وعلى أى حال ، ففى ضوء الظروف السياسية السائدة فى هذه الدول ، لا تعتبر الوظيفية نظرية « محافظة » بل انها نظرية « تحررية » فى النظام الاجتماعى (١) .

ويبدو أن إنعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩٥٦ كان نقطة الانطلاق الأولى فى ظهور علم الاجتماع السوفيتى ، وكذلك علم الاجتماع اليوجوسلافى والبولندى ـ لأن مهاجمة الاتجاه الستالينى عملت على بعث حركة تحررية جديدة ، أدت الى نتيجتين : الأولى ، التقليل من حدة الضوابط السياسية على الحياة الثقافية مما شجع التجديد الثقافى ، والفكرى . ومن المقطوع به أن ظهور علم الاجتماع الأكاديمى فى أوربا الشرقية ، له صلة وثيقة بالمظاهر الجديدة فى الحياة السوفيتية . والثانية ، ظهور ملامح عديدة تدل على تزايد « أزمة الثقة » فى المجتمع موجهة نحو المصادر الرسمية للاتصال ووسائل الأعلام .

لقد ترتب على ذلك ، مع عوامل أخرى ، أن « رجل الشارع فى الاتحاد السوفيتى ، ازدادت رغبته فى معرفة ما يجرى فى العالم فى الوقت الذى تزايدت هذه الرغبة عند آخرين وعلى الأخص رجال الادارة ، كما أن القادة الجدد للاتحاد السوفيتى شجعوا هذا الاتجاه ودعموه وعملوا على تحقيقه تأكيدا لمنظورهم

(١) Gouldner, Op. cit, p. 456.

القيادى الجديد . وهـــذا هو الذى يجعلنا نقول ، بأن الأهتمام السوفيتى الجديد بعلم الاجتماع، انبثق ـ الى حد ما من الواقع السوفيتى،وقد بدأ هذا الاهتمام ينعكس فى « الصحافة الاكاديمية » ، التى تتمتع باحترام واسع النطاق ، حيث يقبل الرجل العادى ، والمديرون والقياديون السوفيت على الرجوع اليهـــا ، للحصول على المعلومات والدراسات والتقارير التى بدأت تتناول موضوعات أكثر انفتاحاً على النقد والتقييم ، مما خلق مناخا مناسباً لنمو علم الاجتماع واتساع اطاره وازدياد المناقشات حول مشروعيته وأهميته .(١)

إن التطور الذى حدث فى مجال ما يسمى بعلم الإجتماع الأكاديمى فى الإتحـاد السوفيتى يوضح أنه ليس من الضرورى إرتباط ظهور هذا العلم بوجـود مجتمع صناعى رأسمالى ، حيث يمكن أنه يظهر فى أى نموذج من نمـاذج المجتمعات وفى أى مرحلة من مراحل تطورها . وهذا هو الذى يجعلنا نقول ، بأن علم الإجتماع، يصبح « نظاميا » فى المجتمعات التى يصل فيها التصنيع إلى مرحلة التدعيم الذاتى . أو عندما يستطيع علماء الإجتماع وغيرهم ، تحديد مشاكل مجتمعهم ، وصياغتها من منظور ، غير إقتصادى .. أى بإعتبارها « إجتماعية » خالصة ومتميزة بصورة ما عن المشاكل الإقتصادية. كما أن تقدم التكنولوجيا وتزايد قدراتهـا فى مجـــالات الإنتاج والخدمات وإمكانياتها الواسعة فى تلبية مطالب الجماهير وإتســاع ولاء الجماعات المختلفة ، والشوط الطويل الذى قطعه المجتمع فى إعادة بنائه وماتمخض عنه من إستقرار النظم الإجتماعيه الجديدة ، حتى أصبح ما تبقى من مشاكل إعادة البناء لا يحتاج إلى التزام صارم بالإستراتيجية القديمة وحيث يمكن معالجتها داخل نطاق المسائل ذات الطابع التكتيكى : كل هذا ساعد على « نظامية » علم الإجتماع.

---

(١) Gouldner, Op. cit, pp. 459 - 460.

يضاف إلى ذلك ، أن زيادة التصنيع مع ما صاحبه من زيادة نسبة الصفوة الإدارية والفنية ، واتساع نطاق التخصص والتدريب ، فى الوقت الذى زادت إستقلالية القطاعات المختلفة من المجتمع ، مما أثار مشكلة التنسيق بينها . جعل نظامية علم الإجتماع الأكاديمى ، نتيجة صاحبت هذا التطور العام الذى طرأ بعد استقلال القطاعات الإجتماعية . ولذلك يمكن النظر اليه على أنه أستجابة رمزية لمحاولة الوصول الى التكامل عن طريق دمج الأجزاء التى ظهرت استقلاليتها فى الكل ، وأنه كذلك ، أداة صالحة لمعالجة المسائل ذات الطابع العملى والتطبيقى فى اطار التكامل الكلى .

وهذا هو الذى أدى الى تأكيد الحاجة النظامية الى علم الإجتماع، وقد تدعمت هذه الحاجة من خلال ازدياد مسؤولية السلطات العامة فى« المجتمع الصناعى » للتنسيق بين قطاعات الحياة الاجتماعية . هذا التنسيق الذى يعالج من زاوية فنية لا تتصل كثيراً « بالعمل السياسى» حيث يكون المطلوب اسهام السلطة فى عملية « الضبط الذاتى » و « التنسيق الذاتى » بين القطاعات المختلفة والإبتعاد عن أسلوب الفرض أو التحكم .

ويلاحظ أن النظم السوفيتية والأمريكية قد تلاقت حول هذا المفهوم المشترك، الا أنها أتخذت اتجاهات متعارضة . فبعد أن أعتمد السوفيت على الضبط الصارم والمركزية المطلقة ، مالوا الى تخفيف القيود المفروضة من السلطات المركزية العليا ، وفى مقابل ذلك يعالج الأمريكيون نفس المفهوم من منظور مختلف يقوم على تأكيد حرية العمل النسبية مع اتجاه يتزايد وضوحاً لتوسيع نطاق مركزية السلطة العامة . وقد ترتب على ذلك أن الامريكان يحاولون أن يجدوا تبريراً مقنعا ومنطقيا للاتجاه نحو هذا التوسع ، وأعطائه صورة « المشروعية

والقانونية ، فى الوقت الذى يحاول فيه السوفيت اضفاء الطابع القانونى على الاتجاه نحو تضييق نطاق السلطة العامة .

ويتضح اذن ، أن علماء الإجتماع فى الولايات المتحدة ، يحاولون من خلال الإلتزام بالتراث الوظيفى ، دمج فكرة الضبط السياسى بقضايا الإتجاه الوظيفى ككل، أو بالتراث النظرى التقليدى بوجه عام، فى الوقت الذى يحاول فيه المنظرون السوفيت اقامة نظرية اجتماعية تؤكد فكرة الاعتماد المتبادل بين أجزاء النسق ، وضرورة ايجاد مايسمى بالضبط الذاتى فى المجتمع، والتقليل من حدة المركزية (١).

نتائج عامة :

لم يكن من الممكن أن يصنع علم الاجتماع الأمريكى حائطا أو ستاراً حديديا فى وجه الأفكار الماركسية التى بدأت تنتشر فى كل أنحاء العالم وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع أن ظروفا عديدة فى المجتمع الأمريكى بعضها فكرى وبعضها الآخر اجتماعى سياسى قد حال دون ظهور (الماركسية) فى كتابات علم الاجتماع نقدا أو تحليلا، الا أن هانز جيرث Hans Gerth وس رايت ميلز C. Wright Mills يعتبران من أوائل من عالجوا الأفكار الماركسيه أو لفتوا النظر اليها . لقد كان ميلز يعتقد بوضوح أنه من المستحيل أن يتجاهل علماء الاجتماع كلية وقائع الطبقة والقوة والصراع التى عالجها ماركس والتى لا تنتمى الى مجتمع القرن التاسع عشر فقط بل إنها تتزايد وضوحا فى المجتمعات الحديثة (٢). ومما هو جدير بالذكر أن

---

(١) Gouldner, Op. cit, p. 470.

(٢) يقول ميلز ان الباحثين فى الولايات المتحدة تعمدوا أخفاء التأثيرات الفكرية الماركسية ، كما أن كثيرا من العلماء الذين كانت مقولاتهم الأساسية متأثرة بكتابات ماركس كانوا على غير علم بمصادر مناهجهم ومفهوماتهم. ويقول ميلز فى موضع آخر ، ان الماركسية =

تولكوت بارسونز وهو يحاول أن يدعم بناء النظرية السوسيولوجية شعر فى وقت معين أن عليه أن يعترف بصراحة فى الستينيات أن ماركس يعتبر واحدا من المفكرين الكبار الذين يمكن أن ينسب اليهم اطاره النظرى. (١)

وعلى الرغم من الكتابات القليلة التى ظهرت حول ماركس والماركسية فى علم الاجتماع الأوربى والأمريكى وخاصة خلال الستينيات الا أن إشارات بيتر برجر Peter Berger وبوتومور Bottomore قد وجهت النظر الى الاتجاه السوسيولوجى

= التقليدية قد اسهمت بشكل واضح فى نمو علم الاجتماع الحديث ، ولهذا فان من يرفضون أو يتجاهلون الأساليب الماركسية فى التفكير فى الشؤون الانسانية ، يرفضون فى الواقع التراث التقليدى الذى قام عليه علم الاجتماع أنظر :

C. Wright Mills; The Marxists, 1962, and Sociological Imagination, 1967.

(٢) لقد ذكر بارسونز صراحة أن ماركس ، على المستوى السوسيولوجى ، أحد المؤسسين لنظرية الفعل، ويعنى بذلك أنه من خلال مادية ماركس التاريخية تم وضع أساس استطاعت عليه النظرية الاجتماعية فيما بعد أن تبنى مفهوماتها متجنبة التأثيرات التقليدية المثالية والعضوية. وفى هذا المعنى أيضا يذكر كل من بيتر بلاو Blau وجوان مور Moore، فى مقدمتهما للميدان العام لعلم الاجتماع أنه بالتركيز على الظروف المادية التاريخية بدلا من القوى الروحية ، استطاع ماركس أن يعرف الظواهر الاجتماعية بطريقة تجعل دراستها علميا أمراً ممكنا . كما أن تأكيده للعلاقة بين الجماعات الاجتماعية ، كمنطلق لتفسير العمليات التاريخية، أكثر اتصالا بالمدخل السوسيولوجى من «المفهوم البيولوجى» عن بقاء الأصلح.

أنظر : Talcott Parsons et al; Theories of Society; Vol. 1 : An Oultine of the Social System, Free Pres, 1961.

وكذلك Blau and Moore; "Sociology", in Hoselitz (ed)., A. Reader's Guide to the Social Sciences, Free Press, 1959, pp. 167 – 168.

الواضح فى النسق النظرى الماركسى ، حتى أنهما وكثير غيرهما ينظرون الى ماركس باعتباره عالم اجتماع أكثر منه عالم اقتصاد ،[١] ويدعيان أن هذا النسق يستطيع أن يفسر كل أبعاد الواقع الانسانى وبطريقة منسقة وكاملة فى ضوء مصطلحات سوسيولوجية ، ويعتقد فريد ريكس أن الماركسية والتراث الذى تركته لعلم الاجتماع لم تطمس معالمه تماما خلال الأربعينيات والخمسينيات فى أمريكا ، ويدلل على ذلك بقوله إن علم اجتماع المعرفة بوجه خاص لم يستطع أن يتجاهل اسهام الفكر الماركسى فى نموه من خلال الدراسات التى أجراها كارل مانهايم ، ذلك أن ماركس كان مدركا أن الأطر الايديولوجية والفكرية لابد أن تعالج كانعكاسات للاوضاع الاجتماعية ، تلك الفكرة التى عبر عنها ماركس بقوله إن وعى الناس لا يحدد وجودهم بل على العكس فإن هذا الوجود هو الذى يحدد وعيهم . وفى المحاضرة التى ألقاها بول لازرسفيلد Poul Lazarsfeld أمام الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع ، ذكر أن تحليله للبحث الاجتماعى الامبيريقى فى علم الاجتماع لا يختلف كثيرا فى طابعه عما اتجهت اليه الماركسية فى ميـــدان علم اجتماع المعرفة حيث إدعت أن صور التحليل الفكرى يمكن النظر اليها كوظيفة لادخال طرق جديدة فى الانتاج .

ولعل أوضح ما يشهد الى الصلة المشتركة بين علم الاجتماع والماركسية هى فى فهم الطريقة التى فى ضوئها يمكن ادراك الانسان فى ذاته ، وأوضح صـورة

---

(١) ان ماركس كاقتصادى أقل أهمية منه الآن كعالم اجتماع سياسى ، وهو كعالم اجتماع وكمحلل للمضمون الطبقى للنمو التاريخى يظل دائما فى مركز الصدارة ، أنظر :

Lewis Feuer, "What is Alienation? The Career of a Concept", in Maurice Stein and Arthur Vidich (eds). Sociology, on Trial, Prentice Hall. 1963.

على هذا الالتقاء أو الاتصال فى علم الاجتماع المعاصر كانت تلك الصورة التى دعمها جورج هربرت ميد George Herbert Mead ،فالانسان عنده بغض النظر عن الاعتبارات البيولوجية عبارة عن « مجموعة متناسقة » من العلاقات الانسانية التى صاغت تنشئته الاجتماعية ،كما أن جوهر الانسان ليس تجريدا متأصلا فى كل فرد لأنه فى الواقع يعبر عن مجموع العلاقات الاجتماعية ، ويستطرد ميد فيقول إن الانسان بالمعنى الحرفى لكلمة انسان ليس حيوانا اجتماعيا فقط ، بل انه حيوان يستطيع أن ينمو ويتحول الى فرد داخل المجتمع ،ولذلك فهو عضو فيه ، وبناء على ذلك يتشكل وعيه وينمو من خلال التأثير المسيطر للظروف الاجتماعية للحياة والنشاط الانسانى . والمجتمع بالتالى ليس مجرد جمع من الأفراد ، إنه مجموع العلاقات التى تنظم حياة الأفراد وتجعل كلا منهم يستطيع أن يتفاعل مع الآخر . ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن أحد المنظرين ذوى الشأن فى علم الاجتماع ذكر أن ماركس ـ وليس ماكس فيبر هو الذى يرجع اليه الفضل فى اقامة ماسمى بالنماذج المثالية واستخدامها فى نظرية اجتماعية منسقة .(١)

لقد جرت عادة الباحثين والمنظرين فى علم الاجتماع أن يرجعوا الامبيريقية ويتتبعوا خطوطها حتى نيوتن وبنتام ، ثم يعودون لتتبع هذه الخطوط حتى قيام العلم الإجتماعى الحديث ، ولكنه من الممكن كما ذهب إلى ذلك عدد من علماء

---

(١) يرى بوتومور وروبل أن جورج هربرت ميد كان دارسا للنظرية السوسيولوجية الماركسية وقد أشار الى ذلك فى الفصل الذى كتبه عن «كارل ماركس والاشتراكية» أنظر :
Bottomre and Ruber (eds). Karl Marx : Selected Writings in Sociology and Social Philosoply (Trans. by Bottomore), London, 1964.

إجتماع الغرب تتبع خط الأمبيريقية ، من بنثام إلى علم الاجتماع ، ومن كارل ماركس ولينين إلى الامبيريقية ، ذلك لأن هناك قدراً مشتركا من الاعتقاد عند كل من بنتام وماركس أن هناك أساساً مادياً لا بد من إدراكه ، وأن منهج العلم يجب أن ينفتح على المجتمع . (١)

ومن الممكن باستخدام الخصائص الأساسية التى حدد عن طريقها كارل ماركس معالم فكرة الاغتراب معالجة موقف البحث الاجتماعى الذى يصر كثير من علماء الاجتماع فى أوربا وأمريكا أن يكون « بحثا متحررا من القيمة » (٢) فمن المعروف أن الأغتراب عند ماركس ، هو إغتراب المرء عن نتاج عمله ، وعن عملية العمل ذاتها ، وعن طبيعته كعامل ، وكذلك إغترابه عن الآخرين . فكيف إذن يمكن تطبيق مثل هذه القضايا على النشاط الذى يبذله عالم الاجتماع فى عملية البحث . إذا أستعملنا اللغة التى حدد بها ماركس هذا المصطلح بقدر الامكان ، يمكن القول

---

(١) يقول بارسونز ان المستوى الحديث للتفكير السوسيولوجى قد انبثق من « التزاوج » بين النفعية وبين العناصر ذات الطابع الشمولى أو الجمعى فى التراث الغربى الأساسى للتفكير الاجتماعى ، ويمكن أن يقال على « مستوى الانساق الاجتماعية » ، أنها قد نمت عام ١٨٤٨ ، وهو العام الذى نشر فيه جون ستيوارت مل « مبادىء الاقتصاد السياسى » فى نفس الوقت الذى صدر فيه « البيان الشيوعى » كذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن « الاشتراكية » فى نهاية القرن التاسع عشر قد تزايد الاهتمام بها من الزاوية السياسية وكذلك من الزاوية الفكرية ، ولا يشك بارسونز ، كما لا يشك آخرون غيره ، أن ماركس كان أكبر من اهتم بالتزاوج بين النفعية والعناصر الجمعية الشمولية أنظر :

Talcott Parsons, Op. cit, pp. 85 – 97.

(٢) أنظر معالجة التقاء علم الاجتماع الماركسى من منظور الماركسية بالقضايا الأساسية والمفهومات المختلفة عن النظرية والبحث الامبيريقى فى علم الاجتماع الأوربى الأمريكى فى :

Robert Friedrichs; The Sociology of Sociology, New York, 1970, pp., 259 – 287.

بأن العلاقة بين عالم الاجتماع ونتاج بحثه ، وكذلك علاقة علم الاجتماع بعمليـــة البحث الاجتماعى ، تؤدى إلى إغتراب العالم عن موضوع بحثه وعن حياته نفسها وهذا هو « الاغتراب الذاتى » ، ويتـأكد ذلك كلمـــا نظـر عالم الاجتماع الى أبحاثه ، على أنها موضوعات مستقلة لاتنتمى اليه ، اتفاقاً مع الاتجاه الســائد فى تدعيم « علم اجتماع متحرر من القيمة » استجابة لما يقال عن ضـــرورة الالتزام الصارم بالمتطلبات والاجراءات العلمية .(١)

ومن الغريب أنه عنـدما ننظر إلى ما قام به ماركس لتأسيس علم المجتمع ، الذى سوف يشمل ويكمل العلوم الفرعية الاخرى ، أن نجده لايستخدم مصطلح « علم الاجتماع » فى واحد من كتاباته ، بالرغم من أن معاصره كومت كان قد نشر المصطلح كتسمية للعلم الجديد ، وربما يمـكن تفسير ذلك فى ضوء كراهية ماركس الشديدة للفلسفة الوضعية ، ورأية فى كومت وأتباعة ، إذ يقول فى خطابه إلى بيزلى إنه يتخذ موقفا عدائيا من الالف إلى الياء من مذهب كومت، وفكرته عنه كرجل علم لاتنطوى على تقدير يذكر . ويبدو أن ماركس لم يـكن قد قرأ كومت قبل عام ١٨٦٦ ، لـكن أدهشة فى الواقع ذلك التحمس لـكومت وبخاصة فى انجلترا وفرنسا ، وبدأ فعلا يدرس أعماله ؛ حيث تأثر بطـابعة الانسكيلوبيدى . ولـكنه حـكم على هذه الاعمال بأنها أدنى فى المرتبة بـكثير من كتابات هيجل (١) وبالرغم من المظهر العدائى الذى اتخذته الفلسفية الوضعية من

---

(١) Erich Fromm; Marx's Concept of Man, Ungar, 1961.

(٢) حيث كتب ماركس يقـول : See Capital, Vol. 1, Ist ed « اذا قارنا نظريات كومت ، بكتابات هيجل ، سنحكم على الأولى بأنها مدرسية ، وذات أهمية محلية فقط » .

اللاهو تية ، إلا أنها تبدو لماركس «ذات جذور عميقة فى الروح الكاثوليكية » ، ولهذا يؤكد ماركس أن « الفلسفة الوضعية تعنى تجاهل كل ماهو وضعى » . ولقد رفض ماركس كلية المذهب الاجتماعى لكومت ، وأدان على وجه الخصوص روحه اللاهو تية الطائفية ، وجنونه التنبؤى ، دون أن يشعر بحاجة إلى إخضاع النظرية ككل لنقد منظم (١) .

أسهم ماركس - كما يقول بوتومور - بعناصر جديدة فى النظرية الاجتماعية ، إذ لايستطيع أحد أن ينكر أهمية السياق الذى ناقش من خلاله ماركس البناء الاقتصادى، وهو سياق التطور التاريخى للعمل الإنسانى كعلاقة أولية بين الانسان والطبيعة ، ثم محاولته تصنيف المجتمعات الانسانية فى ضوء نظمها الإقتصادية . ومن الأعمال الأصيلة أيضا التى أسهم بها ماركس فى تطوير النظرية الاجتماعية تحليلة للبناء الفوقى الأيديولوجى ، وعلاقته بما أطلق عليه الأساس الحقيقى للمجتمع: أسلوب الإنتاج والعلاقات الاجتماعية المطابقة له ، فضلا عن تأكيده للقضية القائلة: « بأنه ليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم ، ولكن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم » . هذه ليست قضية فلسفية معرفية ، ولكنها قضية خاصة بنشأة البناءات الايديولوجية : القانون ، والسياسة ، والدين ، والفن ، والفلسفة. فهذه الأشكال الايديولوجية ، كما يرى ماركس ، هى التى تمثل عقبة أمام البحث العلمى ، وذلك حينما تؤخذ فى ذاتها ، دون اعتبار للارتباطات التى يمكن إقامتها بين مرحلة معينة من التطور الاقتصادى ، ومختلف نتاجات الثقافة . ويرى ماركس أن مثل هذه الارتباطات بين أسلوب الانتاج ، والبناء الطبقى ، ونماذج التفكير،

---

(١) Bottomore, Op. cit, p. 13.

والصور الجمالية ، يمكن التوصل اليها فى كثير من الحالات ، دون أى صعوبة .

لقد كان ماركس فى الواقع من بين مؤسسى علم إجتماع المعرفة ، ذلك الذى نظر إليه بوصفه يمثل أساساً نظرية نقدية ، تمهد الطريق لتأسيس علم إجتماع دقيق كذلك أسهم ماركس فى تطوير سوسيولوجية الثوره ، وهو الموضوع الذى أهمله كثير من علماء الاجتماع ، بل إن مشكلة التغير الاجتماعى ككل لم تحظ إلا باهتمام قليل (١) ، أخيرا قدم ماركس تحليلا سوسيولوجيا لمستقبل المجتمع الانسانى حيث يظهر الارتباط والتساند بين علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية ، لاقامة مذهب يصلح كبناء للمعرفة العلمية وحافز للعمل السياسى .

لقد ظلت نظريات ماركس لأسباب عديده منعزلة عن العلوم الاجتماعية كما ظهرت فى الجامعات . ولم يوجه الاهتمام إلى قيمتها السوسيولوجية إلا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وذلك حينما بدأ علم الاجتماع ذاته يقيم بناؤه كعلم مستقل. وعندما انعقد المؤتمر الأول للمعهد الدولى لعلم الاجتماع عام ١٨٩٤ كانت النظرية الاجتماعية عند ماركس تشغل مكانة هامة فى المناقشات . وقد لاحظ كيلز كروز C. de Kelles-Krauz أن نظرية ماركس قدمت الأطار المرجعى اللازم للربط بين الظواهر الاجتماعية التى يكتشفها البحث التاريخى والاحصائى . كذلك أكد فيرى E. Ferri ، عالم الاجرام الايطالى ، فى مقال بعنوان « علم الاجتماع والاشتراكية » أهمية نظرية ماركس عن الحتمية الاقتصادية والاشتراكية العلمية ، وهى فى رأية وبيساطة تطبيق منطقى للسلسلات التى وضعها دارون وسبنسر فى

(١) من أهم المؤلفـــات التى عالجت موضوع سوسيولوجية الثورة دراسة بيتريم سوروكين أنظر :

Sorokin, The Sociology of Revolution, N. Y, 1927,

مجال الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع ، كما لاحظ أن النظرية السوسيولوجية عند ماركس تعتبر القانون ، والأخلاق ، والسياسية ظواهر تابعة للاقتصاد ، وهى كما يقول نظرية — أثبتتها بحوث لوريا A. loria وروجرز T. Rogers [1] .

وأخيراً ، يتضح أن كثيرا من الأفكار الماركسية قد تبناها عدد من المنظرين فى علم الاجتماع الغربى ، فعاونت بصورة أو بأخرى على صياغة البناء النظرى وتوضيح كثير فى المفهومات الأساسية مما جعل الالتقاء بين الماركسية

---

(١) أنظر عرضا تحليليا لتأثير الفكر السوسيولوجى الماركسى فى Bottomore, op. cit, pp. 29 – 48 . وقد تناول بوتومور عرض تأثير ماركس فى دراسات علم الاجتماع فى المانيا وبخاصة أعمال سيمل، وماكس فيبر ، وفى ايطاليا حيث اهتم سيكوتى E. Ciccotti بدراسة العبودية فى العالم القديم ، وهى تهدف الى التحقق من صحة فروض ماركس عن علاقة أسلوب الانتاج بالبناء الاجتماعى ككل . ويذهب بوتومور الى أنه خلال بداية القرن العشرين حينما ظهر الاهتمام بتراث ماركس الفكرى ، كان التحليل فلسفيا بصورة واضحة ، حيث ركز جانباً كبيراً منه على علاقة أفكار ماركس بكتابات هيجل . وفى عام ١٩٠٠ انعقد مؤتمر المعهد الدولى لعلم الاجتماع ليناقش المادية التاريخية ، وأشار عالم الاجتماع الايطالى Groppali فى هذا الصدد الى أن التصور المادى للتاريخ لايمثل مذهبا فلسفيا ، ولكنه أداة لتحليل وتفسير الحياة الاجتماعية ، حاول ماركس نفسه أن يتحقق من صدقها فى دراساته التاريخية والاقتصادية . وهناك دراسات أخرى تأثرت بأفكار ماركس فى انحاء مختلفة من العالم مثل دراسات سى Sée عن التاريخ الاقتصادى ، وهيلفردنج Hilferding عن الاقتصاد ، ورينير Renner فى القانون . أما فى الولايات المتحدة ، فان تأثير ماركس فى الكتابات المبكرة يظهر فى بحث سمول A. W. Small حول نظرية ماركس فى الصراع الطبقى ، ودراسات جورج هربرت ميد ، الذى كتب مقالا منفصلا عن « كارل ماركس والاشتراكية » .

See, Mead, Karl Marx and Socialism in : Movements of Thought in the Nineteenth Century, ed, M. H Moore, Chicago, 1936.

وعلم الاجتماع الغربى أقرب من أى وقت مضى، ولهذا يحسن أن نختم هذه المناقشة بمجموعة من الملاحظات التى نتصور أنها سوف تعجل بهذا الالتقاء : ـ

(١) إن تطور علم الإجتماع الأكاديمى فى الإتحاد السوفيتى ، يتضمن أن الماركسية فى يومنا هـذا ، لاتقل عن الوظيفية فى مواجهتها لمشاكل وصعوبات جديدة متعددة .

(٢) ان التطور الفكرى الكبير الذى طرأ على علم الاجتماع العالمى ، يمكن أن يستمر بقدر ذلك الجهد الذى تتمكن من بذله كل من الماركسية وعلم الاجتماع الأكاديمى ، من أجل تدعيم الإتصال بينهما ، وتوسيع نطاق المناقشات المتبادلة .

(٣) ان طبيعة اعادة التوافق التى يمكن أن تحتل مكانها بين الماركسية والاتجاه الوظيفى ، أمر يتوقف على الطريقة التى يتطور بهـــا كل منهما ؛ وأيضا عـلى التأثير الذى يمارسة كل منهما فى الآخر . وهذا يعنى أن اعادة التوافق تتوقف ـ بوجه خاص ـ على الطريقة التى يستطيع بواسطتهـــا علم الاجتماع المادى أو الأكاديمى فى الاتحاد السوفيتى أن يواجه بعض التوترات الداخلية الهامة المتعلقة به . ويوجد الصراع الرئيسى فى علم الاجتماع الأكاديمى السوفيتى ، بين هؤلاء الذين ينظرون الى علم الاجتماع باعتباره أداة أو وسيلة تسهم فى الادارة ، وأولئك الذين يعتبرون علم الاجتماع الأكاديمى نظاماً يسهم فى تطوير ثقافة انسانية .

(٤) وبالرغم من أن علم الاجتماع الأكاديمى اليوم ، يـكشف عن صراعات داخلية تتصـــل به ، فليس من الضرورى أن يـكون هناك صـــراع بين الامبيريقيين المنهجيين ، وبين أصحاب فـكرة البحث الموجه عن طريق النظرية ، أو بين البحث والنظرية ، أو حتى بين الموالين للبحث « التطبيقى » ، والموالين للبحث « النظرى » .

(٥) يتوقف معنى التقارب بين علم الاجتماع السوفيتى ، وعلم الاجتماع الأمريكى ، أو بين علم الاجتماع الأكاديمى والماركسية ، على مدى اعتماد كل منهما على علم اجتماع ادارى . حيث أن هذا العلم يعتبر - فى الأساس - وسيلة تجعل الحالة الراهنة للعمل أفضل مما هى عليه . حيث يعمل علم الاجتماع الادارى على وضع برامج جديدة وسياسيات جديدة من خلال اطار يستهدف حماية وتدعيم النظم الاجتماعية القائمة ، أكثر مما يستهدف النظر اليها باعتبارها مصدرا لمشاكل المجتمع .

المراجع

* * * *

RECENT BIBLIOGRAPHY OF SOCIOLOGY

1 - Adams, Bertt, "Coercion and Consensus Theories : Some Unresolved Issues," American Journal of Soicology, 71 (May, 1966),

2 - Alexander, Chester "Occupational Interests of Sociology Majors," American Sociological Review, 13 (December, 1948),

3 - Alpert, Harry, Emile Durkheim and His Sociology, Columbia 1939.

4 - ________ "The Growth of Social Research in the United States," in Daniel Lerner (ed.), The Human Meaning of the Social Sciences, Meridian, 1959,

5 - ________ "Some Observationt on the State of Sociology," Pacific Sociological Review, 6 (Fall, 1963).

6 - Auger, Pierre, "Some Thoughts on the Human Values of Science," Impact of Science on Society, UNESCO, IV (Autumn, 1953).

7 - Barber, Bernard, "Structural – Functional Analysis : Some Problems and Misunderstandings," Ameican Sociological Review 21 (April, 1956).

8 - Barber, Bernard and Walter Hirsch (eds.), The Sociology of Science, Free Press, 1962.

9 – Barber, Bernard and Robert K. Merton. "Brief Bibliography for the Sociology of Science," Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences, 80 (May, 1952).

10 – Barnes, J.A., "Some Ethical Problems in Modern Field-work," British Journal of Sociology, 14 (June, 1963).

11 – Beals, Ralph L., Politics of Social Research, Aldine, 1969.

12 – Becker, Howard, Through Values to Social Interpretation, Duke, 1950.

13 – Becker, Howard and Alvin Boskoff (eds.) Modern Sociological Theory in Continuity and Change, Dryden, 1957.

14 – Bell, Daniel, "The Meaning of Alienation," Thought, 1959. republished in Leopold Labedz (ed.) Revisionionism: Essays on the History of Marxist Ideas, Praeger, 1962.

15 – ————, The End of Ideology On the Exhaustion of Political Ideas in the Fifties, Free Press, 1960

16 – Bendix, Reinhard, "The Image of Man in the Social Sciences; The Basic Assumptions of Present-Day Research," Commentary, 11 (1951); reprinted in Seymour Lipset and Neil Smelser (eds.), Sociology; The Progress of a Decade, Prentice Hall, 1961.

17 – Bendix, Reinhard and Bennett Berger, "Images of Society and Problems of Concept Formation," in Llewellyn Gross (ed.), Symposium on Sociological Theory, Row, Peterson, 1959.

18 – Benoit-Smullyan, Emile, " The Sociologism of Emile Durkheim and His School," in Harry Elmer Barnes (ed.),

An Introduction to the History of Sociology, University of Chicago, 1948.

19 – Bensman, Joseph and Bernard Rosenberg, Mass, Class, and Bureacracy, Prentice-Hall, 1963

20 – Berger, Bennett M., "Sociology and the Intellectuals : An Analysis of a Stereotype," Antioch Review, 17 (1957), reprinted in Seymour Lipset and Neil Smelser (eds). Sociology: The Progress of a Decade, Prentice–Hall, 1961.

21 – ————, Invitation to Sociology: A Humanistic Pers-pective Doubleday–Anchor, 1963.

22 – Berghe, Pierre L. van den, "Dialectic and Functionalism: Toward a Theoretical Synthesis," American Sociolcgical Review, 28 (October, 1963).

23 – Bernard, Jessie, "Some Current Conceptualizations in the Field of Conflict," American Journal of Sociology, 70 (January, 1965).

24 – Bernard Luther L., "The Teaching of Sociology in the United States," American Journal of Sociology, 15 (September, 1909).

25 – Bidney, David, "The Concept of Value in Modern An-thropology," in A. L. Kroeber (ed.) Anthropology Today, University of Chicago, 1953.

26 – ————, Theoretical Anthropology, Columbia, 1953.

27 – Birnbaum, Norman, "Conflicting Interpretations of the

Rise of Capitalism: Marx and Weber," British Journal of Sociology, IV/2 (1953).

28 – ————, Marxism and Social Change in the 20th Century," Transactions of the Third World Congress of Sociology, Vol. III, 1957.

29 – ————, "Introduction," German Edition, C. Wright Mills, The Sociological Imagination, Neuwied, 1963.

30 – ————, "The Crisis in Marxist Sociology," Social Research, 35 (Summer, 1968).

31 – ————, "Conservative Sociology," Berkeley Journal of Sociology, XIII (1968).

32 – Black, Max (ed.), The Social Theories of Talcott Parsons, Prentice-Hall, 1951.

33 – Blau, Peter, Exchange and Power in Social Life, Wiley, 1964.

34 – Blau, Peter and Joan Moore, "Sociology," in B. F. Hoselitz (ed.) A Reader's Guide to the Social Science, Free Press, 1959.

35 – Boalt, gunnar, The Sociology of Research, Southern Illinois University, 1969

36 – Bogardus, Emory S., "Obtaining a Position in Sociology," Sociology and Social Research, 38 (September – October, 1953).

37 – Bosserman, Phillip, Dialectical Sociology, Porter Sargent, 1968.

38 – Bottomore, T. B. (ed.) Karl Marx: Early Writtings, translated by T. B. Bottomore, Mc Graw-Hill, 1964.

39. – ________ , "Karl Marx Sociologist or Marxist ?" a paper delivered before the American Sociological Association, Chicago, August, 1965.

40 – Bottomore, T. B. and Maximilian Rubel (eds.) Karl Marx: Selected Writings in Sociology and Social Philosophy, Translated by T. B. Bottomore, London: C. A. Watts, 1956 (Mc Graw-Hill Paperback Edition, 1964).

41 – Braithwaite, R. B., Scientific Explanation. Cambridge University, 1953.

42 – Bramson, Leon, The Political Context of Sociology, Princeton, 1961.

43 – Braybrooke, David (ed), Philosophical Problems of the Social Sciences, Macmillan, 1965.

44 – Bredemeier, Harry, "The Methodology of Functionalism, American Sociological Review, 20 (April, 1955).

45 – Bressler, Marvin, "The Conventional Wisdom of Education and Sociology, in Charles H Page (ed.), Sociology and Contemporary Education, Random House, 1964.

46 – Bronowski, Jacob, Science and Human Values, Messner, 1956.

47 – ________, "The Values of Science," in Abraham Maslow (ed.), New Knowledge in Human Nalnes, Harper & Row, 1959.

48 – Brown, Robert, Explanation in Social Science, Aldine, '963.

49 – Bruyn, Severyn T., The Human Perspective in Sociology, Prentice-Hall, 1966.

50 – Buckley, Water, "Social Stratification and the Functional Theory of Social Differentiation," American Sociological Review, 23 (August, 1958).

51 – Bukharin, N., Historical Materialism: A System of Sociology, International Publishers, 1925.

52 – Burtt, E. A., Metaphysical Foundations of Modern Physical Science, Humanities Press, 1932.

53 – ________, "The Value Presuppositions of Science," in Paul C. Obler and Herman Estrin (eds.) The New Scientists, Doubleday – Anchor, 1962 (reprinted form Bulletin of the Atomic Scientists, 13 (March, 1957)).

54 – Cahnman, J. and Alvin Boskoff (eds.), Sociology and History, Free Press, 1964.

55 – Canciau, Francesca, "Functional Analysis of Change," American Sociological Review, 25 (Decmber, 1960).

56 – Carter, Hugh, "Research Interests of American Sociologists." Social Forces, 6 (November, 1927).

57 – Catlin, G. E. G., The Rules of Sociological Method, University of Chicago, 1936.

58 – ________ , "Sociologists and Sociology." Journal of Applied Sociology, 10 (May–June, 1926).

59 – Chinoy, Eli, "Popular Sociology," in Charles H. Page (ed.), Sociology and Contemporary Education, Ranodm House, 1964.

60 – Clinard, Marshall C., "The Sociologist and Social Change in Underdeveloped Countries," Social Problems, 10 (Winter, 1964).

61 – ________, Anomie and Deviant Behavior, Free Press 1964.

62 – Cohen, Morris R., "The Social Sciences and the Natural Sciences," in W, N. F. Ogburn and Alexander Goldenweiser (eds.), The Social Sciences and Their Inter – Relations, Houghton Mifflin, 1927.

63 – Conant, James, Science and Common Sense, Yale, 1951.

64 – Coser, Lewis A., "The Functions of Small Group Research," Social Problems, 3 (July, 1955).

65 – ________, The Functions of Social Conflict, Free Press, 1956.

66 – ________ , "George Simmel's Style of Work: A Contribution to the Sociology of the Sociologist," American Journal of Sociology, 63 (May, 1958).

67 – Coser, Lewis A. and Bernard Rosenberg (eds.) Social Theory, Macmillan, 2nd ed, 1964.

68 – Couch, W.T., "Objectivity and Social Science." in Helmut

Schoek and J. W. Wiggins (eds.), Scientism and Values, Van Nostrand, 196).

69 – Crawford, Elisabeth T. and Albert D. Bidermen (eds.) Social Scientists and International Affairs, Wiley, 1969.

70 – Crawford, W. Rex, "International Relations and Sociology," American Socilogical Review, 13 (June, 1948).

71 – Dampier, William C., A History of Science, Macmillan, 1949.

72 – Davis, Kingsley, Human Society, Macmillan, 1949.

73 – ———— , "The Myth of Functional Analysis as a Special Method in Sociology and Anthropology," American Sociological Review, 24 (December, 1959).

74 – Davis, Kingsley and W. E. Moore, "Some Principles of Stratification," American Sociological Review, 10 (April, 1945).

75 – Duncan, H. D. and W. L. Duncan, "Shifts of Interest of American Sociologists," Social Forces, 12 (1933).

76 – ————, "Research Interests in Sociology," Sociology and Social Research, 19 (1935).

77 – Durkheim, Emile, . The Rules of Sociological Method, translated by S. A. Solovay and J. H. Mueller, ed. by G. E. G. Catlin, University of Chicago, 1938.

78 – ———— , Suicide: A Study in Sociology, translated by George Simpson, Free Press, 1951.

79 – ________ , Sociology and Philosophy, Free Press, 1953.

80 – ________ , Elmentary Forms of the Religious Life, Free Press, 1954.

81 – Durkheim, Emile, Socialism and Saint Simon, Alvin Gouldner (ed.) Antioch Press, 1958.

82 – Einstein, Albert and M. Planck, Where Is Science Going?, Norton, 1932.

83 – Eisenstadt, S. N., "Institutionalization and Change," American Sociological Review, 29 (April, 1964).

84 – ________ , "Social Change, Differentiation and Evolution," American Sociological Review, 29 (June, 1964).

85 – Emmett, Dorothy M., Function, Purpose, and Powers, London: Macmillan, 1958.

86 – Engels, Friedrich, Socialism, Utopian and Scientific, C. H. Kerr, 1918.

87 – ________ , Dialectics of Nature, translated by C. Dutt. International Publishers, 1940.

88 – Etzioni, Amitai, "Social Analysis as a Socioldgical Vocation," American Journal of Sociology, 70 (Mareb, 1965).

89 – ________ , The Active Society, Free Press, 1968.

90 – Evans-Pritchard E. E., Nuer Religion, Oxford, 1956.

91 – Fallding, Harold, "Towards a Reconciliation of Mills with Parsons," American Sociological Review, 26 (October, 1961).

92 — ________ , "Functional Analysis in Sociology," American Sociological Review, 28 (February, 1963).

93 — Faris, Robert E. L., Chicago Sociology, 1920–1932, Chandler, 1967.

94 — Feigl, Herbert, "The Scientific Outlook: Naturalism and Humanism," American Quarterly, I (1949).

95 — Fellows, Erwin W., "Science and Values: A Survey of Current Points of View," Scientific Mothly, 73 (August, 1951).

96 — ________ , "The Sociologist and Social Planning," Sociology and Social Research, 36 (March–April, 1952).

97 — Festinger, Leon and Daniel Katz, Research Methods in the Behavioral Sciences, Dryden, 1953.

98 — Feuer, Lewis, "What is Alienation? The Career of a Concept," in Maurice Stein and Arthur Vidich (eds.), Sociology on Trial, Prentice-Hall, 1963.

99 — ________ , (ed.) Marx and Engels: Basic Writingo on Politics and Philosophy, Doubleday, 1959.

100 — ________ , The Scientific Intellectual: the Psychological and Sociological Origins of Modern Science, Basic Books, 1963.

101 — Firth, Raymond, "3 function." in Sol Tax (ed.) Current Anthropology, University of Chicago, 1955.

102 — Fischer, George. "Current Soviet Work in Sociology : A

Note on the Sociology of Knowledge," American Sociologist, 1 (May, 1966).

103 – ________, Science and Ideology in Soviet Society, Atherton, 1967.

104 – Fleron, Frederic J., Communist Studies and the Social Studies, Rand Mc Nally 1969.

105 – Foreman, Paul B., "An Analysis of Content in Introductory Sociology Courses," Social Forces, 17 (Dêcember, 1938).

106 – Frankfort, H. and H. A., John A. Wilson, and Thorkild Jacobsen, Before Philosophy, The Intellectual Adventure of Ancient Man, Penguin, 1949.

107 – Friedrichs, Robert W., "Sociological Man: An Inquiry into Assumptions," University College Quarterly, 6 (May, 1961).

108 – ________, "Objectivity versus Value Neutrality?" Faculty Forum, (Decmber, 1964).

109 – ________, "The Limits of 'Objectivity' in Social Research," a paper delivered at the Sixth World Congress of Sociology, Evian, France, September, 1966.

110 – Friestadt, Hans, "Modern Marxism and Scientific Knowledge: Any Common Ground?" Studies on the Left, 1/3 (1960).

111 – Fromm, Erich, The Sane Society, Rinehart, 1955.

112 – ________, Marx's Concept of Man, Ungar, 1961.

113 — ————, "Problems of Interpreting Marx," In Irving Horowitz (ed.), The New Sociology, Oxford, 1964.

114 — Furfey, Paul H, "The Sociologist and Scientific Objectivity," American Catholic Sociological Review, 6 (March, 1945).

115 — ————, "The Social Philosophy of Social Pathologists," Social Problems, 2 (1954).

116 — ————, "Sociological Science and the Problem of Values," in Llewellyn Gross (ed.), Symposium on Sociological Theory, Row, Peterson. 1959.

117 — Gellner, Ernest. "Concepts and Society," Transactions of the Fifth World Congress of Siology, International Sociological Association, 1962, Vol. I.

118 — Gerth, Hans and C. Wright Mills (ed.) From Max Weber: Essays in Sociology, Oxford, 1946.

119 — Gibson, Quentin, The Logic of Social Inquiry, Routledge and Kegan Paul, 1960.

120 — Ginzburg, Benjamin, "Science" Encylclopaedia of the Social Sciences, Macmillan, 1937, Vol. 13.

121 — Goldschmidt, Walter, "Anthropology and the Modern World," in Walter Goldschmidt (ed.) Exploring the Ways of Mankind, Dryden, 1962.

122 — Goode, William, "Community within a Community: The Professions," American Sociological Review, 22 (April, 1957).

123 – Gouldner, Alvin W., "Reciprocity and Autonomy", in Llewellyn Gross (ed). Symptosium on Sociological Row, Petersen, 1969.

124 – ————, " The Norm of Reciprocity : A preliminary Statement", American Sociological Review, 25 (April,1960).

125 – ————, "Anti – Minotaur : The Myth of a Value – Free Sociology", Social Problems, 9 (Winter, 1962).

126 – ————, "The Sociologist as Partisan : Sociology and the Welfare State", American Sociologist 3 (May, 1968).

127 – Gouldner, Alvin W. and J. Timothy Sprehe, "The Study of Man, 4 : Sociologists Look at Themselves", Trans – Actioh, 2 (May end June, 1963).

128 – Greer, Scott, The Logic of Social Inquiry, Aldin, 1969.

129 – Gross, Edward, "Social Science Tehniques : a Problem of Power and Responsibility ", Scientific Monthly, 83 (November, 1959).

130 – ————, " An Epistemological View of Sociological Theory", American Journal of Sociology, 65 (March, 1960).

131 – Gross, Llewellyn, Symposium on Sociological Theory, Row Peterson. 1959.

132 – ————, Preface to a Metatheoretical Framework for Sociology", American Journal of Sociology, 67 (September, 1361).

133 – ________, (ed.), Sociological Theory : Inquiries and Paradigms, Harper and Row, 1967.

134 – Grunbaum, Adolf, "Historical Determinism, Social Activism and Prediction in the Social Sciences", British Jocrnal for The Philosophy of Science, 7 (1956).

135 – Halsted, George, The Foundations of Science, Science Press, 1913.

139 – Hammond, Philip (ed.), Sociologists at Work, Free Press. 1964.

137 – Hart, Hornell, "The History of Social Thought: A Consensus of American Opinion", Social Forces, 6 (December, 1927).

138 – ________, 'Value Judgments in Sociology", American Sociological Review, 3 (December 1938).

139 – Hatt, Howard E., Cybernetics and the Image of Man, Abingdon, 1968.

140 – Hempel, Carl "The Logic of Functional Analysis", in Llewellyn Gross (ed). Symposium on Sociological Theory, Row, Peterson. 1959.

141 – Herskovits, Melville J., "Tender and Tough – Minded Anthropology and the Studyof Values in Culture",Southwestern Journal of Anthropology, 7 (1951).

142 – ________, Cultural Anthropology, Knopf, 1955.

143 – Hinkle, Roscoe C. and Gisela J. Hinkle, The Development of Modern Sociology, Doubleday, 1954.

144 – Hobbs, A. H., The Claims of Sociology : A Critique of Texthooks, Telegraph Press. 1951.

145 – Homans, George, "Schlesinger on Humanism and Emiprical Research". American Sociological Review, 28 (February, 1963).

146 – ————, "Commentary", Sociological Inquiry (Spring, 1964).

147 – ————, "Bringing Man Back In", American Sociological Review, 29 (December, 1969),

148 – ————, The Nature of Social Science ; Harcourt, Brace, 1967.

149 – Hook, Sidney, Towards the Understanding of Karl Marx, John Day, 1933.

150 – ————, 'Karl Marx's Second Coming", in New York Times Book Review, May 22, 1966.

151 – Horowitz, Irving L., "Social Science Objectivity and Value Neutrality : Historical Problems and Projections", Diogenes, 39 (Fall, 1762).

152 – ————, "Establishment Sociology : The Value of Being Value – Free", Inqniry, 6 (Spring, 1963).

153 – ————, "Max Weber and the Spirit of American Sociology", Sociological Quarterly, 5 (1964).

154 – ————, (ed.), The New Sociology, Oxford, 1964.

155 – ________ "Professionalism and Disciplinarianism : Two Styles of Sociological Performances, "Philosophy of Science, 31 (1964).

156 – ________ , "Mainliners and Marginals : The Human Shape of Sociological Theory", in Llewellyn Gross (ed.), Sociological Theory : Inquiries and Haradigms, Harper & Row, 1967.

157 – Horton, John, 'Order and Conflict Theories of Social Problems as Competing Ideologies", Americxn Journal of Sociology 71 (1966).

158 – Hughes, Everett C., "Professional and Career Problems of Sociology", Transactions of the Second World Conress of Sociology, II : The Training, Professional Activities and Responsibilities of Sociologist (London : International Sociological Association, 1954).

159 – ________, "Sociologists and the Public" , Transactions of the Fifth World Congress in Sociology, I, Louvain, Belgium : International Sociological Association, 1962.

160 – ________, "Race Relations and the Sociological Imagination", American Sociological Review, 28 (December, 1963).

161 – Hughes, H. Stuart, Consciousness and Society , Knopf , 1958.

162 – Hughes, John E., "Catholic, Scientist, and Sociologist", American Catholic Sociological Review, 24 (Winter, 1963).

163 – Inkeles, Alex, What Is Sociology?, Englewood Gliffs, New Jersey : Prentice – Hall, 1964.

164 – Joravsky, Bavid, Soviet Marxism and Natural Science, 1917 – 1932., Columbia University, 1961.

165 – Kaplan, Abraham, The Conduct of Inquiry : Methodology for Behavioral Science, Chandler, 1964.

166 – Kaufmann, Felix, Methodology of the Social Sciences, Oxford, 1944.

167 – Kemeny, John G., A Philosopher Looks at Scieuce, Van Nostrand, 1959.

168 – Kolakowski, Leszek, Toward a Marxist Hummanism : Essays on The Left Today, Grove, 1968.

169 – ————, The Alienation of Reason : A History of Positivist Thought, Doubleday – Anchor, 1969.

170 – Kolb, William L., "Values, Positivism, and the Functional Theory of Religion : The Growth of a Moral Dilemma", Social Forces (May, 1953), reprinted in L. Milton Yinger, Religion, Society and the Individual, Macmillan, 1957.

171 – ————, "The Changing Prominence of Values in Modern Sociological Theory", in Howard Becker and Alvin Boskoff (eds.), Modern Sociological Theory, Dryden, 1957),

172 – Kroeber, A. L., The Nature of Culture, University of Chicago, 1952.

173 – Kuhn, Thomas S., The Structure of Scientific Revolutions, University of Chicago, 1962.

174 – Labedz, Leopold, "How Free is Soviet Science? Technology under Totalitarinism", in Bernard Barber and Walter Hirsch (eds). The Sociology ef Science, Freee Press, 1962.

175 – Lamont, W. D., The Value Judgement, Edinburgh Univrsity, 1955.

176 – Lastrucci, Carlo, The Scientific Approach: Basic Principles of the Scientific Method, Schenkman, 1963.

177 – Lazarsfeld, Paul F. and Ruth Leeds, "International Sociology as a Sociological Problem", American Sociological Review, 27 (October, 1962).

178 – Lenin, V. I., Materialism and Empirio – Criticism, Moscow: Foreign Languages Publishing House, no date.

179 – ————, Imperialist War, Collected Works, Vol. 18, International Publishers, 1930.

180 – Lerner, Daniel (ed.), The Human Meaning of the Social Sciences, Meridian, 1959.

181 – Levy, Marion J, Jr., "Some Problems for a Unified Theory of Human Nature", in Edward A. Tiryakian (ed.), Sociological Theory, Values, and Sociocultural Change, Free Press, 1963.

182 – Lipset, Seymour and Neil Smelser, "The Setting of Sociology in the 1950's", in Seymour Lipset and Neil Smelser

(eds). Sociology : the Progress of a Decade, Prentice – Hall, 1961.

183 – Lockwood, David, "Some Reflections on "The Social System", British Journal of Sociology, 7 (Jun, 1956).

184 – Lundberg, George A., "The Interests of Members of the American Sociological Society, 1930, " American Journal of Sociology, 37 (May, 1930).

185 – ————, "The Future of the Sciences", Scientific Monthly, 53 (October, 1941).

186 – ————, "Sociologists and the Peace", American Sociol6gical Review, 9 (February, 1944).

187 – ————, ' The Proximate Future of American Sociology : The Growth of the Scientific Method, American Journal of Sociology, 50 (May, 1945).

188 – ————, Can Science Save Us?' Longmans Green, 1947.

189 – ————, "The Senate Penders Social Science", The Scientific Monthly, 64 (May, 1947).

190 – ————, "Some Convergences in Sociological Theory", American Journal of Soiology, 62 (July, 1956).

191 – ————, et al., Sociology, Harper, 1954.

192 – ————, et al., Sociology, Harper, 2nd ed. 1958.

193 – Mckinney John C., "Methodological Convergence ef Mead, Lundberg, and Parsons", American Journal of Sociology, 59 (May, 1954).

194 – Mannheim, Karl, Ideology and Utopia, Harcourt Brace, 1936.

195 – ————, Freedom, Power, and Democratic Planning, Oxford, 1950.

196 – ————, Essays on Sociology and Social Psychology, Oxford, 1953.

197 – Marcuse, Herbert, One Dimensional Man, Beacon Press, 1964.

198 – ————, Eros and Civilization, Vintage, 1968.

199 – ————, Reason and Revlution, Beacon Press, 1968.

200 – Martindale, Don, "Social Disorganization : The Conflict of Normative and Empirical Approaches," in Howard Becker and Alvin Boskoff (eds.) Modern Sociological Theory in Continuity and Change, Dryden, 1957.

201 – Marx, Karl, Letter dated April, 1867 (890), in Der Briefwechsel Zwischen Friedrich Engels und Karl Marx, 1944 - 1883, Stuttgart: Dietz, 1913.

202 – ————, Capital, 3 Vols., translated by E Unterman, Kerr, 1906–09.

203 – ————, Critique of Political Economy, Kerr, 1913.

204 – ————, Selected Essays, International, 1926.

205 – ————, Selected Works, Cooperative Publishing So–ciety, Moscow, 1395 Vol. I.

206 – ————, The German Ideology, International, 1939

207 – Merton, Robert K., "Science, Technology and Society in Seventeenth Century England", Osiris, IV, Part 2, Bruges, 1938.

208 – ————, "Social Structure and Anomie", American Sociological Review, 3 (October, 1938).

209 – ————, "The Bole of the Intellectual in Public Bureaucracy", Social Forces, 23 (May, 1945).

210 – ————, Social Theory and Social Structure, Free Press, 1949.

211 – ————, Social Theory and Social Structure, Free Press, Rev. ed., 1957.

212 – ————, "Notes on Problem – Finding in Sociology", in Robert Merton, Leonard Broom, and Leonard Cottrell, Jr., Sociology Today, Basic Books, 1959.

212 – Merton, Robert and Robert A. Nisbet, Contemporary Social Problems, Harcourt, Brace, 1961.

214 – Mills, C. Wright, "The Professional Ideology of Social Pathologists", American Journal of Sociology, 49 (September, 1943).

215 – ————, "Two Styles of Research in Current Social Studies", Philosophy of Science, 20 (1953).

216 – ————, The Sociological Imagination, Oxford, 1959.

217 – ————, The Marxists, Dell, 1962.

218 – ________, Power, Politics. and People, Oxford, 1963.

219 – Myrdal, Gunnar, An American Dilemma, Harder & Row, 1955.

220 – ________, Value in Social Theory, Harper & Row, 1959.

221 – Nagel, Ernest, "The Concept Levels in Social Theory", in Llewellyn Gross (ed.), Symposium on Sociological Theory, Row, Peterson, 1959.

222 – ________, The Structure of Science, Princeton, 1961.

223 – Natanson, Maurice (ed.), Philosophy of the Social Science: A Reader, Random House, 1963.

224 – Nisbet, Robert, "Sociology as an Art Form," in Maurice Stein and Arthur Vidich (eds.), Sociology on Trial, Prentice-Hall, 1963.

225 – ________; The Sociological Tradition, Basic Books 1966.

226 – ________, Tradition and Revolt, Random House, 1968.

227 – Odum, Howard W., American Sociology: The Story of Sociology in the United States through 1952, Longmans, Green, 1951.

228 – Page, Charles, "Sociology as a Teaching Enterprise," in Robert K. Merton et al. (eds.) Sociology Today, Basic Books 1959.

229 – Pappenheim, Fritz, The Alienation of Modern Man, Monthly Review Press, 1959.

230 – Parsons, Talcott, "The Place of Ultimate Values in Sociological Theory," Ethics (April, 1935).

231 – ————, The Structure of Social Action, Mcg Craw - Hill, 1937.

232 – ————, "The Professions and Social Structure," Social Forces, 17 (1939).

233 – ————, "The Present Position and Prospects of Systematic Theory in Sociology," in Georges Curvitch and Wilbert E. Moore (eds.), Twentieth - Century Sociology, Philosophical Library, 1945.

234 – ————, "Preface to the Second Edition," The Structure of Social Action, 2nd ed., Free Press, 1949.

235 – ————, The Social System, Free Press, 1951.

236 – ————, "An Outline of the Social System," in Talcott Parsons, et al., Theories of Society, Vol. I, Free Press, 1961.

237 – ————, "The Point of View of the Author," in Max Black (ed.), The Social Theories of Talcott Parsont, Prentice-Hall, 1961.

238 – ————, "Some Apsects of the Relation between Social Sciences and Ethics," in Bernard Barber and Walter Hirsch (eds.), The Sociology of Science, Free Press, 1962.

239 – Parsons, Talcott, R. F. Bales, and E. A. Shils, Working Papers in the Theory of Action, Free Press, 1953.

240 – Parsons, Talcott, et al., Toward a Geuerl Theory of Action, Harvard University, 1951.

241 – Parsons, Talcott and Edward Shils, "Values Motives, and Systems of Actiou," in Talcott Parsons and E. Shils (eds.) Towerd a General Theory of Action, Harvard University, 1951

242 – Parsous, Talcott and Neil J. Smelser, Economy and Society, Free Press, 1959.

243 – Poincare, Henri, Science and Hypotheses, London: Walter Scott, 1907.

244 – Popper, Karl, The Poverty of Historicism, Beacon, 1957.

245 – Rose, Arnold M., Theory and Method in the Social Sciences, Universtty of Minnesota, 1954.

246 – Schloeck, Helmut and J. W. Wiggins (eds.), Scientism and Values, Van Nostrand, 1960.

247 – Schutz, Alfred, Collected Papers I : The Problem of Social Reality, Maurice Natanson (ed.), The Hague : Martinus Nijhoff, 1962.

248 – ________, Collected Papers II : Studies in Social Theory, Arird Brodersen (ed.), The Hague : Martinus Nijhoff, 1965.

249 – ________, Collected Papers III: Studies in Phenomenological

Philosophy, I. Schutz (ed.), The Hague : Martinus Nijhoff, 1966.

250 – ________, The Phenomenology of the Social World, Northwestern University, 1967.

251 – Smith, Keith, "Distribution – free Statistical Methods and the Concept of Power Efficiency", in Leon Festinger and Daniel Katz (eds.)' Research Methods in the Behavioral Science, Dryden, 1953.

252 – Smith, T. V., "The Social Philosophy of George Herbert Mead", American Journal of Sociology 37 (January, 1931).

253 – Sorokin, Pitirim A., Fads and Foibles in Modern Sociology Regnery, 1956.

254 – ________, "Sociology of Yesterday, Today, and Tomorrow", American Sociological Review, 30 (December, 1965).

255 – Strauss, Anselm, The Social Psychology of George Herbert Mead, University of Chicago, 1956.

256 – Timasheff, Nicholas S., Sociological Theory : Ite Nature and Growth, Random House, Rev. ed., 1961.

257 – Tiryakian, Edward A., Sociologism and Existentialism, Prentice – Hall, 1962.

258 – Weber, Max., The Theory of Social and Economic Organization, translated by Talcott Parsons, Oxford, 1947.

259 – ________, The Methodology of the Social Sciences,

translated aud edited by Edward A. Shils and Henry A. Finch, Free Press, 1949.

260 – Werkmeister, W. H., "Theory Construction and the Problem of Objectivity", in Llewellyn Gross (ed.), Symposium on Sociological Theory, Row, Peterson, 1959.

261 – White, Leslie, The Science of Culture, Grove, 1949.

262 – Whitehead, Alfred North, Science and the Modern World, Cambridge University, 1926.

263 – Wolff, Kurt, "Notes Toward a Socio-cultnral Interpretation of American Sociology", Amcrican Sociological Review, II (October, 1946).

264 – ———, "The Sociology of Knowledge and Sociological Theory", in Llewellyn Gross (ed). Symposium on Sociological Theory, Row, Peterson, 1959.

265 – Zetterberg, Hans, Sociology in the United States of America 1945 – 1955, UNESCC, 1956.

266 – Znaniecki, Florian' The Social Role of the Man of Knowledge, Columbia University, 1940.

محتويات الكتاب